ميشيل بوسي

مكتبة الرمحي أحمد ١٣١

نيلوفر أسود

رواية

المركز الثقافي العربي

الرواية التي حصدت 5 جوائز فرنسية

ميشيل بوسي

نيلوفر أسود

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

العنوان الأصلي للرواية بالفرنسية:

Michel Bussi
Nymphéas Noirs

©Presses de la Cité,
un département de
Place des Editeurs,
2011.

الطبعة
الأولى، 2017

فازت هذه الرواية بالجوائز التالية:

- جائزة غوستاف فلوبير الكبرى
- جائزة القراء في مهرجان بولار دو كونياك
- جائزة غوت دو سون دانكر دو فيين
- جائزة الرواية البوليسية ميشيل لوبران
- جائزة الرواية البوليسية المتوسطية

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ميشيل بوسي

نيلوفر أسود

رواية

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

ترجمة: محمد المزديوي

المركز الثقافي العربي

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

إحياء لذكرى جاكي لوكاس

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«مع مونيه، نحن لا نرى العالم الحقيقي،
لكننا ندركُ مظاهره».
ف. روبرت-كيمف، جريدة **لورور**، 1908

«لا! لا! الأسود لا يليق بمونيه!
الأسود ليس لوناً!».
جورج كليمنصو،
عند قدم تابوت كلود مونيه
(ميشيل دو ديكير، **كلود مونيه**، 2009)

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

في الصفحات التالية، أردت أن يكون وصف جيفرني دقيقاً ما أمكن. الأماكن موجودة، سواء تعلَّق الأمر بفندق بودي، أو جدول إبتي، أو طاحونة شونوفيير، أو مدرسة جيفرني، أو كنيسة سانت رادوغوند والمقبرة، أو شارع كلود مونيه، أو طريق روي، أو جزيرة القراص، وبطبيعة الحال بيت مونيه الوردي، أو بركة النيلوفر. الشيء نفسه بالنسبة إلى الأماكن المجاورة، مثل متحف فيرنون، متحف الفنون الجميلة في روان، كفر كوشريل.

المعلومات عن كلود مونيه حقيقية، سواء تعلقت بحياته، أو أعماله، أو ورثته. الشيء نفسه بالنسبة إلى تلك المتعلقة برسامين انطباعيين آخرين، خاصة تيودور روبنسون أو أوجين مورير.

سرقات الأعمال الفنية المذكورة هي حوادث حقيقية...

أما الباقي كله، فقد تخيَّلتهُ.

المؤلِّف

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ثلاث نساء كنّ يعشن في إحدى القُرى.

كانت الأولى شريرة، والثانية كذّابة، والثالثة أنانية.

كانت القرية تحمل اسماً جميلاً، اسم حديقة. جيفرني.

كانت الأولى تسكن طاحونة كبيرة على ضفة جدول صغير، على طريق روي؛ الثانية كانت تحتل شقة تحت السقف فوق المدرسة، شارع بلانش-هوشيدي-مونيه؛ الثالثة كانت تعيش مع والدتها، في بيت صغير يتساقط طلاء جدرانه، شارع شاتو-دو.

أعمارهن أيضاً كانت متفاوتة. متفاوتة تماماً. كانت الأولى قد تخطت الثمانين وكانت أرملة. أو تقريباً. الثانية كانت في السادسة والثلاثين ولم تكن قد خانت زوجها أبداً. إلى حدِّ اللحظة. الثالثة كانت ستبلغ الحادية عشرة قريباً وكل فتيان مدرستها يطمعون أن تكون حبيبتهم. كانت الأولى ترتدي السواد على الدوام، والثانية تتبرج من أجل عشيقها، والثالثة تسرِّح شعرها جدائل كي يطير في الهواء.

لا بدَّ أنكم فهمتم. هنّ الثلاث كنّ مختلفات. ومع ذلك كنّ يتقاسمن نقطة مشتركة، سراً، نوعاً ما: هنّ الثلاث كنّ يحلمن بالمغادرة. أجل، مغادرة جيفرني، تلك القرية الشهيرة التي يثير اسمها الرغبة لدى كثير من الناس في اجتياز العالم بأكمله فقط من

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أجل التنزه فيها بضع ساعات.

تعرفون لماذا. بسبب الفنانين الانطباعيين.

الأولى، الأكبر سناً، كانت تملك لوحة جميلة، الثانية كانت تهتم بالفنانين بشكل كبير، الثالثة، الأصغر سناً، كانت تعرف أن ترسم. حتى بشكل جيد.

شيء غريب، الرغبة في مغادرة جيفرني. ألا تعتقدون ذلك؟ الثلاث كنّ يعتبرن القرية سجناً، حديقة كبيرة وجميلة، لكن مُسيَّجة. مثل مُنتزه صحي. خداع بصري. لوحة يستحيل الهروب خارج إطارها. في الواقع، كانت الثالثة، الأصغر سناً، تبحث عن أبٍ. في مكان آخر. الثانية، كانت تبحث عن الحب. الأولى، الأكبر سناً، كانت تعرف أشياء عديدة عن الاثنتين.

مرة واحدة مع ذلك، خلال ثلاثة عشر يوماً، فقط خلال ثلاثة عشر يوماً، فُتحت قضبان المنتزه. بالضبط من الثالث عشر مايو إلى الخامس والعشرين مايو 2010. رُفعت قضبان جيفرني من أجلهن! من أجلهن فقط، ذلك ما كنّ يعتقدن. لكن القاعدة كانت قاسية، فقط واحدة منهن تستطيع أن تفلت. الأخريين كان يجب أن تموتا. هكذا كان.

مرّت الثلاثة عشر يوماً كقوسين في حياتهن. جد قصيرة. قاسية، أيضاً. فتح القوس من أجل جريمة قتل، في اليوم الأول، وانتهت بأخرى، في اليوم الأخير. الشيء الغريب هو أن رجال الشرطة لم يهتموا سوى بالمرأة الثانية، الأجمل؛ الثالثة، الأكثر براءة، اضطرت للتحري لوحدها. الأولى، الأكثر خفية، استطاعت أن تراقب الجميع

بهدوء. وحتى أن تَقتُل!

استمر ذلك ثلاثة عشر يوماً. الوقت الكافي لهروب.

ثلاث نساء كنّ يعشن في إحدى القرى.

الثالثة كانت الأكثر موهبة، الثانية كانت الأكثر مكراً، الأولى كانت الأكثر تصميماً.

في رأيكم، من منهن استطاعت أن تفلت؟

الثالثة، الأصغر سناً، كان اسمها فانيت موريل؛ الثانية كان اسمها ستيفاني دوبان؛ الأولى، الأكبر سناً، هي أنا.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

اللوحة الأولى

انطباعات

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- اليوم الأول -

13 مايو 2010
(جيفرني)
تجمهُر

- 1 -

مياه النهر الصافية تتلون بالوردي، خيوط رقيقة، مثل صبغة خفيفة عابرة في انبجاس ماء حيث تُغسل فرشاة.

- لا، نبتون!

مع جريان الماء، تخف حدّة اللون، تتشبث بخضرة الأعشاب التي تتدلى من الجسور، وببرتقالي جذور الحور والصفصاف. مُخفَّف باهت لطيف...

أحب ذلك كثيراً.

إلا أن الأحمر لم يكن صادراً من علبة رسام نظَّفها في النهر، لكن من جمجمة جيروم مورفال المهشَّمة. المهشَّمة بشكل بشع. يسيلُ الدم من جرح عميق في الجزء العلوي من الجمجمة، جرح واضح، نظيف، غسله جدول الأوب الذي غُمِر فيه الرأس.

اقترب كلبي، الراعي الألماني، تشمم. صحت من جديد، بإصرار هذه المرة:

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

- لا، نبتون! تراجع!

أظنُّ أنهم لن يتأخروا في العثور على الجثة. حتى لو لم تتجاوز الساعة السادسة صباحاً، لا بدَّ أن يمرَّ أحد المتنزهين، أو أحد الرسامين، أو أحد العدّائين، أو أحد لاقطي الحلزون... أحد المارة، سيجدُ الجثة.

أنتبه ألا أتقدم أكثر. أتوكَّأ على عصاي. الأرض أمامي موحلة، سقطت الكثير من الأمطار مؤخراً، جنبات الجدول سريعة التفتُّت، في الرابعة والثمانين، لم أعد في سنٍّ يسمح لي بلعب دور حوريات الماء، حتى لو كان ذلك في جدول تافه، عرضه أقل من متر، نصف صبيبه يتم تحويله ليصب في حوض حدائق مونيه. على كل حال، يبدو أن الأمر لم يعد كذلك، توجد بئر تحت أرضية عميقة تغذي بركة النيلوفر، حالياً.

- هيا، نبتون. سنواصل. رفعت عصاي نحوه كأني أريد أن أمنعه من أن يدس خطمه في الثقب الكبير في سترة جيروم مورفال الرمادية. الجرح الثاني. في صميم القلب.

- تحرك! لن نظل هنا.

نظرتُ مرة أخيرة إلى المغسل، قبالتنا مباشرة، وواصلت على طول الطريق. لا شيء يقال، الطريق في حال جيد. تمَّ نشر الأشجار المجتاحة من الجذر. تمّت تنقية المنحدرات من الأعشاب. يجب أن نقول إن بعض الآلاف من السياح ترتاده كل يوم، هذا الطريق. تمر فيه عربة طفل، معاق على كرسي متحرك، امرأة عجوز تستعمل عصا. أنا!

- هيا، تعال، نبتون.

انعطفت بعيداً شيئاً ما، في المكان الذي ينقسم فيه جدول الأوب إلى ذراعين تنتهيان بسدٍّ وشلال. في الجهة الأخرى، توجد حدائق مونيه، النيلوفر، الجسر الياباني، البيوت البلاستيكية... غريب، ولدت هنا سنة 1926، سنة وفاة كلود مونيه. خلال سنوات بعد فقدان مونيه، تقريباً خمسين سنة، ظلت الحدائق مغلقة، مهجورة. اليوم، دارت العجلة وكل سنة يجتاز عشرات الآلاف من اليابانيين أو الأميركيين أو الروس أو الأستراليين القارة فقط للتنزه في جيفرني. أصبحَت حدائق مونيه سبداً مقدساً، مَكّة، كاتدرائية... على أي حال، لن تتأخر تلك الآلاف من الحجّاج في الوصول.

نظرت إلى ساعتي. السادسة ودقيقتين. لا يزال أمامي متسع من الوقت للراحة.

تقدمت.

بين أشجار الحور والنباتات المائية الضخمة، تمثال كلود مونيه يحدق بنظرة سيئة من جار غاضب، تلتهم اللحية ذقنه ويخفي رأسه غطاء يشبه قبعة من القش. تشير القاعدة العاجية إلى أن التمثال النصفي تمَّ تدشينه سنة 2007. اللافتة الخشبية المزروعة بجانبه تحدد أن الفنان يحرس «المرج». مرجه! الحقول، من الجدول إلى نهر إبتي، ومن إبتي إلى السين، صفوف أشجار الحور، التلال المشجرة المتموجة مثل أمواج رخوة. الأماكن الساحرة التي رسمها. لا يمكن المساس بها... مُلمّعة، معروضة للأبد!

صحيح، في السادسة صباحاً، الموقع لا يزال خدّاعاً. أراقب أمامي أفقاً بكراً من حقول القمح والذرة والخشخاش. لكنني لن أكذب عليكم. مرج مونيه، في الحقيقة، أصبح حالياً موقف

سيارات. أربع مواقف حتى، كي أكون دقيقة، تمتدُّ حول قضيب من القار مثل نينوفر من الإسفلت. أستطيع أن أقول ذلك، في مثل عمري. رأيت المشهد يتغير، سنة بعد سنة. ريف مونيه، اليوم، هو ديكور مركز تسوق.

تبعني نبتون خلال أمتار ثم انطلق ليجري أمامي، اجتاز الموقف، تبوَّل على حاجز خشبي يمتد بشكل متواصل في الحقل نحو مُلتقى إبتي بالسين، تلك القطعة من الحقل العالقة بين نهرين والتي يُطلَق عليها بشكل يثير الفضول جزيرة القراص[1].

تنهدت وواصلت السير. في مثل عمري، لن أجري وراءه. نظرت إليه يبتعد ويعود، كأنه يسخر مني. ترددت في مناداته. لا يزال الوقت مبكراً. يختفي مرة أخرى في حقول القمح. يقضي نبتون وقته في مثل هذه الأشياء حالياً. الجري مئة متر أمامي! كل سكان جيفرني يعرفون الكلب، لكني أظن أن عدداً كبيراً منهم لا يعرف أنه كلبي.

سرت على طول الموقف وتوجهت نحو مولان دو شونوفيير (طاحونتي). هناك أقيم. فضّلت أن أعود إلى البيت قبل أن يتكاثر الناس. مولان دو شونوفيير هو من بعيد أجمل بيت بالقرب من حدائق مونيه، الوحيد الذي شيِّد على طول الجدول، لكن منذ أن تمَّ تحويل المرج إلى حقول من الصفائح المعدنية والإطارات، أصبحت أحس أني صنف على وشك أن ينقرض تمَّ وضعه في قفص، يأتي أناس فضوليون لمراقبته والتجسس عليه وتصويره. لا يوجد سوى أربعة جسور على الجدول للمرور من الموقف إلى القرية، بما فيها واحد يقطع الجدول مباشرة أمام بيتي. أنا شبه محاصرة إلى حدود السادسة مساء. بعد ذلك، تنطفئ القرية من جديد، يعاد المرج إلى الصفصاف

(1) L'île aux Orties

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ويصبح بإمكان كلود مونيه أن يفتح عينيه البرونزيتين، دون أن يسعل في لحيته العابقة برائحة المحروقات.

أمامي، حرّكت الريح غابة من السنابل ذات اللون الأخضر المائي، سنابل ترصعها أزهار خشخاش حمراء متفرقة. إذا تأملنا المشهد من الجهة المقابلة، على طول نهر إبتي، أكيد أنه سيبدو كأنه لوحة انطباعية. تناسق الألوان البرتقالية عند إشراق الشمس، مع لمسة خفيفة من الحداد، بالكاد نقطة سوداء، في الخلفية.

عجوز ترتدي ثياباً داكنة. أنا!

الدلالة الأكيدة على الكآبة.

- نبتون!

بقيت هناك فترة طويلة، أستمتع بالهدوء العابر، لا أدري كم مرَّ من الوقت، عدة دقائق على الأقل، إلى أن وصل عدّاء يضع جهاز MP3 على أذنيه. قميص بلا أكمام. حذاء رياضي. ظهر في المرج مثل شيء خارج الزمن. هو الأول هذا الصباح الذي أفسد اللوحة، كل الآخرين سيأتون من بعده. بالكاد أومأت له برأسي، ردَّ على إيماءتي وابتعد في أزيز إلكتروني يتسرب من سماعتيه. رأيته ينعطف نحو تمثال مونيه، الشلال الصغير ثم السد. أخمّن أنه سيعود بمحاذاة الجدول، وهو يتفادى الوحل على حافة الطريق.

وضعت نفسي على أحد المقاعد. أنتظر الآتي. الحتمي.

لم تكن هناك أية حافلة في موقف المرج بعد، عندما توقفت شاحنة الشرطة على جانب طريق روي، بين المغسل وطاحونتي. على بُعد عشرين خطوة من جسد جيروم مورفال الغارق.

نهضت.

ترددت في المناداة مرة أخيرة على نبتون. تنهدت. بعد كل شيء، هو يعرف الطريق. مولان دو شونوفيير في الجوار بالضبط. ألقيت نظرة أخيرة على رجال الشرطة الذين نزلوا من السيارة وابتعدت. دخلت إلى بيتي. من برج الطاحونة، من الطابق الرابع، خلف النافذة، يمكن أن نرى كل ما يجري في الجوار.

وبخفية أكثر.

- 2 -

بدأ المفتش لورنس سيريناك بترسيم محيط من حوالي بضعة أمتار حول الجثة. ثبّت شريطاً بلاستيكياً عريضاً برتقالي اللون في أغصان الأشجار فوق الجدول.

مسرح الجريمة يَعِدُ بتحقيق معقّد. طمأن سيريناك نفسه وهو يقول إن ردّ فعله كان جيداً عندما رنّ هاتف مفوضية فيرنون: الحضور رفقة ثلاثة زملاء آخرين. فوراً، المهمة الأساسية للأول، العميل لوفيل، هي إبعاد المتفرجين الذين بدؤوا يتجمعون على طول الجدول. اجتازت سيارة الشرطة القرية الخالية وفي بضع دقائق بدا كأن كل السكان يتوجهون صوب مكان الجريمة. لأن الأمر فعلاً كان يتعلق بجريمة قتل. لا حاجة إلى ثلاث سنوات من الدراسة في مدرسة الشرطة في تولوز ليكون المرء متأكداً من ذلك. عاين سيريناك الجرح المفتوح في القلب مرة أخرى، وأيضاً الجزء العلوي من الجمجمة المفتوحة والرأس المغمور في الماء. انشغل العميل موري، الخبير

العلمي الأكثر دراية في مفوضية فيرنون كما يبدو، بالتدقيق في آثار الخطوات على الأرض، بالضبط أمام الجثة، وقولبة البصمات بالجبس ذي الإعداد السريع. سيريناك هو الذي أعطاه الأمر بتخليد الأرض الموحلة قبل أن يتقدم ويفحص الجثة. الرجل ميت، لن يهرب، ولن ينبعث. لن ندوس مكان الجريمة قبل أن نعبِّئ كل شيء في الصور والأكياس.

ظهر المفتش سيلفيو بينافيدس على الجسر. استرد أنفاسه. ابتعد بعض السكان كي يفسحوا له الطريق. كان سيريناك قد طلب منه الإسراع إلى قرية جيفرني، فوق، حاملاً في يده صورة الضحية، من أجل الحصول على أولى المعلومات؛ معرفة هوية الرجل القتيل. لم يكن المفتش سيريناك قد بدأ العمل في فيرنون منذ وقت طويل، لكنه فهم بسرعة أن سيلفيو بينافيدس يقوم بمهامه بشكل جيد، الاستجابة للأوامر بحماس؛ تنظيم الأمور؛ الحفاظ على الوثائق بعناية. المساعد المثالي نوعاً ما. ربما كان بينافيدس يعاني من انعدام المبادرة... لكن سيريناك أحس أن الأمر يتعلق بفرط في الخجل وليس بنقص في المهارة. رجل متفانٍ! أخيراً، متفانٍ في مهنته في الشرطة. لأنه في الواقع لا بدَّ أن بينافيدس يعتبر رئيسه في السلَّم الإداري، المفتش لورنس سيريناك، المتخرج حديثاً من مدرسة تولوز، شيئاً شُرطَياً غير محدد... ولو أن سيرناك قد تمَّ إنزاله رئيساً لمفوضية فيرنون منذ أربعة أشهر، من دون رتبة مفوض حتى، هل يمكن أن نأخذ على محمل الجد في منطقة شمال السين شرطياً لم يكمل الثلاثين، يتحدث مع الأشرار كما يتحدث مع الزملاء

باللكنة القسطانية التي تشرف على مسرح الجريمة بسخرية محبطة؟

ليس أكيداً، فكر سيريناك. الناس شديدو القلق هنا... وليس فقط في الشرطة. في كل مكان! الأمر أسوأ هنا، في فيرنون، هذه الضاحية الباريسية المتحولة إلى منطقة نورماندية. هو يعرف خريطة منطقته، الحدود مع إيل-دي-فرانس تمر عبر جيفرني، على بعد مئات الأمتار من هناك، من الجهة الأخرى لمجرى النهر الأساسي. لكن هنا يعتبر الناس نورمانديين وليس باريسيين. وهم يتمسكون بذلك. نوع من العجرفة. قال له أحد الرجال بجدية إن حدود إبتي، ذلك الجدول التافه، بين فرنسا والمملكة الأنجلو نورماندية قد أسقطَ، على مدار التاريخ، من الضحايا أكثر مما أسقط نهر الميز أو نهر الراين...

البُلهاء!

- حضرة المفتش...

- ناديني لورنس... قلت لك...

تردد سيلفيو بينافيدس. أمره سيريناك بذلك أمام العميلين لوفيل وموري وحوالي خمسة عشر متفرجاً وجثة غارقة في الدم. كما لو كان ذلك هو الوقت المناسب للتحدث عن التخاطب من دون كلفة.

- أوه. نعم، أوه، طيب، حضرة الرئيس... أظن أن علينا أن نتصرف بحذر... لم أجد صعوبة في التعرف إلى الضحية. الكل يعرفه هنا. هو شخصية مهمة على ما يبدو. جيروم مورفال. جراح عيون معروف، أقام عيادته في شارع برودون في باريس، في الدائرة السادسة عشر. هو يقيم في أحد أجمل بيوت القرية، رقم 71 شارع كلود مونيه.

- كان يقيم... صحح سيريناك.

سيلفيو يتحمل. يبدو وجهه شبيهاً بوجه رجل تمَّ تجنيده في الجبهة الروسية. موظف تم نقله لدى الشتي[1] شرطي تمَّ تعيينه في النورماندي... أضحكت الصورة سيريناك. هو وليس مساعده من له الحق في أن يغضب.

- طيب، سيلفيو، قال سيريناك. عمل جيد. لا داعي للقلق الآن. سندقق في السيرة الذاتية من بعد...

أزال سيريناك الشريط البرتقالي.

- لودو، هل الأمر تمام بالنسبة إلى البصمات؟ هل يمكن أن نقترب دون الحاجة إلى العجلات؟

أقرّ لودوفيك موري. ابتعد الشرطي وهو يحمل مختلف قوالب الجبس بينما غاص المفتش سيريناك بقدميه في وحل ضفتي الجدول. تمسك بيد بأقرب غصن من شجرة دردار وباليد الأخرى أشار إلى الجثة الجامدة.

- اقتربْ، سيلفيو. انظرْ. ألا تجدها مثيرة للفضول، الطريقة التي تمّت بها الجريمة؟

اقتربَ بينافيدس. استدار لوفيل وموري أيضاً، كأنهما يشهدان امتحان قبول رئيسهم المباشر.

- يا شباب، دققوا النظر في الجرح، هنا، عبر السترة. ظاهرياً، قُتِلَ مورفال بسلاح حاد. سكين أو شيء مشابه. في القلب مباشرة. دم صِرْف. حتى من دون رأي الطبيب الشرعي يمكن أن نقدِّم فرضية أنه السبب الحقيقي للوفاة. غير أننا إذا تفحصنا الآثار على الوحل،

---

(1) الشتي: سُكّان منطقة توجد شمال فرنسا.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

نلاحظ أنه قد تمَّ سحب الجثة بضعة أمتار إلى ضفاف الماء. لماذا كل هذا الجهد؟ لماذا نقل الجثة؟ بعد ذلك، يمسك القاتل حجراً، أو أداة ثقيلة بالحجم نفسه، ويجهد نفسه كي يهشِّم مقدمة الجمجمة والصدغ. هنا أيضاً، ما هو سبب؟

رفع لوفيل يداً خجولة تقريباً.

- ربما لم يكن مورفال ميتاً؟

- نعم، قال سيريناك بصوته الغنائي. نظراً إلى حجم الجرح، لا أعتقد ذلك كثيراً... وإن كان مورفال لا يزال على قيد الحياة، لماذا لم يصوِّب القاتل ضربة ثانية إلى الجرح؟ لماذا يجره، ثم يهشم رأسه؟

لم يقل سيلفيو بينافيدس شيئاً. راقب موري الموقع. يوجد حجر على ضفة الجدول، حجر بحجم كرة قدم كبيرة، يغطيه الدم. أخذ على سطحه كل العينات الممكنة. حاول أن يقدّم جواباً:

- نظراً إلى وجود حجر بالقرب منه، أمسك القاتل السلاحَ الذي كان تحت يده...

لمعت عينا سيريناك.

- هنا، أنا لا أوافقك الرأي، لودو. انظروا إلى المشهد جيداً، أيها الشباب. يوجد ما هو أشد غرابة. انظروا إلى الجدول، على طول عشرين متراً. ماذا ترون؟

تتبع المفتش بينافيدس والعميلان الآخران الضفتين بأعينهم، دون أن يفهموا قصد سيريناك.

- لا يوجد أي حجر آخر! قال سيريناك منتصراً. لا نرى حجراً آخر على طول النهر.

وإذا تأملنا هذا الحجر عن قرب، ما من شكّ في أنه قد أتى به من بعيد هو أيضاً. لا يوجد تراب جاف ملتصق به، العشب المدهوس تحته طري... ماذا يفعل هنا؟ أحضره القاتل إلى المكان هو أيضاً، هذا يخرم العين...

حاول العميل لوفيل أن يبعد الجيفرنيين نحو الضفة اليمنى للجدول، قرب الجسر، من جهة القرية. لم يبدُ الجمهور كأنه يزعج سيريناك.

- أيها الشباب، واصل المفتش، باختصار نحن أمام الحالة التالية: طُعِن جيروم مورفال على الطريق، كانت ضربة قاتلة بلا شكّ. ثم جره قاتله إلى النهر. مسافة ستة أمتار. بعد ذلك، لأن القاتل من الناس الذين يصبون إلى الكمال، سيبحث عن حجر في النواحي، شيئاً يزن عشرين كيلو تقريباً، ثم يعود ليهشِّم رأس مورفال... ولا ينتهي الأمر هنا... لاحِظوا وضعية الجسد في الغدير: الرأس غارق تقريباً. تبدو لكم عادية هذه الوضعية؟

- لقد قلت ذلك قبل قليل أيها الرئيس، أجاب موري تقريباً بانزعاج. ضربَ القاتل رأس مورفال بالحجر، على ضفة الماء. ثم انزلق الضحية إلى الجدول...

- كأن ذلك حدث صدفة، تهكَّم المفتش سيريناك. ضربة على الجمجمة وها هو رأس مورفال يغرق في الماء... لا يا شباب، أنا مستعد لأراهنكم. امسكوا الحجر واضربوا رأس مورفال. هنا، على الضفة. لن نجد ولو مرة في الألف الرأس في عمق الماء، مغمورة بشكل كامل على عمق عشرة أمتار... أيها السادة، أظنُّ أن الحل أبسط من ذاك. نحن أمام جريمة ثلاثية تمّت

على الشخص نفسه. واحد، أدفعك. اثنان، أهشِّم رأسك. ثلاثة، أغرقك في الماء...

ظهرت تكشيرة على شفتيه.

- نحن أمام قاتل له دافع قوي. شخص مهووس. جد غضبان من جيروم مورفال.

استدار لورنس سيريناك نحو سيلفيو بينافيدس وهو يبتسم.

- الرغبة في قتله ثلاث مرات ليس شيئاً لطيفاً بالنسبة إلى صديقنا الطبيب، لكن في النهاية، هذا أفضل من الرغبة في قتل ثلاثة أشخاص مختلفين مرة واحدة، لا؟

غمز سيريناك بعينه للمفتش بينافيدس الذي كان محرجاً أكثر فأكثر.

- لا أريد أن أثير الرعب في القرية، واصل، لكن لا شيء في مشهد الجريمة هذه يبدو أنه محض صدفة. لا أعرف لماذا، كأنه تأليف، لوحة تمَّ إخراجها. كما لو أن كل تفصيل قد تمَّ اختياره. هذا المكان المحدد في جيفرني. تسلسل الأحداث. السكين، الحجر، الغرق...

- انتقام؟ اقترح بينافيدس. نوع من الطقوس؟ هذا ما تعتقده؟

- لا أعرف شيئاً، أجاب سيريناك. سنرى جيداً... حالياً، هذا يبدو من دون معنى، لكن ما هو أكيد، هو أن له معنى بالنسبة إلى قاتل...

دفع لوفيل المتفرجين بلطف على الجسر. بقي سيلفيو بينافيدس أبكماً، مركِّزاً، كأنه يفرز في سيل كلمات سيريناك بين الحس السليم

والاستفزاز.

فجأة، ظهر خيال بُنّي خرج من أجمة أشجار الحور في المستنقع، مرَّ تحت الشريط وداس وحْل الضفة. حاول العميل موري عبثاً أن يمسكه.

راعي ألماني!

تمسَّح الكلب بسروال سيريناك الجينز بمرح.

- هيا، قال المفتش، أول شاهد يأتي تلقائياً...

استدار نحو سكان جيفرني على الجسر.

- هل يعرف أحدكم هذا الكلب؟

- أجل، أجاب دون تردد رجل مسن بلباس الرسم، سروال من القطيفة وسترة من التويد. إنه نبتون. كلب القرية. الجميع يلتقي به، هنا. هو يجري وراء صبيان القرية. السياح. هو جزء من المشهد، إن صحَّ القول...

- تعال هنا، قال سيريناك وهو ينحني على مستوى نبتون. إذاً، هذا أنت، شاهِدنا الأول؟ قُل لي، هل رأيت القاتل؟ هل تعرفه؟ ستمر بعد قليل لرؤيتي من أجل الإدلاء بشهادتك. لا يزال أمامنا المزيد من العمل.

كسر المفتش غصناً من الصفصاف ورماه على بعد بضعة أمتار. استجاب نبتون للعب. ابتعد، ثم عاد. راقب سيلفيو بينافيدس تصرف رئيسه باندهاش.

أخيراً، نهض سيريناك. استغرق وقتاً طويلاً يتفحص المناطق المحيطة: المغسل من الطوب واللبنات، مباشرة قبالة الجدول؛ تلك البناية العوجاء ذات الألواح الخشبية، تهيمن عليها قلعة من

أربع طبقات، يمكن أن نقرأ اسمها منقوشاً على الجدار، مولان دو شونوفيير. لا يجب إهمال شيء، سجّل في مكان من رأسه، يجب أن نمر على جميع الشهود المحتملين، حتى لو كانت الجريمة قد تمّت في حوالي السادسة صباحاً.

- ميشيل، أبعد الناس. لودو، اعطني قفازات بلاستيكية، سنفتّش جيوب طبيب العيون، حتى لو بللنا أقدامنا إن لم نرغب في نقل الجثة.

خلع سيريناك حذاءه الرياضي، جاربيه، رفع سرواله الجينز حتى منتصف فخذيه، وضع القفازات التي قدمها له العميل موري ونزل بقدمين حافيتين في الغدير. حافظت يده اليسرى على توازن جسد مورفال، بينما فتشت اليمنى في سترته. أخرج محفظة جلدية أعطاها لبينافيدس. فتحها مساعده وتحقق من وثائق الهوية.

ما من شكّ، إنه جيروم مورفال بالضبط.

واصلت اليد تفتيش جيوب الجثة. مناديل. مفاتيح سيارة. مرَّ كل شيء من يد بقفاز إلى يد أخرى بقفاز وانتهى في أكياس شفافة.

- اللعنة. ما هذا...

أخرجت أصابع سيريناك من جيب سترة الجثة كرتوناً مجعداً. أحنى المفتش عينيه. مجرد بطاقة بريدية. الصورة تمثل «نيلوفر» مونيه، رسم بالأزرق: استنساخ كما يباع منه الآلاف في العالم. قلّب سيريناك البطاقة.

النص قصير، مكتوب بحروف مطبعية. إحدى عشرة سنة. عيد ميلاد سعيد.

مباشرة فوق تلك الكلمات الستة، قص شريط رقيق من الورق

وألصق على البطاقة. ست كلمات أخرى: **جريمة أن نحلم أقبل أن نُقِرّها.**

فوضى...

التوى ماء الغدير على كاحلي المفتش مثل أصفاد من الفولاذ.

صاح المفتش في اتجاه الجمهور الواقف قبالته، مكدسين حول المغسل النورماندي كأنهم ينتظرون الحافلة:

- هل كان له أولاد، مورفال؟ فلنقل صبي في الحادية عشر؟

كان الرسام لابس القطيفة والتويد هو الأسرع للإجابة:

- لا، سيدي المفوض. أكيد لا!

للعنة...

مرّت بطاقة المعايدة بين يدي المفتش بينافيدس. رفع سيريناك رأسه. المغسل. الجسر. الطاحونة. قرية جيفرني التي تستيقظ. حدائق مونيه التي توجد بعيداً شيئاً ما. المرج والحور.

السحب التي تتشبث بالتلال المشجرة.

تلك الكلمات الست التي تتشبث بأفكاره.

جريمة أن نحلم أقبل أن نُقِرّها.

اقتنع فجأة أن شيئاً ما ليس في مكانه في مشهد البطاقة البريدية الانطباعية.

- 3 -

راقبتُ الشرطة من فوق برج مولان دو شونوفيير. ما زالت قدما الشرطي الذي يرتدي سروال الجينز، الرئيس، في الماء، وقف

الثلاثة الآخرون على الجانب، تحيط بهم تلك الحشود البلهاء، حوالي ثلاثين شخصاً الآن، لا يفلتون شيئاً من المشهد مثلما يحدث في مسرح الشارع. في مسرح الجدول، إن أردت أن أكون أكثر دقة.

ابتسمتُ لنفسي. شيء أبله، ألا تعتقدون ذلك، أن ألعب بالكلمات من أجل نفسي؟ وأنا، هل أنا أقل بلاهة من ذلك الجمهور لأني على الشرفة؟ في أفضل الأماكن، صدقوني. أن أرى دون أن يراني أحد.

ترددت. ضحكت أيضاً لأني أتردد. بعصبية.

ماذا عساي أفعل؟

كان رجال الشرطة منهمكين في إخراج علبة من البلاستيك من الشاحنة البيضاء، لا شكّ ليضعوا فيها الجثة. السؤال يشغل ذهني. ماذا علي أن أفعل؟ هل يجب أن أذهب إلى الشرطة؟ هل علي أن أقول كل ما أعرفه لرجال شرطة فيرنون؟

هل باستطاعة رجال الشرطة أن يصدقوا هذيان امرأة حمقاء؟ أليس الحل هو أن أصمت وأنتظر؟ أن أنتظر بضعة أيام، فقط بضعة أيام. أن أراقب، أن ألعب دور الفأرة الصغيرة، مسألة أن أرى كيف تتطور الأحداث. ثم علي أن أتحدث مع أرملة جيروم مورفال، باتريسيا، أجل هذا، بكل تأكيد، يجب أن أفعله.

لكن الحديث مع الشرطة، ليس بعد...

في الأسفل، قرب الغدير، انحنى العملاء الثلاث وهم يجرون جثة جيروم مورفال، مثل قطعة لحم كبيرة مجمدة، تقطر ماءً ودماً. هم يكافحون، المساكين. بدوا أشبه بصيادين هواة اصطادوا سمكة كبيرة. الشرطي الرابع دائماً في الماء يراقبهم. من حيث أراقبهم،

يمكن أن أقول إنه يستمتع. هيا، بحسب ما أستطيع رؤيته، أقلّها إنه يبتسم.

بعد كل شيء، ربما كنت أشغل رأسي من أجل لا شيء، إذا تحدثت مع باتريسيا مورفال سيعلم الجميع، هذا أكيد. خاصة رجال الشرطة. هي ثرثارة، الأرملة... بينما أنا، لست أرملة بعد، ليس تماماً.

أغمضت عيني، ربما دقيقة. بالكاد.

أخذت قراري.

لا، لن أتحدث إلى الشرطة! سأتحول إلى فأرة سوداء غير مرئية. خلال بضعة أيام على الأقل. بعد كل شيء، إذا أراد رجال الشرطة أن يجدوني، يستطيعون ذلك، في مثل عمري، أنا لا أستطيع أن أجري بشكل سريع. ليس أمامهم سوى أن يتبعوا نبتون... أفتح عيني وأراقب كلبي. هو مضطجع على بعد حوالي عشرة أمتار من رجال الشرطة، في نبات السرخس، هو أيضاً لا يفلت شيئاً من مشهد الجريمة.

أجل، تقرر الأمر، سأنتظر بضعة أيام، الوقت الكافي لأكون أرملة على الأقل. إنه المعيار، لا؟ الحد الأدنى من اللباقة. بعد ذلك، سيكون الوقت قد حان لأن أرتجل وأتصرف في اللحظة المناسبة. بحسب الظروف... قرأت منذ مدة طويلة رواية بوليسية جد مدهشة. كانت الأحداث تدور في عِزبة إنجليزية، أو شيء من هذا القبيل. المؤامرة برمتها كانت مقدمة من خلال نظرة قط. أجل سمعتموني جيداً، قط! كان القط شاهداً على كل شيء وبالضرورة لم يكن أحد يلقي له بالاً القط هو الذي كان على طريقته يقود التحقيق! كان يستمع، يراقب، يتجسس. كانت الرواية محبوكة بشكل يجعلنا نتصور

في النهاية أن القط هو القاتل. طيب، لن أفسد متعتكم، لن أكشف لكم عن النهاية، ستقرؤون ذلك الكتاب، إن سنحت لكم الفرصة... هذا فقط لأفسر لكم ما كنت عازمة على القيام به: أن أصبح شاهدة لا يصل إليها الشك في هذه القضية مثل قِطّ عِزبتي.

أدرت رأسي مرة أخرى ناحية النهر.

اختفت جثة مورفال تقريباً، ابتلعها الكيس البلاستيكي؛ كأنه أناكوندا متخم؛ وحده جزء من الرأس يظهر من فكين مسننين لسحّاب لم يتم فتحه بالكامل. يبدو رجال الشرطة الثلاثة على الضفة كأنهم يلهثون. يبدون من فوق كأنهم لا ينتظرون سوى إشارة من رئيسهم كي يشعلوا سيجارة.

- اليوم الثاني -

14 مايو 2010
(طاحونة شونوفيير)

الحديث دون كلفة

- 4 -

أزعجوني في المستشفى بتلك الكمية من الأوراق. كوّمت قدر استطاعتي المطبوعات مختلفة الألوان على مائدة القاعة. وصفات طبية، شواهد تأمين صحي، زواج، سكن، فحوصات. دسستها كلها في مظاريف من ورق الكرافت. البعض منها من أجل المستشفى. ليس كلها. سأذهب لأزنها وأبعثها من بريد فيرنون. أضع الأوراق عديمة الفائدة في حقيبة بيضاء. لم أملأ كل شيء، لم أفهم كل شيء، سأسأل الممرضات. هنّ يعرفنني الآن. أمضيت فترة بعد الظهيرة من يوم أمس وجزء كبير من الأمسية هناك.

الغرفة 126، ألعب دور شبه الأرملة التي تقلق على زوجها الذي سيرحل؛ أستمع إلى كلام الأطباء والممرضات المطمئن. كذبهم.

انتهى أمره، زوجي! أنا واعية بذلك. لو كانوا يعلمون كم أن الأمر لا يهم بالنسبة إلي!

فلينتهِ! هذا كل ما أطلبه.

قبل أن أخرج، تقدمت أمام المرآة المذهّبة على يسار باب

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الدخول. نظرت إلى وجهي المتكوِّر، المتجِّعد، البارد، الميت. وضعت وشاحاً أسود كبيراً حول شعري المعقوص. كأنه شادور. العجائز هنا محكوم عليهن بالحجاب، لا أحد يرغب في رؤيتهن. هكذا الأمر. حتى في جيفرني. خاصة في جيفرني قرية الضوء والألوان. العجائز محكوم عليهن بالظل والسواد والليل. هنّ بلا جدوى، غير مرئيات. يمرن. نتساهن.

هذا يناسبني!

استدرت مرة أخرى قبل أن أهبط درج برجي. هكذا نطلق في الغالب على قلعة مولان دو شونوفيير في جيفرني. البرج. أتحقق بطريقة آلية من أن كل شيء في مكانه وفي لحظة التفكير نفسها ألعنُ بلادتي. لا أحد يدخل هنا أبداً. لا أحد سيأتي أبداً، ومع ذلك أقل شيء في غير مكانه يثير أعصابي. اضطراب سلوكي استحواذي، كما يقولون في التحقيقات الصحفية. اضطراب، في النهاية، لا يزعج أحداً، غيري أنا.

في أحد الأركان الأكثر ظلمة، تفصيل يزعجني. لدي انطباع أن اللوحة مائلة قليلاً بالنسبة إلى العارضة. اجتزت الصالة ببطء. ضغطت على الزاوية السفلى من الجهة اليمنى للإطار من أجل إصلاح وضعها قليلاً.

«النيلوفر» خاصتي.

بالأسود.

علّقتُ اللوحة بالضبط في المكان الذي لا يمكن أن يراها فيه أحد من أية نافذة، كما لو أنه باستطاعة أي أحد أن يرى عبر نافذة

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الطابق الرابع لبرج نورماندي شيِّد وسط طاحونة.

ملاذي...

اللوحة معلقة في الركن الأقل تعرضاً للإضاءة، في زاوية ميتة، على حدّ القول. الظلام يجعل البقع الداكنة التي تطفو على الماء أكثر شراً.

زهور الحداد.

أتعس زهور تم رسمها أبداً...

نزلت الدرج بصعوبة. خرجت. كان نبتون ينتظر في فناء الطاحونة. أبعدته بواسطة عصاي قبل أن يقفز على ثوبي: هذا الكلب لا يستطيع أن يفهم أني بالكاد أصبحت أحافظ على توازني. أصبحت أستغرق دقائق عديدة في إغلاق الأقفال الثلاثة الثقيلة، في وضع مجموعة المفاتيح في الحقيبة، في التحقق مرة أخرى من أن كل قفل قد أغلق بشكل جيد.

استدرت أخيراً. في فناء الطاحونة، كانت شجرة الكرز تفقد آخر أزهارها. هي شجرة معمرة على ما يبدو. يقال إنها عاصرت مونيه! هذه الأشجار تثير الإعجاب بشكل كبير في جيفرني، أشجار الكرز. على طول موقف المتحف الأميركي الذي أصبح منذ سنة متحف الانطباعيين، تمَّ غرس مجموعة كبيرة. أشجار كرز يابانية بحسب ما سمعته. هي أشجار صغيرة، كأنها أشجار قزمية. أجدها غريبة شيئاً ما هذه الأشجار المجلوبة، كما لو أن القرية لم يكن يوجد فيها الكثير. لكن ماذا تريدون، الأمر هكذا. يبدو أن كل السياح الأميركيين يعشقون لون أزهار أشجار الكرز الوردي في الربيع. لو سألوا عن

رأيي، سأقول إني أجد أرضية الموقف والسيارات المغطاة بالبتلات الوردية شبيهة بعالم باربي. لكنهم لا يطلبون رأيي.

ضممت الأظرف إلى صدري كي لا يتلفها نبتون. صعدت شارع كولومبييه بمشقة. تمهلت، تنفست في ظل شرفة دار الضيافة التي يغطيها اللبلاب. لن تمر حافلة فيرنون سوى بعد ساعتين. أمامي متسع من الوقت، كل الوقت كي ألعب دور الفأرة السوداء الصغيرة.

انعطفت في شارع كلود مونيه. الزهور البرية وزهور السوسن البرتقالية تشق الزفت مثل أعشاب ضارة على طول الواجهة الحجرية. إنه طابع جيفرني. واصلت على إيقاعي المناسب لامرأة في الثمانين. مثل العادة، نبتون يتقدم أمامي. انتهى بي الأمر إلى الوصول إلى فندق بودي. نوافذ مؤسسة جيفرني الأكثر شهرة تحجبها ملصقات لمعارض، وأروقة، ومهرجانات. المربعات بالضبط بحجم الملصقات. الأمر غريب، عندما نفكر فيه، تساءلت دوماً إن كانوا يضبطون حجم الملصقات على حجم نوافذ الفندق، أو أنه بالعكس، كان مهندس فندق بودي ذا رؤية، بحيث تكهّن بالحجم القياسي للّوحات الإعلانية المستقبلية وهو يرسم نوافذه، منذ القرن التاسع عشر.

لكني أعتقد أن لغزاً مشابهاً بالكاد يثير حماسكم... بعض العشرات من الزوار يجلسون حول الموائد في الجهة المقابلة، باحثين عن الإحساس نفسه مثل تلك المجموعة من الرسامين الأميركيين التي وصلت إلى الفندق منذ أكثر من قرن. شيء غريب عندما نفكر في الأمر. هؤلاء الرسامون الأميركيون، في القرن الماضي، كانوا يأتون إلى هذا المكان، في هذه القرية الصغيرة من النورماندي، بحثاً

عن الهدوء والتركيز. عكس جيفرني الحالية تماماً. أظن أني لا أفهم شيئاً فيما يخص جيفرني اليوم.

جلست إلى مائدة شاغرة وطلبت قهوة سوداء. أتت بها نادلة جديدة، عاملة موسمية ترتدي ثوباً قصيراً مع صدار من النوع الانطباعي، بزهور نيلوفر بنفسجية على الظهر.

طبع نيلوفر بنفسجي على الظهر، شيء غريب أيضاً، لا؟

أنا التي شهدت هذه القرية تتحول منذ كل هذا الوقت، أحس أحياناً أن جيفرني أصبحت حدائق ملاهي كبيرة، حديقة انطباعات بالأحرى. هم اخترعوا المفهوم على ما أظن! بقيت هناك أتنهد مثل امرأة شريرة تتذمر وحدها ولا تفهم شيئاً في أي شيء. تفحصت الحشد المختلط حولي. زوج من العشاق يقرأ، مستعملاً أربع أيدٍ، الدليلَ الأخضر نفسه. ثلاثة أطفال تقل أعمارهم عن خمس سنوات يتشاحنون على الحصى ولا بدَّ أن آباءهم يفكرون أنهم سيكونون بوضع أحسن على ضفة مسبح بدل بركة مليئة بالضفادع. أميركية ذابلة تحاول طلب مثلجات بالقهوة باستعمال لغة فرنسية هوليوودية.

إنهما هنا.

يجلس الاثنان على بعد ثلاث طاولات مني. خمسة عشر متراً تفصلنا. تعرفت إليهما طبعاً. رأيتهما من نافذتي في الطاحونة، من خلف الستائر. المفتش الذي كان في الجدول أمام جثة جيروم مورفال ومساعده الخجول.

حتماً هما ينظران إلى الناحية الأخرى، نحو النادلة الصغيرة، وليس ناحية فأرة عجوز سوداء.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

- 5 -

عبر نظارات المفتش سيريناك الشمسية، أخذَت واجهة الفندق تقريباً لوناً بنياً داكناً، أسلوب الحقبة الجميلة، وساقا النادلة الجميلة التي تجتاز الشارع تتلونان بلون نحاسي شبيه بهلال ذهبي.

- حسناً سيلفيو. ستشرف على جميع الأبحاث على طول الجدول. بالطبع، ذهب كل شيء إلى المختبر، آثار الأقدام، الحجر، جسد مورفال... لكن ربما نسينا شيئاً ما. لا أعرف شيئاً، المغسل، الأشجار، الجسر. سترى في عين المكان. أنا، من جهتي، ليس لي خيار، يجب أن أقوم بزيارة الأرملة باتريسيا مورفال... هل يمكن أن تخبرني قليلاً عمّن هو جيروم مورفال هذا؟

- أجل، لو... حضرة الرئيس.

أخرج سيلفيو بينافيدس ملفاً من تحت المائدة. تتبع سيريناك النادلة بعينيه.

- هل تشرب شيئاً؟ باستي؟ نبيذ أبيض؟

- آه لا، لا لا شيء.

- ولا حتى قهوة؟

- لا لا لا تقلق...

ماطل بينافيدس.

- هيا، شاي...

رفع لورنس سيريناك يده بشكل سلطوي.

- آنسة؟ شاي وكأس نبيذ أبيض. هل تتوفرون على غاياك؟

التفت نحو مساعده.

- هل تجد صعوبة في أن تخاطبني دون كلفة؟ سيلفيو، ماذا عندي؟ أكبرك بسبع سنوات، عشر سنوات؟ نحن بالرتبة نفسها. ليس عليك أن تخاطبني بتكلف لأني أدير مفوضية فيرنون منذ أربعة أشهر. في الجنوب حتى أصحاب بِذَل العمل الزرقاء يخاطبون مفوضي الشرطة من دون كلفة...

- في الشمال، يجب أن ننتظر... سيتم ذلك، حضرة الرئيس. سترى...

- أنت محق بلا شكّ. سنقول إن علي أن أتأقلم... حتى إن بدا لي غريباً أن يناديني مساعدي «حضرة الرئيس».

عصر سيلفيو أصابعه، كما لو كان يتردد في معارضة رئيسه.

- لو سمحت، أنا لست متأكداً إن كانت المسألة مسألة شمال-جنوب. كي أفسر الأمر، والدي متقاعد الآن، لكن بين البرتغال وفرنسا، طوال حياته، شيَّد بيوتاً من أجل رؤساء أصغر منه سناً كانوا يخاطبونه من دون كلفة ويخاطبهم بكلفة. بحسب رأيي، هي مسألة، لا أدري، ربطات عنق أو بذلات عمل زرقاء، أيد مشذبة أو أيد مليئة بالشحم الوسخ، هل ترى ما أود قوله؟

فتح لورنس سيريناك ذراعيه، مبعداً جانبي سترته الجلدية عن قميصه الرمادي.

- سيلفيو، هل ترى ربطة عنق هنا؟ نحن مفتشان، نحن الاثنان، عجباً...

ضحك بصراحة.

- بعد كل شيء، كما تقول التحدث من دون كلفة سيأتي مع الوقت... بعدما قيل، بالنسبة إلى الباقي، لا تغير شيئاً، يعجبني جداً

جانبك البرتغالي، الجيل الثاني الذي يلعب دور التواضع. طيب إذاً، مورفال؟

أحنى سيلفيو رأسه وقرأ مذكراته بطريقة مثابرة.

- جيروم مورفال هو ابن القرية الذي شقّ طريقه بشكل جيد. عاش في جيفرني، لكن عائلته رحلت إلى باريس عندما كان طفلاً. مورفال الأب كان هو أيضاً طبيباً، طبيب صحة عامة، لكنه لم يجمع ثروة كبيرة. تزوج جيروم مورفال في سنٍّ مبكرة من شابة تدعى باتريسيا شيرون. لم يكونا قد أكملا الخامسة والعشرين بعد. الباقي قصة نجاح جميلة. دَرَسَ الصغير جيروم الطب، تخصص في طب العيون، فتح عيادة في أنيير، رفقة خمسة زملاء آخرين، ثم عندما توفي الوالد مورفال، استثمر ماله في شراء عيادة لجراحة العيون في الدائرة السادسة عشر لوحده. على ما يبدو، كانت الأمور تسير بشكل جيد. بحسب ما فهمته، كان متخصصاً مشهوراً في إعتام عدسة العين، وبالتالي فقد كان زبائنه من كبار السن. منذ عشر سنوات، عاد إلى الحظيرة، اشترى أحد أجمل بيوت جيفرني، بين فندق بودي والكنيسة...

- هل لديه أطفال؟

وضعت النادلة طلبهما وانصرفت. قاطع سيريناك مساعده بالضبط قبل أن يجيب:

- الفتاة رقيقة، أليس كذلك؟ ساقان جميلتان مذهّبتان تحت التنورة، لا؟

تردد المفتش بينافيدس بين تنهد متعب وابتسامة محرجة.

- أجل... لا... بالنسبة إلى الزوجين مورفال. لم يكن

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

عندهما أولاد.

- طيب... أعداء؟

- كان مورفال يعيش حياة وجيه جد محدودة. لا سياسة. لا مسؤوليات في جمعيات أو أشياء من هذا القبيل... لا شبكة أصدقاء... على العكس، كان...

استدار سيريناك بغتة.

مكتبة الرمحي أحمد

- هيا، صباح الخير، أنت...

أحس بينافيدس بالشكل المزغَّب يمر تحت المائدة. تنهد صراحة هذه المرة. مدَّ سيريناك يده، فجاء نبتون يحتك بها.

- الشاهد الوحيد إلى حدٍّ الآن، تمتم لورنس سيريناك. مرحباً نبتون!

عرف الكلب اسمه. التصق بساق المفتش ونظر بنهم إلى قطع السكر في صحن فنجان شاي سيلفيو. رفع سيريناك أصبعه نحو الكلب.

- عاقل، هاه. يجب أن نستمع بانتباه إلى المفتش بينافيدس. لم يستطع أن يضع جملتين متتاليتين. إذاً سيلفيو، ماذا كنت تقول؟

ركز سيلفيو على مذكراته وواصل بلهجة رتيبة:

- كان جيروم مورفال شغوفاً بشيئين. شغف كاسح كما يقال. كان يخصص لهما كل وقته.

داعب سيريناك نبتون.

- نحن نحرز تقدماً...

- شغوفاً بشيئين، إذاً... كي نختصر، الرسم والنساء. بالنسبة إلى الرسم، نحن أمام هاوي مجموعات حقيقي، عصامي بالأحرى

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

موهوب، مع ميل نحو الانطباعية بطبيعة الحال. كانت له فكرة غريبة، بحسب ما قيل لي. كان جيروم مورفال يحلم بامتلاك إحدى لوحات مونيه! ولو كان ممكناً ليس أية لوحة بل العثور على «نيلوفر». هذا ما كان في رأس طبيب العيون المعني...

صفر سيريناك في أذن الكلب:

- لا شيء غير هذا... إحدى لوحات مونيه! حتى لو كانت عيادته تعيد البصر لجميع برجوازيات الدائرة السادسة عشر، لوحة «نيلوفر»، هذا يبدو لي فوق إمكانات طبيبنا مورفال... شغفان، كنت تقول... من جهة الوجه، اللوحات الانطباعية. ومن جهة القفا، النساء؟

- إشاعات... إشاعات... حتى لو كان مورفال لا يخفي ذلك. حدّثني جيرانه وزملاؤه بالأخص عن وضعية زوجته باتريسيا. تزوجت صغيرة. مادياً تعتمد اعتماداً كاملاً على الزوج. يستحيل أن تطلق. كانت مضطرة أن تغمض عينيها، حضرة الرئيس هل ترى ما أود قوله...

- إن كانت هذه غايتك... قال وهو يقطب. أرى ما تود قوله، عزيزي سيلفيو، وأخيراً بدأ يعجبني كثيراً هذا الطبيب. هل استطعت أن تحصل على أسماء بعض العشيقات أو أزواج خانتهم زوجاتهم يتوفرون على مكمون إجرامي؟

وضع سيلفيو الشاي في صحن فنجانه. نظر إليه نبتون بعينين مبللتين

- ليس بعد... لكن على ما يبدو، من ناحية العشيقات، كان لجيروم مورفال مبتغى، هوساً...

- آه؟ قلعة منيعة؟

- يمكن أن نعبِّر عنها بذلك... استعد جيداً، حضرة الرئيس، يتعلق الأمر بمدرّسة القرية. أجمل امرأة في الناحية على ما يبدو، وضع جيروم في رأسه أن يعلقها في لوحة غنائمه.

- وإذاً؟

- وإذاً، لا أعرف شيئاً. هذا ما استطعت الحصول عليه من خلال الحديث مع زملائه، وسكرتيرته، وثلاثة أشخاص من أصحاب المعارض التي يشتغل معها عادة... إنها رواية مورفال...

- المدرّسة، هل هي متزوجة؟

- أجل. والزوج غيور جداً، على ما يبدو...

التفت سيريناك نحو نبتون.

- نحن نتقدم، عزيزي. هو قوي، سيلفيو، هاه؟ يبدو عالقاً بهذا الشكل، لكن في الحقيقة هو نابغة، يملك عقل حاسوب.

نهض. ابتعد نبتون بعيداً في الشارع.

- سيلفيو، أرجو ألا تكون قد نسيت حذاءك الطويل وشبكتك كي تخوض في جدول الأوب. أنا، سأذهب لتعزية الأرملة مورفال... 71 شارع كلود مونيه، هو ذا؟

- أجل. لا يمكن أن تتوه. جيفرني قرية صغيرة شيدت على التل. هي تختصر في شارعين طويلين متوازيين، شارع كلود مونيه، الذي يقطع كل القرية، وطريق روي، يعني الطريق الجهوية في عمق الوادي الذي يسير بمحاذاة الجدول. يمكن أن نضيف مجموعة من الشوارع الجانبية الصغيرة شديدة الانحدار التي تربط بين الشارعين الرئيسيين، هذا كل شيء.

عبرت ساقا النادلة شارع كلود مونيه وتوجهتا نحو طاولة

المشرب. الورود البرية تلحس جدران فندق بودي، طوب وطين، مثل ألسنة لهب مخففة اللون في عمق مدفئة مشمسة. وجد سيريناك المشهد جميلاً.

- 6 -

لم يكن سيلفيو مخطئاً، المنزل رقم 71 شارع كلود مونيه هو بلا نقاش أجمل بيت في الشارع. مصارع نوافذ صفراء، نباتات متسلقة تلتهم نصف الواجهة، مزيج من الحجر المنحوت والأخشاب، نباتات جيرانيوم تتساقط من النوافذ وتطفح خارج أوعية خزفية ضخمة: واجهة انطباعية بامتياز. لا بدَّ أن باتريسيا مورفال بارعة في العناية بالنباتات، أو على الأقل تعرف كيف تدير جيشاً صغيراً من البستانيين المهرة. لا بدَّ أنهم متوفرون في جيفرني.

جرس من النحاس يتدلى من سلسلة أمام باب خشبي. حركه سيريناك. لم تمر سوى بضع دقائق حتى ظهرت باتريسيا مورفال خلف باب الفلين. من الواضح أنها كانت تنتظره. دفع الشرطي الباب بينما أفسحت كي تتركه يدخل.

يقدِّر المفتش سيريناك دوماً هذه اللحظة المحددة في أي تحقيق. **الانطباع الأول**. هذه اللحظات من علم النفس الصرف التي يجب استغلالها. من هي المرأة الواقفة أمامه؟ امرأة عاطفية يائسة أو بورجوازية جافة وغير مبالية؟ عاشقة صعقها القدر أو أرملة مبتهجة؟ هي غنية الآن. حرة أخيراً. تمَّ الانتقام لها من خيانات زوجها. هل تتصنع أم لا ألم الحداد؟ في هذه اللحظة يصعب تكوين

فكرة، عينا باتريسيا تختفيان خلف نظارات كبيرة ذات زجاج سميك تخفي عينين محمرتين...

دلف سيريناك إلى الممر. يتعلق الأمر في الحقيقة ببهو ضيق وعميق. توقف فجأة مذهولاً. على طول الجدارين بالكامل، أكثر من خمسة أمتار، لوحتين كبيرتين، تقليد نيلوفر شكّل بطريقة نادرة، في درجات الأحمر والذهبي، من دون سماء ولا أغصان صفصاف. بحسب معلومات سيريناك، يتعلق الأمر بلا شك بلوحة لمونيه رسمها خلال السنوات الأخيرة من حياته، السلسلة النهائية بعد 1920. ليس من الصعب استنتاج ذلك، تبع مونيه منطقاً إبداعياً بسيطاً: تضييق النظرة تدريجياً، إقصاء الديكور، التركيز على نقطة واحدة من البركة، بضعة أمتار مربعة، كما لو ليستطيع اجتيازها. تقدم سيريناك في ذلك الديكور الغريب. يسعى الممر إلى استحضار حيطان متحف أورانجوري، حتى لو كنا هنا بعيدين عن المئة متر من «النيلوفر» المعروضة في المتحف الباريسي.

دخل سيريناك إحدى الصالات. الديكور الداخلي كلاسيكي، مثقل بالتحف المتنوعة. ينجذب اهتمام الزائر إلى اللوحات المعروضة بالأخص. حوالي عشرة. أصلية. بحسب ما يعرفه سيريناك، توجد بعض الأسماء التي بدأت تمثّل قيمة حقيقية فنياً ومالياً. واحدة لغروبونفال، واحدة لفان مويلدر، واحدة لغابار... بحسب ما يبدو، كان مورفال يتوفر على ذوق جيد وحس استثماري. قال المفتش في نفسه إن أرملته لو استطاعت أن تضع مسافة بينها وبين النسور التي تشم رائحة الصباغة، ستظل لمدة طويلة بمنأى عن الاحتياج.

جلس. لم تثبت باتريسيا في مكان واحد. حركت بعصبية أشياء

مرتبة تماماً. طقمها الأرجواني يتناقض مع بشرتها الحليبية الباهتة. قدّر سيريناك عمرها في الأربعين، ربما أقل. لم تكن جميلة حقاً، لكن شيئاً من الصلابة والوقار يضفي عليها نوعاً من السحر. كلاسيكية أكثر منها ذات مكانة. حدٌّ أدنى من الإغواء، لكنه مُصان.

- حضرة المفتش، هل أنت متأكد من أن الأمر يتعلق بجريمة قتل؟

قالت ذلك بصوت حاد، خشن تقريباً.

واصلت:

- لقد علمت بالمشهد. هل يمكن أن نعزو ذلك إلى حادث؟ أن يكون جيروم قد سقط على حجر صوان، ثم غرق...

- لمَ لا، سيدتي. كل شيء ممكن، يجب أن ننتظر تقرير الطب الشرعي. لكن في الحالة الراهنة للتحقيق، يجب أن أعترف، القتل هو الطرح المفضل. من بعيد...

عصرت باتريسا مورفال بين أصابعها تمثالاً صغيراً لديان شاسريس كان موضوعاً على البوفيه. تمثال برونزي. واصل سيريناك اتجاه الحوار. هو يطرح الأسئلة، وباتريسيا مورفال تجيب تقريباً بمحاكاته، نادراً أزيَد من ثلاث كلمات، غالباً نفسها، بتغيير النبرة بالكاد. علو في بعض المقاطع.

- كان له أعداء؟

- لا، لا، لا.

- ألم تلاحظي شيئاً غريباً هذه الأيام؟

- لا، لا.

- بيتكما يبدو واسعاً؛ هل كان زوجك يسكن هنا؟

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

- أجل... أجل. نعم ولا...

لا يدع لها سيريناك الخيار، هذه المرة هو لا يستوعب الفارق.

- يجب أن تكوني أكثر دقة، سيدة مورفال.

نطقت باتريسيا مورفال المقاطع ببطء، كأنها تعددها.

- نادراً ما كان جيروم يقيم هنا خلال الأسبوع. كان يملك شقة قرب عيادته، في الدائرة السادسة عشر. جادة سوشي.

كتب المفتش العنوان وهو يقدر أن المكان غير بعيد من متحف مارموتان. بالتأكيد لم يكن ذلك صدفة.

- هل كان زوجك ينام في الغالب خارج البيت؟

صمت.

- أجل.

أعادت أصابع باتريسيا مورفال العصبية ترتيب باقة من الأزهار الطرية في مزهرية طويلة ذات زخارف يابانية. صورة عنيدة اكتسحت ذهن لورنس سيريناك: هذه الأزهار ستموت على أغصانها. سيجمّد الموت الصالون. سيغطي غبار الزمن تناسق الألوان هذا.

- هل لديكم أطفال؟

- لا.

بعض الوقت.

- ولا زوجك؟ لوحده، أريد أن أقول؟

عوّضت باتريسيا مورفال ترددها بنبرة صوت نزلت درجة.

- لا.

تمهَّلَ سيريناك. أخرج نسخة من بطاقة «النيلوفر» التي وجدها في جيب جيروم مورفال قلبها وعرضها على الأرملة. باتريسيا

مورفال مضطرة لقراءة الكلمات الست المكتوبة على الآلة: **إحدى عشرة سنة. عيد ميلاد سعيد.**

- وجدنا هذه البطاقة في جيب زوجك، حدد المفتش. ربما كان لكما أقارب؟ أبناء أصدقاء؟ أي طفل يمكن أن يكون زوجك قد خصص له هذه البطاقة؟

- لا، لا علم لي. حقاً.

أمهل سيريناك باتريسيا مورفال وقتاً للتفكير قبل أن يواصل:

- وهذا الاقتباس؟

انزلقت العينان على البطاقة وقرأتا الكلمات الغريبة التالية: **جريمة أن نحلم أقبل أن نُقرّها.**

- ليس عندي أدنى فكرة! أنا متأسفة، حضرة المفتش...

بدت غير مبالية حقاً. وضع سيريناك البطاقة على الطاولة.

- إنها نسخة، يمكنك الاحتفاظ بها، نحن لدينا الأصل. سأتركك تفكرين... لو تذكرت شيئاً...

قلّت حركة باتريسيا مورفال في الغرفة شيئاً فشيئاً، مثل ذبابة فهمت أنها لن تستطيع الخروج من القنينة الزجاجية. واصل سيريناك:

- هل تعرّض زوجك لمشاكل من قبل؟ لا أدري، عملية جراحية لم تنجح؟ زبون غير راضٍ؟ شكوى؟

أصبحت الذبابة عدائية فجأة.

- لا! أبداً. إلى ماذا تلمِّح؟

- لا شيء. لا شيء. أؤكد لك.

عانقت نظرته اللوحات على الجدار.

- كان زوجك ذواقاً للرسم. هل تظنين أنه من الممكن أن يكون

قد تورط، كيف أعبِّر عن ذلك، نوع من الإتجار، حيازة مسروقات، حتى من دون قصد؟

- ماذا تقصد بالضبط؟

علا صوت الأرملة في بعض المقاطع، بدا أكثر خشونة. الأمر كلاسيكي، فكّر المفتش. تصرُّ باتريسيا مورفال على إنكار فرضية القتل. إقرارها بمقتل زوجها هو إقرار بأن أحد ما كان يكرهه إلى حد القتل... هو إقرار بأن زوجها كان مذنباً نوعاً ما. عرف سيريناك كل ذلك، يجب أن يبرز وجه الضحية الداكن دون أن يصوب نحوه.

- لا أقصد شيئاً، لا شيء محدد. أؤكد لك سيدة مورفال. أنا ببساطة أبحث عن مسار. حدّثيني عن... فلنقل، سعيه... لامتلاك لوحة لمونيه... كان...

- صحيح تماماً، حضرة المفتش. كان حلماً بالنسبة إليه. جيروم يعتبر أحد أفضل العارفين بكلود مونيه. أجل، حُلم. امتلاك لوحة لمونيه. اشتغل بجد من أجل ذلك. كان جراحاً موهوباً. كان سيستحق ذلك. كان شخصاً شغوفاً. ليس أية لوحة، حضرة المفتش. لوحة «نيلوفر». لا أعرف إن كان بإمكانك أن تفهم، لكن هذا ما كان يبحث عنه. لوحة رسمت هنا، في جيفرني. قريته.

اشتغل ذهن سيريناك، مستغلاً خطبة الأرملة. الانطباع الأول! منذ دقائق وهو يتحدث مع باتريسيا مورفال، بدأ يكوِّن فكرة عن طبيعة ذلك الحداد. وعكس كل توقع، مال انطباعه نحو منحى العاطفة الملتهبة والحب المصعوق، بدل المنحى الذابل، والظل، واللامبالاة من امرأة مهجورة.

- أنا آسف على إزعاجك بهذا الشكل سيدة مورفال. لكننا

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

نصبو إلى الهدف نفسه، اكتشاف قاتل زوجك. سأضطر إلى طرح أسئلة... أكثر خصوصية.

بدت باتريسيا مورفال كأنها تجمدت في وضعية الصورة العارية التي رسمها غابار على الجدار المقابل.

- لم يكن زوجك، فلنقل... دوماً وفياً. هل تظنين أن...

أحس سيريناك بتأثر باتريسيا. كأن دموعاً في داخلها تحاول إطفاء الحريق في أحشائها.

قاطعته:

- تعرفنا على بعضنا في سنٍّ صغيرة، أنا وزوجي. تودد إلي فترة طويلة، جد طويلة، إلي وإلى أخريات. استغرقت عدة سنوات قبل أن أستسلم له. وهو شاب، لم يكن من نوع الشبان الذين يجعلون الفتيات يحلمن. لا أعرف إن كنت ترى ما أود تفسيره. كان بلا شكّ جاداً، مملاً شيئاً ما. كانت... كانت تنقصه الثقة مع الجنس الآخر. هذه الأشياء نحس بها. بعد ذلك، مع الوقت أصبح أكثر ثقة بالنفس، وأكثر سحراً، وأكثر إثارة للاهتمام. أظن، حضرة المفتش، أني وراء ذلك. أصبح أكثر غنى أيضاً. في سن البلوغ، أتيحت الفرص لجيروم كي ينتقم من النساء... من النساء، حضرة المفتش. وليس مني. لا أعرف إن كان بإمكانك أن تفهم.

أتمنى ذلك، فكر سيريناك وهو يقول في نفسه إنه يحتاج إلى أسماء، ووقائع، وتواريخ.

بعدها... أكدت باتريسيا مورفال:

- أنتظر منك بعض اللباقة، حضرة المفتش... جيفرني قرية صغيرة بالكاد تضم بضع مئات من السكان. لا تقتلوا جيروم مرة

أخرى. لا توسخوه. لم يكن يستحق ذلك. بالأخص ليس هذا.

حرك سيريناك رأسه بشكل مطمئن.

الانطباعات الأولى... كوَّن الآن تصوره. أجل، باتريسيا مورفال كانت تحب زوجها جيروم. لا، لا يمكن أن تكون قد قتلته من أجل ماله.

لكن بسبب الحب، من يدري...

تفصيل أخير صدمه، الزهور في المزهرية اليابانية أقنعته بذلك: توقف الوقت في هذا البيت. الساعة التي على الجدار تهشمت أمس! في هذا الصالون، كل سنتيمتر لا يزال ينضح بعواطف جيروم مورفال. هو وحده. وسيظل كل شيء على هذا النحو إلى الأبد. لن تزال اللوحات من أماكنها. الكتب على رفوف المكتبة لن تفتح أبداً. كل شيء سيظل جامداً، مثل متحف خالٍ تكريماً لشخص نسيه الجميع بالفعل. هاوي فن لن يُورّث شيئاً. هاوي نساء لن تبكيه أي منهن. عدا امرأته، تلك التي هجرها.

حياة لمراكمة نسخ. من دون ذرية.

ضرب ضوء شارع كلود مونيه وجه المفتش. انتظر أقل من ثلاث دقائق حتى ظهر سيلفيو في ناصية الشارع، من دون الحذاء الطويل في رجليه لكن سرواله كان متسخاً بالتراب من الأسفل. أعجب ذلك سيريناك. سيلفيو بينافيدس شخص جيد. دون شك أكثر ذكاء مما يسمح جانبه الدقيق بإظهاره. خلف النظارات الشمسية، استغرق سيريناك وقته للتدقيق في خيال مساعده الذي امتدَّ ظله على حائط البيوت. سيلفيو ليس نحيلاً بمعنى الكلمة. قصير ستكون أكثر دقة،

بما أنه تظهر بشكل متناقض بدانة تحت قميصه ذي المربعات الذي أغلق أزراره إلى العنق وأدخله في سروال من القماش البني. سيلفيو يبدو عريضاً إذا نظرنا إليه من الجانب أكثر مما إذا نظرنا إليه من ناحية الوجه، استمتع لورنس. إنه يشبه أسطوانة! لكن ذلك لا يجعله ذميماً، على العكس. ذلك يضفي عليه نوعاً من الهشاشة، قامة جذع شجرة شابة، سلسة ومرنة، قادرة على الانحناء دون أن تنكسر أبداً.

اقترب سيلفيو، وعلى شفتيه ابتسامة. في النهاية، أقل شيء يحبه لورنس عند مساعده، على الأقل جسدياً، ذلك الهوس في تمسيد شعره القصير والجاف إلى الخلف، أو على الجانب، بفرقة كأنه تلميذ مدرسة لاهوت. ضربة بسيطة بالمشط ستكون كافية لتحويله. توقف سيلفيو بينافيدس أمامه ووضع يديه على وركيه.

- إذاً، حضرة الرئيس... الأرملة؟

- حقاً أرملة! حقاً حقاً أرملة. وعملك في الخبرة؟

- لا شيء جديد... تحدثت مع بعض الجيران الذين كانوا نائمين صباح الجريمة ولا يعرفون شيئاً. بالنسبة إلى باقي المؤشرات، سنرى. كل شيء معبأ في الزجاج والبلاستيك... هل سنعود إلى الحظيرة؟

نظر سيريناك إلى ساعته. الرابعة والنصف عصراً.

- أجل... أخيراً، أنت فقط. أنا عندي موعد لا يجب أن أفوته...

حدد أمام مساعده المندهش:

- لا أريد تفويت الخروج من الفصل.

تصَّورَ سيلفيو بينافيدس أنه فهم.

- بحثاً عن طفل في الحادية عشر سيحتفل قريباً بعيد ميلاده؟

غمز سيريناك بعينه لسيلفيو.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

- سنقول هذا... ثم أيضاً من أجل اكتشاف تلك الجوهرة الانطباعية، تلك المُدرّسة التي شغف بها جيروم مورفال مثل إحدى لوحات مونيه.

- 7 -

انتظرتُ الحافلة تحت أشجار الزيزفون في ساحة البلدية والمدرسة. إنها أكثر زاوية ظليلة في القرية، فقط بضعة أمتار فوق شارع كلود مونيه. أنا وحدي تقريباً. حقاً، أصبحَت هذه القرية غريبة: بضعة أمتار، جزء بسيط من الشارع تكفي لننتقل من حشد صفوف الانتظار أمام المتاحف أو أروقة عرض الرسوم المقتحمة إلى الشوارع الجانبية الخالية لقرية في الأرياف.

يوجد موقف الحافلة أمام المدرسة، أو تقريباً أمامه. الأطفال يلعبون في الباحة خلف السياج. وقف نبتون بعيداً شيئاً ما تحت شجرة الزيزفون، هو ينتظر بنفاد صبر تحرير الأطفال المحبوسين. هو يحب ذلك، نبتون، الجري خلف الأطفال.

بالضبط قبالة المدرسة المحلية، أقاموا ورشة آرت غاليري أكاديمي. الشعار مرسوم بحروف واضحة على الحائط: **الملاحظة مع الخيال**. برنامج كامل! طوال النهار يغادر فيلق من المتقاعدين العرج، معتمرين طاقيات أو قبعات باناما، الرواق ويفترقون في القرية بحثاً عن الإلهام الإلهي! يستحيل عدم معرفتهم في البلدة بشاراتهم الحمراء والعربات التي استعملتها الجدات من أجل نقل أدوات الرسم.

ألا تجدون ذلك سخيفاً؟ ذات يوم، يجب أن يفسِّرَ لي أحد ما لماذا سيكون العشب في هذا المكان، والطيور على الأشجار، والماء في النهر بلون مختلف عن باقي الأماكن الأخرى من العالم.

الأمر يتجاوز حدود فهمي. يجب أن أكون شديدة البلاهة كي أستطيع استيعاب ذلك، لا بدَّ أني عشت هنا لفترة طويلة. أكيد هذا، مثل ما يحدث عندما نعيش لفترة طويلة بالقرب من رجل وسيم. في جميع الأحوال، هؤلاء الغزاة لا ينصرفون مثل الآخرين عند الساعة السادسة بعد الزوال بالحافلات. هم يظلون إلى حلول الليل، وينامون في عين المكان، ويخرجون عند الفجر. هم أميركيون في غالبيتهم. ربما لستُ سوى عجوز تراقب هذا السيرك عبر إعتام بصرها، لكنكم لن تمنعوني من أن أعتقد أن استعراضاً مشابهاً من الرسامين المسنين أمام المدرسة، سينتهي به الأمر إلى التأثير على أطفال القرية، سينتهي بأن يغرس في رؤوسهم بعض الأفكار؟ ألستم موافقين؟

رصد المفتش نبتون تحت شجرة زيزفون. قطعاً، هذان الاثنان لم يعودا يفترقان! يثيره في مزيج من الكفاح الجذل والمداعبات. أنا بقيت بعيداً على مقعدي، مثل تمثال من الأبنوس. ربما بدا لكم غريباً أن تتنزه عجوز مثلي على هذا النحو في كل جيفرني دون أن يلاحظها أحد أو تقريباً. وأقل منهم رجال الشرطة. سأقول لكم، قوموا بالتجربة. استقروا في ناصية أحد الشوارع، أي شارع، جادة في باريس، ساحة كنيسة إحدى القرى، أينما شئتم، فقط مكان حيث يوجد ناس. توقفوا عشرة دقائق، وقوموا بعد الناس الذين يمرون.

ستندهشون من عدد المسنين. في كل الأحيان، سيكون عددهم أكثر من الآخرين. في البداية لأن الأمر هكذا، هم يصمّون آذاننا بوجود عدد أكبر من المسنين. بعد ذلك لأن المسنين ليس لهم غير هذا ليفعلوه، التسكع في الشوارع. ثم أيضاً لأننا لا نلاحظهم، الأمر هكذا. سنلتفت نحو صرة فتاة مكشوفة، سنندفع أمام الإطار السامي الذي يسرع الخطى، أو مجموعة شباب تحتل كل الرصيف، سنترك العين تجول على عربة أطفال، الطفل في المقدمة والأم خلفه. لكن المسنين، رجالاً كانوا أو نساء... هم غير مرئيين. بالتحديد لأنهم يمرون ببطء حتى إننا نخالهم جزءاً من الديكور، مثل شجرة أو عمود إنارة. إذا لم تصدقوني، جربوا بأنفسكم. توقفوا، فقط عشرة دقائق. سترون.

أخيراً، عودة إلى قضيتنا، وبما أني أتوفر على امتياز أني أرى دون أن يراني أحد، يمكن أن أعترف لكم بذلك، يجب أن أعترف أن الشرطي الشاب له سحر خاص، بسترته الجلدية القصيرة، وسرواله الجينز الضيق، ولحيته الحديثة، وشعره الأشقر الشبيه بحقل قمح بعد العاصفة. يمكن أن نفهم أنه يهتم بالمدرّسات الكئيبات أكثر من اهتمامه بعجائز القرية الهُبل.

- 8 -

بعد مداعبة طويلة وأخيرة، ترك لورنس سيريناك نبتون وسار نحو المدرسة. عندما وصل على بعد عشرة أمتار من الباب، مرَّ أمامه

حوالي عشرين طفلاً وهم يصيحون، كانوا من جميع الأعمار. كأنه جعلهم يهربون.

تحررت الوحوش.

جرت فتاة في حوالي العاشرة في المقدمة، طارت جدائلها في الريح. تبعها نبتون كأن مغناطيساً يجذبه. تبعهما الجميع، اجتازوا شارع بلانش-هوشيدي-مونيه وتفرقوا في شارع كلود مونيه. كما امتلأت حركة، أصبحت ساحة البلدية فجأة صامتة. تقدم المفتش بضعة أمتار أخرى.

لفترة طويلة، سيتذكر لورنس سيريناك تلك المعجزة. طوال حياته. سيزن كل صوت، صياح الأطفال الذين تبخروا، صوت الريح في أشجار الزيزفون؛ كل رائحة، كل ومضة ضوء، بياض حجارة دار البلدية، نبات الدودية الذي يتسلق على طول درابزين الدرجات السبع أمام المدخل...

لم يكن يتوقع ذلك. لم يكن يتوقع شيئاً.

لفترة طويلة، سيفهم أن التناقض هو الذي صعقه، تناقض بسيط، بالكاد استغرق بضع ثوان. كانت ستيفاني دوبان واقفة أمام المدرسة ولم تكن قد رأته. للحظة، أمسك شعاع نظرتها التي طارت نحو الأطفال الذين كانوا يهربون وهم يضحكون، كما لو كانوا يأخذون في حقائبهم أحلام مُدرّستهم.

اكتئاب خفيف، مثل فراشة هشة.

ثم، مباشرة بعد ذلك، لمحت الزائر. علت الابتسامة شفتيها في الحال، ولمعت العينان البنفسجيتان.

- سيدي؟

منحت ستيفاني الغريبَ طراوتها. جرعة كبيرة من الطراوة، وزّعتها على الجهات الأربع، على مناظر الفنانين، على تأمل السياح، على ضحكات الأطفال على ضفاف الأوب. لم تحتفظ منها بشيء لنفسها. عطاء مطلق.

أجل، ذلك التناقض هو الذي أزعج لورنس سيريناك إلى تلك الدرجة. تلك الكآبة المؤدبة. المخفية. كأنه لمح، للحظة، مغارة كنز ولم يعد يعنيه سوى أن يجد مدخلها.

تمتم مبتسماً بدوره:

- المفتش لورنس سيريناك، من مفوضية فيرنون.

مدت يداً رقيقة.

- ستيفاني دوبان. المُدرّسة الوحيدة في فصل القرية الوحيد...

ضحكت عيناه...

هي جميلة. حتى أكثر من هذا. عيناها الباستيل بأطياف النيلوفر تحتضن كل درجات الأزرق والبنفسجي بحسب أشعة الشمس. شفتاها الشاحبتان لوِّنتا بأحمر باهت. فستانها الصغير الخفيف يكشف كتفيها العاريتين البيضاوين. بشرة رقيقة. شعرها البني الفاتح معتقل في تسريحة فوق رأسها.

نزوة مكبوحة.

جيروم مورفال كان له ذوق أكيد، وليس فقط بالنسبة إلى الرسم.

- تفضل. أرجوك.

كانت طراوة المدرّسة تتناقض مع دفء الشارع. عندما دخل

لورنس إلى الفصل الصغير وراقب العشرين كرسياً خلف الطاولات، أحس بنوع من الاضطراب الممتع أمام هذه الألفة المفاجئة. انزلق بصره على خرائط كبيرة معلقة على الجدار. فرنسا، أوروبا، العالم. خرائط جميلة، قديمة بشكل ممتع. توقفت عينا المفتش فجأة على إعلان قرب المكتب.

مباراة الرسامين المبتدئين

INTERNATIONAL YOUNG PAINTERS CHALLENGE

Fondation Robinson

Brooklyn Art School and Pennsylvania Academy

of the Fine Arts in Philadelphia[1]

بدا له الدخول في الموضوع مثالياً.

- هل يشترك أطفالك في المباراة؟

لمعت عينا ستيفاني.

- أجل. كل سنة! هو تقريباً تقليد هنا. كان تيودور روبنسون أحد الرسامين الأميركيين الأوائل الذين جاؤوا للرسم في جيفرني مع كلود مونيه. كان ضيف فندق بودي الوفي! أصبح بعد ذلك أستاذاً مشهوراً للفن في الولايات المتحدة... أن يشارك أطفال جيفرني في مباراة مؤسسته اليوم هو أقل شيء، ألا ترى ذلك؟

هزَّ سيريناك رأسه.

- وماذا يربح الفائزون؟

- بضعة آلاف من الدولارات، على كل... وبالأخص فترة

---

(1) بالإنجليزية في النص الأصلي.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تمرين لعدة أسابيع في مدرسة مرموقة للفنون... نيويورك، طوكيو، بطرسبرغ... تتغير كل سنة...

- مثير... هل سبق أن ربح طفل من جيفرني؟

ضحكت ستيفاني دوبان بصراحة وهي تربت على كتف لورنس سيرناك.

دون خبث. كان يرتجف.

- لا، هل تظن... الآلاف من المدارس في العالم تشارك في المباراة. لكن يجب أن نحاول، لا؟ هل تعلم، ابنا كلود مونيه، ميشيل وجان، جلسا هما أيضاً على مقاعد هذه المدرسة!

- تيودور روبنسون، لم يعد أبداً إلى النورماندي، أعتقد...

حدقت ستيفاني دوبان في وجه المفتش مندهشة. فتحت عينَين كبيرتَين، حيث ظنَّ المفتش أنه يلمح ومضة إعجاب:

- هل توجد مواد عن تاريخ الفن في مدرسة الشرطة؟

- لا... لكن قد يكون المرء شرطياً ويحب الرسم، لا؟

احمرّت.

- أصبت، حضرة المفتش...

تلوَّن خداها الشفافان بلون زهور برية، مرقّش بالنمش. أغرقت عيناها الأرجوانيتان الغرفة.

- أنت محق تماماً حضرة المفتش، توفي تيودور روبنسون في الثالثة والأربعين بنوبة ربو في نيويورك، بالكاد شهرين بعد أن كتب لصديقه كلود مونيه من أجل التحضير لعودته إلى جيفرني... لم يرَ فرنسا مرة أخرى أبداً. أنشأ ورثته مؤسسة وهذه المباراة الدولية للرسم بعد موته ببضع سنوات، سنة 1896. لكني أزعجك، حضرة

المفتش. أفترض أنك لم تأتِ كي أعطيك درساً...

- سأحب ذلك، على الرغم من كل شيء.

قال سيريناك ذلك فقط كي يجعلها تحمر. نجح في ذلك، أبعد من كل التوقعات.

ألحَّ المفتش:

- وأنت، ستيفاني، هل ترسمين؟

مرة أخرى، تاهت أصابع المرأة الشابة في الهواء وحطّت على صدر المفتش. أرغم المفتش نفسه على ألا يرى في تلك الحركة سوى ردة فعل من مدرسة اعتادت الانحناء نحو أبنائها، والتحدث في أعينهم، ولمسهم.

مُهيّجة بريئة؟

تمنى سيريناك ألا يحمر مثلها.

- لا، لا. لا أرسم. ليس عندي... ليس عندي أية موهبة.

لحظة وجيزة، مرت سحابة أمام بريق عينيها.

- وأنت؟ أنت لا تتحدث بلكنة فيرنون! تماماً مثل اسمك، لورنس. هو ليس مألوفاً هنا.

- أحسنت... لورنس هو لوران في الأوكيتانية... كي أكون أكثر دقة، لهجتي العامية هي البيجان... تمَّ نقلي للتو.

- مرحباً بك إذاً! البيجان؟ تذوقك للرسم يأتي من تولوز لوتريك؟ لكل منطقة رسامها!

ابتسما.

- جزئياً... أنت على حقّ. يمثل لوتريك بالنسبة إلى بيجان ما يمثله مونيه بالنسبة إلى النورمانديين...

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

- هل تعرف ماذا كان لوتريك يقول عن مونيه؟

- سأخيّب توقعك، لكني أعترف أني لم أكن حتى أعلم أنهما يتعارفان.

- بلى! لكن لوتريك كان ينعت الانطباعيين بالبهيميين. وصف كلود مونيه بالمغفل، أجل، استعمل هذه الكلمة، «مغفل»، لأنه كان يفسد موهبته الكبيرة في رسم المناظر الطبيعية بدل الكائنات البشرية!

- من حسن الحظ أن لوتريك توفي قبل أن يرى مونيه يتحول إلى ناسك ولا يرسم سوى النينوفر خلال ثلاثين سنة...

ضحكت ستيفاني بصراحة.

- إنها طَريقة لرؤية الأشياء. في الواقع، يمكن أن نعتبر أن لوتريك ومونيه اختارا مصيرين على طرفي نقيض... بالنسبة إلى تولوز لوتريك، حياة عابرة من الفجور في تعقب شهوة النفس البشرية، بالنسبة إلى مونيه، حياة طويلة تأمُّلية مكرسة للطبيعة.

- متكاملتين أكثر منهما متناقضتين، لا؟ يجب على المرء أن يختار؟ لا يمكن أن نحصل على الاثنتين؟

كانت ابتسامة ستيفاني تجننه.

- حالي لا ينصلح حضرة المفتش. أعتقد أنك لم تأتِ لتتحدث معي عن الرسم. أنت تحقق في مقتل جيروم مورفال، أليس كذلك؟

ارتفعت بمرونة على المكتب، تقريباً في نفس مستوى صدر سيريناك. وضعت ساقاً على ساق بعفوية. انزلق الثوب القطني إلى منتصف الفخذين. اختنق لورنس سيريناك.

- أي علاقة لي؟ همس صوت المدرّسة البريء.

ركنت الحافلة مباشرة أمام ساحة البلدية. خلف المقود سائقة. لا تبدو فتاة مسترجلة أو شبيهة بسائق شاحنة، لا، هي فقط امرأة كان يمكن أن تكون ممرضة أو سكرتيرة. لا أعرف إن لاحظتم ذلك، لكن أعداداً كبيرة من النساء أصبحت تقود هذه العربات الضخمة. خاصة في الريف. من قبل، لم نكن نرى ذلك أبداً، فتيات يقدن الحافلات. بالتأكيد لأنه في الريف لم يعد يوجد سوى المسنين والأطفال ليستقلّوا وسائل النقل العمومي، أجل، بالتأكيد من أجل هذا لم تعد قيادة الحافلات وظيفة ذكورية.

رفعت رجلي بصعوبة إلى موطئ القدم في الحافلة. أعطيت الفتاة النقود، أعادت لي الباقي بحركة أكيدة من أمين صندوق. جلست في المقدمة. الحافلة نصف ملأى، لكنني أعرف عن تجربة أن عدداً من السياح سيصعدون في مخرج جيفرني؛ أغلبيتهم ينزلون في محطة فيرنون. بعد ذلك، لا يوجد موقف بالضبط أمام مستشفى فيرنون، لكن، على العموم، تتأسف سائقات الحافلات لحالة ساقي ويسمحن لي بالنزول قبل الموقف. تفهمون الآن، النساء يقدن الحافلات لأنهن يقبلن هذا النوع من الأشياء.

أفكِّرُ في نبتون. أمس، استقلت سيارة أجرة لأعود من فيرنون. كلفني ذلك بالضبط أربعاً وثلاثين يورو! مبلغ مهم، ألا ترون ذلك، من أجل أقل من عشرة كيلومترات؟ فاتورة الليل، كما قال لي الرجل خلف مقود سيارته الرونو إسباس. يستغلون ذلك بالضرورة، يعرفون جيداً أنه لا توجد حافلة تذهب إلى جيفرني بعد التاسعة ليلاً. وأنتم

تمرون، ستلاحظون دوماً أن الرجال هم الذين يجلسون خلف مقود سيارات الأجرة، لا نساء أبداً. إذا كان كذلك، لا بدَّ أنهم يحومون كل ليلة حول المستشفى مثل النسور، فقط من أجل ترقب خروج الأرامل المسنات اللواتي لم يتعلمن القيادة أبداً. في تلك اللحظات، يشكّون في أننا سنساوم! أخيراً... أقول هذا لكني ربما سأكون سعيدة جداً إن وجدت واحداً، بعد حين. لأن هذا المساء، بحسب ما قاله الأطباء، يمكن أن يكون الأخير. إذاً، قد يستمر جزءاً كبيراً من الليل.

يزعجني كثيراً أن أترك نبتون يتسكع في الخارج.

- 10 -

في قاعة الدرس في مدرسة جيفرني، حاول المفتش لورنس سيريناك ألا يجعل نظرته تلتصق بجلد ساقي المدرّسة العاريتين. فتّش بطريقة خرقاء في جيبه بينما كانت باتريسيا تراقبه ببراءة، كما لو أن الوضعية التي اتخذتها، جالسة على المكتب مشبكة ساقيها، كانت الأكثر طبيعية في الكون. عادة، حلل لورنس سيريناك، لا أحد من أطفال الفصل سيرى فيها خبثاً. عادة...

- إذاً، سألت المدرّسة من جديد. أية علاقة لي بالقضية؟

انتهى الأمر بأن أخرجت أصابع المفتش نسخة من البطاقة البريدية «النيلوفر».

إحدى عشرة سنة. عيد ميلاد سعيد.

عرض عليها البطاقة.

- وجدناها في جيب جيروم مورفال.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

تفحّصت ستيفاني دوبان الجملة باهتمام. عندما مالت المُدرّسة ودارت قليلاً على الجانب، انعكس شعاع الشمس على الورقة البيضاء وأضاء وجهها، في وضعية قارئة تغمرها هالة من الضوء تلهم فراغونارد. ديغاس. فرمير. للحظة، اجتاح سيريناك إحساس: لا واحدة من حركات المرأة الشابة عفوية، رشاقة الحركة جد كاملة، محسوبة، مدروسة. هي تتصنع من أجله. اعتدلت ستيفاني دوبان بظرف، انفرجت شفتاها ببطء وأطلقتا نفساً غير مرئي أزاح شكوك الشرطي الخرقاء.

- لم يكن عند الزوجين مورفال أطفال... لذا فكرت في المدرّسة...

- أجل... هنا يكمن اللغز. هل يوجد في فصلك أطفال يبلغون الحادية عشر؟

- العديد، طبعاً. أستقبلُ تقريباً جميع الأعمار، من السادسة إلى الحادية عشر. لكن بحسب معرفتي لا أحد سيحتفل بعيد ميلاده في الأيام أو الأسابيع المقبلة.

- هل يمكن أن تضعي لنا لائحة محددة؟ مع عناوين الآباء، تواريخ الولادة، أخيراً، كل ما يمكن أن يكون مفيداً...

- هل لهذا علاقة بجريمة القتل؟

- قد يكون... أو لا... نحن نتحسس حالياً. نتّبع عدة مسارات. تفضلي، هل تعني لك هذه الجملة شيئاً؟

وجّه سيريناك نظرة ستيفاني نحو أسفل البطاقة البريدية. عقدت حاجبيها بشكل خفيف في محاولة للتركيز. هو معجب بجميع هيئاتها. قرأت مرة أخرى. انسدلت رموشها، ارتعش فمها، انحنى عنقها. امرأة تقرأ حرّكت دوماً خيال المفتش. كيف يمكن أن تلهو به؟ كيف

يمكن أن تعرف ذلك؟

جريمة أن نحلم أقبل أن نُقرّها.

- إذاً... لا تعني لك شيئاً؟ تمتم سيريناك.

نهضت ستيفاني دوبان فجأة. مشت نحو المكتبة، مالت ثم تراجعت، وهي تبتسم. قدمت إليه كتاباً أبيض. أحس لورنس أن صدر المُدرّسة يخفق بشدة تحت فستان القماش، شبيهاً بعصفور يرتعش ولا يستطيع أن يتخطى باب القفص المفتوح. في اللحظة التالية، تساءل سيريناك لماذا تحاصره هذه الصورة الغبية. حاول أن يركز على العمل.

- لويس أراغون، أطلق صوت ستيفاني الواضح. متأسفة، حضرة المفتش، سأضطر مرة أخرى إلى أن أقدم لك درساً...

دفع لورنس دفتراً وجلس إلى إحدى طاولات التلاميذ.

- قلت لك. أحب ذلك...

ضحكت مرة أخرى.

- لست بارعاً في الشعر بنفس براعتك في الرسم، حضرة المفتش. جملة البطاقة البريدية مقتبسة من قصيدة للويس أراغون.

- أنت مدهشة...

- لا، لا، ليس لي أي استحقاق. في البداية، لويس أراغون كان من المرتادين على جيفرني، واحد من الفنانين الذين استمروا في المجيء والإقامة في القرية بعد وفاة كلود مونيه، سنة 1926. بعد ذلك لأن هذا المقطع مقتطع من قصيدة مشهورة لأراغون، الأولى التي تمّت مصادرتها سنة 1942، من طرف فيشي. أنا متأسفة مرة أخرى بسبب الدرس، حضرة المفتش، لكن عندما سأخبرك عنوان القصيدة، ستفهم لماذا هي عادة في القرية أن نحفظها لتلاميذ المدرسة كل سنة...

- «انطباعات»؟ حاول سيريناك.

- خسرت. كنت قريباً من الجواب. عنون أراغون قصيدته «نامفي[1]».

حاول سيريناك فرز المعلومات، وترتيبها.

- إن فهمت جيداً، منطقياً، لا بدَّ أن جيروم مورفال يعرف هو أيضاً أصل هذه الأبيات الغريبة...

بقي لحظة يفكر، متردداً حول الهيئة التي سيتخذها.

- أشكرك. كنا سنقضي أياماً قبل أن نجد هذا. حتى لو أني إلى حدٍّ اللحظة لا أعرف إلى أين سيقودنا...

استدار سيريناك نحو المُدرّسة. هي تقف أمامه، وجهها على نفس مستوى وجهه، تفصلهما ثلاثون سنتمتراً.

- ستيفاني... هل تسمحين بأن أناديك ستيفاني؟ هل كنت تعرفين جيروم مورفال؟

حطت عليه العينان البنفسجيتان. تردد بالكاد، غاص.

- هي صغيرة، جيفرني، قالت ستيفاني. بعض المئات من السكان...

سبق أن سمع المفتش هذا القول!

- هذا ليس جواباً، ستيفاني...

صمت. عشرون سنتمتراً تفصلهما.

- أجل... كنت أعرفه.

القزحية الأرجوانية غارقة في الضوء. المفتش يطفو. يجب أن يلح. أو أن يغرق. كل سخريته لم تنفعه.

---

(1) Nymphée: مكان مقدس خاص بالحوريات.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- تروج... تروج إشاعات.

- لا تنزعج، حضرة المفتش. أنا على علم بذلك طبعاً. الإشاعات... جيروم مورفال كان رجل نساء، هكذا يقال؟ لا، لن أدّعي أنه لم يحاول الاقتراب مني... لكن...

اضطرب سطح عينيها النيلوفر. نسيم خفيف.

- أنا امرأة متزوجة، حضرة المفتش سيريناك. أنا مدرّسة هذه القرية. مورفال هو الطبيب، نوعاً ما. سيكون من السخيف أن يتم توجيهك نحو مسارات حمقاء... لم يحدث أبداً شيء بيني وبين مورفال. في القرى الشبيهة بقريتنا، يوجد دوماً أناس لمراقبتك، وترويج الأكاذيب، واختراع الأسرار...

- في وقتها بالنسبة إلي. اسمحي لي إن كنت وقحاً...

ابتسمت له، مباشرة أمام فمه، ثم فجأة انسلت من جديد نحو المكتبة.

- امسك، حضرة المفتش. بما أنك تملك قلب فنان...

لاحظ سيريناك، مندهشاً، أن ستيفاني تمد إليه كتاباً جديداً.

- من أجل ثقافتك الخاصة. أوريليان، أجمل رواية للويس أراغون. الأحداث الأكثر أهمية تجري في جيفرني. من الفصل 60 إلى الفصل 64. أنا متأكدة أنها ستعجبك.

- شك... شكراً...

لم يجد المفتش شيئاً آخر ليقوله وشتم في سره ضدّ خرسه. أخذته ستيفاني على حين غرة. ماذا يفعل أراغون في هذه القصة؟ أحس أن شيئاً ما يتجاوزه، مثل انزلاق، فقدان القدرة على التحكم. أمسك الكتاب بثقة مصطنعة، ألصقه بفخذه، وذراعه متأرجحة، ثم مد

يده إلى ستيفاني. شدت عليها المدرّسة.

بطريقة أقوى ما يمكن.

بطريقة أطول ما يمكن.

ثانية أو اثنتين. الوقت اللازم ليتحرك تفكيره. تلك اليد في يده تبدو كأنها تريد أن تتمسك بها، تبدو كأنها تصرخ: «لا تتركني. أنت أملي الوحيد، لورنس. لا تتركني أهوي عميقاً».

ابتسمت ستيفاني. لمعت عيناها.

لا بدَّ أنه حلم بالطبع. أصبح أحمقاً. يتشوش من أول تحقيق له في النورماندي.

هذه المرأة لا تخفي شيئاً...

هي جميلة، ببساطة. هي تنتمي إلى رجل آخر.

طبيعي!

تمتم وهو يخطو إلى الخلف:

- ستيفاني، ستتذ... ستتذكرين أن تحضري لائحة الأطفال. سأرسل غداً عميلاً ليأخذها...

هما الاثنان يعرفان أنه لن يرسل عميلاً، وأنه سيأتي بنفسه، وأنها تتمنى ذلك.

- 11 -

انعطفت حافلة فيرنون في شارع كلود مونيه وتوجهت نحو الكنيسة، في الجزء من القرية حيث تدفُّق السياح الأقل كثافة. إن

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أمكن القول... أحب اجتياز القرية في الحافلة، جالسة في المقدمة أمام شاشة بانورامية. أتخطى معرضَي الرسم ديماريز وكاندي، وكالة إيموبريستيج، بيت الضيافة كلوس-فلوري، فندق بودي. لحقت الحافلة بمجموعة من الأطفال الذين يسيرون في الشارع، يحملون حقائبهم على الظهر. تدافع الأطفال على الجانب عند سماع بوق الحافلة، وهم يدوسون الورود البرية والزهور القزحية من دون حياء. ولدان آخران يجريان، بعيداً شيئا ما، أطلقا ساقيهما للريح في الحقل قبالة فندق بودي. تعرفت إليهما، هما دائماً معاً، هذان الاثنان. بول وفانيت. لمحت نبتون أيضاً، هو يجري بجانبهما على العشب. هذا الكلب لا يفارق الولدين، خاصة فانيت،، الفتاة ذات الجدائل.

سأخبركم شيئاً، أصبحت خرفة على ما أظن. أقلق من أجل كلبي العجوز بينما هو يستمتع من دوني مع أطفال القرية.

في نهاية الشارع، أحدد موقف الحافلة القادم. لا أستطيع أن أمنع نفسي من التنهد. إنها الهجرة! أكثر من عشرين مسافراً ينتظر، مصحوبين بحقائب ذات عجلات، حقائب ظهر، وفراشي، وبطبيعة الحال بلوحات مؤطرة في ورق الكرافت.

- 12 -

أمسكَت فانيت يد بول. اختفيا خلف كومة القش، في الحقل الكبير الذي يفصل طريق روي عن شارع كلود مونيه، على ارتفاع فندق بودي.

- ششت، نبتون. اذهب! ستلفت إلينا الأنظار...

نظر الكلب إلى طفلي الحادية عشر ولم يفهم شيئاً. زغبه يغطيه التبن.

- اذهب! أيها الأحمق!

ضحك بول صراحة. قميصه الواسع مفتوح. رمى حقيبة المدرسة بالقرب منه.

أحب كثيراً ضحكة بول، فكّرت فانيت.

- ها هم! هتفت الفتاة فجأة. في طرف الشارع! تعال...

هربا. بالكاد أمسك بول حقيبته. تردد صدى خطواتهما في شارع كلود مونيه.

- بول، أسرع! صاحت فانيت مرة أخرى وهي تمسك يد الولد.

طارت جدائلها في الريح.

- هناك!

انعطفت فجأة على مستوى كنيسة سانت-رادوغوند، صعدت دون أن تبطئ فوق ممر الحصى، ثم استلقت خلف السياج الأخضر الكثيف. هذه المرة، لم يتبعهما نبتون، تشمم الخندق من الجهة الأخرى للطريق وبال على البيوت المنخفضة. بسبب المنحدر، يمكن أن نقول إنها مدفونة. أمسك بول قهقهة.

- ششت، بول. لن يتأخروا عن المرور. أنت أيضاً ستجعلهم يروننا.

تراجع بول قليلاً. جلس على القبر الأبيض خلفه. أحد ردفيه على اللوحة المخصصة لكلود مونيه، والآخر على اللوحة المخصصة لزوجته الثانية، أليس.

- احترس، بول! لا تجلس على قبر مونيه...

- متأسف...

- لا بأس!

أنا حقاً أحب بول، عندما أنازعه ويعتذر مبدياً خجله.

بينما كانت فانيت تضحك، تقدم بول، دون أن يستطيع الامتناع عن الاتّكاء على باقي لوحات المدفن، لوحات باقي أفراد عائلة مونيه.

راقبت فانيت عبر الأغصان. سمعت بعض الخطى.

إنهم هم!

كاميل، وفينسنت، وماري.

وصل فينسنت الأول. قام بمسح للمناطق المحيطة بتركيز رجل هندي. راقب نبتون بهيئة حذرة، ثم صاح:

- فاااااانيت! أين أنت؟

ضحك بول. وضعت فانيت كفها على فمه.

وصل كاميل بدوره إلى مستوى الكنيسة. هو أقصر من فينسنت. ذراعاه السميتان وكرشه يفيض من قميصه المفتوح. لاهث. سمين المجموعة الصغير، كما يوجد دوماً واحد.

- هل رأيتهما؟

- لا! لا بدَّ أنهما ابتعدا...

واصل الولدان طريقهما. صاح فينسنت بصوت قوي:

- فاااانيت! أين أنت؟

رنَّ صوت ماري بعيداً شيئاً ما:

- هل يمكن أن تنتظراني!

انطلق كاميل وفينسنت منذ أكثر من دقيقة عندما توقفت ماري عند الكنيسة. تبدو الفتاة كبيرة بالنسبة إلى سنواتها العشر. عيناها

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

تدمعان خلف نظارتها.

- يا أولاد، انتظراني! لن نهتم بفانيت! انتظراني!

أدارت رأسها نحو القبور، استلقت فانيت في رد فعل على بول. لم ترَ ماري شيئاً، واصلت طريقها، شارع كلود مونيه، تجر صندلها بغضب على الإسفلت.

أوف...

نهضت فانيت وهي تبتسم. جمعت جدائلها. نفض بول الحصى عن سرواله.

- لماذا لا تريدين رؤيتهم؟ سألها الولد.

- إنهم يزعجونني! ألا يزعجونك أنت؟

- باه. أجل، قليلاً...

- آه... انتظر. كاميل لا يتوقف عن استحضار معرفته، «ثرثرة، أنا الأول في الفصل، استمعوا إلي»... فينسنت، هو أسوأ منه، اكتفيت من التصاقه بي! ثقيل، ثقيل، ثقيل! لا يترك لي متراً لأتنفس. أما بالنسبة إلى ماري، لن أرسم لك لوحة. عدا التأوه والشكوى للمدرسة والتحدث عني بسوء...

- هي تغار، قال بول بهدوء. وأنا؟ ألا ألتصق بك كثيراً، أنا؟

داعبت فانيت وجنته بورقة القبس.

أنت، بول، ليس الشيء نفسه. لا أدري لماذا، لكن ليس الشيء نفسه.

- مغفل. أنت تعرف أنك المفضل عندي. ليس دوماً...

أغلق بول جفنيه، تذوق المتعة. أضافت فانيت:

- عادة، على الأقل. لكن ليس اليوم!

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

نهضت وتحققت إن كان الطريق خالياً. أدار بول عينيه.

- ماذا؟ تتركينني، أنا أيضاً؟

- أجل. عندي موعد. سري للغاية!

- مع من؟

- سري للغاية، أقول لك! لا تتبعني، هيه. فقط نبتون من حقه أن...

حرّك بول أصابعه، يديه، ذراعيه، كأنه يحاول إخفاء خوف شديد.

بسبب تلك الجريمة. لا يتحدث الجميع سوى عن هذا منذ الصباح! رجال الشرطة يتجولون في جميع الأزقة. كما لو كان هناك خطر بالنسبة إلينا أيضاً...

ألحّت فانيت:

- وعد؟

ندم بول لكنه حلف:

- وعد!

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

- اليوم الثالث -

15 مايو 2010
(مستشفى فيرنون)

تحليل

- 13 -

تشير الساعة المشعة فوق السرير إلى الواحدة صباحاً واثنين وثلاثين دقيقة. مرّت آخر ممرضة رأيتها منذ أكثر من ساعة. لا بدَّ أنها تعتقد أني نائمة. نائمة. تريدون أن تضحكوا! كيف يمكن أن ننام على كرسي غير مريح؟

أراقب القطرات التي تسقط من المقطرة الرخوة. كم من الوقت يستطيعون الاحتفاظ به على هذا النحو، بالتنقيط؟

أيام؟ شهور؟ سنوات؟

هو أيضاً لا ينام. فقدَ القدرة على الكلام أمس، على الأقل ذلك ما قاله الأطباء. لا يستطيع أيضاً تحريك عضلاته، لكنه يحتفظ بعينيه مفتوحتين. بحسب الممرضات، هو يفهم كل شيء. لم يكرروا ذلك كثيراً، إذا حدثته، إذا قرأت من أجله، سيسمعني: «ذلك مهم من أجل معنويات زوجك».

يوجد العديد من المجلات على الطاولة المجاورة للسرير. عند تواجد الممرضات، أتظاهر بالقراءة بصوت مرتفع. لكن بمجرد أن

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يخرجن، أصمت.

بما أنه من المفترض أن يفهم كل شيء، سيفهم...

نظرتُ إلى المقطرة مرة أخرى. ما فائدة هذه التقطيرات؟ أخبرتني الممرضات أنها تحفظه على قيد الحياة، لكني نسيت التفاصيل.

الدقائق تمر. أشعر أيضاً بالقلق على نبتون. كلبي المسكين وحده في جيفرني. لن أظل هنا طوال الليل.

كانت الممرضات متشائمات. لم يرمش له جفن منذ عشر دقائق. يواصل التحديق بي. هذا يدفعني إلى الجنون.

الثانية صباحاً واثنتا عشرة دقيقة.

مرت إحدى الممرضات ثانيةً. طلبَت مني أن أحاول النوم. تظاهرت بالاستماع إليها.

أخذت قراري.

انتظرت قليلاً، استمعت كي أتأكد من عدم وجود أي صوت في الممر. نهضت. انتظرت قليلاً وأصابعي ترتعش، أزلت التقطيرات. واحدة تلو الأخرى. توجد ثلاثة.

نظر إلي بعينين خائفتين. كان قد فهم. هذه المرة، على الأقل، أكيد أنه فهم.

ماذا كان يتوقع؟

أنتظر.

كم من الوقت؟ خمس عشرة دقيقة؟ ثلاثون؟ أخذت مجلة من فوق الكرسي. نورماندي ماغازين. يذكرون عملية جمع اللوحات

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

الواسعة هذا الصيف، «النورماندي الانطباعية». لن يتحدث أحد في الناحية سوى عن هذا بدءاً من شهر يونيو. أقرأ ظاهرياً. بصمت! كأني لا أهتم إن كان يموت في ركنه. على أي حال، ذلك كان الوضع.

من حين إلى آخر، كنت أراقبه من فوق الصحيفة. حدق في بعينين جاحظتين. حدقت فيه بضع لحظات، ثم استغرقت في القراءة. وجهه يتشوه أكثر في كل مرة. شيء فظيع، يمكن أن تصدقوني.

حوالي الثالثة صباحاً، أحسست أنه قد مات تماماً. لا تزال عينا زوجي مفتوحتين، لكن جامدتين.

نهضت، بدأت أعيد تثبيت التقطيرات، كأن شيئاً لم يحدث. ثم لا، بعد أن فكرت، أزلتها من جديد. ضربت جرس الإنذار.

جاءت الممرضة مسرعة. احترافية.

تظاهرت بالهلع. ليس بشكل مبالغ على أي حال. أخبرتهم أني كنت قد غفوت، وأني وجدت الوضع على ذلك الحال عندما استيقظت مفزوعة.

تفحَّصت الممرضة الأنابيب المنتزعة. بدت منزعجة، كأن الخطأ خطأها.

أتمنى ألا تتعرض لمضايقات. لست أنا من سيتقدم بشكوى في جميع الأحوال!

أسرعَت بحثاً عن الطبيب.

انتابني شعور غريب. يتأرجح بين الغضب والحرية.

وذلك الشكّ.

ما العمل الآن؟

هل أذهب لأخبر الشرطة بكل شيء أو أواصل لعب دور الفأرة السوداء في أزقة جيفرني؟

- 14 -

الصور الفوتوغرافية الخمس موضوعة على مكتب المفوضية. لورنس سيريناك يمسك بين يديه مظروفاً بنياً من الكرافت.

- بحق الرب، قال سيلفيو بينافيدس، من بعث هذا؟

- لا نعرف... وجدنا المظروف مع بريد الصباح. تمَّ إرساله من صندوق بريد في فيرنون. مساء أمس.

- الصور فقط. لم نجد أية رسالة، أية كلمة، لا شيء؟

- لا تفسير، لا لكن الأمر واضح. نحن أمام عرض لعشيقات مورفال. الأفضل... أرجوك، سيلفيو، الق نظرة، أنا سنحت لي الفرصة كي أتفحص...

هزّ سيلفيو بينافيدس كتفيه ثم مال نحو الصور الخمس: يوجد جيروم مورفال في كل منها رفقة امرأة مختلفة... ولا واحدة زوجته. جيروم مورفال خلف مكتبه، يتكئ على ركبتي فتاة يقبِّلُها بملء فمه، يمكن أن تكون سكرتيرة في عيادته. جيروم مورفال على أريكة في علبة ليلية، كفّه على ثدي فتاة ترتدي ثوباً لامعاً. جيروم مورفال عاري الصدر، مستلقٍ إلى جانب فتاة ذات بشرة بيضاء على رمل شاطئ ديكور خلفيته يذكر بأيرلندا. جيروم مورفال واقف في صالون مزيَّن بالرسوم، يشبه صالونه، بينما فتاة ترتدي تنورة حتى ركبتيها تدير بظهرها للمصور، لكن ليس

لطبيب العيون. جيروم مورفال يمشي في طريق غير ممهد فوق جيفرني، نتعرف إلى ناقوس كنيسة سانت-رادوغوند.. يداً بيد مع ستيفاني دوبان.

صفر سيلفيو بينافيدس.

- لا شيء يقال. عمل احترافي!

ابتسم سيريناك.

- أنا أيضاً أرى ذلك. يظهر في المستوى طبيب العيون، ومع ذلك هو لا يملك مظهر الفتى الأول...

نظر بينافيدس لحظة إلى رئيسه محتاراً، ثم حدد:

- لم أعنِ مورفال، كنت أتحدث عن الشخص الذي التقط الصور!

غمزه سيريناك.

- أنت رائع، سيلفيو. تفلح في كل مرة! هيا، متأسف، تابع...

احمرَّ بينافيدس وواصل وهو يتمتم:

- أردت... أردت أن أقول، حضرة الرئيس، إنه بلا شكّ عمل تحرٍّ خاص محترف. أولياً سأقول إن الصور، على الأقل اللتان أخذتا في المكتب والصالون، أخذتا عبر نافذة، مع زوم لا يستطيع حتى صحافي محترف في تعقب المشاهير تحقيقه.

تفحص سيريناك الصورتين مرة أخرى. كشّر بشقاوة مبالغة.

- أجل. لا أجد أكثر صعوبة. الصور الداخلية غير واضحة، لا؟ لن أنتقد، هو بالفعل عمل جميل، لا؟ من الواضح أن مورفال كان يختار الفتيات الجميلات. هذا ما كان علي أن أفعله، أن أصبح تحرٍّ خاص بدل شرطي.

لم يعلق سيلفيو.

- برأيك من، عدا زوجته، يمكن أن يكون قد أمر بالتقاط الصور؟

- لا أعرف. سنسأل باتريسيا مورفال، لكن عندما التقيتها، لم تكن شديدة الثرثرة بخصوص خيانات زوجها. وأحس أننا في هذه القضية يجب أن نحذر البديهيات.

- ماذا تريد أن تقول؟

- طيب، مثلاً، سيلفيو، أظن أنك لاحظت طبيعة الصور الخمس جد صعبة. في البعض منها، صورة الملهى، وصورة الصالون، وصورة المكتب، من دون شك، العزيز مورفال يعاشر الفتيات...

عقد بينافيدس حاجبيه.

- طيب، أضاف سيريناك، ربما أسرعت في الحكم. يمكن أن نقول إن مورفال حميمي معهن كي يداعب صدورهن أو يحصل على شيء منهن. لكن إذا تأملنا الصورة على الشاطئ أو بالأخص صورة جيفرني، لا شيء يدل على أن الفتيات عشيقات لمورفال.

- الأخيرة، قال بينافيدس، هي الوحيدة التي نعرفها. ستيفاني دوبان، مدرّسة القرية، هل أنا مخطئ؟

أكَّد سيريناك برأسه. واصل سيلفيو:

- على العكس، حضرة الرئيس، لا أعرف أين تريد أن تصل بحكاياتك عن التبختر في حكايات مورفال. الخيانة، هي الخيانة، لا؟

- سأخبرك أين أريد أن أصل. لا أحب تلقّي هدايا من مصدر مجهول. وأقل من ذلك توجيه التحقيق في جريمة من خلال رسائل

خفية. تفهم ذلك، أنا ولد كبير، ولا أحب أن يريني شخص لا يُظهِر نفسه أين علي أن أبحث.

- بالواضح، هذا يعني ماذا؟

- هذا يعني مثلاً أن ستيفاني دوبان ليست عشيقة لمورفال فقط لأنها توجد وسط هذه الصور. لكن ربما أحبَّ شخص ما أن نخلط الأمور...

حكَّ سيلفيو بينافيدس رأسه وهو يفكر في الفرضية التي قدمها رئيسه.

- موافق، أنا معك بالنسبة إلى هذا الأمر. لكننا لا يمكن ألا نهتم بهذه الصور...

- أوه طبعا لاً... خاصة أننا لم نتوصل بعد إلى حلّ اللغز. تمسك سيلفيو، وانظر قليلاً إلى الظهر.

أدار سيريناك الصور واحدة واحدة على المكتب. على ظهر كل واحدة كان يوجد رقم.

23-02 بالنسبة إلى صورة المكتب. 15-03 بالنسبة إلى صورة العلبة الليلية. 21-02 على صورة الشاطئ. 17-03 بالنسبة إلى صورة الصالون. 03-01 خلف صورة طريق جيفرني.

- تباً، صفر بينافيدس. ماذا يعني هذا؟

- ليس عندي أدنى فكرة...

- كأنها تواريخ. ربما الأيام التي أخذت فيها الصور؟

- أجل... وستكون أُخِذت كلها بين شهر يناير وشهر مارس؟ لا بدَّ أن صحته جيدة، ملك التصوير، ألا ترى معي ذلك؟ وأراهن بأن صورة شاطئ أيرلندا لم تُأخذ في الشتاء...

- إذاً؟

- طيب، سنبحث سيلفيو! ليس أمامنا خيار. سنفتش. هل تريد أن أقترح عليك لعبة؟

أظهر بينافيدس ابتسامة حذرة.

- ليس حقاً، لا

- طيب، يمكن أن نقول إن ليس أمامك خيار...

انحنى سيريناك، جمع الصور الخمس، خلطها، ثم عرضها على شكل مروحية مثل ورق اللعب، وقدمها لسيلفيو.

- كل بدوره، سيلفيو. سنسحب فتاة لكل واحد. وبعد ذلك، سنقوم بدور الشرطي كي نجد اسمها، وسيرتها الذاتية، وحجة غيابها يوم مقتل مورفال. موعدنا بعد يومين وسنرى من منا اشتغل أكثر...

- أنت غريب في بعض الأحيان، حضرة الرئيس...

- لكن لا، سيلفيو. هي فقط طريقتي لعرض الأمور. بالنسبة إلى الباقي، ماذا تريد أن نفعل غدا أن نحدد هوية هؤلاء النسوة؟ ولن نترك موري ولوفيل يذهبان بدلنا لاصطياد هذه الكائنات، هاه؟

انفجر سيريناك ضاحكاً.

- طيب، سأبدأ إن لم تقرر.

سحب لورنس سيريناك صورة جيروم مورفال يتكئ على ركبتي الفتاة وراء المكتب.

- السكرتيرة الخاصة التي تلعب دور الدكتور مع رئيسها، علَّق. سنرى جيداً. دورك...

تنهد سيريناك، ثم أمسك بطاقة ممدودة.

- لا تغش، لا تنظر إلى الأرقام!

قلب سيلفيو الصورة. صورة علبة الليل.

- محظوظ! صاح سيريناك. الفتاة ذات الثوب اللامع!

احمرّ سيلفيو. سحب لورنس سيريناك بدوره. حصل على صورة الفتاة على ركبتيها.

- مفاجأة الرئيس. فتاة الظهر. الأمر لك...

عرض سيريناك الصورتين الأخيرتين على بينافيدس. حدد الحظ صورة الشاطئ.

- مجهولة بحر أيرلندا، علق سيريناك. تتدبر أمورك بشكل جيد أيها الوغد.

ربت سيلفيو بينافيدس على الصور فوق المكتب، ثم قيّم رئيسه بابتسامة ساخرة.

- أنت تسخر مني، حضرة المفتش. لا أعرف كيف تدبرت الأمر، لكني كنت متأكداً منذ البداية أنك ستحتفظ بصورة ستيفاني دوبان.

أعاد إليه سيريناك ابتسامته.

- لا يمكن أن نغالطك، أليس كذلك؟ لن أكشف لك سري، لكنك محق، امتياز الرئيس، سأحتفظ بالمدرّسة الجميلة. ولا تزعج نفسك بالأرقام على ظهر الصور، سيلفيو، 15-03، 21-02... أنا متأكد أننا متى وضعنا أسماء على الفتيات الأربع ستتحدث الأرقام من نفسها...

وضعْ الصور في درج المكتب.

- بالنسبة إلى الباقي، سنشرع؟

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

- طيب، سنشرع. انتظر، حضرة الرئيس. قبل أن نشرع، أحضرت هدية صغيرة. طريقة لقول إني لست حقوداً مهما حاولت خداعي.

نهض بينافيدس قبل أن يستطيع سيريناك الاعتراض. غادر المكتب ثم عاد يحمل في يده كيساً ورقياً أبيض.

- أخرجت من الفرن للتو، إن صحَّ القول...

دفع سيلفيو بينافيدس الكيس على الطاولة وأفرغه. تناثرت حوالي عشرين قطعة كعك بالشوكولا

- حضرتها من أجل زوجتي، حدد سيلفيو، عادة هي تحبها، لكن منذ خمسة عشر يوماً لم تعد تستطيع بلع شيء... حتى مصحوبة بالكريمة الإنجليزية التي أحضّرها في البيت.

ترك سيريناك نفسه يسقط في الكرسي ذي العجلات.

- أنت أم بالنسبة إلي، سيلفيو. سأعترف لك، طلبت نقلي إلى هذه البلدة الفاسدة من الشمال فقط كي أحصل عليك مساعداً لي!

- لا تبالغ...

- لا أبالغ بالقدر الكافي، تريد أن تقول!

رفع عينيه نحو مساعده.

- ومتى، الطفل الرضيع؟

- هذه الأيام... الولادة مقررة بالضبط في الأيام الخمس... لكن بعد ذلك، أنت تعرف... قضم سيريناك قطعة كعك.

- حقاً! هي رائعة. هي مخطئة، زوجتك!

مال سيلفيو بينافيدس على الملف الذي كان على الكرسي. عندما استقام، كان رئيسه واقفاً من جديد.

- ومع القهوة، أضاف سيريناك، لن أقول لك. سأهبط بسرعة

لإحضار فنجان. هل أحضر واحداً من أجلك؟

القائمة التي يمسكها سيلفيو بين يديه تصل إلى الأرض.

- هوه، لا شكراً.

- صحيح، لا شيء؟

- هيا. أجل. شاي من دون سكر.

بعد دقيقتين، عاد المفتش سيريناك بفنجانين. فتات الكعك على الطاولة تم تنظيفه. تنهَّد سيريناك، كأنه يريد إفهام مساعده أن من حقه أن يستريح. بالكاد جلس حتى بدأ بينافيدس تحليله:

- إذاً، حضرة الرئيس، سأختصر. يؤكد تقرير التشريح أن مورفال تمَّ طعنه بسكين. مات بعد دقيقة من طعنه. بعد ذلك فقط، هشَّم أحد ما الجمجمة بواسطة حجر، ثم غمر رأسه في الجدول. تمّت الجريمة بحسب هذا الترتيب، أطباء الطب الشرعي حاسمون.

غمس سيريناك قطعة كعك في القهوة ثم علق مع ابتسامة:

- نظراً إلى سجل طبيب العيون، إذا حدث، ثلاثة غيورين تعاونوا على ذلك. جمعية رجال تعرضوا للخيانة. هذا يفسر الطقس، مثل ما حدث في جريمة في قطار الشرق.

تفحّصه بينافيدس بذهول.

- كنت أمزح، سيلفيو. كنت أمزح...

غمس في القهوة.

- هيا، سأكون جاداً لثانيتين. يجب أن أعترف لك، يوجد شيء غريب في هذه القضية. صلة بين كل العناصر لا تتحقق.

مرَّ وميض في نظرة سيلفيو.

- متفق معك تماماً حضرة المفتش...

تردد لحظة. ثم:

- على أي حال، عندي شيء لأريك إياه... شيء سيفاجئك.

- 15 -

جرت فانيت، كما يحدث كل يوم عند الخروج من المدرسة. تركت باقي أطفال المدرسة ثم لعبت لعبة الغميضة في أزقة جيفرني كي لا تلتقي فينسنت وكاميل وماري مرة أخرى. شيء سهل! هي تعرف كل الأزقة عن ظهر قلب. مرة أخرى، أراد بول مرافقتها، فقط هو، وليس الآخرين، قال إنه لا يريد أن يتركها لوحدها بسبب المجرم الذي من الممكن أن يكون يتجول في الشوارع، لكنها أصرت، لم تقل شيئاً.

إنه سري!

ها هي، لقد وصلت تقريباً. تجاوزت الجسر، المغسل، الطاحونة العتيقة المُعوجة بذلك البرج الذي يخيفها.

أقسم لك بول، غداً، سأقول لك مع من أتواعد سرياً، كل يوم منذ أسبوع. سأخبرك غداً.

أو بعد غد.

واصلت فانيت، تقدمت في الطريق في اتجاه المرج.

جيمس هناك.

يقف بعيداً شيئاً ما، في حقل القمح الذي تصل سنابله فوق ركبتيه، بالضبط وسط أربع من حاملات قماشات الرسم. تقدمت فانيت خلسة.

- هذه أنا!

ابتسامة كبيرة غيّرت شكل لحية جيمس البيضاء. ضمَّ فانيت بين ذراعيه. لحظة قصيرة.

- هيا بسرعة، أيتها المقرفة. إلى العمل! لم يبقَ الكثير من ساعات الضوء. مدرستك تنتهي في وقت جد متأخر.

وقفت فانيت أمام حامل القماشة، ذلك الذي تستعيره من جيمس، الأصغر، المناسب لحجمها. مالت نحو العلبة الخشبية اللامعة الخاصة بالصباغة واستعملت الأنابيب والفرش.

لا تعرف فانيت شيئاً كثيراً عن الرسام العجوز الذي التقت به منذ أسبوع، عدا أنه أميركي، وأن اسمه جيمس، وأنه يرسم في هذا المكان تقريباً كل يوم؛ قال لها إنها الفتاة الأكثر موهبة رآها أبداً، في العالم أجمع، كان أستاذاً للرسم في الولايات المتحدة، كما حكى. لا يتوقف عن قول إنها تتحدث طوال الوقت، وإنها حتى لو كانت موهوبة، يجب أن تركز أكثر.

- مثل مونيه. يجب أن تعرف أن تلاحظ وتتخيل. هذا شعاره، هو، جيمس.

المراقبة والتخيل. والرسم بسرعة أيضاً، لهذا هو يحمل أربعة حوامل، كي يستطيع أن يرسم بمجرد أن يحط الضوء على زاوية من المشهد، بمجرد أن تتحرك الظلال، أن تتغير الألوان. أخبرها أن مونيه كان يتجول بست حوامل في الحقول. كان يدفع مقابلاً لأطفال من سنّها كي يحملوا كل شيء، في وقت مبكر في الصباح ووقت متأخر في المساء.

هذا هراء! هذه خدعة من جيمس، كي تحمل هي أيضاً أدواته.

خمّنت ذلك، لكنها تتظاهر بأنها تصدقه. جيمس لطيف، لكنه يميل إلى اعتبار نفسه مونيه.

واعتباري بلهاء!

- لا تستسلمي لأحلام اليقظة، فانيت. ارسمي!

حاولت الفتاة نقل المغسل النورماندي، الجسر على الجدول، الطاحونة القريبة. كانت ترسم بالفعل منذ دقائق عديدة...

- هل تعرف من هو تيودور روبنسون؟ حدّثتنا عنه المُدرّسة...

- لماذا؟

- سجّلت الفصل في مباراة. مباراة عالمية، سيد جيمس. أجل، أجل، عالمية... جائزة روبنسون! إن فزت، سأذهب إلى اليابان، أو روسيا، أو أستراليا... سأرى... لم أقرر بعد...

- فقط هذا؟

- ولم أحدثك عن الدولارات...

وضع جيمس لوحة الألوان على حقيبة الرسم. لحيته، في لحظة أو في أخرى، سوف تنقع في الصباغة. مثل ما يحدث كل يوم.

هي خضراء، اليوم.

أنا فظيعة، لا أخبره أبداً، عندما يمتلئ شعر لحيته بالصباغة. يضحكني ذلك كثيراً.

اقترب جيمس.

- هل تعرفين، فانيت، إذا اشتغلتِ بحق. إذا آمنتِ بذلك. يمكنك أن تفوزي بتلك المسابقة...

هنا، هو يخيفني شيئاً ما.

لا بدَّ أن جيمس قد لاحظ أن فانيت تنظر إلى لحيته. مرر إصبعه،

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

انتشرت الصباغة الخضراء أكثر.

- لا تخدعني...

- أنا لا أخدعك، فانيت. قلت لك ذلك بالفعل. أنت موهوبة. لا تستطيعين شيئاً، الأمر هكذا، ولدت به. وحتى، أنت تعرفين ذلك جيداً، على أي حال... أنت موهوبة في الرسم. حتى أكثر من هذا. عبقرية فريدة من نوعها. لكن كل هذا لا يجدي إذا...

- إذا لم أشتغل، هذا هو؟

- أجل، يجب أن تشتغلي. هذا ضروري بطبيعة الحال. وإلا، فإن الموهبة... ششت... لكن ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله لك...

تحرَّك جيمس ببطء. حاول تخطّي سنابل القمح كي لا يهشمها. غيّر مكان أحد الحوامل، كما لو أن الشمس في السماء فجأة أخذت تعدو.

- ما أريد قوله، فانيت، هو أن العبقرية لا تنفع إن لم نكن قادرين على أن نكون... كيف أفسر لك ذلك؟ قادرين على أن نكون أنانيين...

- ماذا؟

أحياناً، جيمس، يقول أي شيء.

- أنانيين! صغيرتي فانيت، العبقرية تزعج أولئك الذين لا يمتلكونها، ما يعني جميع الناس. العبقرية تبعدك عمّن تحبين، وتجعل الآخرين يغارون. هل تفهمين؟

يحك لحيته. ينشر الصباغة في كل مكان. لا يدرك ذلك. هو عجوز، جيمس. عجوز عجوز عجوز.

- لا، لا أفهم شيئاً!

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

- سأشرح لك بشكل آخر. لو أخذنا مثالي أنا، كان حلماً مطلقاً بالنسبة إلي أن أجيء إلى جيفرني لأرسم، أن أكتشف مشاهد مونيه في الواقع. لا يمكن أن تتصوري في قريتي في كونيتيكت، الساعات التي أمضيتها أمام اللوحات المنقولة عن لوحاته، كم مرة حلمت بها. أشجار الحور، الأوب، النيلوفر، جزيرة القراص... هل تظنين أن هذا كان يستحق، أن أغادر زوجتي، وأبنائي، وأحفادي، في عمر الخامسة والستين؟ ما الشيء الذي كان أكثر أهمية؟ حلمي أن أرسم أو أن أقضي عيد القديسين (الهالوين) وعيد الشكر مع عائلتي...

- آه...

- ترددين، هاه. طيب، أنا لم أتردد! وصدقيني، فانيت، لم أندم على شيء. مع أني أعيش هنا كمتسكع، أو تقريباً. ولا أتوفر على ربع موهبتك... هل تدركين ما أود قوله، إذاً، عندما أقول «أناني»؟ ماذا تظنين، هل تظنين أن الرسامين الأميركيين الأوائل الذين جاؤوا إلى فندق بودي، في زمن مونيه، لم يخاطروا هم أيضاً؟ إنهم لم يضطروا إلى المجازفة هم أيضاً؟ إنهم لم يهجروا كل شيء؟

لا أحب عندما يتحدث جيمس على هذا النحو. أشعر كأنه يقول عكس ما يفكر به. كما لو أنه، في الحقيقة، ينزعج حدّ الموت، كما لو أنه يفكر طوال الوقت في عائلته في أميركا.

أمسكت فانيت فرشاة.

- طيب، سيد جيمس، سأواظب، أنا متأسفة لأني سأضطر أن أكون أنانية، لكن أمامي مباراة روبنسون يجب أن أفوز بها.

أطلق جيمس ضحكة.

- أنتِ على حق، فانيت. لست سوى عجوز أحمق متأفف.

- وخرف. أنت حتى لم تخبرني من هو روبنسون!

تأمل جيمس عمل فانيت. أغمض عينيه.

تيودور روبنسون رسام أميركي. الانطباعي الأكثر شهرة عندنا في الولايات المتحدة. هو الرسام الأميركي الوحيد الذي أصبح صديقاً حميماً لمونيه. كان كلود مونيه يفر من الآخرين مثل فراره من الطاعون. بقي روبنسون ثماني سنوات في جيفرني... حتى إنه رسمَ عرس قريبة كلود مونيه المفضلة، سوزان، مع الفنان الأميركي تيودور بوتلر. و... شيء غريب، فانيت، لوحة أخرى من لوحاته الأكثر شهرة تمثل بالضبط المشهد الذي ترسمينه...

كادت فانيت تفلت الريشة من يدها.

- ماذا!

- نفس المشهد. كما أقول لك! يتعلق الأمر بلوحة قديمة رسمت سنة 1891، لوحة مشهورة تمثل جدول الأوب، الجسر من فوقه، مولان دو شونوفير. في الخلفية، نرى امرأة بالفستان تعقد شعرها في منديل... وفي وسط الغدير رسم رجل يسقي حصانه. عنوان اللوحة هو **الأب ترونيون وابنته على الجسر**. ترونيون كان اسم الرجل، الخيّال، كان من سكان جيفرني... الأب ترونيون.

هذه المرة، لم تمسك فانيت ضحكتها.

أحياناً يعتبرني جيمس فعلاً خرقاء.

الأب ترونيون. هو يقول أي شيء!

كان جيمس يحدق دوماً في لوحة الصبية. لحية العجوز تكاد تنزل تقريباً إلى عينيها. مرَّ أصبعه على بعد حوالي مليمترات من الرسم الذي كان لا يزال طرياً.

- جيد، فانيت. أحب كثيراً الظلال حول الطاحونة. جيد جداً. إنها إشارة من القدر، فانيت. أنت ترسمين نفس مشهد تيودور روبنسون، أفضل منه بكثير، يجب أن أقول. ثقي بي، ستفوزين بها، تلك المباراة! الحياة، تعرفين فانيت، هي فقط فرصتين أو ثلاثة لا يجب تفويتها. تنحصر في هذا، جميلتي، الحياة! لا شيء أكثر.

ذهب جيمس لنقل حوامله. كان يبدو كأنه يمضي من الوقت في نقل لوحاته أكثر مما يمضيه في رسمها. كأن الشمس كانت أسرع منه.

لا يزعجه ذلك.

كانت قد مرت ساعة تقريباً عندما جاء نبتون لموافاتهما. تشمم الراعي الألماني بحذر علبة الصباغة، ثم اضطجع عند قدمي فانيت.

- هل هو كلبك؟ سألها جيمس.

- لا، ليس حقاً... أظن أنه كلب القرية، لكني تبنّيته. أنا هي من يفضِّل!

ابتسم جيمس. جلس على مقعد أمام أحد حوامل قماشة الرسم، لكن في كل مرة كانت فانيت تنظر إليه، كان ذلك لتراه يضع أنفه في لوحته. لن يتأخر الوقت في أن تأخذ لحيته ألوان قوس قزح. تنتظر اللحظة المناسبة لتضحك.

لا. لا، يجب أن أركز.

واصلت فانيت دراستها لطاحونة شونويير. فتلت أشكال البرج الصغير المفرغ، عززت التناقضات، المُغرة، البلاط، الحجر، الطاحونة، يطلق عليها جيمس «طاحونة الساحرة». بسبب المرأة العجوز التي تسكنها

ساحرة...

أحياناً يعتبرني جيمس حقاً طفلة.

غير أن فانيت شعرت بقليل من الخوف. شرح لها جيمس لماذا لا يحب ذلك البيت. قال لها إنه بسبب تلك الطاحونة كانت «نيلوفر» مونيه على وشك ألا توجد. شيدت الطاحونة وحديقة مونيه على الجدول نفسه. كان مونيه يريد بناء سد، وضع محابس، تغيير مجرى الماء من أجل إنشاء بركة! لا أحد في القرية كان موافقاً بسبب الأمراض والمستنقعات. خاصة الجيران. خاصة سكان الطاحونة. سبَّبَ ذلك مشاكل، غضب مونيه من الجميع، دفع الكثير من المال أيضاً، كتب إلى المحافظ، إلى رجل لا تعرفه أيضاً، صديق لمونيه، اسمه كليمنصو. وانتهى به الأمر إلى الحصول عليها، بركة النيلوفر.

كان ذلك ليشكل خسارة!

شيء سخيف ألا يحب جيمس تلك الطاحونة. ذلك الشجار حول السد بين مونيه وجيرانه، حدث منذ وقت بعيد.

أحياناً، يكون جيمس سخيفاً.

ارتعشت.

إلا إن كانت الطاحونة تسكنها فعلاً ساحرة!

اشتغلت فانيت عدة دقائق أخرى. حلّ الظلام. ظهرت الطاحونة أكثر شراً. يعجبها ذلك. جيمس ينام منذ وقت طويل.

فجأة، نهض نبتون وهو يقفز. نبح الكلب بحدّة. التفتت فانيت دفعة واحدة نحو أجمة الحور، مباشرة خلفها، فاجأها خيال صبي في مثل عمرها.

فينسنت! بنظرة فارغة.

- ماذا تفعل هنا؟

استيقظ جيمس هو أيضاً فزعاً. واصلت فانيت الصياح:

- فينسنت! أكره عندما تصل كأنك جاسوس في ظهري. أنت هنا منذ كم من الوقت؟

لم يقل فينسنت شيئاً. حدق في لوحة فانيت، الطاحونة، الجسر. بدا كأنه ممغنط.

- أملك كلباً بالفعل، فينسنت. عندي نبتون. هذا يكفي. وتوقف عن التحديق بي بهذا الشكل، أنت تخيفني...

سعل جيمس في لحيته.

- هه... طيب، أيها الولدان، جميل أنكما أصبحتما اثنين. نظراً إلى غياب الضوء، أعتقد أن الوقت قد حان كي نأخذ الأدوات. ستساعداني! كان مونيه يقول إن الحكمة تكمن في الاستيقاظ والنوم مع الشمس.

لم تغادر عينا فانيت فينسنت.

إنه يخيفني، فينسنت، عندما يظهر هكذا فجأة. وراء ظهري. كأنه يتجسس علي. أحياناً، أحس أنه أحمق.

- 16 -

تجمّد فنجان المفتش سيريناك في يده. ظهر مساعده بهيئة تلميذ قام بواجبه الإضافي في بيته لكن الرغبة والخوف من تقديمه لمدرّسه

يشلانه. اختفت يد بينافيدس في ملف سميك. أخرجت منه ورقة من حجم A4.

- تفضل، حضرة الرئيس، كي نرى الأمور بوضوح، بدأت بوضع هذا...

تناول سيريناك قطعة أخرى من كعك الشوكولا، وضع فنجان القهوة وانحنى مندهشاً. واصل سيلفيو:

- إنها فقط طريقة أنظِّم بها أفكاري. هو هوس عندي، هذا النوع من الأشياء، تحرير ملاحظات، القيام بملخصات، رسم مخططات. هنا، كما ترون، قسمتُ الورقة إلى ثلاثة أعمدة. إنها المسارات الثلاثة الممكنة بحسب رأيي: الأول، الجريمة العاطفية التي ستكون مرتبطة بإحدى عشيقات مورفال. يمكن طبعاً أن نتهم زوجته، أو زوجاً غيوراً، أو حتى عشيقة تعرضت للرفض... لا تنقصنا الخيوط من هذه الناحية.

غمزه سيريناك.

- شكراً لباعث الرسائل الخفية... هيا، واصل، سيلفيو...

- العمود الثاني، هو عمود الرسم، مجموعته من اللوحات، اللوحات التي كان يبحث عنها، لوحات مونيه، «النيلوفر». لمَ لا حكاية إخفاء لوحات مسروقة؟ عملية بيع في السوق السوداء؟ في جميع الأحوال، مسألة فنّ ومال...

- قضم سيريناك كعكاً آخر ثم أنهى شرب قهوته. ردّ فعل محض، جمع بينافيدس الفتات وكوّمه. رفع عينيه وتأمل على جدران المكتب عشرات اللوحات التي حرص رئيسه على تعليقها منذ قدومه. تولوز لوتريك. بيسارو. غوغان. رينوار...

- ضربة حظ إن استطعت القول. الرسم هو مجالك، حضرة

المفتش.

- مصادفة محضة، سيلفيو... لم أشك خلال نقلي إلى فيرنون، أن أول جثة لي ستكون مغمورة في جدول جيفرني... كنت أهتم بالفعل بالفن قبل مدرسة الشرطة، لهذا أمضيت كل فترات التدريب عند الشرطة الفنية، في باريس.

بدا أن بينافيدس يكتشف للتو وجود قسم من هذا النوع.

- أنت لا تميل كثيراً إلى الفن، سيلفيو؟

- المطبخي، فقط.

ضحك بينافيدس.

- أحسنت! وأبصم بالعشرة... أطلعت زملائي السابقين في شرطة الفن على القضية. لنرى... سرقة... حيازة مسروقات... مجموعات مشبوهة... أسواق موازية... هي أعمال لا نتصورها... سنحت لي الفرصة عدة مرات كي أغوص في هذه الأمور في تلك الفترة. لا تتصور، توجد الملايين والملايين من أصناف اللعب. أنتظر أخباراً منهم. طيب، والعمود الثالث؟

نظر سيلفيو بينافيدس إلى ورقته.

- بالنسبة إلي، الخيط الثالث، لا تسخر مني حضرة الرئيس، سيكون الأطفال. إحدى عشرة سنة من الأفضل. لا تنقصنا المؤشرات هنا أيضاً: البطاقة البريدية الخاصة بعيد الميلاد وتلك المقولة لأراغون. قد يكون مورفال قد اتخذ عشيقة من اثنتي عشرة سنة، وقد يكون ترك لها ابناً دون أن يخبر زوجته... على أي حال، تفصيل آخر مثير، بحسب الخبراء، ورق بطاقة المعايدة البريدية التي وجدت في جيب مورفال جد قديم. هو على الأقل خمس عشرة سنة، ربما أكثر.

النص المكتوب بالآلة: عيد ميلاد سعيد. إحدى عشرة سنة، سيكون من الفترة نفسها، لكن الإضافة، نص أراغون، سيكون حديثاً... غريب، لا؟

صفر المفتش سيريناك إعجاباً.

- أحتفظ بما قلته، سيلفيو. أنت المساعد المثالي.

نهض فجأة وهو يضحك.

- فقط أنت جد ملحّ، ومفرط في الدقة، بقدر شعرة، لكن يمكن أن نقول إننا معاً نحقق المعدل.

توجَّه نحو الباب.

- هيا نتحرك سيلفيو. هلّا تبعتني إلى المختبر؟

اقتفى بينافيدس أثره دون كلام. سارا في الممرات، هبطا درجاً معتماً. استدار سيريناك نحو مساعده وهو يتابع تقدمه.

- بالنسبة إلى الأمور التي يجب القيام بها، الأمور ذات الأسبقية، ستكتب على ورقتك «البحث عن شهود». شيء لا يصدق ألا يكون أحد قد رأى شيئاً يوم مقتل مورفال، في قرية جميع من فيها يرسم من المساء إلى الصباح، وأن يكون الشهود العفويون الذين حصلنا عليهم هم مصور صحافي مجهول، يبعث لنا صوراً خليعة، وكلب يبحث عن الحنان. هل تحريت عن المنزل المجاور للمغسل؟ تلك الطاحونة المُعوجة؟

أخرج سيريناك من جيبه مفتاحاً ليفتح باباً أحمر مضاداً للحرائق كُتِبَ عليه الكلمات الثلاث «مختبر - أرشيف - توثيق».

- ليس بعد، أجاب بينافيدس. يجب أن أمر عليه بمجرد أن أتوفر على وقت لذلك.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

فتح المفتش الباب الأحمر.

- في انتظار ذلك، فكرت في مهمة أخرى ستشغل كل المفوضية. سوف أشكل فريقاً من عدة رجال من أجل هذا... مفاجأة الرئيس!

تقدم في الغرفة المظلمة. كانت هناك علبة كرتون على الطاولة الأولى. فتحها سيريناك وأخرج بصمة نعل من الجبس.

- رقم 43، أعلن بفخر. نعل حذاء طويل الرقبة. لا يمكن أن نجد اثنين متشابهين في العالم! بحسب موري، نقشها أكثر تحديداً من بصمة أصابع، أخذ قالبها طرياً في وحل ضفاف جدول الأوب دقائق بعد مقتل مورفال. لن أرسم لك صورة، مالك هذه الحذاء هو على الأقل شاهد مباشر على الجريمة... وسيأخذ خيار الحصول على لقب قاتل!

اتسعت عينا سيلفيو.

- وماذا نفعل بهذا؟

ضحك سيريناك.

- سأطلق رسمياً العملية «سندريلا»!

- أؤكد لك، حضرة المفتش، أنني أبذل مجهوداً، لكني أحياناً يصعب علي فهم روح الدعابة عندك...

- سيحدث ذلك، سيلفيو. نحن نتعود، لا تقلق.

- أنا لا أقلق. أنا حتى لا أهتم، كي أقول لك. إذاً، ما هي العملية «سندريلا»؟

- أقترح عليك نسخة ريفية، نزعة طين ومستنقعات... ستتمثل المهمة في استعادة جميع الأحذية طويلة الرقبة التي يحتفظ بها سكان جيفرني الثلاثمئة في بيوتهم.

- فقط هذا!

مرر سيلفيو يده في شعره.

- هيا، كم سيصل عددها؟ واصل سيريناك. مئة وخمسون حذاء؟ مئتين على الأكثر...

- حقاً. حضرة المفتش... هذه فكرة سريالية.

- بالضبط! أظن أنها لهذا السبب هي تعجبني.

- لكن أخيراً، حضرة الرئيس، أنا لا أفهم. لا بدَّ أن القاتل قد تخلص من ذلك الحذاء. في جميع الأحوال، إن لم يكن مخبولاً، فهو لن يعهد به لشرطي يطالب به...

- بالضبط عزيزي... بالضبط... سنشتغل بطريقة الإقصاء. فلنقل إن سكان جيفرني الذين سيدّعون أنهم لا يتوفرون على حذاء طويل، أو أنهم فقدوه، أو الذين سيقدمون حذاءً جديداً كأنهم اشتروه بالأمس فقط، سنجعلهم على رأس قائمة المشبوهين.

نظر بينافيدس إلى نعل الجبس. علت شفتيه ابتسامة عريضة.

- إذا سمحت، حضرة الرئيس، تخطر عليك أفكار غريبة... لكن الأسوأ هو أن بإمكانها أن تجعلنا نتقدم! مراسيم دفن مورفال ستتم بعد يومين. تصور أن السماء أمطرت بغزارة... كل سكان جيفرني سيلعنونك!

- لأنكم تحضرون الجنائز بالأحذية ذات الرقبة الطويلة؟

- باه، إذا كانت تمطر، أجل...

ضحك بينافيدس.

- سيلفيو، أنا أيضاً أجد صعوبة في فهم روح الدعابة عندكم.

لم يعلق مساعده. لوى الورقة بين يديه.

- مئة وخمسون حذاء طويل الرقبة، تمتم. في أي عمود أضع هذا؟

بقيا صامتين لحظة قصيرة. تأمل سيريناك الغرفة المظلمة، رفوف الأرشيف السميكة التي تغطي ثلاثة جدران من أربعة، الزاوية التي وضع فيها مختبر رث، الحائط الرابع من أجل التوثيق. أمسك بينافيدس علبة أرشيف حمراء فارغة، وكتب «مورفال» على الشريحة، وهو يقول في نفسه إنه سيرتب الوثائق الأولى من الملف في وقت آخر.

التفت فجأة نحو رئيسه.

- في الواقع، حضرة المفتش، هل أخذت من المدرّسة لائحة الأطفال في عمر الحادية عشر؟ ستشكل ورقة إضافية في عمودي الثالث... إنه العمود الهزيل، ومع ذلك...

قاطعه سيريناك:

- ليس بعد. ستحضرها ستيفاني دوبان... بحسب علمي، نظراً إلى الصور التي تلقيناها، في استعراض عشيقات مورفال، لم تعد المشتبه بها رقم واحد...

- غير أني استعلمت عن الزوج، قال بينافيدس. جاك دوبان. هذا الأخير، ليس بعيداً عن امتلاك الشكل المثالي.

قطب سيريناك جبينه.

- أخبرني أكثر عن الموضوع. ما هو الشكل المثالي؟

- آه... يمكن أن يكون نافعاً أن يتوفر المرء على مساعد ملحّ...

بدا أن الملاحظة أعجبت سيريناك بشدة.

- جاك دوبان، إذاً. الأربعون. وكيل عقاري في فيرنون، متواضع. يمارِس القنص خلال أوقات فراغه رفقة عدة رجال من جيفرني، وهو

بالأخص غيور بشأن كل ما يخص زوجته. ما قولك؟

- فلتراقبه! وعن قرب!

- بجد؟

- أجل... سيكون الأمر كما نقول، نوع من الحدس. لا، أكثر من هذا، فلنقل شعور مسبق.

- من أي نوع؟

مرر سيريناك إصبعه على العلب الكرتونية على أحد الرفوف.

ت. ث ج ح خ د

- لن تحب ذلك، سيلفيو...

- سبب إضافي. أي نوع من الحدس إذاً؟

واصل الإصبع التحرك. ذ ر ز س...

- الحدس بأن جريمة أخرى يمكن أن تكون في طور التحضير...

- يجب أن تخبرني أكثر حضرة الرئيس. بحسب القاعدة العامة، لست معجباً بحدس الشرطيين، أنا بالأحرى من أتباع الجمع حتى الحصول على أعداد زائدة من أوراق الإدانة. لكن هنا أنت تحيرني.

ش ص ض ط ظ ع أطلق سيريناك دفعة واحدة:

- ستيفاني دوبان... هي من يوجد في خطر.

عقد سيلفيو حاجبيه. كما لو أن الغرفة أصبحت أشد ظلمة.

- ما الذي يجعلك تفكر بهذا الشكل؟

- قلت لك، الحدس...

ف ق. ك ل م. ن هـ. داس لورنس سيريناك بعصبية في الغرفة، أخرج صور الخيانة الزوجية الثلاث من جيبه ورمى صورة ستيفاني على الطاولة، بالضبط قرب نعل الجبس. واصل، تحت قناع

بينافيدس المدين:

- لا أعرف بالضبط. نظرة مركز. قبضة يد مشددة. أحسست بنداء استغاثة. ها هو، لقد قلته!

تقدم بينافيدس. هو أقصر من سيريناك.

- قبضة يد مشددة... نداء استغاثة... مع احترامي، حضرة الرئيس، ولأنك تحب التحدث بصراحة، أظن أنك تخلط كل شيء وتطلق حماقات.

أخذ سيلفيو الصورة من فوق الطاولة، تأمل ملياً خيال ستيفاني دوبان الرائعة يداً بيد مع مورفال.

- في نهاية المطاف يمكن أن أفهمك. لكن لا تطلب مني أن أقرك.

- اليوم الخامس -

17 مايو 2010
(مقبرة جيفرني)
دفن

- 17 -

السماء تمطر، كما يحدث دوماً خلال مراسيم الدفن في جيفرني.

مطر ناعم وبارد.

أنا وحدي أمام القبر. التراب الذي قلِّبَ حديثاً يوحي بمنظر ورشة مهجورة. يسيل الماء في خيوط موحلة صغيرة، موسِّخاً اللوحة الرخامية: «إلى زوجي. 1926-2010».

قرب حائط الإسمنت الرمادي، أنا محمية تقريباً. فوق، شيِّدت مقبرة جيفرني على الهضبة على شكل مدرجات خلف الكنيسة. كانت قد امتدت تدريجياً، طبقة بعد طبقة. يقضم الأموات الهضبة شيئاً فشيئاً. المشاهير والأغنياء والفخورون ما زالوا يُدفنون تحت، قرب الكنيسة، قرب القرية، قرب مونيه.

في الأماكن الجيدة!

لا اختلاط. نتركهم وحدهم، مع بعضهم، رعاة الفنون، وهواة المجموعات، والرسامون المشهورون إلى حدٍّ ما والذين يدفعون

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ثروات كي يرتاحوا هنا، إلى الأبد!

البُلهاء!

كأنهم ينظِّمون حفلة افتتاحية بين الأطياف في أمسيات البدر التمام... ألتفت. في الأسفل، في الطرف الآخر من المقبرة، هم على وشك الانتهاء من دفن جيروم مورفال. قبر جميل في مكان جيد، وسط فان دير كيمب وهوشيدي مونيه وآل بودي. كل القرية حاضرة، أو تقريباً. فلنقل حوالي مئة شخص يرتدون السواد، رؤوسهم عارية أو تحت المظلات.

مئة شخص، زائد أنا، وحدي! في الطرف الآخر. لا يهتم أحد برجل مسن أو امرأة عجوز تموت. يجب أن يموت المرء شاباً، في قمة مجده، حتى يجد من يبكيه. حتى لو كنت أسوأ الأوغاد، كي تُفتقد، يجب أن تمر الأول! بالنسبة إلى زوجي، أتمَّ الكاهن الأمر في أقل من نصف ساعة. كاهن شاب جاء من غاني. لم يسبق أن رأيته من قبل. مورفال استحق أسقف إيفرو! أحد معارف زوجته كما يبدو... يستمر الأمر منذ ساعتين.

أراكم تقبلون، يبدو لكم الأمر غريباً. عمليتا دفن في المقبرة نفسها، فقط تفصلهما حوالي عشرة أمتار، تحت المطر الغزير نفسه. تبدو لكم الصدفة مزعجة؟ مبالغ فيها؟ كونوا متأكدين من شيء، شيء واحد: لا توجد صدفة في تسلسل الأحداث هذا. لا شيء ترك للحظ في هذا الأمر، على العكس. كل عنصر في مكانه، بالضبط في المكان المناسب. كل قطعة من هذا العتاد الجنائي تمَّ وضعها بعلم، وصدقوني يمكن أن أحلف بذلك على قبر زوجي، لا شيء يمكن أن يوقفها.

رفعت رأسي. أستطيع أن أؤكد: من فوق، اللوحة تستحق النظر.

باتريسيا مورفال راكعة أمام قبر زوجها. هي لا تتعزى. خلفها تقريباً تقف ستيفاني دوبان، وجهها جاد، عيناها دامعتان هي أيضاً. يسندها زوجها ممرراً ذراعه على خصرها، وجه الرجل منغلق، حاجباه الكثيفان وشاربه مبللين. حولهما حشد من الأقارب والأصدقاء والنساء. جاء أيضاً المفتش سيريناك، بقي على بُعد، قرب الكنيسة، غير بعيد من قبر مونيه. أنهى الأسقف صلاته.

وضعت ثلاث سلال من القصب على العشب. من المفروض أن يأخذ كل واحد زهرة ويلقيها على التابوت في الحفرة: ورد بري، سوسن، قرنفل، ليلك، زنابق، ترنجان... لا أحد غير باتريسيا مورفال يمكن أن يفكر بهذه الطريقة السقيمة. انطباع شمس غاربة...

حتى مونيه لم يكن ليجرؤ.

وصلوا بالدقة إلى حدّ نقش نيلوفر رمادي على لوحة كبيرة من الجرانيت.

يا له من ذوق.

على الأقل، فشل الأمر بالنسبة إلى الضوء. ضوء جيفرني الشهير، مرة أخيرة قبل الحفرة السوداء. لا يمكن أن نشتري كل شيء. ربما كان ذلك علامة على أن الرب موجود، أخيراً.

نفضت الدثار الأسود الذي يغطي شعري. تبلل هو أيضاً. يمكن أن يعصر! الأطفال يقفون بعيداً شيئاً ما. البعض منهم يقف قرب والديه، البعض لا. أعرف البعض منهم. فانيت تبكي. فينسنت خلفها، من الواضح أنه لا يجرؤ على مواساتها. يبدوان جادين، مثلما

يكون تعارض الموت عندما نكون في الحادية عشر.

خفّت شدة المطر قليلاً.

بفضل مراقبة المشهد، عادت إلى ذهني حكاية غريبة، أحد الألغاز التي كانت تطرح في السابق عندما كنت طفلة خلال المساء. ذهب رجل لحضور دفن أحد أعضاء عائلته. بعد بضعة أيام، قتل هذا الرجل قريبه من دون سبب واضح. كل أهمية اللغز تكمن في معرفة السبب الدافع للجريمة من خلال طرح الأسئلة. يمكن أن يستمر ذلك ساعات... لا، لم يكن الرجل يعرف قريبه... لا، لم يكن يسعى إلى الانتقام؛ لا، لا يتعلق الأمر بقضية مال؛ لا، لا يتعلق الأمر بأسرار عائلية... يمكن أن يستمر ذلك طوال الليل، طرح أسئلة في الظلام، تحت اللحاف...

توقف المطر.

السلال الثلاثة فارغة.

تسيل القطرات ببطء على لوحة الجرانيت الخاصة بقبر زوجي. تحت، يتفرق الحشد أخيراً. جاك دوبان لا يزال يحيط بخصر زوجته. شعرها الطويل يقطر، يغرق شكل الثديين الملتصقين بثوبها الأسود. يمران أمام لورنس سيريناك. لم تفارق عينا المفتش ستيفاني ولو لحظة.

ربما كانت تلك النظرة الملتهبة هي التي جعلتني أفكر في ذلك اللغز من طفولتي. كنت قد وجدت الحل في الصباح، بعد أن تعبت... الرجل، خلال الدفن، كان قد أُغرم بشابة لا يعرفها. وكانت المرأة قد

اختفت قبل أن يحدّثها. لم يبقَ أمامه سوى حل واحد كي يأمل في رؤيتها ثانية: أن يقتل فرداً آخر من العائلة التي حضرت عملية الدفن الأولى وأن يأمل أن تعود الفتاة لحضور عملية الدفن الثانية... أغلب الذين بحثوا عن حل اللغز خلال ساعات نعتوه بالفضيحة، بالدجل، بشيء كبير. ليس أنا. المنطق المتصلب لهذه القصة كان قد فتنني. غريب، كيف تعود بنا الذاكرة. لكني لم أفكر فيه، منذ سنوات... قبل دفن زوجي.

ابتعدَ آخر خيال.

يمكن أن أعترف بالأمر، الآن، بما أني أعلم به.

إنها المناسبة، الديكور المثالي لذلك.

سيضرب الموت من جديد في جيفرني.

نبوءة ساحرة!

انتظرت أيضاً، نظرت إلى التربة سهلة التفتُّت حول قبر زوجي. أنا شبه متأكدة أني لن أعود هنا أبداً. حية، على الأقل. ليس لدي ما أفعله، لا توجد مراسم دفن آخر كي تؤنسني. مرت الدقائق، ربما الساعات.

دخلت أخيراً.

نبتون ينتظر أمام المقبرة بتعقل. سرتُ في شارع كلود مونيه، النهار ينطفئ بلطف. الزهور تقطر على طول الحيطان، تحت مصابيح الشارع. بإمكان فنان موهوب أن يحقق شيئاً من عتمة هذه القرية التي تجف.

بدأت الأنوار تضيء في نوافذ البيوت. مررت أمام المدرسة. في أقرب بيت، النافذة المستديرة في الطابق تحت السطح مضاءة. إنها نافذة غرفة ستيفاني وجاك دوبان. ماذا عساهما يفعلان، يقولان، وهما يقطران ثيابهما المبتلة؟

أنتم أيضاً، أشك في ذلك، تودّون لو تمرون تحت غرفة السقيفة وتتجسسوا عليهما. لكن هذه المرة أنا متأسفة، رغم أني أقوم بدور الفأرة السوداء بجدية، ما زلت لا أعرف كيف أتسلق المزاريب.

أبطأت فقط بعض الثواني، وواصلت.

- 18 -

مشى لورنس سيريناك في الظلام بحذر، معتمداً فقط على صوت خطواته على الحصى. لم يجد أية صعوبة في العثور على بيت مساعده، تبع إرشادات سيلفيو بينافيدس بتعقل: اتبع وادي الأور إلى كوشريل، ثم اصعد ناحية اليسار بعد الجسر في اتجاه الكنيسة، المعلم الوحيد المضاء في الكفر بعد العاشرة ليلاً. ركن سيريناك دراجته النارية، تايجر تريومف تي 100، بين إنائي زهور كبيرين، بعد أن تحقق في ضوء مصباح الدراجة من اسم مساعده على علبة الرسائل. بعد ذلك تعقدت المسألة: لا يوجد جرس، لا يوجد ضوء، فقط ممر من الحصى وظل البناية، خمسون متراً إلى الأمام. تقدم إذاً...

- اللعنة!

صرخ سيريناك في الليل. صدمت ركبته جداراً من الطوب. ارتفاعه أقل من متر، أمامه مباشرة. اكتشفت يده بالتلمس حجارة

باردة، بوابة حديدية، غباراً داكناً. في اللحظة التي اكتشف فيها أنه اصطدم بموقد شواء، لمع ضوء في البعيد، ثم في اللحظة التالية أضاءت شرفة كبيرة. حذّرت صرخته الجيران على الأقل. ظهر خيال سيلفيو بينافيدس أمام باب زجاجي في العتمة الخجولة التي تغلف الحديقة.

- تابع في خط مستقيم، حضرة المفتش، اتبع الحصى، فقط احذر مواقد الشواء.

- طيب، طيب، تمتم سيريناك، وهو يفكر أن النصيحة جاءت متأخرة.

مشى على الحصى الداكن وهو يعتمد على أذنيه، قدميه، وإرشادات مساعده. أقل من ثلاثة أمتار بعد ذلك، اصطدمت ساقه بالجدار.

انطوى على اثنين، سقط المفتش إلى الأمام بينما صدم مرفقاه مكعباً حديدياً بعنف. صرخ سيريناك مرة أخرى من الألم.

- هل أنت بخير، حضرة الرئيس؟ قال سيلفيو قلقاً. كنت قد قلت لك أن تحذر مواقد الشواء...

- حقاً، همهم سيريناك وهو ينهض. كيف كان بإمكاني أن أعرف أنها بصيغة الجمع؟ كم تملك منها هذه المواقد؟ هل تمارس هواية جمعها؟

- سبعة عشر! أجاب سيلفيو بفخر. لقد خمّنت، أنا أقوم بجمعها مع والدي.

أخفى الظلام عن سيلفيو رد فعل رئيسه المندهش. عندما وصل إلى الشرفة، كان لا يزال يزبد:

- هل تسخر مني سيلفيو؟

- لماذا؟

- تريدني أن أصدق أنك تجمع مواقد الشواء؟

- لا أرى أين المشكل. سترى ذلك خلال النهار. ربما يكون عددنا بالآلاف في العالم نحن الفوجيكاغنوفيل...

انحنى سيريناك ومسد ركبته.

- فوجي-كاغنو-فيل، هذا يعني «جامع المواقد»، على ما أظن؟

- أجل! لست متأكداً من أن الكلمة توجد في القاموس. في المستوى الذي وصلت إليه، أنا لست سوى هاوٍ، لكن يوجد شخص في الأرجنتين يملك حوالي ثلاثمئة موقد، جاءت من مئة وثلاثة وأربعين بلداً في العالم، أقدمها يعود إلى 1200 قبل الميلاد.

حكّ سيريناك مرفقيه المتألمين.

- هل تخدعني أم أنك جاد؟

- لقد بدأت تعرفني، حضرة المفتش، هل تظن أني ممن قد يخترعون شيئاً مشابهاً؟ هل تعرف، الناس في كل مكان من العالم، منذ عصر النار، يأكلون اللحم المطبوخ. لا يمكن أن تتخيل، شيء ممتع أن يهتم المرء بهذا. لا توجد ممارسة أكثر عالمية وأكثر قدماً من الاهتمام بالمواقد...

- وهكذا، أنت تملك سبعة عشر موقداً في حديقتك...

طبيعي... أنت على حق، في العمق، هذا شيء أكثر قيمة للتزيين من أقزام الحديقة...

- قَيّم، أصلي، ثقافي، تزييني... بالإضافة إلى أنه يفيد عند دعوة الجيران...

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

مرر سيريناك يده في شعره ونفشه.

- نقلوني إلى بلد الحمقى...

ابتسم سيلفيو.

- لا أبداً... مرة أخرى، سأحدثك عن العادات الأوكيتانية والفرق بين المواقد الكاتار والسيفنول...

صعد الدرجات الثلاث أمام الشرفة.

- هيا، تفضل، حضرة الرئيس... هل وجدت البيت بسهولة؟

- باستثناء العشرين متراً الأخيرة، أجل! قُل لي، إذا استثنيت مواقدك، المكان جميل. الطواحين، البيوت...

- أجل، أحبها كثيراً، خاصة المشهد الذي نراه من هنا أمام الشرفة.

صعد المفتش سيريناك بدوره الدرجات الثلاث.

- الآن حل الليل، فسّر سيلفيو، لا نرى شيئاً كثيراً. لكن خلال النهار المنظر رائع. بالإضافة حضرة الرئيس إلى أن كوشريل ركن غريب.

- أكثر غرابة من نادي فوجيكوفيل؟ يجب أن تخبرني!

- فوجيكوفيل. لكن لا علاقة. في الواقع، كان هنا الكثير من الأموات. جرت معركة كبيرة خلال حرب المئة عام على التلال المقابلة، الآلاف من الجثث، وتكرر ذلك مرة أخرى خلال الحرب العالمية الثانية. والأغرب في كل هذا، هل تعرف من دفن في مقبرة الكنيسة، مباشرة في الخلف؟

- جان دارك؟

ابتسم بينافيدس.

- أريستيد بريان.

- آه نعم؟

- تعرف من هو؟

- مغني...

- لا، ذاك اسمه أريستيد بريانت. يتم الخلط بينهما دوماً. أريستيد بريان، رجل سياسي.

من دعاة السلم. الفرنسي الوحيد الحاصل على جائزة نوبل للسلام.

- أنت لطيف سيلفيو لاهتمامك بإثراء ثقافتي النورماندية...

تأمل أخشاب البيت المضاء.

- عودة إلى ما كنت أقوله، بالنسبة إلى مفتش شرطة وأجرته البئيسة، يبدو كبيراً بيتك الوظيفي.

نفخ سيلفيو أوداجه متأثراً بالمجاملة. رفع عينيه إلى سقف الشرفة وهيكلها من الدعائم الطبيعية. وضعت أسلاك من الحديد كي تتبعها النباتات المتسلقة التي غرست في الجزء غير المبلط من الشرفة.

- هل تعرف، حضرة المفتش، أنا لم أشترِ سوى خربة منذ أكثر من خمس سنوات. ومنذ ذلك الوقت أقوم بالإصلاحات...

- آه، نعم؟ ماذا فعلت؟

- كل شيء...

- لا؟

- أجل... إنه شيء موجود في الجينات الوراثية عند البرتغاليين، حضرة الرئيس، هل تعرف، حتى رجال الشرطة منهم. هل تفهم

العلاقة شمال - جنوب...

أغرق سيريناك في الضحك. خلع سترته الجلدية.

- تفضل، لا تتردد، تقدم لتجفف نفسك.

دخل الرجلان إلى الشرفة. وضع لورنس سيريناك سترته على مسند كرسي بلاستيكي كاد يسقط إلى الخلف تحت ثقل الرداء. جلس على الكرسي المجاور. اعتذر بينافيدس:

- يجب أن أعترف أن صالون البلاستيك ليس مريحاً. حصلت عيه من عند أحد أقربائي، هو يحل الإشكال حالياً، بالنسبة إلى تجار الآثار في وادي أور، سنرى عندما سيتم ترقيتي مفوضاً...

ابتسم وجلس بدوره.

- إذاً، ذلك الدفن؟

- لا شيء مميز. المطر... الحشد. كل جيفرني كانت حاضرة، جميع الأجيال، من الأكبر سناً إلى الأصغر. طلبت من موري أن يلتقط صوراً، سنرى ما يمكن أن نستخلصه منها. كان عليك أن تأتي سيلفيو، كان هناك نيلوفر من الجرانيت، زهور في سلال، وحتى أسقف إيفرو. وأطمئنك، لم يكن أحد ينتعل حذاء طويل الرقبة. هل ترى، القيمة!

- بالنسبة إلى الأحذية طويلة الرقبة، رأيت في المفوضية أن لوفيل ينسق كل شيء. قد نستطيع تكوين فكرة غداً.

- أجل... فلنأمل أن يقلص هذا من قائمة المشتبه بهم، قال سيريناك وهو يفرك يديه كأنه يريد أن يدفئهما. على الأقل، ميزة هذا الدفن اللامنتهي هو أنه أتاح لي القيام بساعات عمل إضافي في بيت مساعدي المفضل...

- وهذا أمر جيد، لأنه ليس لديك سوى واحد! أنا متأسف،

حضرة الرئيس، أني طلبت منك المجيء هنا، لكني لا أحبِّذ أن أترك بياتريس لوحدها خلال المساء.

- أفهم، لا تقلق. كي ننتهي من ذلك الدفن اللعين، باتريسيا الأرملة كانت تبكي من البداية إلى النهاية. لأقول إنها كانت تمثِّل، فأنا أرشحها لأوسكار ثاني أحسن دور. وعلى العكس، لم تحضر أي من عشيقات مورفال كي تبكي على قبره على الأرجح...

- عدى المُدرّسة، ستيفاني دوبان.

- هل تمزح؟

- لا، أؤكد لك...

أحنى عينيه ونظر إلى أسفل مخفياً ابتسامة.

- أفهم جيداً أن الموضوع حساس.

- بحق الرب، إنه يتحرر، مساعدي المفضل، عندما يلعب في بيته! كي أجيبك سيلفيو، أجل حضرت ستيفاني دوبان مراسيم الدفن... وأستطيع أن أقول لك، كانت أجمل من أي وقت آخر، وهي تقطر بحيث جعلت المطر بهيجاً تقريباً، لكنها لم تغادر ذراع زوجها الغيور.

- احترس، حضرة الرئيس.

- شكراً على النصيحة، أنا كبير بما يكفي، هل تعي ذلك.

- أنا صادق.

- أنا أيضاً.

محرجاً قليلاً، أدار لورنس سيريناك عينيه وتفحّص الشرفة: مفاصل جدران الطوب ممتازة، العارضات نظيفة تماماً، حجر التبليط على الحواشي مصقول ومكلَّس.

- هل حقاً أنت فعلت كل شيء هنا بنفسك؟

- أمضي نهايات الأسبوع وعطلي في الإصلاح مع والدي. نشتغل معاً، قريرين. هذا أفضل.

- حقاً. أنت تذهلني سيلفيو. أنا أتحمل فقط الطقس عندكم لأنه يضع ثمانمئة فاصل بيني وبين عائلتي...

- ضحكا. أدار سيلفيو عينين قلقتين بسبب الضجيج الذي يحدثانه، من دون شك.

- طيب، هل نبدأ؟

نشرِ لورنس سيريناك ثلاث صور لعشيقات جيروم مورفال على الطاولة البلاستيكية.

فعل سيلفيو الشيء نفسه بصورتيه وأجال نظرة فزعة.

- شخصياً، أنا لا أفهم كيف يمكن للمرء أن يخون زوجته. هذا شيء يتجاوز حدود فهمي.

- منذ متى تعرف بياتريس؟

- سبع سنوات.

- ولم تخنها أبداً؟

- لا

- هي تنام فوق، صحيح؟

- أجل، لكن هذا لا يغير شيئاً...

- لماذا لم تخنها أبداً؟ زوجتك هي أجمل امرأة في الكون، هذا هو السبِب؟ لذا فليس من سبب يدعوك إلى الرغبة في امرأة أخرى؟

لعبت يدا سيلفيو بالصور. ندم لجرِّ رئيسه إلى هذا الموضوع.

- توقف، حضرة الرئيس، لم آتِ بك هنا من أجل...

- كيف هي بياتريس؟ قاطعه سيريناك. هي ليست جميلة، هذا ما تريد قوله؟

بسط سيلفيو فجأة يديه على المائدة.

- لكن جميلة أو غير جميلة، السؤال لا يكمن هنا! الأمور لا تجري على هذا النحو. من الغباء أن يرغب المرء في أن تكون زوجته أجمل امرأة في العالم! ماذا يعني هذا، هي ليست مسابقة! امرأة، سيوجد دوماً واحدة أجمل من تلك التي تعيش معها. ثم أنت حتى لو حصلت على ملكة جمال العالم، ملكة جمال العالم في النهاية ستشيخ. يجب أن يضع المرء في سريره كل سنة ملكة جمال الكون الجديدة، هذا هو؟

جواباً عن خطبة مساعده، رسم لورنس على شفتيه ابتسامة بدت غريبة لسيلفيو، خاصة أنه بدا كأنه يتأمل شيئاً من فوق كتفه ناحية باب البهو.

- إذاً هكذا، أنا لست الأجمل؟

استدار سيلفيو كأن الخيط الذي يثبت عنقه قد انقطع وأنه سيدور حول نفسه عشر مرات قرمزية.

بدت بياتريس، خلفه، كأنها تنزلق على بلاط الشرفة. وجدها لورنس جميلة، حتى لو كانت الكلمة ليست هي الأنسب. صاعقة بالأحرى. طويلة، سمراء، شعرها الأسود ورموشها يختلطان أمام عينيها الضبابيتين في ستارة تحمي آخر ظلال النوم. بياتريس متدثرة بشال كريمي، طياته على بطنها المستدير تذكِّر بتمثال قديم. تساءل سيريناك عما إن كانت بياتريس جميلة دائماً، أو أنها جميلة فقط لأنها حامل، وأمّ بعد عدة أيام. كما الحمل سعادة داخلية ينتهي بها الأمر إلى

الظهور إلى السطح. هذا النوع من الأشياء التي تُقرأ في المجلات. فكَّر سيريناك أنه لا بدَّ يشيخ كي تعتريه أفكار من هذا النوع عن النساء؛ هل كان، قبل عدة سنوات، ليجد أن المرأة الحامل هي امرأة مثيرة؟

- سيلفيو، قالت بياتريس وهي تأخذ كرسياً، ستأتيني بكأس عصير من الفواكه، أي نوع؟

ينهض سيلفيو ويتوجه إلى المطبخ، كان مظهره ذابلاً مثل شيء متكور على نفسه. ترفع بياتريس الشال إلى كتفيها:

- إذاً هذا أنت، لورنس سيريناك الشهير؟

- لماذا «شهير»؟

- سيلفيو يحدثني كثيراً عنك. أنت... أنت تدهشه... تعامله بخشونة. سلفك كان... كلاسيكياً...

صاح صوت سيلفيو من المطبخ:

- أناناس، هل يناسبك؟

- أجل!

ثم، بعد ثانيتين:

- القنينة مفتوحة؟

- أجل، من الأمس.

- إذاً لا.

صمت.

- طيب، سأرى في القبو إن كان هناك...

مثيرة، المرأة الحامل، لكن مشاكسة. انزلق الشال عن كتفها الأيمن. فكرة شابة، قال سيريناك في نفسه، هي أن أتساءل عما إذا كان شكل بياتريس بنفس الإثارة. التفتت نحو سيريناك.

- إنه رائع، ألا ترى ذلك؟ إنه أفضل الرجال. هل تعرف، لورنس، كنت قد رصدته منذ مدة طويلة، سيلفيو، كنت قد قلت في نفسي شيئاً من قبيل «هذا الرجل، لي»...

- لكن هو لا بدَّ أنه لم يقاومك وقتاً طويلاً، أنت رائعة...

- شكراً.

انزلق الشال ثم ارتفع.

- هذا يؤثر في، أن أسمع مجاملة، خاصة إن صدرت منك.

- مني؟

- أجل، منك. أنت... أنت رجل يعرف كيف ينظر إلى المرأة.

قالت ذلك بوميض سخرية في طرف عينيها، سقط الشال مرة أخرى، طبعاً، وبعد ذلك لم يكن أمام سيريناك سوى أن يشيح ببصره كي يتأمل العمل اليدوي الذي قام به سيلفيو ووالده. عارضات، وطوب، وزجاج.

- أنا أيضاً أحبه، وليس فقط بسبب الكعك ومجموعة المواقد.

ابتسمتْ.

- هو أيضاً يحبك كثيراً. لكني لا أعرف إن كان ذلك يطمئنني.

- لماذا؟ يمكن أن يكون لي تأثير سيئ عليه، أليس كذلك؟

ثبتت بياتريس الشال حولها ومالت نحو الصور الموضوعة على الطاولة البلاستيكية.

- ممم. يبدو أنك تهتم بمشتبه بها.

- هو قال لك هذا؟

- إنه عيبه الوحيد. مثل كل الخُجُل، ثرثار على الوسادة.

- مانجو؟ صاح صوت سيلفيو من القبو.

- أجل، إن لم يوجد غيره. لكن بارد.

ابتسمت لسيريناك:

- لا تقيّمني بهذا الشكل. يمكن أن أستغله لبضعة أيام، لا؟

هزَّ المفتش رأساً كأنه أبو الهول. جد مثيرة لكن جد مزعجة، المرأة الحامل.

- لم يكن هناك سوى واحد، قال سيريناك. وأنت اكتشفته.

- أنا متفقة معك، حضرة المفتش!

- نقص قليل في الخيال، لا؟

- ولا حتى!

عاد سيلفيو يحمل كأساً كبيراً من العصير، زيّنه بأنبوب قش، ونخلة صغيرة، وشريحة برتقال. قبّلته بياتريس على شفتيه بحنان.

- وأنا، قال سيريناك، لأني مبلل فلن أكون عطشان، على الأرجح...

- متأسف، حضرة المفتش. ماذا تريد؟

- ماذا عندك؟

- جعة، تناسبك؟

- أجل ممتاز. باردة، هيه. سأحب أيضاً نخلة و أنبوباً من القش.

أمسكت بياتريس الشال بيد وأمسكت أنبوب القش بالأخرى.

- سيلفيو، قل له إن بإمكانه أن يذهب إلى الجحيم...

ابتسم بينافيدس ابتسامة عريضة.

- سمراء أو شقراء أو بيضاء؟

- سمراء.

اختفى سيلفيو من جديد في البيت. انحنت بياتريس نحو الصور.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

- إذاً هذه هي، المدرّسة؟

- أجل.

- أنا أفهمك، حضرة المفتش. هي فعلاً، كيف أقول هذا... أنيقة. لذيذة.

يمكن أنْ نقول إنها تخرج مباشرة من لوحة رومانسية. إنها تمثل، تقريباً.

أدهشت الملاحظة لورنس. بشكل يثير الفضول، كان قد لاحظ الشيء نفسه، خلال لقائه مع المدرّسة. نظرت بياتريس بإلحاح إلى الصور، أزالت ستارة الشعر من أمام عينيها وقطبت حاجبيها بلطف.

- حضرة المفتش، هل تريد أن أسر لك بشيء؟

- هل له علاقة بالقضية؟

- أجل. يوجد شيء بديهي في هذه الصور. في جميع الأحوال، شيء تخمنه المرأة بسهولة.

- 19 -

من خلال النافذة المستديرة، حدقت ستيفاني دوبان خلال دقائق في الظلال المبتلة لآخر الأجساد التي تسير في جيفرني، ثم تراجعت بحوالي متر إلى الخلف. انزلق ثوبها الأسود على جسدها. جاك مستلقٍ بالقرب منها على السرير، صدره عار. رفع عينيه عن نشرة البيوت المعروضة للبيع في دائرة الأوندلي. سقف غرفتهما منحدر، مصباح صغير يتدلى على طول عارضة من السنديان وينير الغرفة بضوء خافت.

تلوّن جلد ستيفاني العاري بلون الماهوجني. انحنت مرة أخرى

نحو النافذة، نظرت إلى الظلام يسقط على الشارع، ساحة البلدية، أشجار الزيزفون، ساحة المدرسة.

سيراك الجميع، فكّر جاك وهو يرفع عينيه عن نشرته. صمت. ألصقت ستيفاني جلدها بالنافذة. إنها عارية باستثناء حمالة الصدر، وسروال تحتي أسود وجوارب رمادية.

تمتمت بصوت متعب:

- لماذا تمطر السماء دوماً خلال عمليات الدفن؟

وضع جاك مجلته.

- لا أعرف. هي تمطر غالباً في جيفرني. أحياناً أيضاً خلال عمليات الدفن. نتذكرها في الغالب... نظن أننا نتذكر...

نظر مطولاً إلى ستيفاني.

- هل تأتين للنوم؟

لم تجب وتراجعت بخطوات، بطيئة. دارت على قدميها وتأملت نفسها في انعكاس النافذة.

- لقد سمنت. ألا تجد ذلك؟

ابتسم جاك.

- تريدين أن تضحكي. أنت...

بحث عن أفضل كلمة كي يحدد ما يحس به: هذا الشعر الطويل الذي يتساقط على هذا الظهر الطويل؛ هذه الظلال التي تشمل أقل جزء من جسدها.

- أيقونة حقيقية.

ابتسمت ستيفاني. مررت يديها على ظهرها، وأزالت سدادة حمالة الصدر.

- لا، جاك... الأيقونة جميلة لأن لها أطفال.

وضعت قطعة الثياب على حمالة معلقة في مسمار على العارضة. استدارت دون أن تحني نظرها نحو جاك، وجلست على حافة السرير. بينما كانت أصابعها تلوي الجورب ببطء على طول فخذها، حرّك جاك يداً تحت الغطاء، ووضعها على البطن المسطح. كلما انحنت زوجته، منتصف الفخذ، العقب، وكلما التصق ثدياها بذراعه.

- إعجاب من تريدين أن تثيري، ستيفاني؟

- لا أحد. من تريدني أن أثير إعجابه؟

- أنا... ستيفاني. أنا.

لم تجب ستيفاني. دخلت تحت اللحاف. تردد جاك، ثم جرؤ:

- لم أستسغ الطريقة التي كان الشرطي ينظر بها إليك طوال دفن مورفال. لم أحب...

- لا تبدأ... رجاءً.

أدارت له ظهرها. سمعها جاك تتنفس بهدوء.

- غداً سأذهب رفقة فيليب وتيتو إلى القنص، على سهل مادري، في نهاية الظهيرة. هل يزعجك ذلك؟

- لا. طبعاً لا.

- هل أنت متأكدة؟ ألا تريدين أن أبقى؟

تَنَفُّس. فقط ظهر زوجته وتنفسها.

لا يُحتَمل.

وضع المجلة قرب السرير، ثم سألها:

- هل تريدين أن تقرئي؟

رفعت ستيفاني بصرها نحو الطاولة المجاورة للسرير. فوقها

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كتاب وحيد. **أوريليان** للويس أراغون.

- لا، ليس هذا المساء، يمكنك أن تطفئ الإنارة.

حلَّ الليل في الغرفة.

انزلق السروال الصغير على الأرض.

استدارت ستيفاني نحو زوجها.

- امنحني طفلاً، جاك. أرجوك.

- 20 -

حدق المفتش سيريناك في بياتريس بإلحاح. صعب عليه تخمين ما يختبئ وراء ابتسامتها المتهكمة. أخذت الشرفة منظر قاعة استجواب. زوجة سيلفيو ترتعش قليلاً تحت شالها.

- إذاً، بياتريس، بماذا توحي لك هذه الصور؟

- أحدثك عن المدرّسة. ما اسمها؟

- ستيفاني؛ ستيفاني دوبان.

- أجل، ستيفاني. تلك المرأة الجميلة التي بحسب سيلفيو شغفت قلبك...

قطب سيريناك جبينه.

- طيب، أراهن أنها لم تخرج أبداً مع ذلك الرجل، جيروم مورفال.

- تفحّصت الصور واحدة تلو الأخرى، مطولاً، الصور الخمس على الطاولة البلاستيكية.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

- ثق بي، إنها الوحيدة من الخمسة التي لم تقم علاقة جسدية معه.

- ما الذي يجعلك تقولين هذا؟ سألها سيريناك، وهو يجرب ابتسامة غامضة.

جاء الجواب كالصفعة، بسيطاً جداً:

- هو ليس من النوع الذي يثير إعجابها...

- وما هو النوع الذي يثير إعجابها؟

- نوعك!

مُباشرة، المرأة الحامل.

عاد سيلفيو يحمل في يديه جعة غينيس وكأساً كبيراً بصورة ماركة الجعة. وضعهما أمام زميله.

- هل يمكن أن أبقى بجانبكما وأنتما تعملان؟ سألتهما بياتريس.

أطلق سيلفيو نظرة خائفة بينما نفخ سيريناك في جعته.

- بعد كل شيء، ماذا يغير هذا في الأمر، بما أنه يحكي لك كل شيء من بعد...

تفادى بينافيدس أي تعليق. وضع رئيسه أول صورة على الطاولة.

- طيب، سأبدأ. قال سيريناك.

أحنى سيلفيو وبياتريس رأسيهما نحو الصورة التي حددها سيريناك. جيروم مورفال ملتصق بركبتي فتاة خلف مكتب مليء ويقبِّلها على فمها.

- من وجهة نظر التحقيق، إن استطعت القول، هو مجرد تسخين. أُخِذت الصورة في عيادة جيروم مورفال. الفتاة اسمها فابيان غونكالفيس. كانت إحدى سكرتيراته. شابة وحمقاء. من الصنف

الذي يلبس سراويل الدانتيل تحت البلوزة البيضاء.

مرر سيلفيو ذراعاً خجولة على كتف بياتريس التي بدت مستمتعة.

- بحسب إحدى صديقات السكرتيرة، تعود علاقتهما إلى خمس سنوات خلت. كانت فابيان حينها عازبة. لم تعد كذلك...

- إنها فترة قصيرة بالنسبة إلى جريمة عاطفية، لا؟ علّق سيلفيو.

قلب الصورة.

- والرقم المسجل على الظهر؟ 23-02...

- ليس عندي أدنى فكرة. لا بداية طريق. لا تمثل أي شيء، لا تاريخ ولادة ولا يوم لقاء. الشيء الوحيد هو أنها لا تعني الأشهُر...

- إذا استطعت أن أقاطعك، حضرة الرئيس، وصلت إلى نهاية الطريق المسدود نفسه. حدَّدتُ هوية الفتيات، لكن لا شيء، بالضبط لا شيء فيما يخص الأرقام، 03-01، 21-02، 15-03. ربما كانت فقط طريقة وضع أرشيف خاصة بالتحري الذي التقط الصور...

- ربما... لكن حتى لو كان الأمر كذلك، هذا يمثِّل فعلاً نظاماً ما... وما دمنا لم نجد التحري الخاص المعني، وما دامت باتريسيا مورفال تواصل الادّعاء بأنها لم تبعث الصور أبداً، سنتخبط. طيب، سنرى من بعد. دورك، الآن.

لم يترك سيلفيو بياتريس. حتى إنه إمسك بالشال وحافظ به مثبتاً بشدة بين يده وكتف زوجته. التوى كي يمسك بالصورة. كان واضحاً أن الصورة التقطت في علبة ليلية. جيروم مورفال يضع يده على طرف ثدي يتخطى من الفستان اللامع لفتاة شقراء، اسمرّت وتبرجت إلى أصابع القدمين. صفر سيريناك بين أسنانه. لمعت عين بياتريس بينما تنحنح سيلفيو.

- ألين... ماليتراس، تمتم سيلفيو. اثنان وثلاثون سنة. علاقات عامة في المجال الفني. مطلَّقة. بحسب ما يبدو، هي أطول علاقة قام بها مورفال. فتاة مستقلة. معتادة على الأروقة الباريسية.

- علاقات عامة، هكذا تسمى... تهكّم لورنس. بحسب الصورة، قنبلة صغيرة فوق كعب عال، هذه هي ألين... هل تواصلت معها مباشرة؟

- انتفضت بياتريس كأنها ذئبة أحست بالخطر. تقلصت أصابع سيلفيو الحذر على الشال.

- لا، حدد المفتش، بحسب معلوماتي إنها موجودة في الولايات المتحدة منذ تسعة أشهر. في أولد ليم، لا أعرف إن سمعت به، يبدو أنه جيفرني أميركا، معقل انطباعيي الساحل الشرقي، في كونيتيكت، بالقرب من بوسطن. حاولت الاتصال بها عبر الهاتف دون جدوى إلى حدِّ الآن. لكنك تعرفني، حضرة المفتش، سألح.

- أجل... أتمنى ألا تكون تقول لي إن ألين الجميلة في المنفى فقط لأن بياتريس موجودة.

مررت بياتريس يدها على ركبة سيلفيو.

مثيرات ومزعجات، النساء الحوامل. لكن مداعِبات أيضاً.

- تماسك جيداً، ألح سيلفيو. هل تعرف لمصلحة من تشتغل ألين ماليتراس في بوسطن؟

- هل أستحق إشارة؟ هل هو عمل مغطى أم لا؟

لم يكلف سيلفيو نفسه عناء التعليق.

- تعمل ألين ماليتراس لصالح مؤسسة روبنسون!

- هكذا إذاً... تلك المؤسسة اللعينة مرة أخرى! سيلفيو، ستجد

هذه الفتاة، ألح وهو يلقي نظرة ناحية بياتريس، منزعجاً. اعتبره أمراً... طيب، دوري...

مرت الصورة الأخرى من يد إلى يد. امرأة، بلوزتها القصيرة الزرقاء بنفس طول تنورتها، راكعة أمام طبيب العيون، وهو أسقط سرواله إلى قدميه. استدار سيلفيو نحو بياتريس كأنه يتردد في أن يقترح عليها الذهاب للنوم. في النهاية، لم يقل شيئاً.

- أنا آسف، قال سيريناك، هنا أنا عالق من دون وجه الفتاة، أتخبط بشأن هويتها. أنا فقط متأكد أن المشهد حصل في صالون بيت مورفال، شارع كلود مونيه، استطعت التحقق من اللوحات على الجدران. من الوهلة الأولى، نظراً إلى لباس الفتاة، هذا النوع من البلوزات بالمربعات الواضحة يمكن أن نفكر أنها عاملة منزل، لكن باتريسيا مورفال خرساء حول هذه النقطة. هي تقضي وقتها في تصريفهن الواحدة تلو الأخرى. في البداية، بحسب موري الذي فحص الورق، تعود الصورة هذه أيضاً إلى عشر سنوات على الأقل...

- كيف مات مورفال؟ سألت بياتريس فجأة.

- طُعن بسلاح أبيض، هشِّم رأسه، ثم تمَّ إغراقه، أجاب سيريناك بطريقة آلية.

- أنا، كنت لأقطع خصيتيه أيضاً.

مثيرة، مزعجة، المرأة الحامل... ومداعِبة... مثل حية تلتف حول عنقك...

ابتسم سيلفيو ببلاهة.

- ألا تريدين الذهاب للنوم، بيبي؟

بيبي لا تجيب. سيريناك يستمتع بحق.

- تعود العلاقة إلى عشر سنوات خلت، اقترح سيلفيو. إذا كانت الفتاة قد حبلت، سيكون ابنها...

- في العاشرة! أنا أيضاً أعرف أن أعد. أرى أين تريد أن تصل، يا عزيزي، لكن يجب أولاً أن نجد الفتاة قبل أن نتساءل عما إن كانت أماً... الآن، دورك، فتاتك الأيرلندية...

- يمكن أن يطول الأمر، حضرة الرئيس، ألا تريد أن تواصل؟

رفع سيريناك عيناً مندهشة.

- إن أردت... أنا، على العكس، لن أحتاج إلى كثير من الوقت.

مُرِّرت الصورة. ستيفاني دوبان وجيروم مورفال يسيران على طول شارع ترابي، من دون شكّ الطريق فوق جيفرني. يقفان جنباً إلى جنب، قريبين جداً، يداً بيد.

- كما تلاحظان، هي بالأحرى علاقة بريئة، علَّق سيريناك. أليس كذلك بياتريس؟

تعجّب سيلفيو، أومأت بياتريس برأسها بهدوء.

- أجل، أضافت بياتريس. إلا أن الصورة توجد ضمن الصور الأربعة الأخرى. إذا خلطنا الأمور...

- بالضبط! ألم نعلِّمك أن تحذر دوماً من الخلط، سيلفيو؟ إنها أبجدية المهنة. خاصة عندما تكون مقدمة من فاعل خير مجهول. بالنسبة إلى الباقي، نحن نعرف كل شيء عن فتاة الصورة بالفعل، ستيفاني دوبان، مدرّسة القرية. سأراها في الغد كي أطلب منها لائحة أطفال جيفرني، الشيء الذي سيبهج سيلفيو، وبالمناسبة كي أعرف أين كان زوجها صباح مقتل مورفال.

انتظر لورنس تعليقاً مشجعاً من بياتريس، لكنها أمالت رأسها

على كتف سيلفيو وبدأت تغمض عينيها. رفع سيلفيو الشال إلى عنقها

- إذاً، قال سيريناك، فتاتك الأيرلندية؟

- أليسون موريز، تمتم سيلفيو دون أن يرمش له جفن. لكن في البداية هي ليست أيرلندية لكن إنجليزية، من دورهام في شمال إنجلترا، قرب نيوكاسل. ثم، الشاطئ على الصورة ليس أيرلندا، إنها جزيرة سارك.

- ألا توجد سارك في أيرلندا؟

- لا، إنها تحت، هي جزيرة أنجلو-نورماندية بالقرب من جيرسي، أجمل الجُزر على ما يبدو...

- وأليسون، إذاً؟

أغلقت بياتريس عينيها. تنفُّسها على عنق سيلفيو رفع خصلة من الشعر الأشقر.

- إنها حكاية طويلة، همس بينافيدس. وإذا لم يعجب ذلك أسقف إيفرو، لن تفعل شيئاً من أجل شرف جيروم مورفال بعد الموت.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

- اليوم السادس -

18 مايو 2010
(طاحونة شونوفيير)

ذعـر

- 21 -

كما فهمتم ذلك، توجد غرفتي والحمَّام فوق، في برج مولان دو شونوفيير، تلك القلعة الصغيرة المربعة من الخشب. غرفتان صغيرتان لا أحد سوى امرأة عجوز يستطيع العيش فيهما.

عقصتُ شعري ببطء. أخذت قراري. يجب أن أخرج، أن أرى باتريسيا مورفال هذا الصباح. دققت بمزاج سيئ في اللطخة الداكنة على الأرضية. أغلب الثياب التي كنت أضعها أمس خلال مراسيم الدفن لا تزال مبللة. تقطّرت طوال الليل، كنت تعبة جداً، لم أنتبه، علقتها هناك، في الغرفة. توجد بركة من الماء هذا الصباح، عبثاً مسحت، وبقي أثر من خشب رطب. أنا واعية بأنها ليست سوى ماء، وأن الخشب سيجف. لكن تلك البقعة تستحوذ على تفكيري، بالضبط تحت «النيلوفر» الأسود.

لا بدَّ أنكم تقولون إني عجوز مريضة، أليس كذلك؟ لا ترتكبون خطأً حول هذه النقطة. اقتربت من النافذة. تمنح قلعتي على الأقل امتيازاً: في كل جيفرني، لا يوجد أفضل من موقع المراقبة هذا. من

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

عشّ النسر خاصتي أُشرفُ على جدول الأوب، المرج إلى حدود جزيرة القراص، حدائق مونيه، طريق روي إلى حدود المدارة...

إنه مرقبي. أظل هناك ساعات، أحياناً.

تشمئزّ نفسي.

من كان سيصدق أني سأصبح على هذا النحو: امرأة شرسة تمضي حياتها خلف النوافذ الرمادية، تتجسس على الجيران، والغرباء، والسياح؟

بواب القرية.

قنفذ بلا أناقة.

هكذا الأمر.

أحياناً، أتعب من تدفق السيارات غير المنقطع، الحافلات، الدراجات، المشاة على طريق روي. آخر أمتار الطريق الصليبية لحجّاج الانطباعية.

أحياناً لا. يوجد العديد من المفاجآت، كما في هذه اللحظة.

تلك الدراجة النارية التي تبطئ كي تنعطف بالضبط بعد الطاحونة نحو القرية، شارع كولومبييه، من المستحيل أن يخطئها المرء.

المفتش سيريناك شخصياً!

أتأمل. لا أحد يستطيع أن يراني، لا أحد يستطيع أن يشك بي. وحتى لو عرفوا ما أصنع، ماذا سيغير هذا في الأمر؟ ما هو الشيء الأكثر طبيعية من امرأة عجوز تلعب دور المرأة الشرسة، تتأمل كل تفصيل، كل صباح، يوماً بعد يوم، مثل سمكة حمراء بعينين جاحظتين تنسى كل شيء عند كل دورة في الجرة؟

من سيحذر مِن شاهِد مشابه؟

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

خلال ذلك الوقت، انعطفت دراجة الشرطي في شارع كولومبييه.
ها هي إذاً عودة المفتش سيريناك، في الطريق نحو الكارثة الكبرى.

- 22 -

ركن لورنس سيريناك دراجته في ساحة البلدية، تحت شجرة زيزفون. هذه المرة، لم يترك شيئاً للصدفة، برمج وصوله أمام المدرسة بضع دقائق بعد الخروج من الفصل. التقى عدة أطفال، شارع كلود مونيه، أُعجبوا بدراجته التايجر تريومف تي 100. بالنسبة إلى الصغار، يتعلق الأمر تقريباً بقطعة أثرية...

كانت ستيفاني تدير بظهرها. كانت ترتب رسوم أطفال في حقيبة كرتونية. قرر أن يتحدث أولاً، لأنها، كما قال في نفسه، أفضل طريقة لكي لا يتلعثم، قبل أن تستدير، قبل أن تلقي عليه بمشهد نظرتها اللانهائي.

- صباح الخير ستيفاني. عدت، كما وعدتك، من أجل لائحة الأطفال.

مدت المدرسة يداً تَوَّجتها بابتسامة صادقة. ابتسامة مقبوض عليه تمَّ استدعاؤه إلى قاعة المحادثة، فكَّر سيريناك دون أن يعرف لماذا تعود إليه تلك الصورة.

- صباح الخير حضرة المفتش، حضّرت لك كل شيء. كل شيء موجود هنا في المظروف على المكتب.

- شكراً. سأعترف لك، عندي مساعد يعتقد بشدة في هذا الخيط،

بسبب بطاقة المعايدة البريدية التي كانت في جيب جيروم مورفال...

- ليس أنت؟

- لا أعرف. أنت في موقع أفضل مني لمعرفة ذلك. كي أقول لك شيئاً، أظن أن مساعدي قد اخترع فرضية كون جيروم مورفال كان عنده ابن غير شرعي، منذ حوالي عشر سنوات. تعرفين هذا النوع...

- فقط هذا؟

- لا يبدو لك ذلك قابلاً للتصديق؟ من بين جميع تلاميذك الصغار، أليس عندك أحد يتطابق مع ذلك الوصف؟

مدت ستيفاني يدها نحو المظروف الأبيض، وألصقته بصدر المفتش.

- هذا عملك أنت، أن تفتش في الحياة الخاصة لذئابي الصغار. وليس عملي!

لم يلح سيريناك. تأمّل الفصل وتظاهر بأنه يختار كلماته. في الواقع، هو يعرف تماماً ما سيقوله من بعد، مرر في ذهنه عدة مرات العبارة خلال الطريق من فيرنون إلى جيفرني، مثل قطعة علك. حطّت عيناه على ألوان باستيل لملصق المباراة «الرسامون المبتدئون / International Young Painters Challenge». لاحَظ أن مؤسسة روبنسون مذكورة أيضاً على إعلان آخر معلق في الفصل تطري بالإنجليزية أهمية المتحف الوطني في كارديف، على خلفية مشهد أرض بور رسمها سيسلي. بعد ذلك الصمت المحسوب، انطلق سيريناك:

- ستيفاني، هل تعرفين القرية بشكل جيد؟

- ولدت فيها!

- أبحث عن دليل... كيف أقول لك، أنا محتاج إلى أن أحس

بجيفرني، أن أفهم... أظن أني لا أستطيع أن أتقدم سوى بهذه الطريقة في هذا التحقيق.

- «الملاحظة والتخيل»، مثل الرسامين؟

- بالضبط.

ابتسما لبعضهما.

- طيب، أنا معك. سأضع علي شيئاً وآتي.

وضعت ستيفاني سترة صوفية فوق فستانها الأصفر. وهما يتحدثان، سارا على طول شارع كلود مونيه، هبطا شارع غران-جاردان، انعطفا نحو شارع الوسط كي يقطعا مرة أخرى الجدول، من الناحية الأخرى لطريق روي، بالضبط أمام مولان دو شونوفيير. اصطحبت ستيفاني مئات المرات أطفال فصلها في شوارع جيفرني. تعرف جميع الفكاهات وقاسمتها مع المفتش. قالت له إن كل ناصية شارع في هذه القرية، تقريباً كل بيت، كل شجرة، محفوظة في مكان آخر من الكوكب، في متحف مهم، مؤطرة وملمعة. رسومات من أصل مُتحكم فيه!

From Giverny. Near Giverny. Normandy.[1]

- هنا، حددت ستيفاني بابتسامة غريبة، الأحجار والزهور هي التي تسافر... وليس السكان!

اجتازا شارع روي. النهر الذي يجري تحت الجسر كي يفلت تحت قبة من الطوب، نحو مولان دو شونوفيير، يحمل قليلاً من الطراوة. توقفت ستيفاني بضعة أمتار أمام الطاحونة.

---

(1) بالإنجليزية في النص الأصلي.

- هذا البيت الغريب جذبني دوماً. حقاً. لا أعرف لماذا...

- هل يمكن أن أقدم اقتراحاً؟ سألها سيريناك.

- هيا...

- هل تتذكرين الكتاب الذي قدمته لي. أوريليان لأراغون. أمضيت جزءاً من الليل برفقته. أوريليان وبيرينيس... حبهما المستحيل... في الفصول التي تجري في جيفرني، بيرينيس تقيم في طاحونة. أراغون لا يحدد أية واحدة، لكن إذا تتبعنا وصفه بالحرف، لن تكون سوى هذه.

- أتظن ذلك؟ هل تظن أنه في هذه الطاحونة جعل أراغون بيرينيس الكئيبة تتبرم، وهي منقسمة بين حُبين، العقل والمطلق...

- ششت... لا تخبريني عن النهاية!

تقدما نحو البوابة الخشبية. كانت مفتوحة. ريح خفيفة تهب على طول الوادي. ارتعشت ستيفاني قليلاً. قاوم سيريناك الرغبة في أن يأخذها بين ذراعيه.

- متأسف بالنسبة إلى أراغون، ستيفاني، لكن بالنسبة إلى الشرطي الذي يرقد في داخلي، هذه الطاحونة هي بالأخص البيت الأقرب إلى المكان الذي قتل فيه جيروم مورفال...

- هذه قضيتك... اختصاصاتي تتوقف في أن أكون الدليل السياحي... إن أردت أن تعرف، هذه الطاحونة لها حكاية طويلة. من دونها، لم تكن حديقة مونيه لتوجد، ولا حتى «النيلوفر». الجدول في الواقع قناة حفرها الرهبان في العصر الوسيط كي تغذّي الطاحونة. كان الجدول يمر صاعداً في أحد الحقول، اشتراه مونيه، قروناً من بعد، كي يحفر فيه بركته...

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

- وبعد ذلك؟

- بقيت الطاحونة في ملكية جون ستانتون، رسام أميركي، كان كما يبدو، يمسك مضرب كرة التنس أفضل مما يمسك الفرشاة. لكن منذ الأزل، دون أن نعرف لماذا، بالنسبة إلى أطفال القرية، مولان دو شونوفيير هو دوماً طاحونة الساحرة.

- ممم...

- انظر، لورنس... اتبع إصبعي.

أمسكت ستيفاني يده. تركها تفعل، باستمتاع.

- تأمل شجرة الكرز، وسط الساحة. هي شجرة معمرة! لعبة أطفال جيفرني منذ أجيال هي اقتحام الساحة وسرقة الكرز...

- وأين الشرطة من هذا؟

- انتظر، انظر أيضاً. هل ترى في الأوراق تلك الانعكاسات اللامعة في الشمس؟ هي شرائط من الورق الفضي. ورق فضي بسيط مقطع على شكل شرائط. الأمر غبي. هي تساعد على إبعاد الطيور، ضواري بالنسبة إلى الكرز أكثر خطورة من صبيان المنطقة. لكن بالنسبة إلى صغار القرية هي حركة أكثر فروسية من سرقة الفواكه في شجرة الكرز...

لمعت عينا ستيفاني البنفسجيتان مثل عيني مراهقتين. الأكثر ضوءاً من «نيلوفر» مونيه! كل حزن بدا كأنه قد اختفى. واصلت، دون أن تترك الوقت للمفتش كي يجيب:

- كان على الفارس أن يذهب ليسرق بعضاً من تلك الشرائط الفضية ويقدمها لأميرة قلبه كي تربط شعرها.

ضحكت وهي تضع يد سيريناك على شعرها المعقوص بشكل

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

ارتجالي...

- وثائق إثبات، حضرة المفتش...

اختفت أصابع سيريناك في الشعر الكستنائي الطويل. تردد في دعم حركته. من المستحيل ألا تكون ستيفاني قد لاحظت اضطرابه.

عن ماذا تبحث؟ ما هي نسبة الارتجال؟ ما هي نسبة سبق الإصرار؟

الأوراق الفضية التي تمسك بشكل خفي بتسريحة المدرسة تصر تحت أصابعه. أزاح يده كأنها تهدَّد بأن تحترق. ابتسم، تمتم، لا بدَّ أنه يبدو بشكل أهبل.

- أنت فتاة مدهشة، ستيفاني... حقاً. أن تضعي شرائط فضية في شعرك! أتصور أنه من غير اللائق أن أسألك عن الفارس الذي قدمها لك؟

أعادت وضعية شعرها بشكل طبيعي.

- أستطيع فقط أن أقول لك، كي أطمئنك، إنه ليس جيروم مورفال! لم يكن ذلك من طبعه، رومانسية الأطفال. لكن لا تتخيل أسراراً حيث لا توجد، حضرة المفتش. في الفصل، يوجد العديد من الأطفال الذين يحبون منح هدايا لمدرّستهم. هل نواصل؟

تقدما ببعض خطوات على طول الجدول ووصلا بالضبط قبالة المغسل، في المكان المحدد حيث كان جسد جيروم مورفال، قبل بضعة أيام، ممدداً في الماء.

فكرا في ذلك بالضرورة.

ساد الصمت بينهما. حاولت ستيفاني أن تكسره:

- كلود مونيه هو الذي منح هذا المغسل للقرية. مثل الباقي

في الجماعة، كان يحاول، عبر هذه الهبات، أن يجعل الفلاحين يقبلونه...

لم يجب سيريناك. ابتعد خطوة، استمتع بتتبع رقصة النباتات المائية في قاع الجدول بعينيه. دوى صوته كصفعة:

- يجب أن أخبرك، ستيفاني، زوجك على وشك أن يصبح المتهم رقم واحد في هذه القضية.

- عفواً؟

طارت شقاوة المراهقة كأنها طائر مرعوب.

- حرصت فقط على إعلامك. تلك الإشاعات حولك وحول مورفال... غيرته...

- شيء سخيف! إلى أين تريد أن تصل، حضرة المفتش؟ سبق أن أخبرتك أن بيني وبين...

- أعرف، لكن...

داس بقدميه وحل الشاطئ. محت أمطار الأمس كل آثار الأقدام.

- هل يملك زوجك حذاء طويل الرقبة، ستيفاني؟

- هل تطرح في الغالب أسئلة بهذا الغباء؟

- أسئلة شرطة. أنا متأسف... لكنك لم تجيبي.

- أكيد، يملك جاك حذاء طويل الرقبة. مثل الجميع. لا بدَّ أنه ينتعله في هذه اللحظة، ذهب للقنص رفقة أصدقائه.

- هذا ليس موسم القنص، مع ذلك...

جاء جواب المدرسة جافاً ودقيقاً:

- حصل صاحب التلال فوق طريق الأستراغال، باتريك ديلوناي، على ترخيص بالقضاء على الأرانب البرية خارج المحميات وخارج

فترات القنص المنتظمة. تكثر الأرانب في المراعي الجيرية. يمكن لرجالك التحقق من ذلك، يوجد الملف عند المديرية الإقليمية للزراعة، مع قائمة بالقطع الأرضية المعنية، والخسائر التي تحدثها تلك الحيوانات الضارة، والقناصين الذين أعلن ديلوناي أنه يريد أن يساعدوه على تدميرها. في الواقع، كل أصدقائه في جيفرني، ومن ضمنهم زوجي. كل شيء قابل للتفاوض، حضرة المفتش. هكذا هم يقاتلون طوال السنة بشكل قانوني تماماً.

قطب سيريناك جبينه، كأنه يريد أن يقول إنه يسجِّل كل تفصيل حتى لو لم يكن يدوِّن ملاحظات.

- طيب، شكراً، سنتحقق من ذلك. ستلقيان زيارة مساعدي، أو أحد العملاء. اطمئني، هم أقل تطفلاً مني بكثير. ستيفاني، ماذا كان يفعل زوجك صباح يوم الجريمة؟

تقدمت ستيفاني خطوة نحو حافة النهر، مرّرت ورقة صفصاف بين أصابعها.

- إذاً فقط من أجل أن تستجوبني في مكان الجريمة اقترحت علي المجيء، حضرة المفتش؟ كي تهيّئني، كما يقال...

تلعثم سيريناك:

- لا... لا تعتقدي...

- جاك كان قد ذهب للقنص، ذلك الصباح، قاطعت ستيفاني. باكراً. لكن الأمر هكذا في هذه الفترة، عندما يسمح الوقت بذلك... لا يملك زوجي حجة غياب، كما ترى. لكن ولا دافعاً للجريمة أيضاً... واقع أن جيروم مورفال قد حاول التودد إلي لا يشكل واحداً... تنزهنا أحياناً في الجوار، كما نفعل في هذه اللحظة، تحدثنا عن الرسم، كان

شخصاً مهماً ومثقفاً. علاقتي بجيروم مورفال تقف عند هذا الحدّ. كما ترى، ليس هناك ما يمكن أن يشكل دافعاً لجريمة.

تبعت عينا ستيفاني دوبان ماء الجدول، ثم حطتا على لورنس سيريناك.

لا يمكن سبر أغوراهما.

- انظر، حضرة المفتش. يمكن أن أنزلق على هذه التربة المبتلة، أن أسقط بين ذراعيك. قد يرانا أحد... يراقبنا. يصورنا. الأمر سار هنا. ومع ذلك، نحن الاثنان متفقان على أن شيئاً لم يحدث.

لم يستطع سيريناك من أن يمنع نفسه من إلقاء نظرة حوله. لم يرَ سوى بعض المارة البعيدين في المرج. عدا مولان دو شونوفيير، لم يرَ أي بيت. تمتم جوابه:

- اعذريني، ستيفاني. أنا... هذا ليس سوى خيط... ربما بالغت حين تحدثت عن «المشتبه به الرئيسي»...

تردد لحظة في أن يواصل.

- أخيراً... في الواقع، بحسب مساعدي المفتش بينافيدس، وأظن أنه محق، هناك ثلاثة دوافع ممكنة لتفسير مقتل جيروم مورفال: الغيرة بسبب عشيقاته الكثيرات، أو الإتجار في أعمال الفن وشغفه بالرسم، أو سر متعلق بطفل...

فكرت ستيفاني لحظة. أخذ صوتها منحى تهكمياً:

- إذا تبعتك، سأكون أنا، إذاً، المشتبه بها الرئيسية... الدوافع الثلاث تؤدي إلي، لا؟ كنت أتحدث مع مورفال، أنظِّم مباراة في الرسم... ومن يعرف أطفال القرية أكثر مني؟

زمّت شفتيها الورديتين ومدت يديها، كأنها تنتظر وضع الأصفاد.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

أجبر سيريناك نفسه على الضحك.

- لا شيء يدينك، على العكس! بحسب ما أكدته لي، لم تكوني عشيقة لمورفال، أنت لا ترسمين... وليس لديك أطفال.

كلمات المفتش العرضية وقفت في حلقه. غطى حجاب داكن مفاجئ عيني ستيفاني، كأن كلمات سيريناك تسببت لها في كرب عظيم.

تقطع خيط من الكمان.

لا يمكن أن تكون كوميدية إلى تلك الدرجة، فكَّر سيريناك. فكَّر في ما أكده للتو.

لم تكوني عشيقة لمورفال.

أنت لا ترسمين.

ليس لديك أطفال.

كل هيئة ستيفاني تؤكد أنه أخطأ... وأن واحداً من البيانات غير صحيح

واحداً على الأقل.

أي منها؟ هل لذلك علاقة بتحقيقه، بهذه الجريمة؟ مرة أخرى، أحس لورانس سيريناك أنه يتقدم في مستنقع، يغرق في تفاصيل غير متصلة فيما بينها.

صعدا ببطء نحو المدرسة عبر شارع كولومبييه دون أن يضيفا كلمة. افترقا، مضطربين، تحت تأثير إحراج لا يوصف.

- ستيفاني، بحسب الصيغة المستعملة؛ سأطلب منك أن تبقي رهن إشارة الشرطة.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

صاحب ذلك بابتسامة. ردت بدفء مصطنع:

- عن طيب خاطر، حضرة المفتش. ليس من الصعب أن تجدني. أنا إما في المدرسة وإما في البيت، بالضبط فوق الفناء.

أشارت ببصرها إلى الكوة المستديرة تحت العلية.

- عالمي ليس كبيراً، كما يمكن أن تلاحظ... آه، بلا. بعد ثلاثة أيام، في الصباح، سأصطحب أطفال القرية لزيارة حدائق مونيه.

انسحبت نحو الفصل. واصل لونُ قزحيتها الأرجواني الفاتح التدفق طويلاً على أفكار سيريناك، مشوِّهاً كل واقعية ما سمعه، مشكِّلاً إياها في لوحة غريبة، رسمت بضربات فرشاة فوضوية.

ستيفاني دوبان.

أي دور تلعبه في هذه القضية؟

مشبوهة؟ ضحية؟

هذه الفتاة تربكه بشكل رهيب. الموقف الوحيد العقلاني الوحيد هو أن يتنازل عن هذه القضية، أن يتصل بقاضي التحقيق، وأن يعهد بكل شيء لسيلفيو أو أي شرطي آخر.

شيء أكيد، شيء واحد يمسكه، مع ذلك.

ذلك الحدس الذي لا يستطيع تفسيره، ذلك الإحساس الحارق بأن ستيفاني دوبان تطلب مساعدته.

- 23 -

من برجي، لم أفلت شيئاً من المشهد. المتنزهان أمام شجرة الكرز خاصتي، الشرائط الفضية في الشعر، الوحل على الأحذية،

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مباشرة أمام مسرح الجريمة.

أمام بيتي!

سأكون مخطئة لو حرمت نفسي، ألا ترون ذلك؟ ألا تبدو لكم حكايتهما واضحة بشكل ظاهر؟ حكاية رومانسية بين المفتش الوسيم الذي سقط من السماء والمدرسة التي تنتظر منقذها! هما لا يزالان شابان جميلان. المستقبل أمامهما، قدرهما بين يديهما

كل شيء في مكانه...

الوقت اللازم لبعض المواعيد... الجسد سيقوم بالباقي.

غادرتُ برجي. أزبدت. استغرقت ثواني عديدة في كل درجة من درجات السلَّم. استغرقت أيضاً دقائق عديدة في غلق الأقفال الثلاثة. يصعب علي إغلاق باب السنديان، هو ثقيل وعجوز مثلي. كأن المفصلات تزداد صدأً كل ليلة. لكل واحد حقه من الروماتزم، لاحظوا.

فكرت مرة أخرى في الشرطي والمدرّسة. أجل، هذان الاثنان يحلمان بتحطيم اللوحة. الهروب من الإطار. هروبهما مقرر على دراجة ملونة وبراقة. أي فتاة لا تحلم بهروب مماثل، هاه؟

إلا إذا تسربت حبة رمل، بالطبع.

إلا إذا كتب أحد ما الحكاية بشكل مختلف.

- تعال، نبتون!

مشيت. مشيت. كما العادة، قطعت عبر موقف متحف الفن الأميركي. مررت أمام البناية. كما العادة، تذمرت وحدي ضد هذا

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

العمار البشع من نوع بيوت سنوات 1970. أنا على علم طبعاً، حديقة كبيرة تهدف لحجب المتحف. غرسوا أمامه متاهة من الأرز وجنبة الرباط، منذ سنوات. يسمونه الحديقة الانطباعية. أنا أرغب في ذلك... لكنني أعرف أن بعض الناس لا يرغبون في استبدالِ الأسيجة في بقعهم الأرضية بهذه الوشائع من الشجر. الآن وقد اشتراه الفرنسيون من الأميركيين كي يحوِّلوه إلى متحف انطباعي، ربما سيزيلون كل شيء! سأقول لكم، لو سألوني رأيي سأكون موافقة.

في النهاية، في جميع الأحوال، سأكون قد مت قبل أن يتم كل ذلك. في هذا الوقت، هم فقط اكتفوا بوضع أربعة أكوام من القش خلف المتحف على الطريقة القديمة، لا ينقص سوى المذراة المغروزة في الوسط. أجد ذلك غريباً خلف أشجار الأرز، لكن يبدو أنه يثير إعجاب البعض، يوجد دوماً بعض السياح الذي يلتقطون صوراً أمامه.

عندما كنت شابة، كنت أصعد غالباً خلف المتحف بعد معرض كامبور. الرؤية على أسقف المتحف ذات المدرجات المليئة بالأعشاب غير معروفة لدى السياح، لكنها مدهشة. حتى لو أن أجمل رؤية تظل الرؤية من الهضبة فوق برج المياه. مع انعدام الساقين، تظل معي الذكريات...

واصلت المشي. عصاي المتزعزعة تخدش الرصيف. بينما تخطّتني مجموعة من خمسة أشخاص عجائز أصغر مني؛ يتحدثون الإنجليزية. هكذا الأمر دوماً خلال الأسبوع، جيفرني خالية مثل أي

قرية أخرى. عدا حافلات منظمي الرحلات السياحية... ثلاثة أرباع الزوار الذين يهبطون من الحافلة يتحدثون الإنجليزية ويذهبون ويجيئون في شارع كلود مونيه، يصلون إلى الكنيسة ويعودون بالطريق نفسه. ذهاباً، هم ينظرون إلى المعارض، وإياباً يقتنون. في نهايات الأسبوع الأمر مختلف، يصل الباريسيون، ثم النورمانديون، بعدد قليل.

حتى لو كانت المجموعة أمامي تسبقني، أتقدم على وتيرتي. أودُّ لو أسرِع الخُطى وأنا أمرُّ أمام معرض كاندي. أمادو كاندي يمسك أقدم معرض فن في جيفرني.

ثلاثون سنة وأنا ألتقي به. ثلاثون سنة وهو يدمرني...

خسرت!

متجره الفني يشبه مغارة علي بابا، تخطى عتبة بابه بمجرد أن رآني.

- إذاً جميلتي. تتسكعين دوماً في الشوارع كأنك شبح؟

- صباح الخير أمادو. اعذرني، أنا مستعجلة...

انفجر ضاحكاً، ضحكة مجلجلة من عملاق سنغالي. بحسب علمي، هو الأفريقي الوحيد في القرية. أحياناً، أمضي وقتاً أكثر معه. يحكي لي عن أعماله، أحلامه في أن يتفاوض يوماً على إحدى لوحات مونيه هو أيضاً. الجائزة الكبرى... «نيلوفر»، أي واحد. بالأسود، لمَ لا أحياناً هو أيضاً يحوم حول مولان دو شونوفيير. أمادو كاندي كان يتاجر في السر مع جيروم مورفال. يجب أن أظل حذرة. علمت أيضاً أن الشرطة قد تعاملت معه، ليس منذ وقت بعيد.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

واصلت. كل يوم يبدو لي شارع كلود مونيه كأنه لا ينتهي. يفسح لي السياح كي أمر. أحياناً، يوجد بعض المتسكعين الذين يلتقطون لي صوراً، كأني جزء من المشهد...

رقم 71.

ها قد وصلت!

نظرت إلى الاسم على علبة الرسائل. «جيروم وباتريسيا مورفال»، كأن الزوجين لا يزالان يعيشان تحت السقف نفسه. أفهم باتريسيا. ليس من السهل خدش كتابة باسم ميت.

دققت الجرس. عدة مرات. خرجَتْ.

بدت مندهشة.

يمكن أن يندهش المرء لأقل من ذلك! منذ عدة أشهر لم نتبادل أكثر من كلمتين، تحية في الشارع على الأكثر. دخلت، اقتربت، همست في أذنها:

- يجب أن أتحدث إليك، باتريسيا... لدي أشياء أخبرك عنها. أشياء علمت بها وأخرى فهمتها...

عندما تركتني أمر، لاحظتُ أنها شاحبة. وجود لوحتي «النيلوفر» في البهو سبب لي الدوار. أقل منه لباتريسيا، من الواضح. أحسست أنه سيغمى عليها.

كانت دوماً ضعيفة، باتريسيا.

تمتمتْ:

- هذا... هذا بخصوص مقتل جيروم؟

- أجل... ضمن اعترافات أخر.

ترددت. رغم كل شيء، حتى لو لم يكن هناك ما أخسره، لم

يكن من السهل أن ألقي في وجهها هذا النوع من الاعتراف. كنت أتمنى لو استطعتم رؤية ذلك. انتظرت أن تجلس على أحد المقاعد الجلدية في الصالون وقلت:

- أجل، باتريسيا، هذا بخصوص مقتل جيروم. أنا... أنا أعرف اسم الجاني.

- 24 -

تساءل سيلفيو بينافيدس لعدة دقائق عمّا يمكن أن تفعله تلك التماسيح في بركة النيلوفر. هو يشك بأن الأمر يتعلق بتفسير خاص بالرسام، أحد اسمه كوبامو. لكنه يتساءل، هل هناك رسالة من وراء كل ذلك؟ كي يشغل وقت انتظاره، أخذ يعد التماسيح في اللوحة، أخفى كوبامو في كل مكان تحت النينوفر. عيون، خياشيم، زعانف.

خلفه، فتح باب المعرض الفني كي يفسح المجال لدخول لورنس سيريناك. استدار المفتش بينافيدس نحو أمادو كاندي بابتسامة ارتياح.

- لقد أخبرتك أنه لن يتأخر.

رفع أمادو كاندي يديه ببطء. كان صاحب المعرض السنغالي تقريباً بطول سائحَين يابانيَين مجتمعَين. كان يرتدي رداءً عريضاً، بوبو تجمع زخرفته بين خليط من المطبوعات الأفريقية و ظلال الباستيل.

- لم أكن قلقاً، حضرة المفتش، أنا أعي ذلك تماماً، وقتي أقل قيمة من وقتكم.

المعرض كاندي يشبه فوضى عارمة. لوحات من جميع الأحجام مكومة في كل ركن من أركان الغرفة، تمنح للمتجر أناقة متحف ينقل أثاثه، وتمنح بلا شك للسياح العارفين الوهم بالقدرة على التفاوض بشأن أعمال جيدة عند صاحب المعرض الفوضوي.

أمادو كاندي رجل ماكر.

جلس المفتشان حيث استطاعا. جلس سيلفيو بينافيدس على درجة من السلَّم بين علبتي كرتون ولورنس سيريناك انقسمت مؤخرته نصفين على حافة وعاء خشبي كبير مليء بمطبوعات حجرية بقلم الفحم.

بدأ سيريناك الكلام:

- سيد كاندي، كنت تعرف جيروم مورفال...

بقي أمادو واقفاً.

- أجل، كان جيروم من هواة الفن المستنير. كنا نتناقش، كنت أنصحه. كان رجلاً ذواقاً... خسرت صديقاً.

- زبوناً جيداً، أيضاً.

سيريناك هو الذي استلَّ الأول. كأن الألم في مؤخرته جعله عدوانياً. لم تفارق كاندي ابتسامته.

- إن شئت... هي وظيفتكم أن تفكروا على هذا النحو، حضرة المفتش.

- طيب، إذاً أنت تعذرني لدخولي مباشرة في الموضوع. عَهَدَ إليك جيروم مورفال بالعثور على لوحة «نيلوفر»؟

- وأنت تؤديها بشكل جيد، وظيفتك، قال كاندي وهو يضحك. أجل، من بين تحقيقات أخرى، طلب مني جيروم مراقبة سوق أعمال

كلود مونيه.

- «نيلوفر» بالأخص؟

- أجل... لكن بيننا، كان ذلك من دون أمل، كان جيروم يعرف ذلك، لكنه كان يحب التحديات الخرقاء...

- لماذا أنت؟ تدخّل بينافيدس.

أدار أمادو كاندي رأسه. استوعب أنه يقف بين مفتشين.

- كيف هذا، لماذا أنا؟

- أجل، لماذا لجأ مورفال إليك وليس إلى صاحب معرض فني آخر؟

- لماذا ليس أنا، حضرة المفتش؟ هل تظن أني لست الخبير المناسب؟

اغتصب كاندي ابتسامة بيضاء، وحملق بحدقتيه.

- لو كان الأمر يتعلق بالاشتغال على الفنون البدائية، موافق، لكن تكليف سنغالي ببحث حول انطباعيين...

- اطمئن، حضرة المفتش، جيروم عهد لي أيضاً بمهمة العثور على قرن غزالة سحري...

ضحك سيريناك بصراحة وهو يفرد ظهره.

- أنت ماكر، سيد كاندي، حذّرنا الزملاء من ذلك. لكن هنا، نحن مستعجلين... إذاً...

- لم يبدُ عليك أنك كنت مستعجلاً قبل قليل...

- قبل قليل؟

- قبل قليل. منذ ساعة أو ساعتين. مررت أمام المعرض، لكني حرصت على ألا أزعجك، كنت تبدو مركِّزاً على شروحات دليلك.

اضطرب بينافيدس. تحمّل سيريناك.

- أنت فعلاً ماكر، كاندي.

- جيفرني قرية صغيرة، قال صاحب المعرض وهو يستدير نحو الباب، فقط شارعين.

- سبق أن سمعت هذا...

- بعد أن قيل، حضرة المفتش، كي أكون صريحاً تماماً، لم تكن أنت من لاحظت بل دليلك، مدرّسة جيفرني الجميلة. فقط رأيتك وقلت لنفسي شيئاً مثل «كم هو محظوظ». هل تعرف، كدت أنجب أطفالاً فقط من أجل الحصول على متعة اصطحابهم إلى المدرسة والتقاء ستيفاني دوبان كل صباح...

- مثل صديقك مورفال.

تراجع كاندي قليلاً كي يستطيع أن يرى الشرطيين الجالسين في الآن نفسه.

- عدا أن جيروم لم يكن عنده أطفال، أجاب صاحب المعرض. أنت أيضاً ماكر، حضرة المفتش.

التفتَ نحو سيلفيو.

- وأنت بالعكس، من النوع الفضولي. لا بدَّ أنكما تكوِّنان ثنائياً فعالاً أنتما الاثنان. كيف أصف الثنائي الذي تشكلانه... القرد والنامل؟ هل يناسبكما؟

غيّر سيريناك من جلسته.

- هل تخترع أمثالاً أفريقية في الغالب؟

- طوال الوقت، هذا يضفي لوناً محلياً، ذلك يعجب زبائني. أخترع أمثالاً من أجل الثنائيات، أجد أسماء حيوانات للسيد والسيدة.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

إنها لمستي التجارية الخاصة. لا تتصور إلى أي درجة ينجح الأمر.

- هل يسري ذلك على ثنائيات الشرطة؟

- أتأقلم.

استمتعَ سيريناك كثيراً. بينما بدا بينافيدس منزعجاً. ضربت قدماه الدرجة الأولى من السلَّم.

- هل تعرف أليسون مورير؟ قال فجأة.

- لا...

- صديقك مورفال كان يعرفها.

- آه؟

- هل تحب الحكايات، سيد كاندي؟

- أعشقها، كان جدي يحكيها لكل القبيلة خلال السهرات. كانت تعوِّض التلفاز. من قبل كنا نشوي الجراد...

- لا تبالغ كثيراً، كاندي.

تمسك بينافيدس بدرابزين السلالم، نهض، مدد أعضاءه المتيبسة وعرض صورة على صاحب المعرض. أليسون مورير، على شاطئ سارك، متمددة بالقرب من جيروم مورفال.

- كما يمكن أن تلاحظ، علَّق سيلفيو، يتعلق الأمر بإحدى الصديقات الحميمات لصديقك جيروم مورفال.

نظر أمادو كاندي إلى الصورة نظرة خبير. تناوب سيريناك مع مساعده وقال متابعاً:

- في الصورة، قد تبدو الآنسة مورير فتاة جميلة، لكن في الواقع تملك الشابة أليسون وجهاً، فلنقل، غير جذاب. لا شيء سيئ، سنقول فقط إنها لا تتوفر على أي سحر غير عادي. ولأننا شرطيَّين ماكرَين،

قال سيريناك وهو يغمز لسيلفيو، ماكرَين وفضوليَين، قلنا إن هناك شيئاً يفصل أليسون عن باقي مغامرات جيروم مورفال. أليس غريباً، سيد كاندي، لماذا سيخرج جيروم مورفال مع فتاة عادية تشتغل في المحاسبة في وكالة تأمين في نيوكاسل؟

أعاد أمادو كاسي الصورة للشرطيَين.

- ربما كان يجب فقط أن تعترفا بنسبية حكمكما الجمالي. هذه الآنسة إنجليزية...

مرة أخرى، لم يتمالك سيريناك نفسه من الضحك، حتى كان على وشك أن يسقط في وعاء المطبوعات الحجرية. واصل بينافيدس الحديث.

- سأواصل حكايتي، سيد كاندي، إذا سمحت لي. تنحصر عائلة أليسون في جدة وحيدة، كيت مورير، والتي سكنت دائماً في أحد بيوت الصيادين في جزيرة سارك، بيت بئيس لا يساوي شيئاً وهو يتصدع مع مرور الوقت. لا تملك كيت مورير سوى أشياء قديمة لا قيمة لها، تماثيل، ومجوهرات رخيصة، ومجموعة من اللوحات القديمة لا يرغب بها أحد، وأواني مخدوشة، وحتى تقليد لإحدى لوحات «النيلوفر» لمونيه، لوحة صغيرة، حجم 60 على 60. هي مرتبطة بكل ذلك، كيت، ليس من أجل القيمة، لكن لأن ذلك كل ما تبقى لها من عائلتها. أحدّثك عن كيت لأن جيروم مورفال ذهب مرات عديدة إلى جزيرة سارك مع الشابة أليسون مورير. وبتلك المناسبة، تصادق مع جدتها. عندما يكون المرء شرطياً فضولياً، كما ترى يا كاندي، من النوع النامل، فهو بالضرورة يطرح هذا السؤال: ماذا ذهب جيروم مورفال يفعل عند تلك العجوز الإنجليزية في جزيرة سارك تلك؟

- 25 -

راقبت باتريسيا مورفال الخيال الأسود المقوَّس يبتعد. كانت العصا تصدر صريراً على رصيف شارع كلود مونيه عند كل خطوة تخطوها العجوز وهي تهبط نحو مولان دو شونوفيير. لحق بها نبتون، تقريباً بمحاذاة الوكالة العقارية إيمو-بريستيج. تساءلت باتريسيا مورفال عن الوقت الذي استغرقه ذلك الحديث السريالي.

ربما نصف ساعة؟

بالكاد أكثر.

يا إلهي!

نصف ساعة كانت كافية كي تقلب كل ثوابتها. صعب على باتريسيا مورفال أن تحدد نتائج كل ما سمعته للتو. هل يجب أن تصدق تلك العجوز الحمقاء؟ وبالأخص، ماذا عليها أن تفعل الآن؟

اجتازت الصالون، متفادية أن تغرق نظرتها في اللوحات الطويلة لـ«النيلوفر». يجب أن تتحدث عن ذلك مع الشرطة. أجل، ذلك ما يجب أن تفعله...

ترددت.

ما الفائدة؟ بمن ستثق؟

حدقت بالزهور الذابلة التي تتدلى من المزهرية اليابانية؛ تتذكر كل تفصيل من زيارة المفتش سيريناك، نظرته المحققة، طريقته في تقدير كل لوحة معلقة على الجدار، عدم ارتياحه في الممر أمام لوحات «النيلوفر». إلهي... طرحت على نفسها السؤال مرة أخرى.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بمن ستثق؟

جلست باتريسيا في الصالون، فكرت مطولاً في الحديث الذي أجرته للتو. لا يوجد سوى سؤال واحد يجب أن تطرحه في الواقع: هل ما زال ممكناً إصلاح ما يمكن إصلاحه؟ هل تستطيع تغيير مجرى الأحداث؟

مشت باتريسيا نحو غرفة صغيرة تحتوي على مكتب وحاسوب، تمر على شاشته مجموعة مختلفة من مناظر جيفرني المشمسة. منذ بضعة أشهر فقط بدأت باتريسيا تهتم بالإنترنت. لم تتوقع أبداً أن تشغف بلوحة مفاتيح وشاشة. ومع ذلك... الحب من أول نظرة. منذ ذلك الحين، أصبحت تمضي ساعات. بفضل الإنترنت، أعادت باتريسيا اكتشاف جيفرني، قريتها الأصلية. من دون الإنترنت، هل كانت لتشك بوجود آلاف الصور لقريتها على مرمى نقرة، كلها أجمل من بعضها؟ من دون الإنترنت، هل كانت لتتخيل تعليقات الزوار في منتديات العالم أجمع، كل واحد منهم أكثر حماساً من الآخر؟ منذ بضعة أشهر، بقيت باتريسيا مندهشة أمام جمال أحد المواقع الخاص بجيفرني. منذ ذلك الحين، لم يعد يمر أسبوع دون أن تبحر في ذلك الموقع وشعره اليومي الذي لا يصدَّق.

ليس اليوم!

الآن، تبحث باتريسيا عن شيء آخر في الشبكة. يحط سهم الفأرة على النجمة الصفراء التي تحدد عناوينها المفضلة. تفتح القائمة وتقف عند موقع أصدقاء الأمس.

بعد ثوانٍ، تنقر باتريسيا على «جيفرني» في محرك البحث. الصورة التي تبحث عنها تنتظرها. من المستحيل أن تخطئها، هي

صورة الفصل الوحيدة لكل الموقع الذي يعود تاريخه لما قبل الحرب.

من السنتين 1936-1937 بالتحديد.

للحظة، تساءلت باتريسيا عمَّ يمكن أن يعتقده مستعملو الإنترنت عندما يقعون على الموقع صدفة. ماذا تفعل هنا صورة الفصل هذه التي وجدت قبل التاريخ؟

من سيبحث عن أصدقاء شاركوه مقاعد الفصل من خمس وسبعين سنة خلت؟

تأملت باتريسيا فترة طويلة وجوه التلاميذ الجادة على الصورة القديمة. إلهي، ما زال يصعب عليها تصديق تصريحات تلك العجوز الحمقاء. هل ذلك ممكن؟ ألم تخترع كل شيء؟ هل يمكن أن يكون قاتل جيروم فعلاً هو الشخص الذي تدينه، آخر شخص يمكن أن تشك فيه؟

ارتعشت بكامل جسدها فقط لرؤية تلك الوجوه الرمادية. سالت من عينَيها دموع باردة. بعد تردد طويل، وقفت.

هي تعرف ما ستفعله، أخذت قرارها. اجتازت الصالون مرة أخرى وغيّرت مكان تمثال البرونز لديان شاسريس على البوفيه بحوالي بعض السنتمترات.

بعد كل شيء، ماذا ستخسر الآن؟

فتحت أحد أدراج البوفيه وأخرجت مفكرة عناوين سوداء. جلست مرة أخرى على المقعد الجلدي، ركبت الرقم على هاتفها اللاسلكي.

- آلو. المفوض لورانتان، هنا باتريسيا مورفال.

صمت طويل يجيبها على الطرف الآخر من الخط.

- زوجة جيروم مورفال. القضية مورفال، جراح العيون الذي قتل في جيفرني، هل ترى ما أتحدث عنه...

صوت منزعج أجاب هذه المرة:

- أجل... أرى، بطبيعة الحال. أنا متقاعد لكني لا أعاني بعد من الزهايمر...

- أعرف، أعرف، لهذا أتصل بك، غالباً ما قرأت اسمك في صحف المنطقة. ثناء... أنا في حاجة إليك حضرة المفوض... كيف... كيف نسمي ذلك... فلنقل، تحقيقاً مضاداً. تحرٍّ مواز للتحقيق الرسمي...

عمَّ صمت طويل بين المتحدثَين.

ثناء...

على الطرف الآخر من الخط، لم يستطع لورانتان أن يمنع نفسه من التفكير في أهم التحقيقات في حياته المهنية. سنواته التي أمضاها في كندا وتدخّله في حادث متحف الفنون الجميلة في مونتريال، في سبتمبر 1972، إحدى أكبر سرقات الأعمال الفنية في التاريخ، ثماني عشرة لوحة لفنانين كبار تبخّرت، ديلاكروا، روبنز، رامبرانت، كورو... عودته إلى مفوضية فيرنون، سنة 1974، وأكبر تحري قام به، بعد إحدى عشرة سنة، ثلاث سنوات قبل التقاعد، في نوفمبر 1985، سرقة تسع لوحات لمونيه في متحف مارموتان، كان من بينها اللوحة الشهيرة **انطباع، شمس مشرقة**. كان هو، لورانتان، بالاشتراك مع شرطة الفن OCBC، المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية، الذي وَجَدَ اللوحات سنة 1991 في

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

بورتو فيكيو، عند لص كورسيكي، بعد أن مرت من عند ياكوزا ياباني، شينيتشي فوجيكاما... عملية على نطاق وطني، عناوين كبيرة في صحف تلك الحقبة... كان ذلك منذ زمن بعيد...

أخيراً قطع لورانتان الصمت.

- أنا متقاعد، سيدة مورفال. معاش مفوض شرطة لا شيء فيه استثنائياً من وجهة نظر مادية، لكني أكتفي بذلك. لماذا لا تلجئين إلى تحرٍّ خاص؟

- فكرت في ذلك حضرة المفوض. بطبيعة الحال. لكن لا أحد من المتحرين الخاصين يتوفر على خبرتك في مجال الإتجار بالفن. يتعلق الأمر بمهارة مهمة في هذه القضية...

بدا صوت المفوض أكثر اندهاشاً:

- ماذا تنتظرين مني؟

- هل أخذ فضولك يطغى حضرة المفتش؟ أعترف لك، كنت أتمنى ذلك. سأرسم لك المشهد. وستقدِّر بنفسك. ألا تظن أن حكم مفتش، شاب، دون تجارب، يقع بغباء في حب أول مشتبه بها، أو زوجة أول مشتبه به، سيكون مشوشاً؟ هل تظن أنه سيجري تحقيقه على الوجه الأكمل؟ بموضوعية؟ بتبصر؟ هل تظن أنه بإمكاننا الوثوق به كي يظهر الحقيقة؟

- هو لا يشتغل لوحده. لديه مساعد... فرقة...

- تحت تأثيره، من دون مبادرة...

سعل المفوض لورانتان على الطرف الآخر للخط.

- اعذريني. أنا شرطي سابق في الثمانين من العمر تقريباً. لم تطأ قدماي أرض مفوضية منذ عشر سنوات. لا أفهم ماذا تنتظرين

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

مني...

- سأشحذ فضولك أكثر إذاً، حضرة المفتش. بما أنك لا تزال تقرأ الصحف، أنصحك بالاطّلاع على صفحة الوفيات. الصفحات المحلية. سيهمك ذلك، أنا متأكدة.

أصبح صوت المفوض لورانتان ساخراً تقريباً:

- سأفعل ذلك، سيدة مورفال. هل تشكين بذلك، حالنا لا ينصلح. ألغازك الغريبة تتيح لي تغييراً بدل السودوكو الدائم، لا يأتي طلب كي يكسر روتين شرطي عجوز أعزب كل يوم. لكنني لم أرَ بعد إلى أين تريدين أن تصلي.

- هل تريد أن أحدد أكثر؟ حسناً، فلنقل إن مفتشاً لا يزال شاباً سيهتم ربما أكثر بالرسم، بالفن عموماً، بـ«النيلوفر»... وليس بالأشخاص المسنين بالقدر الكافي.

دام الصمت دهراً قبل أن يجيب المفوض.

- أظن أن علي أن أكون سعيداً بتلميحاتك، لكن ماضي الشرطي هو ورائي. لم أعد في الصورة، حقاً. إن كان تحقيقاً مضاداً هو ما تنتظرينه مني، فأنا لا أظن أنك قصدت الشخص المناسب. اتصلي بشرطة الفن. لدي زملاء أكثر شباباً مني...

- حضرة المفتش، قاطعت باتريسيا، قم بتحرياتك الخاصة. كهاوٍ. من دون أفكار مسبقة. الأمر بسيط. لا أطلب منك أكثر. سترى جيداً... هيا، سأعطيك إشارة أتمنى أن تثير فضولك. ادخل إلى الإنترنت، ادخل إلى موقع محدد، موقع أصدقاء الأمس. إن كان عندك أولاد أو أحفاد، فهم يعرفونه بالضرورة. اكتب جيفرني. 1936-1937. هي نقطة بداية مهمة بالنسبة إلى هذا التحقيق على ما

أظن... كي تراقبه من زاوية أخرى، سترى.

- ما هو هدفك سيدة مورفال؟ انتقام، هل يتعلق الأمر بهذا؟

- لا، حضرة المفوض. آه، لا. لأول مرة في حياتي سيكون بالأحرى العكس...

وضعت باتريسيا مورفال السماعة، وهي تحس بالارتياح تقريباً.

رأت عبر النافذة الشمس في البعيد تهبط ببطء خلف منحدرات السين، تُجمّد الدورة المتعرجة في منظر انطباعي زائف وزائل، لكنه يومي.

- 26 -

في معرض أمادو كاندي، اندهش المفتش سيريناك قليلاً من كون العملاق السنغالي لم يظهر أي ردّ فعل. كلما تأمل المعرض كلما لاحظ أنه لا يشبه المعارض الأخرى. عموماً، جدران متاجر الفن تكون نقية، بيضاء، تظهر جمالاً نقياً وخفياً. في معرض كاندي، على العكس، بثور تنفخ صباغة الجدران المقشرة، مصابيح تتدلى من السقف، الطوب يبدو متماسكاً بالغبار أكثر منه بخليط الرمل. يبدو بوضوح أن أمادو كاندي يبذل جهداً كبيراً كي يحول متجره إلى مغارة. ألحَّ سيلفيو:

- إذا لخّصت، سيد كاندي... ها نحن أمام عشيقة غير جذابة، جدة من دون مال، جزيرة أنجلو-نورماندية يكثر عليها المطر. ألا يدهشك صديقك مورفال؟

- كنت أحب كثيراً جانبه الغريب...

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

- وسارك؟

- ماذا، سارك؟

- أنت أيضاً تحب سارك، كاندي.

ترك بينافيدس عمداً بضع لحظات صمت تمر قبل أن يواصل:

- لقد ذهبت إلى جزيرة سارك ليس أقل من ست مرات خلال السنوات الأخيرة، وكأن ذلك صدفة بضعة أشهر قبل أن يلتقي جيروم مورفال أليسون مورير.

راقب سيريناك مساعده وقال في نفسه إن سيلفيو يعرف كيف يحاكي النامل، أو أن يقلد صيحته، لم يحرم نفسه من ذلك. لأول مرة، بضع ثوانٍ، بدا أمادو كاندي كأنه اهتز، ظهرت تجاعيد شيخوخة بين كل صدغ. ذهب بينافيدس أبعد:

- سيد كاندي، هل من غير اللائق أن نسألك ماذا كنت تذهب لتفعل في سارك؟

نظر أمادو كاندي إلى المارة يسيرون في شارع كلود مونيه، كأنه يبحث عن غرض، ثم استدار. استعاد ابتسامته المخادعة.

- حضرة المفتش، أنت تعرف مثلي أن سارك هي آخر ملاذ ضريبي أوروبي. لا تخبروا أحداً، لكني سأغسل فيها أموالي. الماس والعاج والتوابل، هذا يدر الكثير من الربح، لا تتصورون مقداره. دون الحديث عن تجارة قرون الغزال السحري... سارك هي قسم ما وراء البحار من إنجلترا... هي جزيرة الأصليين، إن شئت.

هز سيلفيو كتفيه واستأنف:

- في الحقيقة كاندي، تتوفر أليسون وجدّتها على أصول فرنسية

بعيدة. عندنا جميع الأسباب التي تجعلنا نعتقد أن أحد أسلافهما هو يوجين مورير. أتصور أنك على الأقل تعرف يوجين مورير؟

- إذا كنت تطرح السؤال، فأنا أعتقد أنك على الأقل تعرف أني الخبير الذي عيَّنته المديرية الإقليمية للشؤون الثقافية لتحديد مجموعة مورير.

انحنى صاحب المعرض نحو اللوحات المسنودة إلى الحائط، أخذ منها مشهد قرية أفريقية، في نفس الوقت ساذج ومليء بالألوان. نهض بابتسامة مبتهجة وتابع مونولوجه:

- من بين كل الرسامين الانطباعيين، مسار جذاب هو مسار يوجين مورير، لا؟ كان شاباً شغوفا بالأدب والرسم، لكن لسوء الحظ بالنسبة إليه كان فقيراً... أصبح رساماً وهاوي مجموعات عن شغف، ولأنه محتاجاً إلى أن يعيش، أصبح حلوانياً في باريس وروان... خلال حياته، كان يوجين مورير أكثر غنى من أغلب أصدقائه الرسامين، فان غوخ، رينوار، مونيه، قام بمساعدتهم، دعمهم، حتى إنه قام بتغذيتهم، الرجل الشجاع... رسم، أيضاً، لكن من يتذكر اليوم يوجين مورير؟

وضع أمادو كاندي اللوحة الأفريقية أمام الشرطيَين.

- تفصيل آخر، سافر يوجين مورير لمدة سنتين ليرسم في أفريقيا، من سنة 1893 إلى 1895، بعيداً عن كل تأثير، وعاد بحقائب مليئة باللوحات. إن كان عندك قليل من الذوق، ستلاحظ أن مورير كان رساماً ممتازاً، وأن المزج بين الانطباعية والفن الساذج القريب من البدائيين لا يفتأ يفاجئنا...

أزال لورنس سيريناك مؤخرته عن الوعاء وقدَّر اللوحة باهتمام

مندهش. سيلفيو بينافيدس، هو لم يدع شيئاً يصرف انتباهه.

- طيب، شكراً، سيد كاندي. إذاً نحن نعرف كل شيء عن سلف العائلة مورير، يوجين، رسام، حلواني، وهاوي مجموعات. إذا أردت، فلنعد إلى ذريته، أليسون وكيت. منذ سنتين، كانت كيت مورير مهددة بالطرد من طرف السيد في سارك. أجل، أجل، كنت مندهشاً أنا أيضاً، لكن في سارك لا يزال السيد هو الذي يصنع القانون. ماذا تريد، الحياة قاسية في الملاذات الضريبية، كان يتوجب على كيت أن تقوم بإعادة إصلاح بيتها المتهدم الذي يُشعِر الجيران والسياح بالعار، أو أن تُرحّل. حينئذٍ تدخّل جيروم مورفال. أصبح يصادق الحفيدة وأمضى في سارك، عند الجدة، بعض نهايات الأسبوع التي يمكن أن نتصور أنها كانت رومانسية. عرض الرجل اللطيف مورفال مساعدة كيت مورير. خمسون ألف ليرة. قرض من دون فائدة، هكذا، مجرد صداقة، مدهش، لا؟

- كان جيروم رجلاً لطيفاً، علّق أمادو كاندي.

- أليس كذلك؟ اتصلت كيت مورير هاتفياً بحفيدتها، أكَّدت لها أن صديقها الطيب، جيروم مورفال، هو في الواقع رجل جذاب. ليس فقط سيقرضها خمسين ألف ليرة، لكنه لطيف بحيث كي لا يصدمها، عرض عليها مقابل القرض أن يخلصها من مخزونها من اللوحات العتيقة، بما فيها ذلك التقليد لـ«نيلوفر» مونيه.

- ماذا كنت أقول لك، علّق أمادو كاندي بمكر. اللباقة والكرم، هذا كان جيروم.

أزال سيريناك عينيه أخيراً عن ألوان قرية مورير الأفريقية الدافئة وتابع معوضاً مساعده:

- رجل قديس، نحن متفقان. غير أن أليسون قد يكون عندها وجه قبيح، لكن الفتاة ليست غبية. أثار ذلك العرض شكوكها، سنعبّر عن ذلك بهذا الشكل، استدعت خبيراً، خبيراً آخر أريد أن أقول، ليس أنت، كاندي.

تحمّل صاحب المعرض وهو يبتسم.

- لا تتوقع البقية؟ تابع سيريناك.

- أتحرق شوقاً لسماعها، سيداي، مع التدريب، أنتما الاثنان، أصبحتما تتقنان الحكي تقريباً بنفس درجة جدي الولي الصالح.

صوّب سيريناك صفعته:

- «النيلوفر» الذي كان في حوزة كيت موربر كان لوحة حقيقية لمونيه، وليست تقليداً! كانت تساوي مئة مرة، ألف مرة عرض مورفال...

اهتزت حيطان المعرض من ضحكة كاندي المدوية.

- يا له من رجل، جيروم!

- هل تعرف نهاية الحكاية؟ تابع بينافيدس على حافة الانفجار. أليسون موربر، بطبيعة الحال قطعت كل علاقة لها بذلك الجنتلمان الفرنسي... كيت، الجدة، خسرت في الوقت نفسه حمى وصديقاً، رفضت أن تبيع اللوحة، لكنها طردت من بيت الصيادين... وجدوها بعد يومين، كانت قد رمت نفسها من فوق الحافة في الجسر الذي يربط جزئي الجزيرة. هل تعرف ما تبقى منها؟

لم يجب كاندي الذي كان منحنياً يحاول ترتيب لوحة موربر.

- مقعد، صاح سيلفيو. مقعد باسمها، تاريخ الميلاد وتاريخ وفاتها، مقعد قبالة الحافة التي ارتمت منها. إنه التقليد في سارك،

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لا مقبرة، لا قبور، فقط مقعد من خشب ينقش عليه اسم الساركيني الميت، مقعد عمومي، يوضع وسط الطبيعة، قبالة البحر... قبل أن تموت، كانت كيت قد ذكرت في وصيتها أنها تمنح اللوحة للمتحف الوطني لكارديف...

نهض كاندي، دون أن يتخلى عن ابتسامته.

- نستخلص درساً إذاً، حضرة المفتش. سارك ربحتْ مقعداً، متحف كارديف يربح لوحة «نيلوفر»، جيروم مورفال يربح حجة كي يقطع علاقته بأبشع عشيقاته...

قلل بعض الدرجات من شدة ضحكته.

- سيد كاندي، ألحَّ بينافيدس، بوجه منغلق. أنت الخبير الذي تمَّ تعيينه من طرف المديرية الإقليمية للشؤون الثقافية في النورماندي للاشتغال على مجموعة مورير...

- وإذاً؟

- عندما نعرف أن مورفال قد عهد إليك بمهمة العثور على «نيلوفر»، وأنك تعرف مجموعة مورير، وأنك ذهبت عدة مرات إلى سارك...

- يمكن أن أكون قد همست لصديقي الكبير أنه ربما لم تكن «نيلوفر» كيت مورير تقليداً... هل هذا ما تعنيه؟

- مثلاً.

- حتى لو فرضنا أن ذلك كان الوضع، هل هناك شيء غير قانوني في هذا؟

- لا، صحيح.

- إذاً، ماذا تريد؟

صعد سيلفيو بينافيدس الدرجة الثالثة من السلَّم، الشيء الذي أتاح له أن يكون بنفس مستوى ارتفاع أمادو كاندي.

- قاتل مورفال. شيء مثل سبب للانتقام.

- أليسون موررير؟

- لا، لديها حجة غياب قوية صباح الجريمة، كانت خلف شباكها في نيوكاستل...

- طيب، وإذاً؟

- إذاً؟ ألح بينافيدس، لا شيء يقول إن مورفال قد تخلى عن البحث عن «نيلوفر» جديدة، عن العثور على حمامة جديدة، بمساعدتك، كاندي.

لم يزح أمادو كاندي عينيه عن سيلفيو. مبارزة حدقات، من سيرمش الأول...

- لو وجدتها، حضرة المفتش، لوحة «النيلوفر»، لم أكن لأكون هنا في هذا المعرض البئيس، لكني كنت سأكون قد اشتريت في عرض داكار إحدى جزر كاب-فير، أعلنت الاستقلال، وأنشأت ملاذي الضريبي الخاص...

ضحك أماندو كاندي مُظهراً أسنانه البيضاء وواصل:

- وتطلب مني أن أخون سراً مهنياً؟

- بهدف إرباك قاتل صديقك.

- فلنكن جديين، هيا حضرة المفتش، أين يمكن أن أكون قد عثرت على لوحة «نيلوفر» لمونيه؟

لم يجب أي من الشرطيين. نهض بينافيدس وسيريناك بالحركة نفسها. تقدما بثلاث خطوات نحو الباب.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

- توضيح آخر، قال سيريناك فجأة. كي أكون دقيقاً، كيت مورير لم تهب لوحتها حقاً لمتحف كارديف. في الواقع، مؤسسة تيودور روبنسون هي التي تلقت الملكية القانونية، ثم بعد ذلك عهدت باستغلالها للمتحف الوطني الويلزي.

- وإذاً؟

بين الملصقات المتعددة للرسم المعلقة على نوافذ معرض الفن، رصد لورنس سيريناك ملصقة المباراة «International Young Painters Challenge»، نفس العبارة المعلقة في فصل ستيفاني دوبان.

- وإذاً؟ أجاب سيريناك. إذاً أرى أنها تعود كثيراً في هذه القضية، مؤسسة تيودور روبنسون...

- هذا طبيعي جداً، لا؟ أجاب صاحب المعرض. إنها مؤسسة! خاصة هنا في جيفرني...

بقي كاندي لحظة طويلة متأملاً أمام الإعلان.

- تيودور روبنسون، الأميركيون، شغفهم بالانطباعية، دولاراتهم... من يتخيل ماذا ستكون جفرني دون كل هذا؟ قال السنغالي وهو يحرك ذراعه. هل تعرف، حضرة المفتش؟

- لا.

- في الواقع، أنا مثل يوجين مورير، هنا، في متجري، لست سوى بقال. لكني لو استطعت العودة إلى الوراء، هل تعرف ماذا كنت أحب أن أعمل؟

- حلواني؟ قال لورنس.

أطلق أمادو كاندي ضحكة مجلجلة، دون تحفُّظ هذه المرة.

- أحبك كثيراً، أنت، أيها الماكر، استطاع أنْ ينطق. أنت أيضاً،

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لاحظ، أيها النامل الفضولي. لا، أيها المفتشان، ليس حلوانياً. سأعترف لكما، في الواقع، سأحب أن أكون في العاشرة. أن أكون في الفصل مع مدرّسة جميلة أقنع نفسي بأني عبقري، وأني أستطيع أن أتقدم مثل مئات الأطفال في العالم لهذه المباراة التي تبحث عن رسامين صغار من أجل مؤسسة روبنسون.

- 27 -

لن تتأخر الشمس في المغيب خلف التلال. أسرعت فانيت، يجب أن تنهي لوحتها. لم تتحرك فرشاتها أبداً بنفس تلك السرعة والانسيابية، في بقع بيضاء وعكرية، تعيد رسم الطاحونة وبرجها المعوج، شجرة الكرز الحمراء الفضية الكبيرة وسط الباحة، العجلة ذات النواعير التي تنغمس في الماء. هي مركِّزة لكن اليوم العكس تماماً، جيمس هو الذي لا يتوقف عن التحدث إليها.

- هل لديك أصدقاء، فانيت؟

وأنت جيمس، هل أسألك إن كان عندك أصدقاء؟

- طبعاً. ماذا تظن؟

- أنت غالباً لوحدك...

- أنت الذي طلبت مني أن أكون أنانية. عندما لا أرسم، أكون معهم!

مشى جيمس ببطء في الحقل وأغلق حاملاته الواحدة تلو الأخرى. هو يتبع دوماً الطقس نفسه عندما تبدأ الشمس في المغيب.

- لكن بما أنك تسألني، سأخبرك. هم يجعلونني عصبية. خاصة

فينسنت، الولد الذي رأيته ذلك اليوم، الولد الذي يتجسس علينا. وعاء حقيقي من الغراء...

- من الصباغة!

- ماذا؟

- وعاء من الصباغة. هو شيء أكثر فائدة من وعاء غراء بالنسبة إلى فتاة ترسم.

أحياناً، يظن جيمس نفسه مُضحكاً.

- هناك أيضاً كاميل، لكن هو يعتقد الكثير في نفسه. يعتقد أنه موهوب، هل ترى ذلك النوع. آخِر واحدة في نفس عمري هي ماري، تلك التي تبكي طوال الوقت. المتملقة. أنا لا أحبها، هكذا الأمر.

- لا يجب أن تقولي ذلك أبداً، فانيت.

ماذا قلت؟ لم أقل شيئاً...

- لا يجب أن أقول ماذا؟

- لقد سبق أن شرحت لك، فانيت. أنت فتاة حبتها الطبيعة. أجل، أجل، لا تدّعي أنك لا تفهمين شيئاً. أنت لطيفة ومذهلة، ذكية، وعنيدة للغاية. ألقيت على كتفيك موهبة مدهشة في الرسم كأن جنية طيبة قد نثرت عليهما غبار الذهب. إذاً يجب أن تنتبهي، فانيت، سيحسدك الآخرون طوال حياتك. سيكونون غيورين لأنهم سيعيشون بسعادة أقل من سعادتك.

- هراء! هذا كلام غير معقول. في جميع الأحوال، صديقي الوحيد الذي يستحق هو بول. أنت لا تعرفه. سنقوم بجولة حول العالم معاً. سيصحبني كي أستطيع أن أرسم، اليابان، أستراليا، أفريقيا...

- لست متأكداً من وجود أشخاص يقبلون هذا...

أحياناً، جيمس، يجعلني أخرج عن طوري.

- أجل، بول!

قطبت فانيتٍ في وجهه بينما كان يستدير كي يرتب علبة الصباغة.

هناك لحظات، جيمس، لا يفهم شيئاً. أنا لا أفهم ماذا يفعل، كأنه عالق أمام أنابيب الصباغة.

- هل أنت عالق؟

- لا، لا

يتصرف بشكل غريب، هو غريب، جيمس أحياناً.

- هل تعرف، جيمس، بالنسبة إلى مؤسسة روبنسون، أرغب في رسم شيء آخر عدى طاحونة الساحرة. حكايتك عن إعادة رسم لوحة الأب ترونيون لا تعني لي شيئاً...

- تعتقدين؟ تيودور روبنسون كان...

- لدي فكرتي، قاطعته فانيت. سأرسم «نيلوفر»! لكن ليس الطريقة العجوز، على طريقة مونيه. سأرسم « نيلوفر» الشباب!

نظر إليها جيمس كأنها نطقت بأسوأ هرطقة.

احمرَّ تماماً، أحس أنه سينفجر.

طيب، لا تأخذ هذا الشكل كأنك الأب ترونيون.

انفجرت فانيت من الضحك.

- مونيه... «نيلوفر عجزة»! قال جيمس باختناق.

سعل في لحيته ثم أخذ يتحدث ببطء، بصوت أستاذ:

- سأحاول أن أفسر لك، فانيت. تعرفين، سافر مونيه كثيراً. في كل أوروبا. استنبط من جميع طرق الرسم في العالم، يجب أن

تفهمي، هي جد مختلفة، لا نرى الأمور بالشكل نفسه في الأماكن الأخرى. فهم مونيه ذلك، هو دَرَسَ بالأخص الرسم الياباني. هكذا، بعد ذلك، لم يحتج إلى السفر، ولا إلى الذهاب إلى مكان آخر. بِركة نيلوفر كانت كافية بالنسبة إليه، خلال ثلاثين سنة من حياته، بركة تافهة، كانت من الكبر بحيث أحدثت ثورة في الرسم، فانيت. نظرة الإنسان إلى الطبيعة هو الشيء الذي أحدث فيه مونيه ثورة. نظرة كونية. هل تفهمين؟ هنا، في جيفرني! على بعد أقل من مئة متر من هذا الحقل! إذاً، عندما تدّعين أن نظرة مونيه كانت نظرة عجوز...

بلا بلا بلا...

- إذاً، أنا، صدع صوت فانيت الواضح، سأقوم بالعكس. ولدت هنا، ولم يكن ذلك خطئي! سأبدأ ببركة «النيلوفر» وسأختم بالعالم! سترى، «النيلوفر» خاصتي ستكون فريدة، كما لم يجرؤ مونيه على رسمها. على شكل قوس قزح!

فجأة، انحنى جيمس نحو فانيت وطوقها بذراعيه.

هو غريب من جديد، تلك الهيئة القلقة، الهيئة التي لا تشبهه.

- ربما كنت أنت المحقة، فانيت. أنت الفنانة على كل حال، أنت من يعرف.

إنه يطوقني بشدة، إنه يؤلمني...

- لا تستمعي إلى أحد آخر غير نفسك، واصل جيمس. ولا أنا. ستفوزين بمباراة مؤسسة روبنسون، فانيت. يجب أن تفوزي! هل تسمعين، هاه؟ هيا، تقدمي، الآن، الوقت متأخر، والدتك تنتظرك. لا تنسي لوحتك!

ابتعدت فانيت في حقل القمح. صاح جيمس بتوصية أخيرة:

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

- القضاء على تلك الموهبة في داخلك، سيكون أبشع الجرائم!
أحياناً، جيمس، يقول أشياء غريبة.

راقب جيمس فانيت تجري وهو ينحني من جديد على علبة الصباغة. انتظر أن تغيب فانيت خلف الجسر ثم فتحها وهو يرتعش. لم يرغب في إظهار شيء أمام فانيت لكنه، الآن، يقطر عرقاً. أصابه نوع من الهلع. أصابع العجوز تتحرك رغماً عنه. مفصلات العلبة الصدئة تصر بشكل خفيف.

قرأ جيمس الحروف المنقوشة على الخشب اللين داخل علبة الصباغة.

هي لي
هنا، الآن، وإلى الأبد

الكلمات المنقوشة متبوعة بصليب، خطين بسيطين يتقابلان. فهم جيمس أن الأمر يتعلق بتهديد. تهديد بالموت. أحسَّ بجسمه العجوز تعتريه رعشات لا يستطيع التحكم فيها. في البداية، الشرطة التي تبحث في كل مكان من القرية بسبب تلك الجثة التي لم يتم العثور على قاتلها، هذا لا يطمئنه. كل هذا الجو يضايقه.

قرأ مرة أخرى وأخرى. من استطاع كتابة هذا الشيء؟

بدت له الكتابة خرقاء، مستعجلة. لا بدَّ أن المخرب استغل فترة نومه كي ينقش تهديده المروع على علبة الرسم. ليس شديد الصعوبة. هو غالباً ما ينام في الحقل، أمام لوحاته، عندما لا تأتي

فانيت لتوقظه. ماذا يعني هذا؟ من استطاع كتابة ذلك؟ هل عليه أن يأخذ التهديد على محمل الجد؟

راقب جيمس ستارة الحور التي تسد أفق المرج. بدت الحروف كأنها مكتوبة في عقله، الآن، كأنها مكتوبة على جبينه: **هي لي هنا، الآن، وإلى الأبد**. سؤال آخر يشغله، منذ الآن، سؤال ملحّ، يقلقه أكثر من معرفة من قام بذلك التهديد. اهتزت يده بالارتعاش. سيكون عاجزاً عن الإمساك بريشة أو سكين أو أي شيء آخر.

هي لي هنا، الآن، وإلى الأبد... في دائرة جهنّمية، أعاد الكلمات الخمس في ذهنه.

إلى من وجّه التهديد؟

تأمل المناطق المحيطة كأن وحشاً سيظهر من بين السنابل.

حول من يحوم الخطر؟

حول فانيت، أو حوله؟

- 28 -

أخيراً تخطيت عتبة الطاحونة. أحسست أن ركبتي ستنفجران. ذراعي اليمنى كذلك لشدة ما توكأت على العصا. نبتون يحوم حولي. لمرة، هو ينتظرني.

كلب شجاع.

أخرج المفاتيح.

فكرت في باتريسيا مورفال. تساءلت كيف تحمّلت تصريحاتي حول قاتل زوجها منذ حين؟ هل قاومت الرغبة في إعلام الشرطة؟

حتى لو كان الوقت قد تأخر، تأخر جداً لإنقاذ أي كان... الفخ انغلق. لا يستطيع أي شرطي فعل شيء الآن.

أنا نفسي، ماذا كنت لأفعل، في مكانها؟

رفعت عيني. لمحت فانيت بعيداً، كانت تجري في الحقل، تخطت الجسر الحديدي. بقي صديقها الأميركي وسط سنابل القمح. في كل الأحوال، لا بدَّ أنه قص عليها حكايات الساحرات بخصوص طاحونتي، بخصوص ثنائي الغيلان، الجيران البشعين الذين لم يكونوا يحبون مونيه، الذين كانوا يرغبون في قطع أشجار الحور، ترتيب علب التبن، تجفيف بِركة النيلوفر، إنشاء معمل النشاء في المرج... الحماقات المعتادة. الأحمق! في مثل عمره، إرعاب الأطفال بالخرافات...

يتواجد هنا كل يوم، الرسام الأميركي جيمس الذي لا يعرف أحد اسم عائلته. يقف كل يوم في المكان نفسه، قبالة الطاحونة. منذ الأزل كما يبدو، كأنه جزء من الديكور، هو أيضاً. كأن ربّاً فناناً، فوق، قد رسمه بدوره. قد رسمنا، كلنا. إلى أن تعتريه الرغبة فيمسح كل شيء. ضربة فرشاة... بوف، لا أحد!

سيراقب جيمس فانيت تغادر، مثل كل يوم، ثم سينام في الحقل إلى الغد.

ليلة سعيدة، جيمس.

دخلت فانيت إلى البيت. ما تحبه هو عندما تضيء المصابيح في شوارع جيفرني عند مرورها.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

شيء سحري!

لكن الآن، لا يزال الوقت مبكراً. بالكاد بدأت الشمس تغيب. تسكن فانيت في بيت صغير يتداعى في شارع شاتو دو. لا تهتم للأمر، هي لا تشتكي، هي تعرف جيداً أن والدتها تقوم بكل ما تستطيعه. هي تقوم بالأشغال المنزلية من الصباح إلى المساء، في بيوت كل أغنياء القرية.

يوجد منهم الكثير!

أصلاً، أن تسكن هنا، وسط القرية، على بعد مئة متر من حدائق مونيه، حتى لو كان البيت مهترئاً، ماذا كانت لتطلب أكثر؟

استقبلتها والدتها خلف لوحة العمل في المطبخ، لوحة بسيطة من الخشب موضوعة على طوب مكدس، تبتسم بشكل متعب.

- لقد تأخر الوقت، فانيت. تعرفين جيداً أني لا أريد أن أراكِ تتسكعين في الخارج خلال المساء، خاصة في هذا الوقت، مع تلك الجريمة منذ أيام، ما دام القاتل لم يُكشف...

تبدو ماما دوماً حزينة ومتعبة. هي طوال الوقت تضع وزرة زرقاء بشعة، تقشر الخضر، تطبخ حساء يدوم أسبوعاً، وتقول إني لا أساعدها كفاية، وأنه في عمري علي... إذا أريتها الرسم الذي أنجزته، ربما...

- لقد أنهيتها، ماما.

رفعت فانيت لوحة مولان دو شونوفيير على مستوى لوحة العمل.

- من بعد، انتظري. يداي متسختان. ضعيه هناك.

كما العادة...

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

- سأرسم لوحة أخرى، على كل حال. لوحة «نيلوفر»! قال لي جيمس...

- من هو جيمس؟

- الرسام الأميركي، سبق أن أخبرتك...

- لا...

تسقط قشور الجزر في قدح من الحث.

- بلى!

بلى، بلى، بلى، بلى. أقسم بذلك! تقولين ذلك عمداً، ماما، غير ممكن بطريقة أخرى!

- لا أريدك أن تتسكعي مع الأغراب، فانيت! هل تسمعين؟ ليس لأني أقوم بتربيتك وحدي فستُمضين وقتك في الخارج. ثم لا تظلي هنا مثل جرة، امسكي سكيناً. إذا اهتممت بالطبخ وحدي سأبقى هنا ساعة أخرى!

- ماما، حدّثتنا المدرّسة عن مباراة، مباراة في الرسم...

إنها المدرّسة! لن تستطيع أن تقول شيئاً. هي لا تقول شيئاً، تنظر إلى حبة اللفت في يدها!

وقفت فانيت مستقيمة تنتظر:

- قال لي جيمس... على كل، الجميع يقول إن باستطاعتي أن أفوز. إني أتوفر على حظوظ، إذا اشتغلت.

- أن تفوزي بماذا؟

ستسقط حبة اللفت من يدها، في أي حين...

- دروساً في مدرسة للرسم، في نيويورك...

- ماذا؟

أخذت حبة اللفت ضربة في القلب. لن تتعافى منها أبداً...

- ماذا أيضاً، فانيت، ما حكاية هذه المباراة؟

- أو ربما طوكيو. سان بطرسبرغ، كانبيرا.

أنا متأكدة من أنها لا تعرف أين توجد هذه الأماكن، لكن مع ذلك تخيفها...

- تشمل الجائزة دولارات أيضاً... الكثير!

تنهدت ماما، أخذت حبة لفت أخرى.

- إذا استمرت مدرّستك في حشو رؤوسكم بمثل هذه الأفكار، سأذهب أنا لمقابلتها...

أنا لا أهتم، سأجري المباراة على أي حال...

- وجيمس أيضاً، أرغب في التحدث معه.

بحركة قوية، مرّرت والدة فانيت الخضر من اللوحة إلى الحوض. غاصت حبات الجزر واللفت وهي ترش وزرتها الزرقاء. انحنت والدة فانيت كي ترفع إلى اللوحة كيس بطاطس.

هي حتى لم تطلب مني أن أساعدها. هذا ليس علامة جيدة. تتمتم بكلمات لا أفهمها، أنا مضطرة لجعلها تكرر، بصوت مرتفع.

- تريدين أن تهجريني، فانيت. هذا هو؟

وانطلقت...

أنفجر! أنفجر في رأسي، لا أحد غيري يستطيع رؤية ذلك، لكني أنفجر! أقسم بذلك! ماما، أنا على استعداد لغسل الأواني. أنا على استعداد لتحضير المائدة، أنا على استعداد لتمرير منشفة على المائدة. أنا على استعداد لتمرير المنديل، في كل مكان. أنا على استعداد لإمساك المكنسة، كنس الأرضية، ثم إعادتها إلى مكانها. أنا على استعداد لفعل كل ما يجب على فتاة صغيرة أن تفعله، أنا على

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

استعداد لفعل كل شيء، دون أن أشتكي، دون أن أبكي، أريد فعل كل شيء. كل شيء. شرط أن تسمحي لي بالرسم. أريد فقط أن تسمحي لي بالرسم.

هل هذا كثير جداً؟

ماما تنظر إلي بطريقة حذرة. هي لا تكون سعيدة عندما لا أفعل شيئاً وتنظر إلي بطريقة غريبة عندما أقوم بأكثر من اللازم. أظن أن نيويورك هي ما لم تستسغه، والمدن الأخرى أيضاً، خاصة عندما شرحت لها، اليابان، روسيا، أستراليا، كل هذا في الوقت نفسه !

- ثلاثة أسابيع في مدرسة الرسم، ماما؟ ثلاثة أسابيع، ليست مدة طويلة. هي لا شيء.

نظرت إلي كما لو كنت حمقاء.

منذ أن انتهينا من الأكل، هي لا تقول شيئاً. هي تجتر. علامة سيئة عندما تجتر. لم أرها أبداً من قبل تجتر ثم تقول بعدها شيئاً يسعدني.

نهضت والدة فانيت في اللحظة التي كانت فيها ابنتها تضع المناديل في مكانها، على الشريط، تبسطها على الشريط، تمسكها بملاقط، وليس مكومة مثل العادة. جمدت الغرفة:

- لقد أخذت قراري، فانيت. لا أرغب في سماع الحديث عن حكاية مباراة الرسم مرة أخرى، ولا عن الرسام الأميركي ولا عن أي شيء آخر. انتهينا من هذه الحكايات. سأتحدث عن ذلك مع مدرّستك.

لم أقل شيئاً. لم أبكِ حتى. تركت فقط الغضب يتصاعد في

داخلي، يغلي. أعرف لماذا تقول ماما هذا الكلام. حدثتني عن ذلك مئات المرات.

المقطع الكبير. يتكرر بلا انقطاع، عن ظهر قلب.

نشيد الندم الكبير.

«ابنتي الصغيرة، أنا لا أريدك أن تفسدي حياتك مثلي. أنا أيضاً عندما كنت في مثل عمرك، آمنت بكل هذه الحكايات. أنا أيضاً كانت عندي أحلام. أنا أيضاً كنت جميلة وكان الرجال يقدمون لي وعوداً.

انظري! انظري اليوم!

انظري إلى الثقوب في السقف، الجدران المتعفنة، الرائحة؛ تذكري البرد على النوافذ هذا الشتاء؛ انظري إلى كفيّ، كفيّ المسكينتين، الشيء الأكثر أناقة الذي كان عندي، كفَّين خرافيتين، كم مرة سمعت ذلك، عندما كنت في مثل عمرك، أن كفيّ خرافيتين.

كفان خرافيتان تغسلان مراحيض الآخرين!

لا تتركي نفسك تنخدعين، فانيت. لن أتركهم يفعلون. لا تثقي بأحد غيري، فانيت. بأي أحد. لا بجيمس، ولا بمدرّستك، ولا بأي أحد آخر».

أريد ذلك، ماما. أريد أن أسمعك. أريد أن أثق بك.

لكن يجب أن تخبريني كل شيء، ماما. كل شيء. حتى الأشياء التي لا نتحدث عنها أبداً. حتى الأشياء التي لا يحق لنا التحدث بشأنها!

الأخذ والعطاء.

أخذت فانيت ممسحة ونظّفت السبورة الرمادية، السبورة التي تسجّل عليها والدتها لائحة الخضر.

انتظرت قليلاً حتى تجف. أمسكت الطباشير البيضاء. هي مدركة

أن والدتها تنظر من وراء كتفها. كتبت، بخط رقيق مستدير. خط مدرّسة.

من هو والدي؟

ثم مباشرة تحت:

من هو؟

سمعت والدتها تبكي خلف ظهرها.

لماذا غادر؟

لماذا لم نتبعه؟

بقي مكان أسفل السبورة. أحدثت قطعة الطباشير صريراً.

من هو؟

من هو؟

من هو؟

من هو؟

قلبت فانيت لوحتها «طاحونة الساحرة». وضعتها على كرسي، ثم من دون كلمة صعدت إلى غرفتها. سمعت والدتها تبكي، تحت. مثلما يحدث دوماً.

البكاء ليس جواباً، ماما.

فانيت تعرف أن غداً سيكون كل شيء قد انتهى، وأنهما لن تتحدثا عن ذلك، وأن والدتها ستكون قد مسحت السبورة.

الوقت متأخر الآن.

قاربت الساعة منتصف الليل، بلا شك. لا بدَّ أن والدتي قد نامت منذ وقت طويل، هي تبدأ عملها في البيوت في وقت مبكِّر. غالباً تكون قد ذهبت وعادت عندما أنهض.

تطلُّ نافذتي على شارع شاتو-دو. الشارع جد منحدر، حتى في الطابق نحن على ارتفاع متر فقط من الشارع. أستطيع أن أقفز لو أردت ذلك. غالباً خلال المساء، من نافذتي، أتحدث مع فينسنت. فينسنت يتسكع في الشوارع كل مساء. والداه لا يهتمان بذلك. بول ليس من حقه الخروج إلى الشارع خلال المساء.

فانيت تبكي.

فينسنت، في الشارع، ينظر إلي دون أن يعرف ماذا عليه أن يفعل. كنت أفضل أن يكون بول هو الموجود هنا. بول، هو يفهمني. بول، هو يعرف أن يحدثني. فينسنت، هو يستمع إلي، هذا كل شيء. لا يعرف أن يفعل سوى هذا.

أحدّثه عن والدي. أعرف فقط أن والدتي قد حملت في وقت مبكر. أحياناً، أعتقد أنني ابنة رسام، رسام أميركي، وأنه قد أورثني موهبته، وأن ماما كانت تشتغل موديلاً له، موديلاً عارياً في الطبيعة، كانت جميلة، ماما، جد جد جميلة، توجد صور لها تحت في الألبوم. ولي أيضاً وأنا طفلة صغيرة. لكن ولا واحدة لأبي.

فينسنت يستمع، هو فقط يمسك اليد التي تركتها فانيت تتدلى على طول الحائط ويضغط عليها بقوة.

واصلت الحديث. قلت إني أعتقد أن والدي وماما أحبا بعضهما بجنون، حب صاعق من أول نظرة، وأنهما كانا جميلين هما الاثنان. ثم إن والدي غادر إلى مكان آخر، ولم تستطع ماما أن تمنعه. ربما لم تكن ماما تعرف أنها حامل؟ ربما لم تكن ماما تعرف حتى اسم والدي. ربما كانت تحبه كثيراً كي تمنعه من أن يغادر؛ وأن والدي كان شخصاً صالحاً، وفياً، وأنه كان ليبقى، وأنه كان ليقوم بتربيتي لو عرف أني موجودة، لكن ماما كانت تحبه كثيراً لتضعه في قفص بإخباره.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الأمور معقدة في رأسي لكنها لا يمكن أن تكون قد جرت بشكل آخر، فينسنت. هاه؟ وإلا من أين جاءتني هذه الرغبة العارمة في أن أرسم؟ هذه الرغبة في أن أطير؟ من غيره يمكن أن يكون قد أعطاها لي، هذه الأحلام التي تملأ رأسي.

أمسك فينسنت يد فانيت. أمسك بها بقوة. علقت السلسلة الملعونة التي يحملها دوماً حول معصمه بين ذراعيهما وانغرزت في لحم الفتاة، كأنها تريد أن تطبع عليه اسمه المنقوش على الحلية.

أحياناً، في مساءات أخرى، أتأمل السحب التي تخفي القمر وأقول إن والدي برجوازي غبي تقوم ماما بأشغال البيت عنده. أظنه في شارع كلود مونيه، أني لا أعرف أنه حقاً والدي، في الحقيقة، لكنه هو يعرف. هو فقط خنزير مارس الجنس مع ماما، وأرغمها على فعل أشياء شنيعة. ربما كان يمرر النقود لماما في الخفاء. أحياناً، عندما أرى في الشارع أشخاصاً ينظرون إلي بارتياب، ذلك يقرفني، يشعرني بالرغبة في الغثيان. شيء فظيع. لكن هذا لا أقوله لفينسنت.

هذا المساء، السحب لا تزعج القمر.

– كان والدي شخصاً عابراً، قالت فانيت.

– لا تقلقي، فانيت، أجابها فينسنت. أنا هنا.

– شخص عابر. أنا مثله. يجب أن أغادر، يجب أن أطير.

شدّ فينسنت على يدها بقوة أكثر.

– أنا هنا، فانيت. أنا هنا. أنا هنا...

على بعد خطوتين، في شارع شاتو-دو، نبتون يطارد فراشات الليل.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

- اليوم الثامن -

20 مايو 2010
(مفوضية فيرنون)

مواجهة

- 30 -

المفتش سيريناك جذل. من حين إلى آخر، يلقي خفية عبر النافذة نظرةً نحو مفوضية فيرنون، القاعة 101، تلك التي تستعمل غالباً في الاستجوابات. جاك دوبان يجلس مديراً له ظهره. يربت بأصابعه بنفاد صبر على مسنده. انسحب سيريناك على أطراف أصابعه في الممر وهمس لسيلفيو بينافيدس، بنبرة متآمرة:

- سنتركه ينتظر قليلاً...

جرّ مساعده من الكم. ثم واصل:

- الشيء الذي أنا فخور به هو طريقة إخراجي! انتظر، تعال لترى، سيلفيو.

تقدما من جديد في الممر وتوجّها نحو قاعة الاستجوابات.

- كم هو عددها، سيلفيو؟

لم يستطع بينافيدس أن يحبس نفسه من الابتسام.

- مئة وواحد وسبعون زوجاً! أحضر موري ثلاثة أخرى منذ ربع ساعة.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

انتصب سيريناك وتفحّص مرة أخرى المكتب رقم 101. في الغرفة التي كان ينتظر فيها جاك دوبان قام رجال الشرطة بخزن مجموع الأحذية طويلة الرقبة التي جمعوها من اليوم السابق في قرية جيفرني. تمَّ وضعها في جميع زوايا الغرفة، على الرفوف وعلى الطاولات، على حواشي النوافذ، على الكراسي، مكدسة في الأرض أو متوازنة على بعضها. البلاستيك يلمع بجميع الألوان، من الأصفر المشع إلى الأحمر الناري، حتى إن كان الأخضر الكاكي الكلاسيكي هو الغالب. تمَّ فرز الأحذية بحسب تقادمها، ومقاسها، وعلامتها التجارية. كل زوج من الأحذية يحمل قطعة صغيرة من الورق المقوى باسم صاحبها.

لم يخفِ سيريناك ابتهاجه الكبير:

- أتمنى أن تكون قد التقطت صورة، سيلفيو. أعشق هذا النوع من الهذيان! لا شيء أفضل من هذا للتأثير على شخص ما! كأنه عمل فني لفنان معاصر. أنت الذي تملك سبعة عشر موقداً في حديقتك، يجب أن تقدِّر هذه المجموعة، لا؟

- أجل... قال المفتش بينافيدس، الذي لم يكلِّف نفسه عناء رفع رأسه. رائع من وجهة نظر جمالية. شيء لم يسبق له مثيل، سنقوم بمعرض. على عكس...

- أنت جاد جداً سيلفيو، قاطعه سيريناك.

- أعرف.

قلّب بينافيدس أوراقاً، وفرزها.

- أنا متأسف، لا بدَّ أني شرطي بشكل مبالَغ. هل يهمك التحقيق، حضرة الرئيس؟

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

- هيه، أنت لا تتوفر على حس الفكاهة هذا الصباح.

- كي أخبرك كل شيء، لم أنم طوال الليل، أو تقريباً. كنت أحتل الكثير من المساحة في السرير بحسب بياتريس. يجب أن أقول، هي مضطرة للنوم على الظهر منذ ثلاثة أشهر. بالمرة، انتهى بي الأمر على الأريكة.

ربت سيريناك على كتفه.

- هيا، بعد أسبوع أو اثنين سينتهي الأمر، ستصبح أباً. لن تناما أنتما الاثنان! أنت وبياتريس. هل تشرب قهوتك؟ هل نقيّم الوضع في الصالون؟

- فنجان من الشاي!

- صحيح، أنا غبي. من دون سكر. ألم تقرر بعد أن تشيل الكلفة؟

- سأفكر في الأمر. أؤكد لك، حضرة الرئيس، أضغط على نفسي كثيراً.

ضحك سيريناك دون انقطاع.

- أنا أحبك كثيراً، سيلفيو. وعلى سبيل المكافأة، سأعترف لك، لك وحدك، أنت تحصل على معلومات أكثر من أي مفوضية في تارن! كلام أوكسيتان!

- أنت لا تبالغ. مرة أخرى، لقد اشتغلت طوال الليل.

- على كرسيك؟ بينما زوجتك تشخر على الظهر؟

- أجل...

افترَّ ثغر بينافيدس. تقدم الشرطيان في الممر، صعدا ثلاث درجات ثم دخلا إلى غرفة ضيقة. العشرة أمتار مربعة التي تشكل مساحة «الصالون» مليئة بأثاث متنوع: أريكتان متعبتان يغطيهما ثوب

برتقالي بشراشف طويلة، كرسي بنفسجي، طاولة من الفورميكا وضع عليها إبريق قهوة، فناجين غير متشابهة وملاعق مؤكسدة، مصباح باهت يتدلى من السقف في عاكس للضوء أسطواني من الورق المقوى المحروق. انهار سيلفيو على الكرسي البنفسجي بينما أعدَّ لورنس الشاي والقهوة.

- حضرة المفتش، سنبدأ من المعرض الكبير، بما أن ذلك يبدو قريباً إلى قلبك؟

بينما كان رئيسه يدير له ظهره، راجع سيلفيو ملاحظاته.

- في هذه الساعة، هذا يعطينا مئة وواحداً وسبعين زوجاً من الأحذية، من المقاس 35 إلى المقاس 46. لم نحتفظ بالذي تحت المقاس 35. على هذا المجموع، قمنا بإحصاء خمسة عشر صياداً وواحد وعشرين قناصاً برخصة. بمن فيهم جاك دوبان. نعد أيضاً حوالي ثلاثين متجولين مسرّحين. لكن على العكس كما تعرف ذلك بالفعل حضرة الرئيس، ولا واحد من هذه الأزواج من النعال المئة وواحد وسبعين تتطابق مع بصمة الجبس التي قام موري بقولبتها أمام جثة جيروم مورفال.

صبَّ سيريناك الماء في إبريق القهوة وهو يجيب:

- كنا نشك في ذلك. لن يعلن القاتل عن نفسه... لكن يمكن أن نقول عكسياً إن هذا يبرئ مئة وواحداً وسبعين من سكان جيفرني...

- ما دمت تقول ذلك...

- وإن جاك دوبان ليس من ضمن المئة وواحد وسبعين... سنتركه قليلاً. بالنسبة إلى الباقي، أين وصلنا؟

بسط المفتش بينافيدس ورقته ذات الثلاثة أعمدة.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

- أنت فعلاً مهووس، سيلفيو...

- أعرف. أبني هذا التحقيق كما بنيت شرفتي. بأناة ودقة...

- وأنا متأكد أنه في البيت لا تهتم بياتريس بما تفعله تماماً مثلي في المكتب...

- ربحت... لكن ذلك لا يمنع، هي نظيفة جداً، شرفتي!

تنهد سيريناك، بدأ الماء يغلي.

- هيا، ابدأ مع أعمدتك اللعينة...

- هي تمتلئ شيئاً فشيئاً، عمودياً... عشيقات،«نيلوفر»، أطفال...

- وسنكون قد نجحنا في التحقيق عندما نستطيع أن نرسم سهماً جميلاً، أفقياً، يربط هذه الأعمدة. الرابط بين هذه الأنابيب الثلاثة المنعزلة تماماً حالياً... إلا أننا في هذا الوقت نحن نتخبط بشكل كبير حتى إن هذه الأحذية المئة وواحد وسبعين تبدو كأنها لا تكفينا...

تثاءب بينافيدس. بدا أن الكرسي البنفسجي يلتهمه شيئاً فشيئاً.

- إذاً هيا، سيلفيو، أنا أستمع إليك. أخبار الليل.

- عمود رقم واحد، طبيب العيون وعشيقاته. بدأنا نراكم الشهادات، لكننا لم نحصل بعد على شيء يمكن أن يبرر جريمة عاطفية. لا جديد أيضاً حول معنى الأعداد على ظهر الصور. مع أني أجهد نفسي في التفكير. لتتويج كل هذا، لا خبر عن ألين ماليتراس في بوسطن، وما زلنا غير قادرين على تحديد هوية المجهولة الخامسة على الصورة...

- الخادمة على ركبتيها أمام مورفال في الصالون؟

- ذاكرة بصرية ممتازة، حضرة المفتش. عدا هذا قمت بتصنيف

الأزواج الذين تمّت خيانتهم بحسب نزوعهم نحو الغيرة. جاك دوبان بلا منازع على رأس اللائحة، إلا أنه بشكل متناقض نحن لا نتوفر على دليل ملموس يبرهن على خيانة من زوجته. هل أحرزت تقدماً من ناحيتك حضرة المفتش؟ هل التقيت ستيفاني دوبان، أمس؟

- جوكر!

نظر إليه سيلفيو بينافيدس بذهول. أزعج عملية الهضم عند الكرسي بمحاولته النهوض برخاوة.

- ماذا تريد أن تقول؟

- جوكر. نقطة إلى السطر. لن أعيد عليك حكاية عينيها البنفسجيتين اللتين تبعثان طلب نجدة، وإلا بلّغت عني قاضي التحقيق. إذاً جوكر. انتظر وسترى. أنا أدير هذه القطعة من التحقيق بشكل شخصي، إن شئنا القول. لكني متفق مع تحليلك. نحن لا نتوفر على دليل حول علاقة جنسية بين جيروم مورفال وستيفاني دوبان، لكن جاك دوبان يتوفر على ملامح صلبة للمشتبه به رقم واحد. هيا، فلنواصل، عمودك رقم اثنان: «النيلوفر»؟

- لا شيء جديد منذ حديثنا مع أمادو كاندي أمس. أنت من كان عليه الاتصال بشرطة الفن؟

- طيب. طيب. سأفعل. سأتصل بهم، غداً. آه أجل، سأقوم أيضاً بجولة ناحية حدائق كلود مونيه...

- مع فصل ستيفاني دوبان؟

ارتفع دخان الإبريق فوق شعر سيريناك الأشعث. حدق المفتش في مساعده بقلق.

- هذا جنون، أنت على الدوام على معرفة بكل شيء، سيلفيو!

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

وضعت أجهزة تنصت وتمضي لياليك في الاستماع إلى الأشرطة؟

تثاءب بينافيدس بشكل مسموع.

- لماذا، هل الأمر سري، تلك الزيارة المدرسية؟

فرك عينيه.

- من ناحيتي، حددت غداً موعداً مع محافظ متحف الفنون الجميلة، في روان.

- لأي سبب؟

- مبادرة واستقلال ذاتي، أنت الذي اقترحت ذلك، لا؟ فلنقل إني أريد أن أكوّن فكرتي الشخصية عن حكاية لوحات مونيه و«النيلوفر»...

- هل تعرف، سيلفيو، لو كنت ذا طبيعة شكاكة كان يمكن أن آخذ هذا الأمر على أنه عدم ثقة نحو رئيسك المباشر؟

وجدت عينا بينافيدس المتعبتان القدرة على أن تلمعا بمكر.

- جوكر!

استغرق المفتش سيريناك كامل وقته ليصب لنفسه القهوة بحذر في فنجان متكسر. وضع كيس الشاي في فنجان آخر، وقدمه لمساعده.

- يصعب علي فهم النفسية النورماندية... كان يجب أن تكون بجانب سرير زوجتك، في هذه اللحظة، بدل أن تُظهر حماساً...

- لا تتكدر، حضرة الرئيس. أنا مهووس بعض الشيء، هذا كل ما في الأمر. خلف هيئة الكلب الوفي، أنا كائن عنيد. لا أعرف شيئاً عن الرسم، أنا فقط محتاج إلى أن أرفع مستواي. اسمعني قليلاً. العمود الأخير، الثالث. أطفال الحادية عشر.

قطب سيريناك وهو يغمس شفتيه في قهوته.

- حصانك...

- لقد دققت في قائمة أطفال الحادية عشر التي قدمتها ستيفاني دوبان. من الناحية المثالية، كي أمتطي حصاني، بحثت عن طفل أو طفلة في العاشرة، اشتغلت والدته في البيوت، مثلاً عند آل مورفال منذ حوالي عشر سنوات...

- وكانت ترتدي بلوزة زرقاء فوق تنورتها المرفوعة... إذاً، نتيجة السباق؟

- لا شيء! لا أحد من أطفال القائمة يتطابق مع هذا الوصف. هناك تسعة أطفال في جيفرني في هذه المرحلة العمرية، فلنقل بين تسع سنوات وإحدى عشرة سنة. ضمن الآباء، لم أرصد سوى والدتين عازبتين. الأولى تعمل في مخبزة غاسني، البلدة الموجودة في الجهة الأخرى من السهل، والأخرى تقود حافلات الإقليم.

- ليس عادياً، هذا...

- لا، ليس عادياً كما تقول. عندي أيضاً أم مطلَّقة تدرِّس في ثانوية إيفرو. كل باقي الآباء يعيشون ثنائيات، لم تشتغل أي من الأمهات في البيوت، لا حالياً ولا منذ عشر سنوات.

اتكأ سيريناك على مائدة الفورميكا وأخذ هيأة متأسفة.

- إذا أردت رأيي، ليس هناك سوى تفسيرين لفشلك. الأول، هو أن كل فرضيتك بخصوص الطفل غير الشرعي خاطئة. وهذا الأكبر احتمالاً الثاني، هو أن الطفل الذي كان مورفال يتمنى له عيداً سعيداً على البطاقة البريدية التي وجدت في جيبه ليس من جيفرني، ولا أيضاً العشيقة على الصورة، الفتاة التي ترتدي

الوزرة الزرقاء والتي تقوم بتدليله. كانت والدة الطفل أم لم تكن. وإذاً هنا...

لم يذق بينافيدس الشاي. تجرأ بإلقاء نظرة خجولة.

- إن سمحت لنفسي، حضرة الرئيس... يوجد تفسير ثالث ممكن.

- آه؟

تردد سيلفيو لحظة قبل أن يواصل.

- طيب... بكل بساطة... القائمة التي قدمتها ستيفاني دوبان يمكن أن تكون غير صحيحة.

- عفواً؟

سكب سيريناك نصف قهوته. غاص سيلفيو أكثر في كرسيه البنفسجي وهو يواصل:

- سأعبِّر عن ذلك بطريقة أخرى. لا شيء يبرهن على أن قائمة الأطفال هذه صحيحة. ستيفاني دوبان هي أيضاً مشتبه بها في هذه القضية...

- لا أجد رابطاً بين علاقتها المفترضة بمورفال وأطفال فصلها...

- وأنا أيضاً. لكننا لا نجد الكثير من الروابط بين أي شيء كان في هذه القضية. لو كان عندنا وقت، يجب أن نواجه قائمة أطفال فصل المدرسة مع لائحة عائلات جيفرني، الأسماء، الوظائف الحالية والماضية، أسماء الأمهات قبل الزواج. كل شيء. يمكن أن تقول ما شئت، لكن تلك العبارة لأراغون على بطاقة المعايدة في جيب مورفال، «**جريمة أن نحلم أقبل أن نُقرّها**»، لها علاقة مباشرة مع فصل جيفرني: هي قطعة على أطفال القرية أن يتعلموها. أنت

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

نفسك من قال لي هذا، حضرة الرئيس، لقد سمعته من فم ستيفاني دوبان.

أفرغ سيريناك فنجانه دفعة واحدة.

- طيب، إذا جاريتك، فلنفترض وجود شك. من أي جهة تريد أن تأخذ هذا الأمر؟

- لا أعرف. بالإضافة إلى أني أحياناً أحس أن سكان جيفرني يخفون عنا شيئاً. كيف أعبِّر عنه، أجد هنا نوعاً من قانون الصمت الموجود في القرى الكورسيكية.

- ما الذي جعلك تعتقد ذلك؟ إعطاء قيمة للانطباعات ليست من شيمك عادة؟

مر وميض حزن خلف عيني سيلفيو.

- السبب هو أن... عندي شيء آخر فيما يخص العمود الثالث، حضرة الرئيس. الأطفال. أحذرك، شيء غريب... حتى، أكثر من هذا. صاعق، سيكون هو الكلمة المناسبة.

- 31 -

هذا الصباح، الجو رائع في جيفرني. لمرة، فتحت نافذة الصالون وقررت أن أقوم ببعض الترتيب. تدخل الشمس إلى الغرفة بخجل حذِر، كأنها تدخل لأول مرة. ولأنها لا تجد عندي أي غبار لترقّصه، فهي تحط فقط على خشب البوفيه، والطاولة، والكراسي، لتجعله أكثر لمعاناً.

«النيلوفر» الأسود خاصتي في زاويته يختبئ في الظل. أتحدى

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أي أحد، حتى لو رفع رأسه، حتى لو كان ذلك من خلال نافذة الطابق الرابع المفتوحة، أن يلمح اللوحة من الخارج.

درت في المكان على غير هدى. كل شيء في مكانه في الصالون، لهذا ترددت قليلاً قبل أن أبحث في كل مكان، فوق الدواليب، في قاع الأدراج، أو أن أهبط إلى المرأب كي أفرغ صناديق الكرتون المتعفنة، وأرفع صناديق قمامة مقسمة نصفين وأفتح تلك الأكياس التي لم تفتح منذ سنوات. عشرات السنوات حتى. أعرف ما أبحث عنه مع ذلك. أعرف بالضبط الشيء الذي يهمني، غير أني لا أعرف بالضبط أين وضعته بعد كل هذا الوقت.

أراكم تأتون، تقولون في نفسكم إن العجوز تفقد الذاكرة. إن أردتم... لا تقولوا لي إنه لم يحدث أن قلبتم كل البيت فقط كي تجدوا تذكاراً، شيئاً لا تتوفرون بشأنه سوى على معلومة أكيدة: أنتم لم ترموه أبداً.

لا يوجد شيء يثير الأعصاب أكثر، لا؟

سأخبركم كل شيء، الشيء الذي أحرص كثيراً على إيجاده هو علبة كرتون، كرتون بسيط بحجم علبة أحذية، مليء بالصور القديمة. هل ترون، ليس شيئاً خارقاً. يبدو أنه الآن، قرأت ذلك، كل حياة التُقِطَتْ صوراً يمكن أن تسع في مفتاح ذاكرة USB بحجم ولّاعة. أنا، بانتظار ذلك، أبحث عن علبة الأحذية. أنتم، عندما ستتجاوزون ثمانين سنة، ستبحثون في ركامكم عن ولاعة صغيرة. حظ سعيد. إنه التقدم.

فتحت أدراج الصوان من دون أمل كبير، دسست يداً تحت الخزانة النورماندية، خلف صفوف الكتب.

لا شيء، طبعاً.

يجب أن أستسلم، ما أبحث عنه ليس في متناول يدي. لا بدَّ أن العلبة توجد في مكان ما من المرأب، تحت طبقة من الرواسب التي تراكمت على مر السنين.

ترددت مرة أخرى. هل الأمر يستحق؟ هل أتحمل عبء البحث في هذه الخردة كي أجد في النهاية صورة واحدة؟ صورة لم أرمها أبداً، هذا أنا متأكدة منه. الوحيدة التي تحفظ ذكرى وجه أود بشدة أن أراه، مرة أخيرة.

ألبرت روزالبا.

دون أن أستطيع أخذ القرار، نظرت إلى صالوني حيث كل شيء في مكانه. يوجد فقط زوج من الأحذية يجف أمام أنبوب الموقد. في النهاية، التي تجف... زوج أحذية وضعته هناك، يجب أن أقول.

بطبيعة الحال، في الأسفل، الموقد منطفئ.

لم تحل أعياد الميلاد بعد.

- 32 -

رغم أن سيلفيو بينافيدس قد نطق كلماته الأخيرة بأقصى درجة من التشدق، لم يبدُ على رئيسه أنه أخذه محمل الجد. صبَّ لنفسه فنجاناً آخر من القهوة باسترخاء، كأنه كان لا يزال يعدُّ الأحذية في رأسه. قرّب مساعده فنجانه من فمه وقطب. من دون سكّر.

التفت سيريناك.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

- أنا أسمعك، سيلفيو، أذهلني...

- أنت تعرفني، حضرة الرئيس، فسّر سيلفيو. لقد دققت في كل ما يمكن أن يخص جيفرني وحكاية طفل. انتهى بي الأمر إلى العثور على هذا في أرشيف الدرك...

تأرجح على الكرسي الرخو، وضع فنجانه على الأرض وبحث عند قدميه في كومة الأوراق. مدَّ لرئيسه تقريراً من درك «باسي-سور-أور»: ورقة مصفرّة بعشرة أسطر. بلع سيريناك ريقه. اهتز الفنجان المتكسر بين أصابعه.

- سأقوم بتلخيص ذلك، حضرة الرئيس. أعتقد أنك لن تحب ذلك كثيراً. يتعلق الأمر بأحد الحوادث. تمَّ العثور على طفل غريق في جدول الأوب، في جيفرني. بالضبط في المكان الذي قتل فيه مورفال. قُتِلَ الطفل بالطريقة نفسها، الطقس نفسه، كما قلت من قبل، عدا طعنة السكين: هشِّم رأس الطفل بواسطة حجر ثم غمر رأسه في الغدير.

أحس لورانس سيريناك بشحنة عنيفة من الأدرينالين. اصطدم الفنجان بالفورميكا.

- بحق الرب... كم كان عمر الطفل؟

- تقريباً إحدى عشرة سنة، بفارق بضعة أشهر.

سال عرق بارد على جبين سيريناك.

- تباً...

تمسك بينافيدس بالمسندين كأنه يغرق في الكرسي البنفسجي.

- توجد عقدة، حضرة المفتش... الأمر هو أن الحادثة قد وقعت منذ عدة سنوات...

صمت لحظة، متوقعاً ردّ فعل سيريناك. ثم:

- سنة 1937، كي أكون دقيقاً...

انهار سيريناك على الأريكة البرتقالية. حطت عيناه على التقرير المصفرّ.

- سنة 1937؟ بحق الرب، ما هذه الحكاية؟ طفل في الحادية عشر مات بالضبط في المكان نفسه الذي مات فيه مورفال، بالطريقة نفسها بالضبط... لكن سنة 1937! ما هذا الهذيان؟

- لا أعرف، حضرة المفتش... يمكن أن تنظر، كل شيء موجود في تقرير درك باسي. إذا فكرنا في ذلك، ذلك ليس له أدنى علاقة بهذه القضية... في ذلك الوقت، استنتج رجال الدرك أنه حادث. انزلق الطفل على حجر، تشقق رأسه ثم غرق. الحادث الغبي. نقطة نهاية.

- كان اسمه ألبرت روزالبا. غادرت أسرته جيفرني بعد المأساة. لا خبر عنهم منذ ذلك الحين...

مدَّ لورنس سيريناك ذراعه نحو قهوته الموضوعة على المائدة. قطب وهو يشربها.

- يا للعجب، سيلفيو، إنها مثيرة على كل حال، هذه الحكاية. أميل إلى عدم حب هذا النوع من المصادفات. لا أحب. كما لو أن اللغز لم يكن سميكاً كفاية بهذا الشكل، كما لو كنا في حاجة إلى هذه الإضافة...

جمع سيلفيو الأوراق المتناثرة عند قدميه.

- هل يمكن أن أطلب منك شيئاً، حضرة المفتش؟

- في المرحلة التي نحن فيها...

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

- الشيء الذي يثيرني أكثر، هو أننا منذ البداية حدسنا متناقض. فكرت في ذلك طوال الليل. منذ البداية أنت تعتقد أن كل شيء يدور حول ستيفاني مورفال، وأنها في خطر. أنا، لا أعرف لماذا، متأكد أن المفتاح يوجد في العمود الثالث، وأنه يوجد قاتل يتجول بحرية وهو مستعد للضرب من جديد، أن حياة طفل توجد على المحك، طفل في الحادية عشر...

وضع لورنس فنجانه على الأرض، نهض وربت بطريقة ودية على ظهر مساعده.

- ربما لأنك على وشك أن تصبح أباً... وأنا من جهتي، الأعزب الذي أمثله يهتم بالأطفال أقل من اهتمامه بأمهاتهم، حتى وهنّ متزوجات... إنها فقط مسألة تقمص نفسي. منطقي، لا؟

- ربما. لكل واحد عموده، إذاً. فلنأمل فقط ألا نكون على حقّ نحن الاثنين.

هذه العبارة الأخيرة أدهشت سيريناك. تأمل مساعده باهتمام ولم يرَ سوى وجهاً مشدوداً وعينَين متعبتَين. لم ينتهِ بينافيدس بعد من فرز أوراقه. هو يعرف أنه قبل أن يغادر سيقوم مساعده، رغم تعبه، باستخراج نسخ ووضع كل شيء في علبة الأرشيف الحمراء، ثم وضع تلك العلبة في مكانها على رفٍّ قاعة تحت الأرض. ميم مثل مورفال. هذا هو مساعده...

- يوجد تفسير لكل شيء، سيلفيو. توجد طريقة لترتيب قطع الأحجية. بالضرورة!

- جاك دوبان، تنهد بينافيدس. ألا ترى أننا نقع بما فيه الكفاية؟

- عجباً! كنت قد نسيته، هذا الأخير...

كي يجلس على مكتب القاعة 101، دفع سيريناك عشرات الأحذية الزرقاء ووضعها في كومة غير مستقرة. لم يهدأ غضب جاك دوبان. كفّه اليمنى تحك شاربه البني ووجنتاه الحليقتان تظهران عصبية متصاعدة.

- أنا إلى حدّ الآن لا أفهم ماذا تريد مني، حضرة المفتش. مرت أكثر من ساعة منذ أن قمت بحبسي هنا. هل ستخبرني أخيراً لماذا؟

- محادثة، مجرد محادثة...

أشار سيريناك بحركة إلى معرض الأحذية.

- نحن نقوم بالتمشيط على إطار واسع، سيد دوبان. يمكنك أن تلاحظ. تقريباً كل سكان القرية عهدوا لنا بزوج من الأحذية طويلة الرقبة. هم يتعاونون، بهدوء. نتحقق من أن أحذيتهم لا تتوافق مع الآثار في مكان الجريمة، ثم لا نزعجهم أبداً... الأمر بسيط. بينما...

تشنجت كف جاك دوبان اليمنى على شاربه بينما تمسكت اليسرى بالمسند بعصبية.

- كم مرة يجب أن أكرره لكم؟ أنا لم أجده، حذائي اللعين! كنت أعتقد أني تركته في مأمن في المرأب قرب المدرسة. ليس هناك! أمس، اضطررت لاستعارة حذاء صديق...

جرب سيريناك ابتسامة سادية.

- غريب، لا، سيد دوبان؟ لماذا سيستمتع أحد ما بسرقة زوج أحذية مليء بالوحل؟ مقاس حذائك 43. بالضبط مقاس الأثر الذي تمَّ قياسه على مسرح الجريمة؟

وقف سيلفيو بينافيدس في قاع الغرفة، متكئاً على أحد الرفوف،

جهة جناح الأحذية الجديدة والجديدة شيئاً ما، من المقاس 39 إلى 42. راقب المحادثة مستمتعاً بتعب. على الأقل، تجعله يبقى مستيقظاً. للسؤال الذي طرحه سيريناك، كان عنده جواب في رأسه، لكنه لن يمرره للمشتبه به.

- لا أعرف، قال دوبان بعصبية. ربما كان ذلك الشخص هو القاتل وخطرت له فكرة سرقة أول حذاء بمقاس مناسب وجده كي يتهم شخصاً آخر مكانه!

كان هذا هو الجواب الذي ينتظره بينافيدس. ليس غبياً دوبان هذا، فكَّر سيلفيو.

- ووقع اختياره عليك، ألحَّ سيريناك. كما لو أن ذلك صدفة؟

- كان يجب أن يقع على أحد. ووقع علي. ماذا يعني «كما لو أن ذلك صدفة»؟ لا أحب تلميحاتك، حضرة المفتش.

- اكتفِ بالاستماع إذاً. ماذا كنت تفعل صباح مقتل جيروم مورفال؟

رسمتْ قدما دوبان دوائر عريضة في المكان الذي أزيلت منه الأحذية البلاستيكية، مثل طفل غاضب يفرغ لعبه من مكانها.

- تتهمني إذاً؟ نحو السادسة صباحاً، كنت في السرير مع زوجتي، مثل كل صباح...

- هذه نقطة غريبة، سيد دوبان. صباح كل ثلاثاء، بحسب شهاداتنا، من عادتك أن تنهض قبل الفجر كي تذهب لقنص الأرانب البرية على أرض صديقك باتريك ديلوناي. أحياناً في مجموعة. وحيداً، غالب الوقت... لماذا خالفت عاداتك، صباح الجريمة، بالضبط صباح ذلك الثلاثاء؟

صمت. أصابع دوبان المتوتر تتابع تعذيب شاربه.

- من يعلم... لأي سبب قد يرغب المرء في البقاء في السرير رفقة زوجته؟

غرز جاك دوبان عينيه في عيني لورنس سيريناك. غرز هي الكلمة الصحيحة. سكينان. لم يُفلِت سيلفيو بينافيدس شيئاً من المواجهة. مرة أخرى يفكر أن جاك دوبان يدافع عن نفسه بشكل جيد.

- لا أحد يؤاخذك على ذلك، سيد دوبان. لا أحد. لا تخشَ شيئاً، سنتحقق من حجتك... أما بالنسبة إلى الدافع...

دفع سيريناك بجد عشرات الأحذية الزرقاء المتراكمة في طرف المكتب ووضع صورة ستيفاني وجيروم مورفال، يداً بيد على طريق التلال.

- الغيرة يمكن أن يكون واحداً، ألا تظن ذلك؟ بالكاد نظر جاك دوبان إلى الصورة، كأنه يعرف محتواها بالفعل.

- لا تتخطَّ الحدود، حضرة المفتش. أن تشك بي، إذاً أعجبك ذلك، لمَ لا... لكن لا تدخِل ستيفاني في لعبتك. ليس هي. نحن متفقان على ما أظن؟

تردد سيلفيو في التدخل. يحس الآن أن الوضع قد يتطور، من ثانية إلى أخرى. واصل سيريناك اللعب مع طريدته. أدخل زوجاً من الأحذية الزرقاء في كلتا يديه وحاول تكوين ثنائيات. رفع عينين ساخرتين.

- إنه دفاع قصير، سيد دوبان. ألا تجد ذلك؟ بالمصطلحات القانونية، نسميه تحصيل حاصل... تبرير دافع يرتكز على الغيرة... بمبالغة زائدة من الغيرة...

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

نهض دوبان. هو على بعد أقل من متر من سيريناك. دوبان أقصر من المفتش، بحوالي عشرين سنتيمتراً.

- لا تلعب بالكلمات، سيريناك. أفهم تماماً لعبتك... إذا اقتربت أكثر...

لا يمنحه سيريناك ولو نظرة. يرمي حذاء وينتعل آخر في يده. وهو يبتسم.

- أنت لا تقول لي، سيد دوبان، إنك ترغب في عرقلة مجرى التحقيق؟...

لن يعرف سيلفيو بينافيدس إلى أي حدّ كان يمكن أن يصل جاك دوبان ذلك اليوم. لم يرغب في معرفة ذلك، على أي حال. لذا وضع في الوقت المناسب يداً مطمئنة على كتف جاك دوبان، وهو يومئ بحركة مهدئة نحو سيريناك.

- 33 -

رافق سيلفيو بينافيدس جاك دوبان خارج المفوضية. عرف كيف يصيغ عبارات مجاملة، اعتذارات مقنعة. المفتش بينافيدس جدّ موهوب في هذه الأشياء. صعد جاك دوبان غضبان في سيارته الفورد، وداس على البنزين في حركة تحدٍّ ساخر، مجتازاً موقف شارع كارنو بسرعة جنونية. أغمض بينافيدس عينيه ثم عاد إلى المكتب. سيلفيو بينافيدس أيضاً موهوب في التعامل مع حالات رئيسه المزاجية.

- ماذا تظن، سيلفيو؟

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

- لقد كنت قوياً، حضرة المفتش. قوياً جداً. قوياً بشكل كبير.
- طيب، سنقول إنه جانبي الأوكستان. لكن عدا هذا، ما رأيك؟
- لا أعرف. دوبان ليس واضحاً، إذا كان هذا ما تود سماعه. بعد أن قيل، يمكن أن نفهمه. عنده زوجة من الطبيعي أن يتمسك بها. ليس أنت من سيقول العكس. لكن ذلك لا يجعل منه قاتلاً...
- عجباً، سيلفيو. وقضية الأحذية التي يقول إنها سرقت منه؟ شيء غير منطقي! ولا حجة غيابه، زوجته ستيفاني أكدت أنه كان قد ذهب إلى الصيد، صباح الجريمة...
- شيء مثير للقلق حضرة الرئيس. حسناً، يجب أن نواجه شهادتيهما. لكن يجب أيضاً أن نعترف أن الأدلة الجنائية تتراكم بطريقة سهلة. في البداية صورة زوجته في نزهة مع مورفال بعثها مجهول، ثم حذاء الصيد الذي اختفى... يمكن أن نتصور أن أحداً ما يحاول أن يجعل الشكوك تحوم حوله. ثم فيما يخص حكاية آثار النعل، ليس الوحيد الذي تلزمه كلمة اعتذار! نحن أبعد ما نكون عن كشف كل سكان جيفرني. اصطدمنا أيضاً بأبواب مغلقة، ومنازل فارغة، وباريسيين غائبين تقريباً طوال الوقت. نحتاج إلى مزيد من الوقت، الكثير من الوقت...
- تباً...
أخذ سيريناك فردة حذاء وأمسك بها بين أصبعين، من الكعب.
- إنه هو، سيلفيو! لا تسألني لماذا، لكنني أعرف أنه جاك دوبان!
رمى لورنس سيريناك فجأة فردة الحذاء البرتقالية على عشرات الأخريات التي كانت على الرف قبالته.
- ضربة! علّق سيلفيو بينافيدس بهدوء شديد.

بقي رئيسه صامتاً للحظات، هادئ الأعصاب، ثم رفع صوته:

- نحن نتخبط، سيلفيو. نحن نتخبط! استدعِ الفريق بأكمله بعد ساعة من الآن.

حاول لورنس سيريناك بمشقة، وبأعصاب متوترة، أن يقوم بتنشيط العصف الذهني الذي جمع من أجله كل الفريق في مفوضية الشرطة في فيرنون. الغرفة الواضحة ذات الستائر الممزقة والتي تغمرها الشمس. سيلفيو بينافيدس نعسان في طرف الطاولة. هو يسمع، بين شهيقين، رئيس مفوضية فيرنون يقيم مختلف المسارات ويعدد اللائحة المثيرة للبحث الذي يجب القيام به: تحديد هوية عشيقات مورفال واستجواب أقربائهن، تعميق البحث في عمليات الإتجار الفنية حول الانطباعية ومحاصرة أماندو كاندي، ومعرفة المزيد بخصوص مؤسسة تيودور روبنسون، تعميق البحث حول حادثة الغرق الغريبة في الغدير التي حدثت سنة 1937، استجواب المزيد من سكان جيفرني، خاصة الجيران، خاصة أقارب مورفال، خاصة الأشخاص الذين لم يتوفروا على أحذية عندهم، خاصة الذين عندهم أطفال في سن الحادية عشر... والبحث أيضاً ناحية زبائن عيادة طب العيون.

ذلك كثير، المفتش سيريناك واعٍ بذلك، كثير جداً بالنسبة إلى فريق يتكون من خمسة أشخاص، وأيضاً ليس بدوام كامل، أبعد من ذلك... عليهم أن يشتغلوا عشوائياً ويثقوا في حظوظهم. انتظار الشغل الجيد... رجال الشرطة معتادون على ذلك، الأمور تسير على هذا النهج طوال الوقت. المهمة الوحيدة التي لم يعهد بها سيريناك

لزملائه هي التحقق من حجة جاك دوبان. هذه الأخيرة احتفظ بها لنفسه... امتياز الرئيس!

- مزيد من الأفكار؟

استمع العميل لودوفيك موري إلى أوامر رئيسه القوية باهتمام متعب كأنه لاعب كرة احتياطي في غرفة تبديل الملابس. الشمس في ظهره، تشوي عنقه. خلال العصف الذهني، تفحّص مرة أخرى صور مشهد الجريمة المنشورة أمامه: الغدير، الجسر، المغسل، جسد جيروم مورفال، القدمين على الشط والرأس في الماء. هو يتساءل لماذا تأتي الأفكار أحياناً في لحظة وليس في أخرى ورفع إصبعه.

- نعم، لودو؟

- مجرد فكرة، لورنس. في المرحلة التي نحن فيها، ألا تظن أننا يجب أن نمشط قاع غدير جيفرني؟

- ماذا تريد أن تقول؟ قال سيريناك بصوت عصبي، كأنه، فجأة، لم يستسغ أن يخاطبه العميل موري من دون كلفة.

استيقظ سيلفيو بينافيدس مفزوعاً.

- طيب... واصل موري، فتشنا في كل مكان من مسرح الجريمة، عندنا صور، آثار، عيّنات. نظرنا أيضاً في الجدول، بطبيعة الحال. لكني لا أظن أننا جرفنا النهر في العمق. أن نقلب الرمل، أود أن أقول، أن نحفر تحته. جاءتني الفكرة وأنا أنظر في الصورة إلى اتجاه جيوب مورفال: متجهة نحو الغدير. ربما سقط شيء، أي شيء في الماء، وغاب في الرمل. واختفى.

مرر سيريناك يده على جبينه.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

- ليس غبياً... لمَ لا، بعد كل شيء... سيلفيو، هل أنت مستيقظ؟ ستجمع فريقاً في أقرب وقت، مع عالِم في الرواسب، أو خبير من هذا القبيل، فهمت؟ عالِم يكون قادراً على تأريخ أي شيء نجده في وحل الغدير!

- حسناً، قال بينافيدس الذي فتح عينيه بجهد حامل أثقال. سيكون كل شيء جاهزاً بعد غد. الغد، أذكرك، بالنسبة إلينا نحن الاثنان هو يوم المعالم الوطنية. في البرنامج، زيارة لحدائق كلود مونيه بالنسبة إليك ومتحف الفنون الجميلة في روان بالنسبة إلي.

- 34 -

شارع بلانش-هوشيدي-مونيه، يتسرب ضوء المساء بين ألواح نوافذ علية دوبان. البيوت النورماندية المعروضة للبيع على الورق المصقول تتكوم بين أصابع جاك دوبان العصبية.

- سأكلِّف محامياً، ستيفاني. وأقاضيه على التحرش. هذا الشرطي، سيريناك، ليس واضحاً، ستيفاني... يبدو...

تقلب جاك دوبان في السرير. هو لا يحتاج إلى التحقق. هو يعرف أنه يتحدث مع ظهر زوجته. مع عنقها. مع شعرها الأشقر الطويل. مع ربع وجه. مع يد تمسك كتاباً. أحياناً، عندما تكون الأغطية متواطئة مع مؤخرة رائعة يقاوم كل مساء مداعبتها.

- يبدو كأنه يتعمدني هذا الشرطي، واصل دوبان. كأنه يجعل منها قضية شخصية.

- لا تقلق، أجاب الظهر. اهدأ...

حاول جاك دوبان الاستغراق من جديد في لفافة البيوت المعروضة للبيع. مرت الدقائق ببطء في إطار المنبه الموضوع قبالته بالضبط.

التاسعة واثنتا عشرة دقيقة...

التاسعة وسبع عشرة دقيقة...

التاسعة وأربع وعشرون دقيقة...

- ماذا تقرئين، ستيفاني؟

- لا شيء.

ظهر غير ثرثار.

التاسعة وواحد وثلاثون دقيقة...

التاسعة وأربع وثلاثون دقيقة...

- أرغب في إيجاد بيت من أجلك، ستيفاني. شيئاً آخر غير هذا الدولاب فوق المدرسة. بيت أحلامك. هي مهنتي، على كل حال. ذات يوم، أستطيع أن أمنحك إياه. إن كنت صبورة، قد أستطيع...

يتحرك الظهر قليلاً. تمتد اليد إلى الطاولة قرب السرير، وتضع الكتاب.

أوريليان.

لويس أراغون.

تضغط على زر مصباح السرير.

- كي لا تهجريني أبداً، قال صوت جاك دوبان في الظلام.

التاسعة وسبع وثلاثون دقيقة...

التاسعة وواحد وأربعون دقيقة...

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

- لن تدعيه، ستيفاني؟ لن تدعي هذا الشرطي يفرّقنا؟ أنت تعرفين ألا علاقة لي بمقتل مورفال.

- أعرف ذلك، جاك. نعرف ذلك نحن الاثنان.

ظهر سلس وبارد.

التاسعة وأربع وأربعون دقيقة.

- سأفعل ذلك، ستيفاني... بيتك، بيتنا، سأجده...

صوت فراش مجعّد.

- انمسح الظهر. ثديان، عضو يعرض نفسه خلال الحديث.

- امنحني طفلاً، جاك، طفلاً قبل كل شيء.

- 35 -

جيمس مستلق على ظهره، يستمتع بآخر أشعة الشمس: حوالي خمس عشرة دقيقة قبل أن تختفي خلف التلال. هو يعرف أن الساعة حينئذٍ ستكون قد تجاوزت العاشرة ليلاً. لا يتوفر جيمس على ساعة، يعيش على إيقاع الشمس كما كان يفعل مونيه، ينهض وينام معها. كل مساء يتأخر شيئاً ما في هذا الوقت. في هذه اللحظة، النجم يلعب لعبة التجلي والاختفاء مع أشجار الحور.

شيء رائع، هذه الحرارة المتعاقبة. أغلق جيمس عينيه. هو واعٍ أنه يرسم أقل فأقل وأنه ينام أكثر فأكثر. للتعبير عن ذلك كما يعتقده سكان القرية، أصبح متشرداً أكثر فأكثر وفناناً أقل فأقل.

يا له من نعيم! أن يُعتَبر متشرداً في أعين أناس طيبين. أن يصبح

متشرد القرية، مثلما لكل قرية كاهنها، عمدتها، مدرسها، ساعي بريدها... هو، سيكون متشرد جيفرني. كان هناك واحد من قبل، كما يبدو، في وقت كلود مونيه. كانوا يكنّونه الماركيز بسبب قبعة اللبد التي كان يحيي بها المارة. لكن بالأخص، كان الماركيز معروفاً لأنه كان يجمع أمام منزل مونيه أعقاب السجائر التي كان الرسام بالكاد يدخنها. كان يملأ بها جيوبه. القيمة الكبرى.

أجل، أن يصبح متشرد جيفرني، الماركيز. هذا طموح كبير. لكن كي يتوصل إلى ذلك، جيمس واعٍ أن أمامه طريق طويل ليقطعه! في هذا الوقت، عدا فانيت الصغيرة، لا أحد يهتم بهذا العجوز الذي ينام في الحقول مع حاملات قماشات الرسم.

عدا فانيت...

فانيت تكفيه.

هذه ليست كلمات جوفاء، فانيت فعلاً فتاة جد موهوبة. موهوبة أكثر منه. هذه الصغيرة هبة من السماء، كأن الرب قد قدّر عمداً أن تولد في جيفرني، كأن الرب قد وضعها عمداً في طريقه.

أطلقت عليه «الأب ترونيون»، قبل قليل! مثل لوحة روبنسون. **الأب ترونيون**... سيحبُّ جيمس أن يموت على هذا النحو، وهو يستمتع فقط بهاتين الكلمتين اللتين نطقتهما فانيت.

الأب ترونيون.

كلمتان مثل تلخيص لبحثه... من رائعة تيودور روبنسون إلى وقاحة عبقرية مبتدئة.

هو.

الأب ترونيون.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

من كان ليتصور ذلك؟

لم تعد الشمس تلمع.

مع أن الساعة لم تصل بعد إلى العاشرة ليلاً. عمَّ الظلام فجأة، كأن الشمس قد غيّرت لعبتها فجأة، كأنها من لعبة التخفي والظهور في أشجار الحور مرت إلى لعبة الغميضة. كأن الشمس بقيت تعدُّ حتى العشرين خلف شجرة حور، تاركة للقمر قليلاً من الوقت كي يهرب...

فتح جيمس عينيه. مشلولاً! مرعوباً!

لم يرَ سوى حجر، حجر كبير فوق وجهه، مباشرة فوقه، على بعد أقل من خمسين سنتيمتراً.

رؤية سريالية.

فهم متأخراً أنه لا يحلم. هشَّم الحجر وجهه كأنه فاكهة ناضجة مبتذلة. أحس جيمس بصدغه ينفجر كما أحس في الوقت نفسه بألم فظيع.

غاب كل شيء. استدار على البطن. حباً في حقول القمح. هو ليس بعيداً عن الغدير، عن أحد البيوت، عن تلك الطاحونة. يمكنه أن يصرخ.

لم يخرج من فمه أي صوت. قاوم كي لا يفقد الوعي. أزيز فظيع شبّع أفكاره، انتفخ رأسه كأنه آلة بخارية ستنفجر.

استمر جيمس في الزحف. أحس أن المعتدي عليه لا يزال موجوداً، واقفاً، فوقه، مستعداً للقضاء عليه.

ماذا ينتظر؟

علقت عيناه برجلين خشبيتين. حاملة قماشة الرسم. تمسكت يداه بها، يدان يائستان. امتدت عضلتا ذراعيه في محاولة أخيرة للوقوف.

سقطت حاملة القماشة في ضجيج أصم. سقطت علبة الرسم مباشرة أمامه. الفرشات، الأقلام، أنابيب الصباغة تتبعثر على العشب. فكر جيمس بشكل عابر في تلك الرسالة المنقوشة داخل العلبة. **هي لي هنا، الآن، وإلى الأبد**. لم يفهم ذلك التهديد. ولا من نقشه ولا لماذا.

هل رأى شيئاً لم يكن عليه أن يراه؟

سيموت دون أن يعرف. أحس أن أفكاره تغادره، أنها تسقط على الأرض مع باقي دمه، جلده. انجرَّ على أنابيب الصباغة، هشمها، بقرها. واصل في خط مستقيم أمامه.

لمح الظل، دائماً فوق.

يعلم أن عليه أن يهدأ، أن يستدير. أن يحاول النهوض. أن ينطق بكلمة. مستحيل. الذعر يجمّده. حاول الظل قتله. سيحاول الظل مرة أخرى. يجب أن يهرب. لم يعد يستطيع أن يحلل الأمر بشكل آخر، يوجد الكثير من الأزيز في رأسه. لم يعد يفكر سوى بشكل بدائي. أن يزحف. أن يبتعد. أن يفلت.

قلب حاملة لوحات أخرى. على الأقل، ذلك ما يظنه. غمر الدم عينيه. تغبّشت رؤيته. المشهد أمامه يتلون بالأحمر، بالصدئ، بالأرجواني. لا بدَّ أن الغدير ليس بعيداً. يستطيع أن يتخطى الأمر، يمكن أن يصل أحد ما.

أن يزحف، أيضاً.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

حاملة لوحة، حاملة أخرى أمامه. لوحة الصباغة، فرشاتها، سكاكينها.

الظل يتخطاه.

هو الآن أمامه. عبر فلتر أحمر لزج، رأى جيمس يداً تستولي على السكين الذي يستعمله في الخدش. تقترب.

انتهى كل شيء.

زحف جيمس بعض السنتمترات، ثم استند على ذراعيه. آخر قواه. دار جسده حول نفسه، مرة، مرتين، عدة مرات. للحظة، تمنى جيمس أن يتبع اتجاه المنحدر، أن يتدحرج بعيداً، أن ينزلق على طول الميل الطفيف للمرج، إلى الأوب؛ أن يفلت، بتلك الطريقة.

لحظة فقط.

سقط جسده في السنابل المنبطحة. على الظهر. لم يتجاوز مترين. لم يعد يرى شيئاً الآن. بصق جيمس خليطاً من الدم والصباغة. لم يعد يستطيع ترتيب فكرتين منسجمتين.

الظل يقترب.

جيمس ينظر إليه.

فجأة، كأن كل عقله عاد إليه. آخر فكرة للمحكوم عليه. تعرَّف جيمس إلى الظل في الحال، لكنه لا يزال يرفض أن يصدق عينيه. مستحيل! لماذا كل هذا الكره؟ أي جنون غذاه؟

دفعته يد إلى الأرض، الأخرى ستغرز السكين في صدره. جيمس غير قادر على الحركة. لم يعد مخّه يجعله يتألم. إنه مرعوب.

الآن فهم.

الآن، جيمس يود أن يعيش!

ليس من أجل ألا يموت. حياته لها القليل من القيمة. هو يود أن يعيش كي يمنع ما يخمنه، أن يوقف ذلك التسلسل الفظيع الذي لا يمكن تفاديه، تلك الآلية المرعبة التي ليست سوى جمرة، مأساة ثانوية.

أحسَّ بالنصل البارد يجتاز لحمه.

هو عجوز جداً. لم يعد حتى يعاني. الحياة تغادره. هو يحس أنه عديم الفائدة. كان عاجزاً عن التصدي للجريمة التي تُحبَك. كان عجوزاً جداً كي يستطيع حماية فانيت. من يستطيع مساعدة الفتاة، من الآن؟ من يستطيع حمايتها من الظل الذي سيغطيها؟

ألقى جيمس نظرة أخيرة على حقل القمح الذي كنسته الرياح. من سيجد جثته وسط السنابل؟ إلى متى؟ بعد عدة ساعات؟ عدة أيام؟ في هذيان أخير، اعتقد أنه يرى ظهور امرأة تحمل مظلة، كاميل مونيه، وسط الحشائش ونبات الخشخاش.

لم يعد يندم على شيء الآن. في الحقيقة، قد غادر كونيتيكت من أجل هذا. كي يموت في جيفرني.

يتراجع النهار ببطء.

آخر شيء أحس به جيمس، قبل أن يموت كان رعشة زغب نبتون على جلده البارد.

- اليوم التاسع -

21 مايو 2010
(طريق روي)
أحاسيس

- 36 -

يومين مشمسين متتابعين في جيفرني، صدقوني، بالنسبة إلى هذا الفصل فهذا تقريباً معجزة.

مشيت على طول طريق روي. كلما تقدمت في السن كلما وجدت صعوبة في فهم هؤلاء السياح القادرين على الصبر أكثر من ساعة كي يدخلوا إلى الحدائق في شارع كلود مونيه، وهم مصطفين خلف بعضهم البعض، على أكثر من مئتي متر من الرصيف. يكفي أن يتنزه المرء على طريق روي: يمكن لأي أحد أن يرى حدائق وبيت مونيه، دون أن يضطر للانتظار عبر الحاجز الأخضر على طول الطريق الإقليمية، ويلتقط صوراً لا تنسى، ويستنشق رائحة الزهور.

تمر السيارات، تدوس النباتات التي تفصل الطريق عن مسار الدراجات. عند مرور كل مركبة مسرعة جداً، تتحرك الأوراق كأنما أصابها التشنج. العديد من فتيان المنطقة الذين يشتغلون في فيرنون والذين لم يعودوا يديرون رؤوسهم نحو البيت الوردي ذي النوافذ الخضراء. طريق روي، بالنسبة إليهم، هو D5، طريق

فيرنون. لا شيء غيره.

بحسب الإيقاع الذي أسير به، أمامي ما يكفي من الوقت كي أستمتع بالزهور. لن أكذب، طبعاً الحديقة رائعة. كاتدرائية الزهور، جلسة السيدات، لوكلو نورمان، وشلالات الياسمين، كتل الزنابق الوردية والميوسوتيس... العديد من الروائع...

من يستطيع أن يدّعي العكس؟

أخبرني أمادو كاندي أنهم منذ عشر سنوات فتحوا في اليابان قرية في عمقِ الريف، نسخة طبق الأصل عن بيت مونيه، لوكلو نورمان والحديقة المائية. هل تصدقون ذلك؟ رأيت صوراً من المستحيل تقريباً تفرقة جيفرني الأصلية عن المزيفة. ستقولون إننا يمكن أن نجعل الصور تقول ما نشاء... لكن مع ذلك، بصراحة، يا لها من فكرة، بناء جيفرني في اليابان! قطعاً كل هذا يتجاوزني.

سأعترف لكم بذلك، مرّت عدة سنوات منذ لم أدخل إلى حدائق مونيه، حدائق جيفرني. الحقيقة، أريد أن أقول إنه يوجد العديد من الناس بالنسبة إلي الآن. مع آلاف السياح الذين يتمركزون، يتجمعون، يدوسون على أقدام بعضهم البعض، ليس مكاناً من أجل عجوز مثلي. بالإضافة إلى أنه عندما يزور السياح بيت مونيه، غالباً ما يتفاجؤون: لا يتعلق الأمر بمعرضِ فني. لا توجد أي لوحة للأستاذ في بيت مونيه، لا توجد أي لوحة «نيلوفر»، أو جسر ياباني، أو شجرة حور. لا شيء سوى بيت، مشغل، وحديقة. لرؤية لوحات مونيه الحقيقية، يجب الذهاب إلى المارموتان، في فيرنون... أجل، من أجل كل هذا، أنا بحال أفضل من الجهة الأخرى للحاجز. ثم إن عواطفي لا تعني أحداً سواي. لا أحتاج سوى إلى أن أغمض عيني، جمال الحديقة المذهل منقوش فيها.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

إلى الأبد. صدقوني.

يواصل هؤلاء الحمقى المرور على طريق روي. مرت للتو سيارة تويوتا، بسرعة تفوق مئة كيلومتر في الساعة. ربما لا تعرفون ذلك، كلود مونيه هو الذي دفع تكاليف الزفت منذ مئة عام، لأن غبار الطريق كان يغطي أزهاره! كان من الأفضل لو دفع ماله من أجل إحداث طريق منحرف. ليست عندنا فكرة، بصراحة، حديقة مشابهة مقسومة نصفين بطريق إقليمية والسياح الذين يمرون تحتها عبر نفق.

على أي حال... لقد اكتفيتم من اعتبارات عجوز من جيفرني حول تطور قريتها ونواحيها. أنا أفهمكم. تتساءلون أي لعبة ألعب. هذا ما يهمكم، هاه؟ ما هو دوري، في هذه القضية؟ في أي لحظة سأتوقف عن التجسس عن الجميع كي أتدخّل؟ كيف؟ لماذا؟ صبراً، صبراً. بضعة أيام أخرى، أكثر من بضعة أيام. دعوني أستفيد قليلاً من اللامبالاة العامة تجاه عجوز لا يعيرها أحد من الاهتمام أكثر مما يعيره لعمود أو شارة كانت دائماً موجودة. لن أجعلكم تعتقدون أني أعرف نهاية هذه القضية، لا، لكن رغم ذلك كونت فكرتي.

أنا التي ستغلق قوس هذه الحكاية، ثقوا بي. ولن أخيّبكم، صدقوني!

قليل من الصبر، من فضلكم. دعوني أصف لكم حدائق مونيه أمامي. كونوا منتبهين، كل تفصيل له أهميته. خلال صباحات مايو تحتلها الخرجات المدرسية. خلال كل الشهر، كل صباح، الحديقة صاخبة كأنها ساحة مدرسة! باختصار، ذلك يرتبط بقدرة المدرسة على جعل الأطفال يهتمون بالرسم. وأيضاً بدرجة هيجانهم، بحسب

عدد الساعات التي أمضوها محبوسين في الحافلة.

أحياناً ليلة كاملة! توجد مدرّسات ساديات! على الأقل، عندما يكونون داخل الحديقة، يكون المدرسون مطمئنين، تكفي مراقبة خفيّة. يشعر الصغار كأنهم في ساحة عامة، لكنها تربوية. يملؤون استبياناً، يرسمون. عدا الغرق في النيلوفر، هم لا يخشون شيئاً.

على طريق روي، تمرُّ شاحنة المخبزة لورين، يزمر لي، أشير له بيدي. ريتشارد لورين آخر تاجر يعرفني، مع أمادو كاندي ومعرضه الفني. العديد من علامات جيفرني تتغير كل سنة، المعارض، والفنادق، والمآوي. تأتي وتروح. جيفرني، إنه المد الكبير، بحسب التفتح. أنا، الآن، أرى ذلك من بعيد. ملقاة على الرمل.

أواصل الانتظار...

سمعت ضجيج دراجة نارية، صوت مميز للتايجر تريومف تي 100. الآلية ذهبت لتركّن في زقاق لوروي نحو مدخل الأفواج. هذا أيضاً يجب أن يبدو لكم غريباً، أن تستطيع امرأة تخطت الثمانين التعرف إلى ماركة الدراجة النارية، فقط عن طريق صوت المحرك. دراجة قديمة، تقريباً تحفة. لو كنتم تعلمون... صدقوني، صوت تايجر تريومف، أظن أني أستطيع أن أتعرف إليه ضمن كثيرين.

إلهي، كيف يمكن نسيانه...

ألاحظ أني لست وحدي من أصاخ السمع. لم تستغرق ستيفاني دوبان وقتاً طويلاً كي تخرج رأسها عبر النافذة الأكثر ارتفاعاً في بيت كلود مونيه، وجهها الذي غطته النباتات المتسلقة. من مكانها، أخذت تعدُّ الأطفال.

طبعاً...

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

أحس بها ترتعش فقط لسماع صوت محرك. هي تراقب، بهيئة منتبهة، الأطفال الذين يجرون بين أحواض الزهور. أظن أنهم على العكس سيستطيعون فعل ما يشاؤون لبعض الوقت، أطفال فصلها...

- 37 -

جرت ستيفاني دوبان في الدرج. لورانس سيريناك هناك، ينتظرها في قاعة المطالعة.

- صباح الخير، ستيفاني. سعيد لرؤيتك مرة أخرى.

المدرّسة تلهث. قام لورنس بنصف دورة حول نفسه.

- يا إلهي، إنها أول مرة أدخل فيها بيت كلود مونيه. شكراً لأنك أتحت لي هذه الفرصة، حقاً. سمعت عنه، لكنه... إنه رائع...

- صباح الخير، حضرة المفتش. ستكون الزيارة من حقك إذاً. صحيح أن حظك وافر، حديقة مونيه لم تفتح سوى من أجل مدرسة جيفرني هذا الصباح. شيء استثنائي! شيء لا يحدث سوى مرة في السنة، جميع غرف مونيه متاحة لنا فقط...

لنا فقط...

لم يستطع لورنس سيريناك أن يُعرّف الإثارة التي تعتريه. بين الخيال والشعور بالضيق.

- وتلاميذك؟

- يلعبون في الحديقة. هم لا يخشون شيئاً، اطمئن، لم أصحب سوى الكبار، وأراقبهم من طرف عيني، كل نوافذ البيت تطل على الحديقة. الأطفال الأكثر جدية من المفترض أنهم يرسمون، يبحثون عن الإلهام، يجب أن يقدموا لوحاتهم من أجل مباراة «رسامون

مبتدئون» لمؤسسة روبنسون، في بضعة أيام. الآخرون لا يهتمون بذلك ويلعبون الاستغماية بين الجسور، حول البركة... هكذا كان الأمر زمن مونيه، كما تعرف. لا يجب تصديق خرافة بيت صامت يسكنه فنان عجوز ناسك، بيت كلود مونيه كان يعج بأولاده وأحفاده.

تقدمت ستيفاني وأخذت شكل دليل سياحي.

- كما تلاحظ، حضرة المفتش، نحن هنا في الصالون الأزرق... هو يطل على غرفة بقالة غريبة. لاحظوا علب البيض هذه المعلقة على الجدران...

ترتدي المدرّسة ثوباً مدهشاً من الحرير بالأزرق والأحمر، مشدود بحزام عريض على الخصر، يغلق بواسطة زرّين على شكل زهرة عند الرقبة. الفستان يعطيها مظهر فتاة غيشا هبطت من أحد النقوش. شعرها مشدود إلى الخلف. نظرتها البنفسجية تذوب في باستيل الجدران. لا يعرف سيريناك أين يحط بصره. ستيفاني، بهذا الثوب، تذكّره بلوحة لكلود مونيه أعجب بها منذ سنوات، صورة زوجته الأولى كاميل دونسيون، متنكرة في شكل فتاة غيشا. أحس تقريباً أنه دخيل، بسرواله الجينز، وقميصه، وسترته الجلدية.

- هل نمر إلى الغرفة الموالية؟ اقترح صوت دليله العذب.

أصفر.

الغرفة صفراء بالكامل. الجدران، الأثاث المطلي، الكراسي.

توقف سيريناك مندهشاً.

اقتربت منه مضيفته.

- أنت الآن في غرفة الطعام التي كان كلود مونيه يستقبل فيها زواره المهمين...

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

أعجب سيريناك بالثريا في الغرفة. حطت نظرته على لوحة على الجدار. باستيل لرينوار. فتاة شابة جالسة تعتمر قبعة عريضة بيضاء. اقترب، معجباً بلعبة التدرج بين الألوان على طول الشعر البني والبشرة النضرة للفتاة الموديل الشابة.

- تقليد جميل، علّق لورنس.

- تقليد؟ هل أنت متأكد، حضرة المفتش؟

تفحص سيريناك اللوحة مندهشاً من التعليق.

- طيب... فلنقل إني لو أعجبت بهذه اللوحة في متحف باريسي، لن أشك لحظة أن الأمر يتعلق بلوحة أصلية. لكن هنا، في بيت مونيه. الكل يعرف أن...

- وإن قلت لك إن الأمر يتعلق فعلاً بلوحة لرينوار، لوحة أصلية؟

ابتسمت المدرّسة أمام هيئة المفتش المرتبكة. أضافت بنبرة أقل:

- لكن ششت، إنه سر... لا يجب أن تكرره.

- أنت تسخرين مني...

- آه لا. سأخبرك سراً آخر حضرة المفتش. أكثر إدهاشاً. في بيت مونيه، إذا فتشنا جيداً في بعض الدواليب، في المرسم، تحت الركام، سنجد مجموعة من الأعمال الرائعة. عشرات! لرينوار، وسيسلي، وبيسارو. أعمال حقيقية. أعمال لمونيه أيضاً، بطبيعة الحال، «نيلوفر» أصلية... في قبضة اليد!

تأمل لورنس سيريناك ستيفاني بانزعاج.

- ستيفاني، لماذا تحكين هذه الخرافات؟ الكل يعرف أن ذلك مستحيل. لوحات رينوار ومونيه تمثل ثروة كبيرة... وثقافية أيضاً. كيف يمكن أن نتصور أنها يمكن أن تكون هنا في الغبار؟ إنه... إنه

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

مثير للسخرية...

عبست ستيفاني بشكل لذيذ.

- لورنس، تبدو لك تصريحاتي غير معقولة، أقرك تماماً. لكن أن تعتقد أنها مستحيلة، أو مضحكة، هنا، أنت تخيّبني، بما أني لم أخبرك سوى الحقيقة المطلقة. علاوة على ذلك، الكثير من سكان جيفرني على علم بالكنوز الحقيقية المخبأة في بيت مونيه. لكن... فلنقل، إنه سر هنا، شيء لا نتحدث عنه.

انتظر لورنس سيريناك اللحظة التي ستنفجر فيها المدرسة من الضحك. تلك اللحظة لا تأتي، حتى لو كانت عينا سيريناك تلمعان من المكر. أضاف في النهاية:

- ستيفاني، أنا متأسف، يجب أن تجربي نكتتك على شرطي شكاك بقدر أقل مني.

- أنت لا تصدقني لورنس؟ لا يهم. بعد كل شيء، الأمر ليس مهماً، لن نتحدث أكثر...

استدارت المدرّسة فجأة. سيريناك مضطرب. يقول في نفسه إنه أخطأ في المجيء، ليس هنا، ليس الآن. لقد... لقد تأخر الوقت. اختلط كل شيء. ولو أنه ليس المكان المناسب. أطلق:

- ستيفاني. أنا لم آتِ فقط من أجل الزيارة الموجهة أو من أجل التحدث عن الرسم. يجب أن نتحدث...

- ششت...

وضعت ستيفاني إصبعاً على فمها، كأنها تريد أن تعني أنه ليس الوقت المناسب. بلا شكّ حيلة مدرّسة قديمة.

أشارت إلى البوفيهات الزجاجية.

- كان كلود مونيه شديد التأنق من أجل ضيوفه. خزف أزرق

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لكريل مونترو، زخارف يابانية...

ليس أمام لورنس سيريناك خيار، أمسك ستيفاني من كتفيها. فهم في الحال أنه لم يكن عليه أن يفعل ذلك. القماش حريري وناعم، كأنه جلد ثانٍ. القماش يمنح أفكاراً ليست أفكار شرطي.

- أنا لا أمزح، ستيفاني. لم يجرِ الأمر بشكل جيد، أمس، مع زوجك...

ابتسمت.

- حصلت على لمحة عن ذلك، مساء أمس.

- نحن نشك به. الأمر جدي...

- أنتم مخطئون...

انزلقت أصابع لورنس على الحرير، رغماً عنه، كأنه يداعب ذراعيها. لم يجرؤ على أن يضغط أكثر. قاوم كي يحافظ على صفائه.

- توقفي عن اللعب معي، ستيفاني. أمس، خلال الاستجواب، أكَّد لي زوجك أنه صباح الجريمة كان معك في السرير. أنت شهدت بالعكس، منذ ثلاثة أيام. أحدكما يكذب إذاً... زوجك أو...

- لورنس، كم مرة يجب أن أكرر: لم أكن عشيقة جيروم مورفال. ولا حتى صديقة حميمة. لورنس، زوجي لم يكن له دافع ليقتل مورفال! أعرف الكلاسيكيات، حضرة المفتش. في غياب الدافع، لا نحتاج إلى حجة غياب.

ضحكت، عذبة، انزلقت كأنها ثعبان وواصلت:

- أنت تميل نحو الإخراج المسرحي، لورنس. بعد عمليتك الشهيرة الخاصة بجمع الأحذية من سكان جيفرني، هل ستسأل كل الأزواج في القرية إن كانوا مارسوا الحب في السرير صباح الجريمة؟

- الأمر ليس لعبة، ستيفاني...

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تحدّثت ستيفاني بنبرة مدرّسة قاسية:

- أنا واعية بذلك، لورنس. إذاً، توقف عن إزعاجي بهذه الجريمة، هذا التحقيق القذر. الأهم لا يكمن هنا. أنت تفسد كل شيء.

انفلتت، هربت، كأنها تنزلق على أرضية الطوب والتبن. استدارت، مبتسمة من جديد. ملائكة وشياطين.

- المطبخ!

هذه المرة، الأزرق هو الذي ضرب وجه لورنس سيريناك. الأزرق على الجدران، الأزرق في الخزف، في كل الدرجات، من الفيروزي إلى السماء.

اعتمدت ستيفاني لهجة الكلام المعسول:

- ربات البيوت سيقدّرن تجهيزات المطبخ، الاتساع... الأواني النحاسية... خزف،روان...

- ستيفاني..

وقفت المدّرسة أمام الموقد. قبل أن يصدر سيريناك أي ردّ فعل، تمسكت يداها بجانبي سترته الجلدية.

- حضرة المفتش، فلنكن واضحين. فلنضع النقاط على الحروف، مرة وإلى الأبد. زوجي يحبني. زوجي متمسك بي. زوجي غير قادر على إيذاء أحد. ابحثوا عن مذنب آخر!

- وأنت؟

خففت قليلاً من قبضتها، متفاجئة:

- كيف؟ هل أنا قادرة على إيذاء أحد ما، هذا ما تسألني؟

انفتحت عيناها البنفسجيتان على درجة لم يستكشفها بعد. تمتم سيريناك مضطرباً:

- لا لا يا لها من فكرة. كنت أود أن أقول: وأنت؟

هل تحبينه؟

- أصبحت حشرياً، حضرة المفتش.

أطلقت جلد السترة ودخلت من جديد إلى قاعة الطعام، الصالون، غرفة البقالة. تبعها لورنس تاركاً بينهما مسافة، لم يعرف أي هيئة يأخذ. من غرفة البقالة، يصعد سلَّم خشبي نحو الطابق. انزلق ثوب ستيفاني على الخشب كأنما ليجعله يلمع أكثر.

مباشرة قبل أن تغيب في درجات السلَّم، ألقت المدرّسة كلمة. كلمة وحيدة:

- أخيراً!

- 38 -

وقف سيلفيو بينافيدس في ساحة كاتدرائية روان. مرَّ وقت طويل منذ لم يعد إلى روان، سنة تقريباً. أمسك دليله بين يديه، وفكر أن الناس لا بدَّ أن يعتبروه سائحاً. لم يهتم لذلك. هو على موعد مع محافظ متحف الفنون الجميلة، شخص اسمه أخيل غيوتان، بعد نصف ساعة، تعمّد أن يصل مبكراً، كأنه يريد أن يستعد نفسياً ويغوص في الجو الانطباعي لروان القديمة.

استدار نحو مكتب السياحة ونظر في الكتيّب الذي معه: من الطابق الأول في هذه البناية رسم كلود مونيه أغلب كاتدرائياته الخاصة بروان، ثمانٍ وعشرون لوحة، كلها مختلفة بحسب الساعة أو الوقت. مكتب السياحة، كان في عهد مونيه متجراً للألبسة، ثم قبل ذلك بكثير، أول مَعلم من النهضة في روان: مبنى الهيئة المالية. تفحّص سيلفيو دليله. رسم مونيه الكاتدرائية من زوايا أخرى متعددة،

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كما رسم مختلف المنازل في المكان، بما فيها بعض البيوت التي هُدمت خلال الحرب، شارع غراند بونت أو شارع غروس أورلوج.

ابتسم المفتش وهو يتخيل كلود مونيه يصل مع الفجر بحاملة القماشة عند خواص نائمين، أو يقيم طوال النهار، خلال أشهر، في غرفة القياس للسيدات، أمام كل نافذة: كل هذا كي يرسم تقريباً ثلاثين مرة النموذج نفسه. لا بدَّ أنهم كانوا يعتقدون أنه مجنون...

الناس، في الواقع، يحبون المجانين.

استدار سيلفيو نحو الكاتدرائية. أجل، الناس يحبون الجنون. مجرد هذه الكاتدرائية، الإعجاب بها يعني في النهاية الاعتراف بأنه كان على حقّ، الشخص الذي تصوَّر يوماً أن يشيد معلماً مدهشاً، حتى لو استغرق ذلك خمسمئة عام؛ ذلك المجنون الذي ألحَّ بلا شك كي يكون سهم كاتدرائيته هو الأكثر ارتفاعاً في فرنسا، حتى لو قضى بضعة آلاف من العمال نحبهم فيها. في تلك الفترة، ورشة من هذا الشكل لا بدَّ أنها كانت مجزرة، لكننا ننسى. ينتهي بنا الأمر إلى أن ننسى. ننسى المجزرة، ننسى البربرية ونعجب بالجنون.

نظر المفتش إلى ساعته، لا ينبغي أن يتسكع إذا أراد ألا يصل متأخراً، احتفظ بإحساس التلميذ الذي يحرص على الوصول في الوقت المحدد. خرج من ساحة الكاتدرائية ومر تحت أروقة المتاجر. «شارع الكرملية»، قرأ. المتحف على اليسار، بحسب ما فهم. انعطف في شارع ضيق على جانبيه بيوت خشبية. صعب عليه دوماً أن يحدد اتجاهه في مركز روان الذي يعود للقرن الوسيط. هذه المدينة تعطيه الانطباع بأنه في متاهة صممها رجل معذب. حسناً، ربما كان هو نفسه من أراد أن تكون كاتدرائيته هي الأعلى. صعوبة إضافية، سيلفيو ليس مركِّزاً على طريقه. منذ أن وصل إلى روان، لم

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يفتأ يفكر أن القضية مورفال فيها شيء خطأ. كأن شخصاً ما يحرك كل خيوط اللعبة، إبهام مكيافيلي الصغير يُسقِطُ أمامهم أدلة كي يجرهم حيث يشاء. من؟

وصل سيلفيو إلى ساحة 19 أبريل 1944. تردد لحظة ثم انعطف فجأة نحو اليمين، في اللحظة التي قابلته فيها عربة أطفال تدفعها أمّ. داست الأم على رجله دون أن تبطئ بينما تمتم اعتذاراً دون أن يفلت خيط أفكاره.

من؟

جاك دوبان؟ أمادو كاندي؟ ستيفاني دوبان؟ باتريسيا مورفال؟

جيفرني قرية صغيرة، كل سكان جيفرني يكررون ذلك: سكان جيفرني يعرفون بعضهم. وإن كانوا يخفون سراً؟ تلك الحادثة مثلاً، غرق الصبي، سنة 1937؟ وصل الأمر ببينافيدس إلى تصور الفرضيات الأكثر جنوناً. وصل به الأمر إلى التساؤل عَمْ إن كان رئيسه صريحاً معه. للورنس سيريناك أحياناً طريقة غريبة في معالجة حكايات الرسم هذه. سيلفيو لا يحب كثيراً تلك الصدفة، واقع أن يكون رئيسه من هواة الرسم إلى درجة أن يعرض لوحات في مكتبه، أن يكون قد أجرى تحقيقات في وسط الإتجار بالفن قبل أن يعيَّن في فيرنون وكأن ذلك صدفة، يجد نفسه في مواجهة مقتل أحد هواة المجموعات... في جيفرني! دون الحديث عن رغبته في إلصاق كل شيء على ظهر جاك دوبان في حين هو يغازل زوجته... تحدث عن ذلك مع بياتريس لكنه لا يعرف لماذا، زوجته معجبة بلورنس. لم يلتقيا سوى خلال أمسية، ومع ذلك.

لمح سيلفيو أمامه ساحة متاخمة لبقعة رمادية أثرية. حوالي عشرة أشخاص ينتظرون أمام الدرجات. تعرَّف إلى مدخل متحف الفنون

الجميلة. أسرع الخطى دون أن يتوقف عن التفكير. أجل، بياتريس تقضي وقتها تحدثه عن كون لورنس شخصاً جذاباً، ومثيراً للاهتمام، ومضحكاً. حتى أنها أضافت شيئاً من قبيل «بالنسبة إلى شرطي، هو يتوفر على حساسية مدهشة، مثل نوع من الحدس الأنثوي». ربما لهذا السبب لديه تحفظات على رئيسه، حلل سيلفيو. كيف يمكن لبياتريس أن تقدِّر شخصاً مثل سيريناك، شخصاً جد مختلف عنه؟ شخص لا يهتم سوى بالفن والفتيات اللواتي كان يعاشرهن مورفال. أو يرغب في معاشرتهن.

صعد بينافيدس درجات متحف الفنون الجميلة، ودون أن يعرف لماذا، عاد سؤال وترسّخ في ذهنه، مثل شعار استحواذي: لماذا الناس، في الواقع، يعجبون بالحمقى؟ خاصة النساء.

انتظر المفتش سيلفيو بينافيدس في ردهة متحف الفنون الجميلة في روان عدة دقائق. أحس أن علو السقف يطغى عليه وكذلك عمق الغرفة وثريا اللوحات الجدارية الهائلة. فجأة، كأنه خرج من فخّ في الرخام، توجّه نحوه رجل قصير أقرع يرتدي وزرة طويلة تحاذي قدميه ومدّ يده نحوه.

- حضرة المفتش بينافيدس؟ أخيل غيوتان. محافظ المتحف. طيب، هيا بنا. أخشى ألا يكون أمامي سوى قليل من الوقت لأخصصه لك، خاصة أني لم أفهم ماذا تريد.

فكرة مضحكة خطرت بذهن سيلفيو. ذكّره غيوتان بمدرّس الرسم في الإعدادية، جون باردون. مدرّس في الخامسة والعشرين كان يبدو في الأربعين. لهما القامة نفسها، السترة نفسها، الطريقة نفسها في التحدث إليه. خلال كل فترة تمدرسه، وجد سيلفيو نفسه

كبش فداء للمدرّسين، خاصة لمن لم تكن لهم سلطة. فكر أن أخيل لا بدَّ ينتمي إلى الطائفة نفسها، طائفة الرؤساء الصغار الخانعين أمام السلطة والمتجبرين بمجرد أن يلتقوا أضعف منهم.

كان غيوتان قد ابتعد بالفعل، صعد الدرج كأنه فأر رمادي. شعر سيلفيو أنه قد يطأ بقدمه الوزرة الطويلة في كل خطوة ويتعثر ويسقط إلى الخلف.

- طيب، هل تأتي؟ ما هي حكاية هذه الجريمة؟

هرول بينافيدس خلف الوزرة الرمادية.

- شخص غني. جراح عيون من جيفرني. ضمن أشياء أخرى، كان يجمع اللوحات. كان يهتم بالأخص بمونيه و«النيلوفر». ربما كان الدافع للجريمة.

- وإذاً؟

- وإذاً، أود فقط أن أعرف أكثر.

- وليس عندكم أحد مؤهل في الشرطة؟

- أجل... المفتش الذي ينسّق التحقيق تدرب في شرطة الفن، لكن...

استمع إليه غيوتان كأنه تلفَّظ بأسوأ البدع.

- لكن؟

- لكني أريد أن أكوِّن فكرة بنفسي...

من الصعب معرفة ما إن كان غيوتان يتنهد أو يتنفس عندما وصل إلى البسطة.

- ما دمت تقول ذلك... ماذا تريد أن تعرف؟

- يمكن أن نبدأ بـ«النيلوفر»، إن شئت. أريد أن أعرف كم رسم

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

مونيه منها؟ عشرون؟ ثلاثون؟ خمسون؟

- خمسون؟!

جمع غيوتان بين صرخة رعب وضحكة ساخرة، صوت وحدها الضباع يمكن أن تصدره. لو كان يمسك مسطرة حديدية بين يديه، سيكون ذلك من أجل أن يعاقب أصابع المفتش الجاهل. كل الصور القاسية في قاعة عصر النهضة بدت كأنها تستدير نحو سيلفيو كي تصمه بالعار. أحنى سيلفيو رغماً عنه الوجه بينما كان غيوتان يهز كتفيه نكاية. لاحظ المفتش بينافيدس أنه يرتدي جوارب برتقالية غريبة.

- هل تسخر من العالم، حضرة المفتش؟ خمسون لوحة «نيلوفر»! فلتعلم أن المختصين أحصوا ليس أقل من مئتين واثنين وسبعين لوحة «نيلوفر» رسمها كلود مونيه!

أدار سيلفيو عينين مذهولتين.

- يمكن أيضاً أن نعدَّ بالمتر، إن كان ذلك سيجعلك تستوعب أكثر. رسم مونيه حوالي مئتي متر مربع من «النيلوفر» استجابة لطلب وطني، في نهاية الحرب العالمية الأولى، معروضة في الأورانجوري. لكن إذا جمعنا كل الأعمال التي لم يحتفظ بها مونيه، تلك التي رسمها وهو نصف أعمى عندما كان يعاني من إعتام عدسة العين، يصل الخبراء إلى أكثر من مئة وأربعين متراً مربعاً من «النيلوفر» «بزيادة»، معروضة في جهات العالم الأربع، نيويورك، زوريخ، لندن، طوكيو، ميونيخ، كانبيرا، سان فرانسيسكو... سمِّها ما شئت، صدقني. دون أن أتحدث عن أقل من مئة لوحة «نيلوفر» تنتمي إلى مجموعات خاصة...

تفادى سيلفيو أي تعليق. فكر أنه لا شكّ يبدو ببلاهة طفل نعلمه

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

أن وراء الموجة التي تضرب قدميه يوجد البحر. واصل غيوتان الركض عبر الممرات. في كل مرة يدخل إحدى القاعات، كان الحراس النعسانون في حالة من الذعر، يتجمدون في وضعية انتباه.

أوروبا الطراز الباروكي تلت القرن الكبير.

- «النيلوفر»، واصل أخيل غيوتان دون أن ينفخ، هي مجموعة جد غريبة، بلا مثيل في العالم. خلال السبع والعشرين سنة الأخيرة من حياته، لم يرسم كلود مونيه سوى هذا. بِركة النيلوفر! تدريجياً، سيقوم بإقصاء كل الديكور المحيط، الجسر الياباني، أغصان الصفصاف، السماء، كي يركز فقط على الأوراق، والماء، والضوء. النقاء المطلق. اللوحات الأخيرة، بضعة أشهر قبل موته، تميل إلى التجريد. بقع فقط. التبقيع سيقول الخبراء. لم نرَ ذلك من قبل. لا أحد فهم ذلك خلال حياة مونيه. الكل اعتبر ذلك نزوة عجوز... عندما مات طال لوحات «النيلوفر» الخاصة بالعجوز مونيه النسيان، خاصة اللوحات الأخيرة. هذيان محض، هكذا اعتقد.

لم يجد سيلفيو الوقت كي يسأل غيوتان عمَّ يعنيه بـ«النسيان». واصل المحافظ، كأنه لا ينضب:

- غير أنه بعد جيل، كانت تلك اللوحات هي التي شكلت، في الولايات المتحدة، بداية ما سيسميه الناس الفن التجريدي... هذه هي، وصية أب الانطباعية: اكتشاف الحداثة! هل تعرف جاكسون بولوك؟

لم يجرؤ سيلفيو على قول لا. ولا على قول نعم. أطلق غيوتان تنهيدة أستاذ ضجر.

- لا بأس. هو تجريدي... بولوك والآخرون يستقون إلهامهم من «نيلوفر» مونيه. كل شيء. الشيء نفسه في فرنسا، لقد حفظت ما

قلته لك على ما أرجو. اللوحات الكبيرة من «النيلوفر» معروضة في متحف الأورانجوري، كنيسة سيستينا للانطباعية التي منحها مونيه للدولة الفرنسية على شرف الهدنة سنة 1918. هذا ليس كل شيء، إذا فكرت في المكان الذي تُعرضُ فيه لوحات «النيلوفر»، هناك شيء آخر رائع...

- آه؟

لم يجد سيلفيو شيئاً آخر ليقوله. لم يأبه غيوتان لذلك.

- لوحات «النيلوفر» تتربع على محور النصر! المحور الرئيسي، الذي يمر على نوتردام، واللوفر، والتويلري، والكونكورد، والشانزلزيه، وقوس النصر، وقوس الدفاع... لوحات «النيلوفر» خلف جدران الأورانجوري تصطف بالضبط على المحور الذي يرمز لكامل تاريخ فرنسا، والذي يمتد من الشرق نحو الغرب، متبعاً دورة الشمس. وكأن ذلك صدفة، رسم مونيه بركة النيلوفر عند مختلف أوقات النهار، من الصباح إلى المساء، مبرزاً جريان الشمس الأبدي. جريان النجوم، تاريخ فرنسا المنتصر، ثورة الفن الحديث... هل فهمت الآن لماذا يساوي كل سنتمتر مربع من هذه اللوحات ثروة... منعطف الفن الحديث. في النورماندي، على بعد بضع كيلومترات من فيرنون، في بركة تافهة. موجب عمل مهووس، خلال قرابة ثلاثين سنة، لأكبر عباقرة الفن.

في لوحات القرن الكبير، بدت ثياب القديسات، والملكات، والدوقات كأنها تطير، كأنما حرّكتها شاعرية المحافظ.

- عندما تقول ثروة، ماذا تقصد بالضبط؟

تقدم غيوتان في القاعة، كأنه لم يسمع، وفتح النافذة. لم يتحرك بينا فيدس.

- طيب، هل تأتي؟

فهم سيلفيو أن عليه أن يتبع المحافظ إلى الصالون.

- سأعطيك فكرة عمّا تساويه لوحة «نيلوفر»، إذا احتكمنا إلى آخر بيع بالمزاد، في لندن أو نيويورك. خذّ مثلاً، هل ترى عمارات هوسمان، مباشرة قبالتنا، على طول شارع جان دارك؟ طيب، فلنقل إن لوحة «نيلوفر» لمونيه، ذات أبعاد عادية، متر مربع، ستمثل، فلنقل، حوالي مئة عمارة... بمعدل أربعة طوابق مقابل كل باب دخول، هذا يمثل جزءاً مهماً من الشارع بالفعل...

- مئة عمارة؟ أنت تمزح؟

- لا. أعتقد أنه كان علي أن أقول الضعف، دون أن أكون أبالغ. هل ترى شارع جان دارك؟ السيارات التي تنتظر عند الضوء؟ أستطيع أن أقدرها بهذا الشكل. يمكن أن تساوي لوحة، فلنقل بحسب آخر عمليات البيع، بين ألف وألفي سيارة. أقصد جديدة. أو لا أعرف، تقريباً كل محتوى متاجر شوارع غروس أورلوج، وجان دارك، والجمهورية مجتمعة. شيء لا يقدر، في الحقيقة، هذا ما أود أن أفهمك إياه. هل تدرك ذلك؟ لوحة «نيلوفر»!

- أنت تسخر مني...

- آخر لوحة لمونيه وضعت في المزاد في مؤسسة كيستيس، في لندن، تمَّ بيعها بخمس وعشرين مليون ليرة... وكانت من أعمال فترة الشباب! خمس وعشرون مليون ليرة. هيا، صرّفها في الشقق أو السيارات.

لم يتسنَّ لسيلفيو الوقت كي يستوعب، كان المحافظ قد صعد بالفعل إلى طابق آخر ووصل إلى قاعات الانطباعية.

بيسارو، وسيسلي، ورينوار، وكايبوت... ومونيه، بطبيعة الحال.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

شارع سان دينيس تحت مطر من الرايات ثلاثية اللون، كاتدرائية روان في يوم كئيب. تمتم بينافيدس:

- هل توجد لوحات «نيلوفر» في السوق؟

- كيف هذا، «في السوق»؟

- طيب، في الطبيعة، حدد المفتش بصوت خجول.

- «في الطبيعة»؟ ماذا تعني «في الطبيعة»؟ ألا تستطيعون أن تكونوا أكثر تحديداً في الشرطة؟ تتساءلون عمَّ إن كانت لوحة لمونيه تروج في مكان ما، هذا هو؟ منسية؟ في مخزن أو في قبو. تقولون إن بإمكان المرء أن يقتل، من دون أدنى شك، من أجل اكتشاف مشابه، من أجل ثروة مشابهة. إذاً، حضرة المفتش، استمع جيداً إلى ما سأقوله لك...

- 39 -

أزّت درجات سلالم غرفة التوابل في بيت كلود مونيه تحت وقع خطوات المفتش لورنس سيريناك.

حاول أن يطرد من ذهنه الأفكار الضالة، الصوت الداخلي لملاك حارس يتمتم لغريزة الشرطي أنه يصعد درجات فخ كريه، أن هذا الدرج يقود إلى غرف مونيه، وأن ليس هناك ما يفعله، متبعاً هذه الفتاة، وأنه لا يتحكم بأي شيء. ليس صعباً، في الحقيقة، أن يسكت في داخله ذلك الملاك العاقل. يكفيه أن يفكر من جديد في اللحظة السابقة، في ضحكة ستيفاني التي تطير، في ساقيها المنحصرتين في ثوب غيشا، واللتان تقفزان نحو الطابق كأنهما حيوانان يلعبان، تلك الدعوة إلى الطيش.

عندما وصل لورنس إلى الطابق، كانت ستيفاني واقفة في إطار الباب، في الرواق، بين الغرفة والحمام. مستقيمة كأنها دليل متكلِّف. محصورة في فستانها الأحمر، هشة وأكثر قيمة من إناء خزفي.

- الجناح الخاص بالزوجين مونيه. كلاسيكي، أنا موافقة. أكثر حميمية. لورنس، أنت لا تبدو مرتاحاً؟

دخلت أول غرفة وجلست على السرير. التهمها اللحاف المحشو بالريش من الفخذين إلى الخصر.

- لقد حان وقت الاستجواب؟ أنا تحت رحمتك، حضرة المفتش.

احتضن لورنس سيريناك ألوان الغرفة بنظرة قلقة، النسيج الكريمي الممتد على الجدار، الأصفر القديم لزينة السرير، الأسود الرخامي للموقد، ذهب الشمعدان، ماهوجيني السرير.

- هيا، حضرة المفتش، استرخِ قليلاً. كنت، كما يبدو، أكثر ثرثرة مع زوجي أمس...

لم يعلق لورنس بشيء. بقي صامتاً لحظة. اقترب سيريناك من السرير. تحولت عينا سيريناك الشبيهتان بفوانيس مبتهجة إلى منارة حزينة. وقفت في موجة من الريش.

- سأبدأ إذاً. حضرة المفتش، هل تعرف قصة لويز، لاقطة الهندباء في جيفرني؟

نظر إليها سيريناك، مندهشاً، ومترقباً.

- لا، بطبيعة الحال، أكملت ستيفاني. مع أنها قصة جميلة. لويز هي سندريلا بالنسبة إلينا في جيفرني. كانت لويز فتاة جميلة، ابنة أحد الفلاحين، بحسب ما يُحكى. أجمل فتاة في القرية. شابة. طرية. بريئة. نحو عام 1900، كانت تعمل موديلاً لدى الفنانين، خاصة رادينسكي، فنان تشيكي واعد جاء لموافاة مونيه والفنانين

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

الأميركيين. الوسيم رادينسكي كان أيضاً عازف بيانو شهير... كان يركب سيارة جميلة بالنسبة إلى تلك الفترة، ماركة 222 زد. أُغرِم بلاقطة الهندباء الصغيرة، تزوجها، وأخذها معه... رادينسكي حالياً هو أشهر رسام تشيكي في بلده... لويز الفلاحة أصبحت أميرة بوهيميا. كلود مونيه نفسه هو الذي اشترى سيارتهما 222 زد بعد أن أصبحت بلا جدوى من أجل ابنه، ميشيل، الذي صدمها بشجرة في شارع تيير، في فيرنون، بعد بضعة أشهر. عدا النهاية التعيسة للسيارة، تعتبر حكاية جميلة، لا؟

قاوم لورنس سيريناك الرغبة في أن يتقدم، أن يدع الريش يلتهمه. أحس بصدغيه يلسعانه.

- ستيفاني، لماذا تقصّين علي هذه الحكاية؟

- خمِّن...

انتصبت ببطء في الريش، كأنها تسبح في حمام من الريش.

- سأخبرك سراً، حضرة المفتش، سراً غريباً. مرت فترة طويلة منذ لم أتواجد في غرفة وحدي مع رجل آخر غير زوجي. مرت فترة طويلة منذ لم أضحك في درج وأنا أسبق رجلاً. مرت فترة طويلة منذ لم أتحدث عن المناظر، والرسم، وقصائد أراغون، مع رجل فوق الحادية عشر يكون باستطاعته الاستماع إلي.

فكر سيريناك في مورفال. حرص على ألا يقاطع ستيفاني.

- ببساطة، حضرة المفتش، مرت فترة طويلة وأنا أنتظر هذه اللحظة، طوال حياتي، يمكن أن أقول.

صمت.

- أن يأتي أحد ما.

يجب أن يركز على أي شيء. فكّر سيريناك بكل سرعة. الشمع

الذائب، صباغة الجدار المتساقطة، أي شيء عدا عيني ستيفاني.

أضافت:

- ليس فناناً تشيكياً بالضرورة... فقط أحد ما...

حتى صوتها تلوَّن بالبنفسجي.

- لو أخبروني أنه سيكون شرطياً...

نهضت ستيفاني دفعة واحدة، أمسكت وهي تمر إحدى ذراعي لورنس سيريناك المتدليتان.

- هيا. يجب أن أراقب التلاميذ قليلاً.

جرّته نحو النافذة. أشارت المدرّسة بيدها نحو حوالي عشرة من الأطفال الذين كانوا يجرون في الحديقة.

- انظر إلى هذا المنتزه، حضرة المفتش، الورود، والدفيئات الزراعية، والحوض. سأخبرك سراً آخر. جيفرني فخ! ديكور رائع، هذا أكيد. من يحلم بأن يعيش في مكان آخر؟ قرية جميلة. لكني سأعترف: الديكور متجمِّد. متحجِّر. يحظر تزيين البيت بطريقة مختلفة، تلوين جدار، قطف زهرة. عشرة قوانين تمنع ذلك. نحن نعيش في لوحة هنا. نحن محاطون بأسوار! يعتقد الناس أننا في مركز العالم، أننا نستحق أن يأتوا إلينا، كما يقال. لكنه المنظر، والديكور الذي ينتهي به الأمر أن يقطر فوقك. نوع من الورنيش يلصقك بالديكور. ورنيش يومي من الخنوع. من الاستسلام... لويز، الباحثة عن الهندباء في جيفرني، أصبحت أميرة بوهيميا، هي أسطورة، لورنس. هي لا تحدث. لم تعد تحدث...

صاحت فجأة في ثلاثة أطفال كانوا يعبرون حوضاً من الزهور:

- قوموا بالدورة!

حاول لورنس سيريناك وهو يحس بالحمى البحث عن إلهاء

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

كي يوقف حزن ستيفاني، كي يقاوم رغبته في أن يضمها بين ذراعيه، هناك، في تلك اللحظة، في ذلك المكان. ركّز نظرته على وفرة الزهور في الحديقة. على تناسق الألوان. أسره سحر المنتزه المدهش. قال فجأة:

- هل صحيح ما يقوله أراغون في كتابه؟ من أن مونيه لم يكن يتحمل رؤية زهرة ذابلة وأن البستانيين كانوا يغيّرونها خلال الليل، لون جديد لكل صباح، كأن الحديقة قد رسمت من جديد؟

بدت العملية كأنها نجحت. ابتسمت ستيفاني.

- لا، لا، هذا مبالغ فيه من طرف أراغون. إذاً، أنت قرأت أوريليان؟

- طبعاً... قرأت وفهمت، على ما أظن. الرواية العظيمة عن استحالة اتحاد زوجين عاشقين! لا توجد قصة حب سعيدة.. هذا هو؟ إنها الرسالة؟

- كان أراغون يفكر على ذلك النحو عندما كتبه... كان يعتقد ذلك، بلا شك، في ذلك الوقت أنه لا يوجد حب سعيد. ومع ذلك، سيعيش بعد ذلك أجمل قصة حب وأطولها، القصة الخالدة التي يمكن أن يعيشها شاعر أبداً... تعرف ذلك. مجنون إلسا!

استدار سيريناك. بقيت شفتا ستيفاني الشاحبتان مفتوحتان. قاوم الرغبة في تمرير أصابعه على ذلك الفم المرتعش، ومداعبة ذلك الوجه المصقول.

- أنت فتاة غريبة، ستيفاني...

- وأنت، حضرة المفتش، تملك موهبة سلب الأسرار. سأعترف لك، في موضوع الاستجواب، أنت أكثر دقة مما أخبرني به زوجي. لا، حضرة المفتش، سأخذلك. لست غريبة، على العكس، أنا تافهة

بشكل محزن...

المدرّسة تنتظر، تترد، ثم تحدثت دفعة واحدة، كأنها تقفز من النافذة:

- تافهة، أقول لك. أرغب في تربية طفل، طفلي، لكني أظن أن زوجي لا يستطيع أن يمنحني ذلك. هل لهذا السبب أنا لم أعد أحبه؟ لا أظن ذلك. أعتقد، لأبعد ما أستطيع أن أتذكر، أني لم أحبه أبداً. كان موجوداً. ليس أسوأ من أحد غيره. مُتاح. مُحب. لم أعثر على أحد سيئ. كما ترى، حضرة المفتش، أنا امرأة تافهة. سقطت في فخ. مثل أخريات كثيرات. واقع أني جميلة، أن أكون ولدت في جيفرني، وأن أكون أعشق أطفال فصلي لا يغير شيئاً في الأمر...

حطّت كفّ لورنس على كفّ ستيفاني. شبكا أصابعهما العشرة على الدرابزين الحديدي الأخضر.

- لماذا تسرّين لي بهذه الأشياء؟ لماذا أنا؟

تفحّصته ستيفاني وهي تضحك.

أليست واعية بأن عينيها على الأقل، عينيها فريدتين؟

- لا تتوهم شيئاً. لا تترك الأفكار تتنابك... إن كنت قد أخبرتك كل هذه الأشياء، فليس من أجل ابتسامتك، أو قميصك المفتوح أكثر مما يجب، أو عينيك البنيتين اللتين تكشفان كل ما يعتمل في داخلك. لا تتصور أني أجدك ساحراً، حضرة المفتش... هو فقط...

انفلتت الكفّ نحو الأفق. تركت ستيفاني التشويق يحوم.

- تماماً مثلما لويز، لاقطة الهندباء، وقعت في حب السيارة 222 زد، أنا فقط وقعت في حب دراجتك التايجر تريومف!

ضحكت.

- وربما أيضاً لطريقتك في التوقف لمداعبة نبتون...

اقتربت أكثر.

- شيء أخير، حضرة المفتش. شيء مهم! سر. كوني لم أعد أحب زوجي فهذا لا يجعل منه قاتلاً. على العكس...

لم يجب سيريناك بشيء. لاحظ في تلك اللحظة فقط أنه لخمسين متراً أمامهما، أخذ ركاب السيارات التي تجول على طريق روي يديرون رؤوسهم بشكل منهجي نحو منزل مونيه، يلمحونهما، مثل عاشقين في الشرفة.

هل جنّا؟

هل جُنّ؟

- أظن أن الوقت قد حان كي أهتم بالأطفال، قالت ستيفاني.

بقي سيريناك لوحده، سمع خطوات المدرّسة تبتعد. قلبه يضرب بجنون كأنه يريد أن يخرج عبر القميص المفتوح، تكاد أفكاره تفجر رأسه.

من هي ستيفاني؟

امرأة لعوب؟ فتاة ضائعة؟

- 40 -

في قاعة الانطباعيين في متحف الفنون الجميلة في روان، فتح المفتش سيلفيو بينافيدس عيني بومة. تحرك أخيل غيوتان مرة أخرى. أخرج المحافظ منديلاً وأخذ يمسح بقعة غير مرئية من الغبار على جانب إحدى لوحات سيسلي. **الطوفان في بورت مارلي**، كما تخبِّر الورقة تحت اللوحة. في اللحظة نفسها التي تساءل فيها سيلفيو عمّا

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

إن كان المحافظ قد نسي سؤاله، استدار هذا الأخير. مسح بزاوية منديله على جبينه ثم أعلن بصوت واعظ:

- لوحات لمونيه كانت مختفية أو مجهولة، لكن قد تظهر، هذا ما تسألني عنه، حضرة المفتش؟ إن كنت متمسكاً بذلك، هيا، يمكن أن ألعب معك لعبة الافتراضات...

مسح المنديل صدغيه.

- نعرف أن مراسم كلود مونيه، في جيفرني، كانت تحتوي على عشرات اللوحات، بما فيها الرسوم الإعدادية، لوحات فترة الشباب، لوحات «نيلوفر» كبيرة غير منجزة... ناهيك عن هبات الأصدقاء، سيزان، رينوار، بيسارو، بودان، مانيه، أكثر من ثلاثين لوحة... هل تدرك ذلك؟ كل تلك الثروة، تلك الثروة الضخمة، أكثر قيمة من مجموعة أي متحف في العالم، يحرسها عجوز في عمر الثمانين وبستانيه، فقط يحميهما باب بالكاد ينغلق، نوافذ فقط مردودة، جدران مشققة. أي أحد كان بإمكانه أن يأخذ. أي أحد من سكان جيفرني أكثر مكراً كان بوسعه أن يربح في عملية سرقة بسيطة أكثر مما قد يفعل في عشرين عملية سطو على البنوك...

مسح المنديل مرة أخيرة وجهه وانتهى مكوَّراً في يده.

- ثروة بهذا القدر في متناول اليد، لا أرى مثالاً آخر بمثل هذا الإغراء...

بدأ سيلفيو يفهم. يراقب حوله عشرات اللوحات المعلقة على الجدران. متحف روان، الذي نقدمه كأفضل مجموعة انطباعية إقليمية، لا يملك ربع اللوحات التي تحتويها مراسم مونيه. ألحّ:

- هل يمكن أن تكون لوحات مونيه في مشغله، في جيفرني؟

تردد أخيل غيوتان قبل أن يجيب:

- طيب، توفي كلود مونيه سنة 1926. لا بدَّ أن ميشيل مونيه، ابنه ووريثه، قد اهتم منذ وقت طويل بالبحث عن لوحات والده التي لم يمنحها لمتاحف ووضعها في الحفظ. إذاً، للإجابة عن سؤالك، فلنقل إنه من غير المرجح أن نكتشف اليوم لوحات أصلية في البيت الوردي في جيفرني. لكن بعد كل شيء، نحن لا ندري أبداً...

- دون التحدث عن السرقة، واصل المفتش بمزيد من الثقة، هل يمكن أن يكون مونيه قد وزع لوحات، منحها؟

- حافظت الصحافة المحلية على أثر منحة ليانصيب من أجل تمويل مستشفى فيرنون.

لا بدَّ أن أحداً ما قد ربحها، تلك اللوحة، مقابل اشتراك بخمسين سنتاً في تلك الفترة... بالنسبة إلى الباقي، يجب أن نكتفي دوماً بالافتراضات. نحن نعرف أن سكان جيفرني لم يجعلوا الحياة سهلة بالنسبة إلى كلود مونيه. كان عليه أن يتفاوض من أجل أقل أوقية من شغفه، من أجل شراء ممتلكاته، من أجل الحفاظ على المناظر كما كان يرسمها، وخاصة كي يحوِّل الماء من الجدول نحو حوض النيلوفر. لقد دفع مونيه، دفع الكثير للقرية. دفع أيضاً كي لا يقام مصنع نشاء أمام حديقة منزله. دفع كي يجمِّد زاويته بمنأى عن أي تقدم. هنا أيضاً، كان من الممكن أن يفاوض رجل ماكر، أو عضو مجلس بلدي، أو مزارع ذكي، من أجل أي لوحة للرسام بدل صدقة بخمسمئة فرنك. أنا أدرك أن الخبراء لا يعتقدون في هذا النوع من الترتيب بين الفنانين والسكان الأصليين، لكن هل يمكننا فعلاً أن نستبعد أنه من بين كل سكان جيفرني لم يكن هناك واحد قادر على أن يهتم بالرسم، على الأقل من أجل قيمته التجارية؟ كان مونيه سيدفع بطبيعة الحال. لم يكن له خيار... انظر مثلاً إلى

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الطاحونة الغريبة، بالقرب من حدائق مونيه، لي شونويير، أفكر فيها كلما ذهبت إلى جيفرني بسبب لوحة تيودور روبنسون، **الأب ترونيون** الشهير؛ طيب، فلاحو الطاحونة كانت لديهم كل الوسائل لابتزاز مونيه. الجدول يمر من عندهم. لا اتفاق معهم، لا نيلوفر!

لم يتمكن سيلفيو بينافيدس من كتابة كل شيء، حاول أن يخزن تدفق المعلومات.

- هل أنت جاد؟

- هل أبدو كأني أهرِّج؟ سأقول لك، يوجد صيادو كنوز يجوبون العالم من أجل حفنة من القطع الذهبية. لو كانوا شيئاً ما أشد ذكاء، كانوا ليزوروا مخازن بيوت جيفرني والقرى المجاورة. أعرف جيداً ما يحكى. كان كلود مونيه يدمِّر اللوحات التي لم يكن راضٍ عنها أو أعمال فترة الشباب. كان يخشى كثيراً أن ينقضّ بائعو التحف بعد موته على اللوحات غير المنتهية أو على الرسوم حتى أنه أحرق في مشغله كل الأعمال التي لم يكن يحبها سنة 1921. لكن، رغم كل احتياطات الرسام، سيكون من الغريب ألا تبقى إحدى لوحاته في مكان ما. فقط لوحة قديمة منسية. ما يمكن أن يتيح شراء جزيرة في المحيط!

انتقل المحافظ إلى آخر الغرفة ونظر شزراً إلى حارسة بدت مهتمة بلون طلاء أظافر أصابعها الأحمر أكثر من اهتمامها بثوب الكاردينال الذي يستجوب جان دارك في لوحة دولاروش.

- شيء آخر، أضاف المفتش. تحدثت عن الفنان تيودور روبنسون، الرسام الانطباعي، صديق كلود مونيه. ما رأيك في المؤسسة التي أنشأها ورثته؟

ضاقت عينا غيوتان دهشة.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- لماذا هذا السؤال؟

- اسم هذه المؤسسة يتكرر كثيراً خلال التحقيق الذي نقوم به. بشكل غريب، عدد لا بأس به من الناس في قضيتنا يبدون على اتصال بها، على الأقل بشكل غير مباشر.

- وماذا تريد أن تعرف؟

- لا فكرة لدي. فقط رأيك فيها.

تردد المحافظ، كأنه ينتقي كلماته:

- كيف أقول لك، حضرة المفتش... المؤسسة، شيء معقد. هذا النوع من الجمعيات هو رسمياً من أكثر ما يوجد نكراناً للذات. سأحاول أن أجد لك صورة. خذْ مثلاً، تصور جمعية تهتم بالفقراء. طيب، المفارقة هي أنه إذا نقص عدد الفقراء، فسينتفي سبب وجود الجمعية. بتعبير آخر، كلما اشتغلت أكثر كلما ضيعت نفسها. الشيء نفسه بالنسبة إلى مؤسسة تناضل ضدّ الحرب. السلم، بالنسبة إليها، يعني الموت.

- مثل طبيب يعالج مرضاه بجد حتى أنه يجد نفسه عاطلاً؟

- بالضبط، حضرة المفتش.

- أفهم، لكن أين تكمن العلاقة مع مؤسسة روبنسون؟

- لديهم شعار، على ما أظن. يرمز إلى ثلاثة أهداف. التنقيب، والحماية، والترويج. شيء رائع. بالواضح، هذا يعني أنهم يبحثون عن لوحات في العالم أجمع، يشترونها، ثم يعيدون بيعها، لكن هم أيضاً يستثمرون في فنانين شباب، يافعين حتى؛ يستثمرون فيهم، يشترونهم، ويبيعونهم...

- وإذاً؟

- موهبة تطرد أخرى، حضرة المفتش. اللوحة ليست قرصاً أو

كتاباً، ثروة فنان رسام لا تحسب بأكبر عدد مبيعات، بل العكس تماماً، وعلى هذا يقوم النظام برمته. اللوحة تساوي كثيراً لأن الأخريات تساوي أقل، أو لا شيء. إذا كان اللعب مستقلاً، إذا كان هناك منافسة بين النقاد، والمدارس، والمعارض، في النهاية كل شيء سيكون على أحسن ما يرام. لكن إذا وجدت مؤسسة محتكرة، أو تقريباً، أنت تفهم؟

- ليس تماماً...

لم يخفِ غيوتان حركة انزعاج.

- طيب، في هذه الحالة من الاحتكار، كلما اكتشفت هذه المؤسسة مواهب جديدة، بأسلوب آخر، كلما جددت الفن وأعلت من «التنقيب» كلما أفسدت القيمة التجارية للوحاتها الأخرى، «الحماية»... هل تفهم؟

- كي أكون صادقاً، شيئاً ما...

حكّ بينافيدس رأسه.

- سأطرح عليك سؤالاً واقعياً، إذا كانت إحدى لوحات مونيه قد فقدت في الطبيعة، هل سيكون لمؤسسة روبنسون الوسائل الكفيلة باسترجاعها؟

الجواب واضح:

- من دون أدنى شك. أكثر من أي أحد آخر! ومن دون شك بأي وسيلة كانت.

- طيب، واصل بينافيدس، الذي تبنّى في الأخير هيأة متخاذلة بدا أن المحافظ يقدرها، عندي سؤال أخير. ربما يفاجئك... هل توجد لوحات مجهولة لمونيه؟ لا أعرف، لوحات نادرة، أو لوحات فضائحية، مهما يكن مما قد يوصل إلى قضية دم؟

أظهر أخيل غيوتان ابتسامة سادية، كأنه كان يتوقع هذا السؤال

الأخير. خاتمة المحادثة.

- هيا، همس بلهجة متآمرة.

اصطحبه قرب الجدار المقابل، ناحية لوحة حيث أربعة رجال عارون، من الواضح أنهم عبيد رومان، يحاولون ترويض حصان جامح.

- تأمل هذه الأجساد التي رسمها جريكالت، أجل تيودور جريكالت الشهير. أكبر فنان ولد في روان! تأمل الأجساد. الحركة. الرسامون يربطون علاقة غريبة بالموت، حضرة المفتش. نحن نعرف أنه كي يشكل بواقعية لوحته **الطوَّافة ميدوسا** كان تيودور جريكالت يجمع الأذرع والأقدام المبتورة من المستشفيات، والرؤوس المقطوعة. كان مرسمه يعبق برائحة الجثث! في نهاية حياته، كي يعالج جنونه، رسم في المصح عشرة بورتريهات لحمقى، العشرة المهووسون الذين يمثلون عذابات النفس البشرية...

خشي سيلفيو أن يضيع المحافظ في استطراد جديد.

- لكن مونيه لم يكن أحمقاً... لم يكن يرسم جثثاً!

بدأ الوجه الآخر لأخيل غيوتان ينكشف. وقف شعره القليل على رأسه الأصلع مثل قرون شيطانية ضامرة.

الهوس الحادي عشر؟

- تعال لتنظر، حضرة المفتش.

صعد غيوتان الدرج بسرعة، الطابقين، أسرع إلى دكان المتحف، أمسك كتاباً ومزَّق البلاستيك الشفاف بأسنانه.

قلّب الصفحات، كأنه ملبوس.

- لم يرسم مونيه الموت! لم يكن مونيه يرسم الجثث، الطبيعة فقط! آه، آه... انظر، حضرة المفتش. انظر!

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لم يستطع بينافيدس أن يوقف حركة تراجع.

شبح يملأ الصفحة.

اللوحة تمثل بورتريه امرأة. عينين مغلقتين. كأنها مغلَّفة بكفن من الجليد، زوبعة من ضربات الفرشاة الجامدة، كأنها سجينة شبكة عنكبوت تلتهم الوجه الشاحب لفتاة الرسم.

الموت...

- أقدِّم لك كاميل مونيه، شرح صوت غيوتان البارد. زوجته الأولى. الموديل الجميل. المرأة صاحبة المظلة في الخشخاش، الريف المشرق لأيام الآحاد في الريف. ماتت في الثانية والثلاثين! رسم مونيه تلك اللوحة اللعينة أمام سرير موت زوجته؛ سيلوم نفسه طوال حياته لأنه لم يستطع مقاومة الرغبة في أن يثبت على اللوحة ألوان الحياة التي تطير، أن يكون قد عامل حبيبته عند الموت كشيء للدراسة. مثل جريكالت وشغفه بالأجساد الممزقة. كأن الرسام امتلك العاشق اليائس. مونيه، أمام جسد زوجته الطري، حكى أنه كان ضحية رسم آلي، كأنه مُنوّم. ما رأيك، حضرة المفتش؟

لم يسبق أبداً أن شعر سيلفيو بينافيدس بتأثر مشابه أمام لوحة.

- هل... هل توجد أعمال أخرى من هذا النوع؟ لوحات لمونيه، أود أن أقول... تزايد احمرار وجه أخيل غيوتان المستدير، كأن مارداً نائماً قد استيقظ في داخله.

- أي شيء أكثر روعة من أن يرسم المرء موت زوجته، حضرة المفتش؟ هل فكرت في ذلك؟ لا شيء بطبيعة الحال...

صعد اللون الأحمر إلى صدغيه.

- لا شيء إن لم يكن للمرء أن يرسم وفاته! في آخر شهور حياته، كان مونيه يرسم لوحات «نيلوفر» غير منجزة، مماثلة

لمعزوفة قداس الموت لموزارت، لو فهمت ما أود قوله... ضربات فرشاة مذعورة، سباق ضدّ الموت، ضدّ التعب، ضدّ العمى. لوحات مغلقة، متألمة، معذبة، كأن مونيه قد غاص داخل عقله. تمَّ اكتشاف زهور نيلوفر مرمية بعجالة على اللوحة بجميع الألوان، أحمر ناري، أزرق أحادي اللون، أخضر... أحلام وكوابيس ممتزجة. لون واحد غائب...

أراد سيلفيو أن يتمتم جواباً. لم يخرج شيء. أحس أن التحقيق ينزلق، يفلت منه.

- اللون الذي نبذه مونيه إلى الأبد من لوحاته. ذلك الذي كان يرفض أن يستعمله. غياب الألوان، لكن أيضاً اتحادها كلها.

صمت. صرف سيلفيو النظر عن الإجابة، خربش بعصبية على صفحة من كراسه.

- الأسود، حضرة المفتش. الأسود! يقال إنه في الأيام الأخيرة التي سبقت موته، في بداية ديسمبر 1926، عندما فهم كلود مونيه أنه سيذهب، رسمها.

- ماذا... ماذا؟ تمتم بينافيدس.

دخل غيوتان في مناجاة، لم يعد يستمع:

- تفهم جيداً ما أود قوله، حضرة المفتش؟ راقب مونيه موته في انعكاس النيلوفر وقام بتخليدها على اللوحة. «نيلوفر». بالأسود!

قلم سيلفيو يتدلى من يده على طول ساقه. غير قادر الآن على تسجيل أقل ملاحظة.

- ما قولك، حضرة المفتش؟ سأله المحافظ الذي خفتت إثارته.

«نيلوفر»، بالأسود. مثل زهرة الدهلية...

- إنها... إنها حقيقة، حكاية «نيلوفر أسود»؟

- لا. طبعاً لا. طبعاً، لم يجد أحد أبداً تلك اللوحة، تلك «النيلوفر بالأسود»... إنها أسطورة، ببساطة أسطورة...

لم يعرف سيلفيو ما يقوله. طرح أول سؤال خطر على باله:

- والأطفال... هل رسم مونيه أطفالاً؟

- 41 -

نظرت إلى ستيفاني في نافذة بيت مونيه الوردي. هي تشبه ربة بيت استعماري تراقب مجموعة من الخدم.

نزل لورنس سيريناك.

الأحمقان! أنتم متفقون معي، هذه المرة تفكرون بالطريقة نفسها التي أفكر بها. المغفلان! أن يظهرا على ذلك النحو! على شرفة بيت كلود مونيه، أمام الحديقة، قبالة طريق روي، على مرأى من الجميع. هما المسؤولان، بعد كل شيء!

استمعتُ إلى صوت التايجر تريومف تنطلق. سمعته ستيفاني أيضاً، لكنها لا تمتلك الشجاعة لتدير رأسها. بقيت تفكر وهي تراقب الأطفال الذين يلعبون في الحديقة. صحيح أنها ساحرة، المدرّسة الصغيرة. صحيح أنها تعرف كيف تتصرف، بفستانها الشبيه بلباس الغيشا الذي يضم جسدها الرشيق ونظرتها المبللة. يمكن أن تثقوا بي، هي تملك كل الإمكانات لتسلب لبَّ كل رجل يقترب منها، شرطياً كان أو طبيباً، متزوجاً أم لا. جميلة مثل قلب!

استمتعي بذلك، جميلتي. فهو لن يدوم طويلاً.

يجري أطفال وسط الزهور. تؤنّبهم المدرّسة بصوت عذب.

ذهنها مشغول.

لم تعودي تعرفين شيئاً، جميلتي؟

إنها اللحظة التي يمكن أن تنقلب فيها حياتك، فهمت ذلك، بفضل منقذ غير متوقع. شرطي. وسيم. مسلٍّ. مثقف. مستعد لكل شيء، بما في ذلك تحريرك من قيودك. من زوجك.

إنها اللحظة المناسبة. ما الذي يحبسك إذاً؟

لا شيء؟

آه، لو كان الأمر بيدك... لو لم يكن الموت يحوم حولك؛ كأنك تجذبينه، عزيزتي. كما لو أنك في النهاية، لا تجنين سوى ما تستحقينه

ضحكات أطفال تخترق أفكاري السوداوية. فتيان يجرون خلف فتيات.

كلاسيكي.

استمتعوا بذلك أنتم أيضاً أيها الصغار. استمتعوا. دوسوا الساحات المعشوشبة والزهور. اقتلعوا الورود. ارموا أحجاراً وأعواداً في البركة. احدثوا ثقوباً في النيلوفر. دنِّسوا معبد الرومانسية. لا تتغذوا بآمال كاذبة. هذه ليست سوى حديقة، في النهاية. ليس لأن مؤمنين حمقى يأتون من طرف العالم كي يصلّوا فيه، فهو شيء آخر غير ماء راكد!

أعرف ذلك، أنا شريرة. اعذروني... هذان الاثنان أثارا أعصابي هذا الصباح، ستيفاني دوبان والشرطي، المغفلان! يجب أن تفهموني أنا أيضاً. أرغب بشدة في لعب دور شاهد أخرس، فأرة صغيرة

سوداء غير مرئية، لكن البقاء لا مبالية ليس بالبساطة نفسها. لم تعودوا تفهموني؟ تتساءلون عن الدور الذي ألعبه في هذه الحكاية؟ أطمئنكم، لا أتوفر على لاقطات متكورة كي ألتقط عبر جدران بيت مونيه حديث المغفلين، كل تفاصيل توددهما. آه لا. الأمر بسيط. بسيط جداً.

استدرت نحو الجانب الأيمن من طريق روي، نحو الحديقة المائية. على طول الطريق، تمَّ إبعاد بعض ألواح السياج، بلا شك من طرف سياح غير مؤدبين مستعجلين لالتقاط صور للنيلوفر ومذعورين من الانتظار أمام الشباك. الفضاء المفرغ يمنح رؤية غير مسبوقة على البركة. أراقب فانيت، بعيدة شيئاً ما عن باقي أطفال الفصل، بين أشجار الصفصاف والحور. وضعت حاملة القماشة على الجسر الياباني، بين الوستارية. هي ترسم، هادئة، مركزة، رغم الضوضاء حولها.

قطعتُ طريق روي، اقتربت، كي أستطيع الرؤية أفضل، لمست السياج تقريباً.

لم يكن علي أن أفعل. رصدني شخص حقير.

- سيدتي، سيدتي، هل يمكن أن تلتقطي لي صورة مع رفاقي؟

وضع في يدي آلة تصوير حديثة. لا أفهم شيئاً، يشرح لي، لا أستمع إلى شيء. وأنا ألتقط صورته، حاولت أن أنظر جانبياً إلى بركة النيلوفر وفانيت التي كانت ترسم.

- فانيت تعالي.

ألحّ فينسنت:

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- هيا، فانيت. تعالي لنلعب!
- لا! أنت ترى جيداً أني أرسم!

حاولت فانيت أن تثبت تركيزها على نيلوفر. زهرة وحيدة تطفو بعيداً عن القطيع، الورقة تقريباً على شكل قلب، مع زهرة وردية صغيرة تفتّحت للتو. انزلقت الفرشاة على اللوحة. جاهدت فانيت كي تركز.

هناك من يبكي وراء ظهري. كأن الصفصاف الباكي[1] وجد من هو أكثر منه بكاء: ماري! فلتصمت، بصوتها الحاد، فلتصمت!

- لقد غششت، هذا يكفي، يكفي. سأذهب!

ليس فقط بكاء ماري في ظهري، هناك أيضاً فينسنت الذي يظل هناك، دون أن يفعل شيئاً، يسترق النظر من فوق كتفي.

- اذهب لتلعب مع ماري.
- هي ليست مسلية، إنها تبكي طوال الوقت...
- لأني أنا مسلية، وأنا أرسم طوال الوقت؟

لم يتحرك. فينسنت لم يتحرك. هو قادر على أن يبقى ساعات. كان سيكون رساماً رائعاً، لو حدث. التأمُّل هو تخصصه. لكنني أظن أنه لا يتوفر على أي خيال.

استمر الأطفال يجرون حول فانيت، يصرخون، ويضحكون، ويلعبون. أجبرت الفتاة نفسها على البقاء في فقاعتها. أنانية، كما قال جيمس.

ظهر كاميل، توقف على الجسر الياباني. يلهث.

---

(1) الصفصاف الباكي هي ترجمة حرفية عن الفرنسية. بالعربية صفصاف متدلي الأغصان وتضاف لفظة باكِ (Pleureur) إلى أسماء الأشجار التي تتدلى أغصانها إلى أسفل.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

هذا لا يتوقف أبداً! لم يكن ينقصني سوى هذا!

أدخل كرشه الكبير تحت قميصه.

- أنا متعب، سأستريح.

نظر إلى فانيت مستغرقة في الرسم.

- حسناً، فينسنت، فانيت، لدي لغز يخص النيلوفر. هل تعرفان، يبدو أن النيلوفر تتضاعف مساحته كل يوم. إذاً، أنتما تستمعان؟ إذا قلنا مثلاً إن النيلوفر يستغرق مئة يوم كي يغطي كل البركة، كم يوماً سيستغرق النيلوفر ليغطي نصف البركة؟

- حسناً، خمسون، أجاب فينسنت في الحال. لغزك غبي...

- وأنت، فانيت، ماذا تقولين؟

لا أهتم، كاميل، لو تعلم كم أني لا أهتم.

- لا أعرف شيئاً. خمسون. مثلما قال فينسنت...

انتصر كاميل.

لو أصبح في يوم ما مدرّساً، أنا متأكدة من أنه سيكون أمل واحد في العالم.

- كنت متأكداً من أنكما ستسقطان في الفخ! الجواب ليس خمسين، بطبيعة الحال، فهو تسعة وتسعون...

- لماذا؟ تساءل فينسنت.

- لا تسأل، قال كاميل بصوت محتقر. فانيت، فهمت، أنت؟

تباً!

- أنا أرسم...

قفز كاميل برجل واحدة على الجسر الياباني. بقع كبيرة من العرق تغرق قميصه تحت ذراعيه.

- طيب، طيب. فهمت، أنت ترسمين. فقط لغز آخر، واحد،

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

وبعد ذلك سأدعك بسلام. هل تعرفان الاسم اللاتيني للنيلوفر؟

ثقيل! ثقيل! ثقيل!

- لا فكرة؟

لم يجب أحد. لم يزعج ذلك كاميل، على العكس. نزع ورقة وستارية ورماها في البركة.

- طيب، Nymphea. لكنها جاءت من اليونانية، Numphaia. الاسم الفرنسي هو Nénuphar. والاسم الانجليزي للنينوفر، هل تعرفانه، الاسم الانجليزي؟

إنه لا يتوقف أبداً؟

لم ينتظر كاميل جواباً. تظاهر بأنه يتعلق بأقرب غصن في الوستارية، لكن صوت صدع أثناه عن ذلك.

- Waterlily! أعلن لهم.

وبالإضافة، هو سعيد بما يفعله. يعصبني، كم يعصبني، حتى لو اضطررت إلى الاعتراف أن واترليلي اسم جميل، أجمل بكثير من النينوفر... لكني أفضِّل نيلوفر!

مال كاميل نحو لوحة فانيت. شمّت فيه رائحة عرق.

- ماذا تفعلين، فانيت؟ هل تقلدين «نيلوفر» مونيه؟

- لا!

- بلى! أرى ذلك جيداً.

كاميل يقحم دائماً معرفته، لكن مشكلته هي أنه يعرف كل شيء لكنه لا يفهم شيئاً.

- لكن لا، أيها المغفل، لا! ليس لأني أرسم الشيء نفسه مثل مونيه فأنا أقوم بالشيء نفسه...

هزَّ كاميل كتفيه.

- رسم مونيه العديد منها. سترسمين بالضرورة واحداً يشبهها! ولو حتى توندو. هل تعرفين ماهو التوندو؟

سيتلقى فرشاتي في وجهه. لا شيء غير هذا يمكن أن يفهمه كم هو ثقيل. بالإضافة إلى أنه دائماً يسأل ويجيب.

- التوندو، لوحة دائرية، مثل تلك المعروضة...

بووووووووو...

- أيها الأولاد، هل تأتون؟ صاح فجأة صوت ماري التي بدا أنه قد جفّ.

تنهّد كاميل. ضحك فينسنت.

- أظن أني سأدفعها في البركة. هل يمكن أن ترسمي ذلك، هيه، فانيت؟ سيكون مبتكراً!

.Mary in the Waterlilies(1)

ضحك وهو يدفع كاميل بلطف خارج الجسر.

- طيب، سندعك تشتغلين يا فانيت، قال فينسنت. هيا، تعال، كاميل.

أحياناً فينسنت يفهمني. أحياناً لا وأحياناً نعم. مثل هذه المرة...

فانيت وحيدة، أخيراً. دققت باهتمام في انعكاس الصفصاف في البركة المليئة بأوراق النيلوفر. تذكرت ما تعلمته من جيمس هذه الأيام الأخيرة. خطوط الهروب!

إذا استوعبت ذلك جيداً، كل الابتكار في «النيلوفر» لدى كلود مونيه يكمن في كون اللوحات ترتكز على خطين هاربين يتعاكسان. خط هروب أوراق وزهور النيلوفر الذي يوافق خط

(1) بالإنجليزية في النص الأصلي. تعني: ماري في النينوفر.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

سطح الماء. سمّاه جيمس الخط الأفقي. لو أعجبه ذلك... لكن توجد في الماء أيضاً انعكاسات: زهور الوستارية على الضفاف، أغصان الصفصاف، ضوء الشمس، ظلال النجوم. في الأساس، بحسب جيمس، الخطوط العمودية مقلوبة مثل المرآة. هذا هو، كما شرح لي جيمس، سر «النيلوفر». أجل، حسناً، ليس شيئاً كبيراً هذا السر. لا حاجة إلى أن يكون اسم المرء جيمس أو كلود مونيه ليجده... ليس للمرء سوى أن ينظر إلى البركة. ذلك يبدو واضحاً مثل الأنف وسط الوجه، ذلك الخطان اللذان يهربان. حسناً، يهربان كلمة كبيرة. كل هذا، البركة والأوراق اللاصقة فوق، تظل جامدة. هي لا تتحرك، أود أن أقول. لا توجد حركة، لا شيء. وهم حركة، في نهاية المطاف، أريد ذلك بحق.

يا للتفاهة! الآن، وقد أصبحت وحدي، أحس برغبة في موافاة الآخرين، والجري معهم حول البركة. لكن لا! يجب أن أكون أنانية، قال جيمس. أن أفكر في موهبتي، في مباراة روبنسون. سأوافيهم بعد قليل.

انحنت فانيت على علبتها ومزجت الألوان بحذر.

فجأة توقف كل شيء. السواد! لم يعد هناك سوى السواد.

كانت فانيت ستصرخ عندما تعرَّفت إلى بول برائحة العشب المشذب.

- كوكو! أين كنت؟

- لعبنا ست جولات من لعبة الصقر[1] في الحديقة، والآن طيب. لقد استسلمت!

(1) لعبة قديمة كان يلعبها الأطفال، تتطلب وجود خمسة منهم على الأقل. يمثل أحد الأطفال الصقر ويقف وسط ساحة اللعب بينما يحاول باقي الأطفال اجتياز تلك الساحة دون لمسه.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

مال نحو اللوحة.

- واو، فانيت، إن ما ترسمينه رائع!

- أتمنى ذلك. إنه من أجل مباراة مؤسسة روبنسون. أعتقد أني سأكون الوحيدة التي تقدم شيئاً للمدرسة.

- أنت مدهشة... سترىحين! هذا أكيد، سترىحين. طريقتك في الرسم قوية، قوية جداً.

- أنت تقول! حسنا، عندي فكرتي. إنه جيمس الذي أوحى لي بذلك.

- رسامك الأميركي الشهير؟

- أجل، سأجده بعد المدرسة، لا بدَّ أنه ينام في حقل القمح منذ الأمس. سأريه لوحتي. مع نصائحه، ربما كان عندي حظ... صحيح أنه يتعب بسرعة، هو ينام أكثر مما يرسم. لكن طيب...

- هذا غريب. إنها لا تشبه «النيلوفر»، لوحتك...

قبّلت فانيت بول على وجنته.

بول، أنا أحبه!!!

- أنت رائع! إنه بالضبط ما أريده. سأفسر لك فكرتي في كلمتين. عندما تنظر إلى لوحة «نيلوفر» لمونيه، تحس، كيف أقول، أنك تغرق، تدخل في اللوحة، أو تجتازها، لا أعرف، كما يحدث في البئر أو في الرمل، هل ترى؟ هذا ما كان يريده مونيه، الماء الراكد، الإحساس برؤية حياة بأكملها تمر... أنا أريد العكس، أريد أن نحس أمام لوحتي «النيلوفر» بأننا نطفو فوق الماء، تفهم، بأننا نستطيع أن نقفز فوق، وأن نعود، وأن نطير. ماء حي! أريد أن أرسم «النيلوفر» كما كان مونيه ليرسمها لو كان عمره إحدى عشرة سنة. «نيلوفر» على شكل قوس قزح!

تأملها بول بحنان كبير.

- لا أفهم كل ما تقولينه، فانيت.

- لا يهم، بول. ليس جاداً، كل هذا. هل تعرف ماذا كان مونيه يفعله بلوحات «النيلوفر» الكبيرة التي لم تكن تعجبه؟

- لا.

- كان يعطيها لأطفال بيته الوردي! عندما كانوا في نفس عمرنا. كانت اللوحات المرمية تُستعمل في صناعة قوارب! لو حصل، فلا يزال يوجد في عمق الأوب والسين، في الوحل، لوحات «نيلوفر»! هل تصدق ذلك؟

- أنا أصدقك، فانيت...

صمت بول قليلاً.

- أجل، ذلك جدي. أدرك جيداً أنك من كوكب آخر مختلف عنا، وأنك ذات يوم سترحلين، بعيداً. وأنك ستصبحين مشهورة، وكل شيء، كل شيء. لكن، أترين، الشيء الرائع هو أنني طوال حياتي سأستطيع أن أقول إني عرفتك، هنا، على هذا الجسر الياباني. وحتى...

- وحتى...

- وحتى أني قبّلتك...

هو تافه، بول. تافه جداً. عندما يقول مثل هذه الأشياء يجعلني أرتعش بكل أطرافي.

النيلوفر ينجرف ببطء فوق البركة. فانيت ترتعش وتغمض عينيها. وضع بول شفتيه بلطف على شفتي الفتاة.

- وحتى أنك يمكن أن تحكي أني وعدتك بأن نعيش معاً، وأننا سنتزوج، في بيت كبير وأطفال. وأن ذلك ما سيحصل...

- أنت...

تحركت الوستارية.

ظهر فينسنت بين السيقان الملتوية بوحشية حيوان ضارٍ يخرج من الغابة. حدّق في بول وفانيت بإلحاح غريب، نظرة فارغة مقلقة، كأنه كان يتجسس عليهما منذ وقت طويل.

إنه يخيفني. أصبح فينسنت يخيفني كل يوم أكثر.

- ماذا تفعلان؟ سألهما فينسنت بصوت بلا نغمة.

- 43 -

وهي تتجول في موقع أو بون كوان بحثاً عن سلَّم خشبي مفترض بخمس درجات لتصلحه وتضع عليه نباتاتها الخضراء، ألقت العميلة ليليان لوليفر نظرة نحو ساعتها، ساعة من ماركة لونجين، أنيقة وفضية: السادسة وخمس وأربعون دقيقة زوالاً. ربع ساعة إضافية وتستطيع بعدها أن تغلق مكتب استقبال مفوضية فيرنون. لا يوجد ازدحام، في هذا الوقت، خلال المساء.

لم تتعرف في الحال على الخيال الذي كان يصعد درجات المفوضية ببطء. لكن على العكس، بمجرد أن دخل الرجل العجوز، أدار رأسه نحو رأسها، انفجرت في وجهها شهب من الذكريات.

- مساء الخير، ليليان!

- المفوض لورانتان!

يا إلهي! مرّت عدة سنوات منذ لم تلتقِ به. تقاعد المفوض لورانتان منذ حوالي عشرين سنة؟ في بداية سنوات 1990، مباشرة بعد حل لغز سرقة لوحات مونيه في المارموتان. في تلك الفترة، كان لورانتان بجانب إدارته لمفوضية فيرنون معروفاً عنه أنه أحد أفضل

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

الخبراء في مسائل الإتجار بالفن. كان المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الفكرية يلجأ إليه بشكل منهجي. قبل هذا، كان هو وليليان قد عملا سوياً أكثر من خمس عشرة سنة...

المفوض لورانتان. صَرْح. كل تاريخ بلدة فيرنون هو لوحده!

- يا إلهي، حضرة المفوض! إنه من دواعي السرور أن أراك!

كانت ليليان صادقة. كان لورانتان محققاً لامعاً، وحساساً، ومجاملاً. شخصية كما لم تعد توجد. تحدثا فترة طويلة. لم تستطع ليليان أن تقاوم الفضول الذي كان يتآكلها:

- ما الذي أتى بك بعد كل هذا الوقت؟

وضع المفوض لورانتان إصبعه على فمه.

- ششت... أنا في مهمة خاصة. انتظريني، ليليان، بضع دقائق وسأعود.

دخل لورانتان في الممرات المألوفة لديه. لم تجرؤ ليليان على الإلحاح. رجل أدار المفوضية ستاً وثلاثين سنة!

فكّر الشرطي السابق أن طلاء جدار الممر لا يزال يتقشر. لا شيء يتغير! المكتب 33. أخرج المفوض السابق مفتاحاً من جيبه. سيفتح؟ لن يفتح؟ عشرون سنة منذ لم يدخل المفتاح في قفل هذا المكتب...

سمسم...

انفتح! لم يغيروا مفتاح قفل المكتب منذ... سنة 1989. بعد كل شيء، حلل لورانتان، هذا يبدو منطقياً. لِما يغيرون مفتاح باب مكتب مفوضية؟ وهو يدفع الباب، فكر في نفسه أن خلَفه لا بدَّ أنه ذئب شاب من الشرطة القضائية، مرتبط بتكنولوجيا المعلومات والتكنولوجيا المتقدمة، كل التقدم التقني الذي يملأ المسلسلات

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

التلفزيونية والذي لا يفهم فيه شيئاً منذ زمن بعيد.

توقف فجأة في طرف المكتب وتفحص الديكور. الجدران تغطيها لوحات انطباعية! بيسارو، وغوغان، ورينوار، وسيسلي، وتولوز لوتريك. ابتسم لنفسه. أخيراً، خَلَفُه، لو التقاه، ربما سيفاجئه. ذوقه جيد!

المكتب يتوافق مع ما كان ينتظره: حاسوب، وطابعة، وماسح ضوئي. تحرك المفوض المتقاعد في الغرفة. تردد، أحس بالخيبة من زيارته. أدرك أنه سنة 2010 مكتب شرطي يقوم بعمله بشكل جيد، هو مكتب فارغ! كل شيء يسع في قرص حاسوب. لن يدخل عنوة على جهاز العمل الخاص بخلفه، الذي بلا شك يحميه بكلمات سر كثيرة. ثم هو لا يعرف شيئاً في الإعلاميات. سيكون من المضحك أن يلح. لم تتح له فرصة متابعة تقدم شرطة الفن. أصبحت عملية علمية. قيل له إن المكتب المركزي لمكافحة الإتجار غير المشروع بالممتلكات الثقافية OCBC يشتغل انطلاقاً من قاعدة بيانات عالمية ضخمة، «قاموس البحث الإلكتروني والتصويري في الفنون». تحصي القاعدة TREIMA أكثر من ستين ألف عمل فني مُختفٍ، بالاشتراك مع الفريق الأميركي لمكافحة جرائم الفن أو مخابرات الفن والتحف مكتب شرطة العاصمة في لندن.

تنهّد لورانتان.

زمن آخر، طرق أخرى...

خرج من المكتب وعاد لرؤية ليليان في الاستقبال.

- ليليان، هل الأرشيف لا يزال تحت؟ الباب الأحمر؟

- بالضبط كما كان قبل عشرين سنة، حضرة المفوض! في

الأرشيف على الأقل لم يتغير شيء!

مرة أخرى أتاح له مفتاحه القديم أن يدخل. كأن أي أحد يمكن أن يدخل إلى المكان. أخيراً لا، هو ليس أي أحد... شرطي، فقط شرطي. بلا شك لهذا السبب لجأت إليه باتريسيا مورفال. ليست حمقاء، الأرملة.

ليليان على حق، لم يتغير شيء، الملفات لا تزال مرتبة بحسب الترتيب الأبجدي. الأجيال تتعاقب لكن سيوجد دوماً رجال شرطة مهووسون كي يضعوا علب الأرشيف في مكانها الصحيح على الرف المناسب، حتى في حقبة الأقراص الصلبة ومفاتيح USB.

ميم... مثل مورفال.

الملف الأحمر الكبير في مكانه. ليس ثقيلاً.

تردد لورانتان مرة أخرى. هو يعرف أن ليس من حقه الاطلاع بهذا الشكل على أسرار التحقيق، من دون ترخيص، من دون إذن، من دون سبب، عدا فضوله الشخصي. لماذا سيفتح هذا الملف؟ وخزات من الإثارة كما لم يحس بها منذ سنوات تشك جلده. لماذا جاء إلى هنا، إن لم يكن كي يفتحه؟ حرص على أن يغلق الباب خلفه، أن يترك المفتاح في القفل، ثم وضع علبة الأرشيف على المائدة. فتحها وتفحص وثائق الملف ببطء، مع الحرص على إعادتها إلى مكانها بالضبط.

حطت عيناه تباعاً على مختلف صور جثة، جيروم مورفال على طول جدول. مرت وثائق الإدانة بين يديه: صور أخرى لمسرح الجريمة، واحدة لأثر نعل، بالجبس؛ تحاليل علمية لبصمات أصابع، ودم، ووحل. مرَّ بسرعة أكثر، كي يتوقف على صور جديدة: خمس صور لثنائيات، من الأكثر حشمة إلى الأكثر فحشاً. النقطة المشتركة

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

بينها، الميت، جيروم مورفال، حاضر على جميع الصور.

رفع المفوض لورانتان رأسه، حذراً، يحاول أن يحس عبر الباب الأحمر بأقل صوت في الدرج. لا شيء، كل شيء هادئ. تصفّح رزم الأوراق: قائمة بأطفال مدرسة جيفرني؛ السيرة الذاتية لأشخاص على علاقة بالحادث، جيروم وباتريسيا مورفال، جاك وستيفاني دوبان، أمادو كاندي، تجار آخرون في جيفرني، بعض الجيران، نقّاد فن، هواة مجموعات؛ ملاحظات بخط اليد، كثيرة، وتقريباً كلها بتوقيع المفتش سيلفيو بينافيدس.

تقريباً كل الوثائق مقلوبة على الطاولة الآن. الحكة الجلدية التي تثير لورانتان أصبحت أكثر شدة. لم يبقَ له سوى وثيقة ليفحصها: تقرير مصفر من درك باسي-سور-أور، تقرير حادث: غرق طفل، سنة 1937؛ طفل اسمه ألبرت روزالبا. ارتعشت يدا المفوض لورانتان. بقي وقتاً طويلاً في الغرفة المظلمة، يحاول أن يفهم، ألا ينسى أي تفصيل، أن يكوّن رأياً من دون أفكار مسبقة. سيكون من الأفضل أن يأخذ كل شيء أو أن ينسخ كل شيء.

لا يجب التفكير بذلك.

ليس مهماً. أدرك من دون فخر أن ذاكرته لا تزال قوية.

لم يصعد إلى الاستقبال سوى بعد نصف ساعة. ليليان نبيلة، لقد انتظرته!

- هل وجدت ما كنت تبحث عنه، حضرة المفوض؟

- أجل، أجل. شكراً، ليليان.

تأمل المفوض لورانتان ليليان بحنان. هو يتذكر اليوم الذي عيِّنت فيه في مفوضية فيرنون، منذ أكثر من ثلاثين سنة مرت، كان

قد استقبلها في مكتبه، رقم «33». لم تكن قد أكملت الخامسة والعشرين. كانت بأناقة نادرة عند نساء الشرطة.

- ليليان، كيف هو الرئيس الجديد؟

- ليس سيئاً. أقل مما كنت...

الأناقة...

- ليليان، هل يمكن أن أطلب منك خدمة؟ أنا لا أعرف شيئاً في الإعلاميات. أنت أكثر دراية مني.

- لا أعرف. بماذا يتعلق الأمر؟

- نوع من... التحقيق المضاد، يمكن أن أقول. ليليان أعتقد أنك تفهمين في الإنترنت...

ابتسمت ليليان بثقة. واصل المفوض:

- ليس أنا. أخذت تقاعدي مبكراً. ليس لدي أبناء ولا أحفاد كي يربطوني بالصفحة. يجب أن أزور موقعاً، انتظري، لقد سجلت ذلك في مكان ما...

بحث المفوض لورانتان في جيوبه وأخرج ورقة صفراء خربش عليها بكتابة خرقاء.

- ها هو. موقع اسمه أصدقاء الأمس. أبحث عن صورة لجيفرني. صورة فصل. 1936-1937.

- 44 -

- جيمس! جيمس!

جرت فانيت قرب المغسل واجتازت حقل القمح حيث يرسم جيمس، كل يوم. حملت، مغلفة في ورق بني، اللوحة التي وضعت

خطوطها العريضة على الجسر الياباني لبركة النيلوفر.

- جيمس!

لم ترَ فانيت أحداً في الحقل، ولا حتى حاملة قماشة، ولا حتى قبّعة قش. لا أثر لجيمس. أرادت فانيت أن تفاجئ الرسام الأميركي وتريه «النيلوفر» على شكل قوس قزح، وتسمع نصائحه، وتشرح له طريقتها في رسم الخطوط الهاربة. ترددت. نظرت حولها، بحثت لحظة، ثم أخفت لوحتها خلف المغسل، في مكان رصدته تحت الأسمنت.

لا من رأى ولا من سمع.

نهضت، تساقطت حبات عرق من عنقها. كانت قد جرت لتأتي، كي توافي بأسرع ما يمكن ذلك الكسول جيمس. اجتازت فانيت مرة أخرى الجسر.

- جيمس! جيمس!

سمعها نبتون الذي كان نائماً في ظل شجرة الكرز في فناء طاحونة الساحرة. اجتاز الشرفة وهرول نحوها.

- نبتون، هل رأيت جيمس؟

نبتون لا شأن له بذلك، ذهب يتشمم السرخس في الجوار.

أحياناً يغضبني هذا الكلب.

- جيمس!

حاولت فانيت أن تحدد موقعها بحسب الشمس، كان جيمس يتبع الشمس دائماً، مثل سحلية كبيرة، من أجل هناء قيلولته أقل منه من أجل الإضاءة في الموقع.

إذا حصل فهذا الكسول سيكون نائماً في الحقل.

- جيمس، استيقظ، هذه فانيت. عندي مفاجأة.

مشت، ومشت أيضاً. القمح يصل إلى خصرها.

يا إلهي!

انهارت ساقاها.

القمح أمامها أحمر! ليس فقط أحمر. أخضر، وأزرق، وبرتقالي. السنابل الملونة راقدة، كأنما حصل عراك في المكان، كأن علبة ألوان قلبت وبقرت أنابيب.

ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟

يجب أن أفكر. أشك أن سكان القرية لا يحبون الرسامين المتسكعين، لكن أن يصل الأمر إلى التعارك مع جيمس... رسام عجوز مسالم.

اجتازت فانيت رعشة كبيرة. توقفت مرعوبة. أمامها ينفتح طريق من القمح الراقد، سنابل حمراء، مثل طريق دم. كأن أحداً قد انجرَّ في الحقل.

جيمس.

تسارعت أفكار فانيت.

تعرَّض جيمس لحادث، إنه جريح ينتظر مساعدتها في مكان ما من المرج.

توقف طريق القمح الراقد فجأة، وسط الحقل. واصلت فانيت التقدم عشوائياً، أبعدت السنابل، صرخت، حردت. المرج شاسع.

- نبتون، ساعدني، ساعدني في البحث...

تردد الراعي الألماني، كأنه يتساءل عمَّ تنتظره منه. ثم فجأة جرى عبر السهل. رسم مستقيماً. حاولت فانيت، ليس سهلاً، السنابل تلفح وجهها، وفخذيها.

- نبتون، انتظرني!

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

انتظر الكلب، عاقلاً، مئة متر بعيداً عنها، تقريباً وسط الحقل.

تقدمت فانيت.

توقف قلبها فجأة عن الخفقان.

خلف الراعي الألماني، القمح مضطجع، متر على مترين، مكان من أجل جسم ممدد.

تابوت من القش، إنها الصورة التي حضرتني في الأول.

جيمس هناك. ليس نائماً.

إنه ميت! جرح دامٍ ينفتح بين صدره وعنقه. سقطت فانيت على ركبتيها. مرارة عنيفة ملأت فمها. مسحتها بقطعة من قميصها.

جيمس ميت. قتله أحدهم!

ذباب طنان يحوم على الجرح المفتوح. يحدث ضجيجاً مرعباً. تود فانيت أن تصرخ لكنها لا تستطيع ذلك. المرارة تحرق فمها، تقيأت سائلاً لزجاً على سروالها وحذائها. لم تمتلك الشجاعة لتدلكهما. لم تعد تمتلك أية شجاعة. تعصرت يداها. تحتاج إلى مساعدة. نهضت، جرت مثل حمقاء. القمح يعض قدميها وركبتيها. بطنها يعذبها. سعلت، بصقت، رش خيط من اللعاب وجنتها، تواصل الجري، تمسحه بظهر كفّها. تجتاز الجدول، والطاحونة، والجسر، وطريق روي، دون أن تخفف سرعتها. تشعل سيارة بطارية بالضبط أمامها.

وغد!

اجتازت فانيت الطريق، هي في القرية.

- ماما!

صعدت شارع شاتو-دو. تصرخ:

- ماما!

دفعت فانيت الباب بعنف حتى اصطدم بعلاقة الملابس على

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الجدار. دخلت إلى البيت. والدتها واقفة في المطبخ، خلف صفيحة العمل، مثل العادة. وزرة زرقاء. شعر معقوص إلى الخلف. أفلتت كل شيء، السكين، والخضر، دون أن تفكر.

- صغيرتي، صغيرتي... مكتبة الرمحي أحمد

لا تفهم والدتها شيئاً. فتحت ذراعيها، مدت يديها، غريزياً. لم تمسك فانيت سوى واحدة.

جرتها.

- ماما، يجب أن تأتي... بسرعة!

والدتها لم تتحرك.

- أرجوك ماما...

- ماذا يحدث، فانيت؟ اهدئي، اشرحي لي.

- ماما... هو... هو...

- اهدئي، فانيت. عمّن تتحدثين؟

سعلت فانيت، اختنقت. أحست بالغثيان يعود. لا يجب أن تنفجر. مدت والدتها منديلاً، مسحت وجهها، أجهشت بالبكاء.

- بهدوء، فانيت، بهدوء. اخبريني عمّا يحدث.

داعبت يديها، وضعت كتفها على صدغها مثل طفل صغير ننعسه.

اختنقت فانيت، ثم أخيراً استطاعت أن تنطق:

- إنه جيمس، ماما. جيمس مات، الرسام. هناك، في الحقل!

- ماذا تقولين؟

- تعالي، تعالي!

اسمعيني، ماما، ولو لمرة، أرجوك.

ترددت والدتها. أعادت الفتاة أمرها، بقوة أكثر:

- تعالي، تعالي!

بدت قريبة من الهستيريا. بدأت بعض الستائر تسحب في شارع شاتو-دو. لا بدَّ أن الجيران اعتبروا ذلك أزمة عند الصغيرة. نزوة! ليس أمام والدتها خيار.

- سآتي، فانيت، سآتي.

اجتازتا الجسر على الجدول. عاد نبتون لينام تحت شجرة الكرز، في فناء الطاحونة. جرّت فانيت والدتها من يدها.

بسرعة، ماما.

تقدمتا في المرج.

- هناك!

مشت فانيت في الحقل. تذكرت الطريق، حتى من دون نبتون، تعرَّفت إلى القمح المضطجع.

واصلت التقدم، وصلت إلى المكان المحدد حيث كان يرقد جيمس، هي متأكدة من المكان.

- هنا، ماما، بالضبط هنا.

سقطت اليد التي تمسكها والدتها، رخوة. أحست فانيت بالدوار. اتسعت عيناها، غير مصدقتين.

لا يوجد أحد أمامها.

لا توجد جثة.

ربما اختلط علي الأمر، ربما أخطأت ببضعة أمتار...

- كان هنا، ماما... أو بالقرب فقط.

نظرت والدة فانيت إلى ابنتها بشكل غريب. تركت نفسها تنساق وراء اليد التي كانت تجرها. واصلت فانيت البحث، جرت في الحقل مدة طويلة، غضبت ضدّ نفسها، ضدّ كل شيء.

- كان هنا، كان هنا...

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

لم تقل والدتها شيئاً، تبعتها بهدوء. تسرّب صوت خبيث في رأس فانيت، دودة صغيرة في ثمرة فاكهة.

إنها تعتبرني مجنونة، ماما تعتبرني مجنونة.

- كان...

فجأة، لم تعد والدتها تتقدم.

- هذا يكفي، فانيت!

- كان هنا، ماما. كان عنده جرح غائر بين القلب والعنق...

- رسامك الأميركي؟

- أجل، جيمس.

- فانيت، أنا لم أرَه أبداً، رسامك الأميركي. لم يرَه أحد أبداً.

لم يرَه أحد أبداً. ماذا تريد أن تقول؟ رآه فينسنت، بول أيضاً يعرفه... كل الناس...

- يجب أن نخبر الشرطة، ماما. كان ميتاً. قتله أحد ما. أحد أخذ جثته ووضعها في مكان آخر.

لا تنظري إلي على هذا النحو ماما. أنا لست مجنونة. لست مجنونة. صدقيني، يجب أن تصدقيني...

- لا أحد سيكلم الشرطة، فانيت. لا توجد جريمة، لا توجد جثة. لا يوجد رسام.

خيالك واسع، صغيرتي فانيت. واسع جداً.

ماذا تقول؟ ماذا تريد أن تقول؟

صرخت فانيت:

- لا! ليس من حقك...

انحنت والدتها بلطف، وقفت بحيث نظرت في عيني ابنتها.

- حسناً، فانيت. أنا أسحب ما قلته. أريد بحق أن أصدقك، أن

أثق بك، مرة أخرى. لكن إن كان رسامك موجوداً، إن مات، إن كان أحد ما قد قتله، سيلاحظ شخص ما ذلك. سيبحث عنه شخص ما، وسيجده. وهذا الشخص سيخبر الشرطة...

- لكن...

- هذا لا يخص طفلة في الحادية عشر، فانيت. الشرطة لديها ما تفعله في هذا الوقت، صدقيني. هي عندها جثة أخرى، جثة حقيقية رآها كل الناس، ولا يوجد قاتل. ولدينا ما يكفي من الهم كي لا نجعل الأنظار تتجه نحونا...

أنا لست مجنونة!

- أنا لست مجنونة، ماما...

- طبعاً، فانيت. لا أحد يقول ذلك. لقد تأخر الوقت، حان الوقت لندخل.

بكت فانيت. خارت قواها، هي فقط تتبع اليد التي تجرها.

لقد كان هناك.

جيمس كان هناك. لا يمكن أن أكون قد اخترعت كل شيء! جيمس موجود، طبعاً. جيمس موجود.

وحاملات القماشة؟ صرخ صوت في رأسها. حمالات القماشة الأربع؟ علبة الصباغة الجميلة؟ لوحاته؟ سكاكين الرسم؟

أين ذهبت؟

لا تختفي الأشياء بهذا الشكل!

أنا لست مجنونة!

طعم الحساء سيئ.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

طبعاً، مسحت والدتها الأسئلة التي طرحتها فانيت على السبورة وعوضتها بقائمة مشتريات. خضر، دوماً. ممسحة. حليب. بيض. أعواد ثقاب...

البيت مظلم.

صعدت فانيت إلى غرفتها.

ذلك المساء لم تنم. هي تتساءل إن كان عليها ألا تطيع والدتها، وأن تذهب لتحكي كل شيء للشرطة! غداً.

أنا لست مجنونة... لكني إن ذهبت لرؤية الشرطة وحدي، ماما لن تغفر لي ذلك أبداً. أول شيء سيقوم به الشرطة، سيكون بأن يقصّوا عليها كل شيء. ماما لا تريد التعامل مع الشرطة. لا بدَّ أن ذلك بسبب عملها في البيوت. إذا علم البرجوازيون بأن لها علاقة بالشرطة، سيترددون قبل أن يقوموا بتشغيلها. أكيد هذا.

لكي لا يمكن ألا أفعل شيئاً! يصعب علي التفكير، عقلي المسكين يغلي.

يجب أن أبحث. يجب أن أفهم ما حدث. يجب أن أجد الدليل، وأحضره لماما، للشرطة، لكل الناس.

من أجل هذا، يجب أن يساعدني أحد!

ابتداء من الغد، سأفعل ذلك، لا، غداً دراسة طوال اليوم، سيكون طويلاً، جد طويل أن أنتظر، محبوسة. لكن بمجرد الخروج من الفصل، غداً بعد الظهر، سأبحث.

رفقة بول. سأقول كل شيء لبول. بول سيفهم.

أنا لست مجنونة.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

أجاب لورنس سيريناك بشيء من القلق. من النادر أن يتصل به أحد عند الواحدة والنصف صباحاً، خاصة على رقمه الشخصي. الصوت على الطرف الآخر من الخط لم يطمئنه. يهمس بكلمات غير مفهومة. توصل فقط إلى فهم الكلمات «ولادة» و«الولايات المتحدة».

- من على الخط، تباً؟

بالكاد أصبح الصوت مسموعاً:

- إنه سيلفيو، حضرة الرئيس. مساعدك.

- سيلفيو؟ تباً، إنها الواحدة صباحاً... ارفع صوتك، بحق الرب، أفهم كلمة من ثلاث.

ارتفعت حدّة الصوت شيئاً ما:

- أنا في جناح الولادة. بياتريس تنام في الغرفة، وأنا أستغل ذلك، خرجت إلى الرواق... يوجد شيء جديد!

- إنه اليوم الكبير إذاً؟ أردت أن يكون رئيسك أول من يعلم؟ بارك لبياتر...

- لكن لا، قاطعه سيلفيو. أنا لا أحدثك بخصوص الطفل، أنا أحدثك عن التحقيق، حضرة الرئيس. يوجد جديد بخصوص التحقيق. بالنسبة إلى الطفل وبياتريس، الأمر هو انتظر وسترى. نُقلنا منذ قليل بشكل مستعجل إلى جناح الولادة في مستشفى فيرنون. اعتقدت بياتريس أنها تحس بتشنجات. انتظرنا ساعتين في المستعجلات من أجل لا شيء! فقط كي نسمعهم يقولون إن الولادة لن تتم الآن، وأن الجنين بحال جيد، مرتاح، في الدفء، وأن كل شيء على ما يرام.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

في النهاية، ألحّت بياتريس حتى انتهى الأمر إلى أن منحوها غرفة. حسناً، حضرة الرئيس، بياتريس تقول لك صباح الخير.

- أنا أيضاً. تمنَّ لها حظاً موفقاً...

تثاءب سيريناك.

- حسناً، سيلفيو، احكِ إذاً، ما هو سبقك؟

- على فكرة، أجاب بينافيدس كأنه لم يسمع شيئاً، نهارك، بيت وحدائق كلود مونيه، كيف كانت؟

تردد لورنس سيريناك باحثاً عن الكلمة الصحيحة:

- مثيراً! وأنت، الفنون الجميلة في روان؟

تردد بينافيدس بدوره:

- مثقف...

- ولهذا تتصل بي؟

- لا بالنسبة إلى الفنون الجميلة عندي عدة معلومات جديدة، لكن ذلك يعقِّد كل ما كنا نعرفه أكثر، يجب أن نفرز...

سمع صوت خطوات في الجهاز، جعل تتمة الكلمات غير مسموعة لعدة ثوانٍ.

- انتظر، حضرة الرئيس، جلبوا فتاة على نقالة، وعندي إحساس أن النقالة أكبر من قفص المصعد...

انتظر سيريناك قليلاً، ثم غضب:

- هذا جيد؟ إذاً، المعلومة الخاصة بك؟ انطق!

- هذا مسلٍّ، حضرة الرئيس...

تنهّد سيريناك.

- هل انتهوا مع النقالة؟

- أجل، في النهاية، لقد مرت... عمودياً.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

- أرى أنك تتسلى جيداً، سيلفيو.

- أحاول أن أضع نفسي في تناغم، حضرة المفتش.

- حسناً، حسناً. إذاً، نواصل لعب الألغاز إلى الفجر؟

- لقد وجدت ألين ماليتراس.

كتم سيريناك شتيمة.

- تتحدث عن القنبلة ذات الكعب العالي؟ عشيقة مورفال، تلك التي تشتغل من أجل معارض الفن في بوسطن؟

- أجل، هي. بسبب فارق التوقيت، لم أكن أستطيع الاتصال بها خلال النهار. لكن في النهاية، استطعت أن أحاصرها منذ ربع ساعة، بين حفلتي شاي. كانت الساعة الثامنة ليلاً على الضفة الشرقية.

- وإذاً؟ هل أخبرتك شيئاً؟

- حول مقتل مورفال، لا. تتوفر على حجة غياب متينة، صباح الجريمة كانت خارجة من علبة ليلية في ضاحية نيويورك، انتظر...

قرأ:

- الكرايزي بالدهيد، رفقة عدد كبير من الشهود. يجب أن نتحقق لكن...

- سنتحقق، سيلفيو، لكن صحيح أنها ليست من النوع الذي يعود وحده للبيت. ومن جهة الشغل، رسم، ومعرض، ومجموعات، هل تجد في ذلك علاقة مع مورفال؟

- لا، بحسب ما قالته لي انقطعت علاقتها بطبيب العيون منذ عشر سنوات.

- ما ظنك؟

- كانت مستعجلة. أنهت بسرعة. هي فقط تتذكر أنه كان يعشق لوحات كلود مونيه، وأنها كانت تعتبر ذلك في تلك الفترة «شائعاً»،

استعملت كلمة مشابهة.

- وهي لا تزال تعمل مع مؤسسة روبنسون؟

- أجل. بحسب قولها هي تهتم بالتبادلات بين فرنسا والولايات المتحدة. معارض، استقبال الفنانين من جهتي الأطلنطي، تبادل اللوحات...

- على أي مستوى؟

- لم تكن بعيدة عن أن تقول إنها تتحدث من دون كلفة مع كل الرسامين بحسب الموضة وأنها تذهب مباشرة لتأخذ لوحاتهم تحت ذراعها في مراسمهم، لكن من يدري إن كانت تكتفي خلال افتتاح المعارض بمنح شمبانيا، ومخادع، وصدرها المكشوف خلف غطاء مائدة أبيض...

- أجل... يجب أن نعمّق البحث حول تلك المؤسسة اللعينة روبنسون...

تثاءب من جديد.

- قل لي، سيليفو، أنا لا أقصد الإهانة، لكنها لم تخبرك شيئاً كبيراً، الجميلة ألين. هل كان ذلك يستحق أن تتصل بي في عمق الليل؟

همس صوت سيلفيو من جديد:

- هناك شيء آخر، حضرة الرئيس.

- آه...

أصاخ سيريناك السمع دون أن يقاطع مساعده.

- بحسب ألين ماليتراس، خرجت مع مورفال حوالي خمس عشرة مرة، بما فيها المرة التي التقطت فيها الصورة، كان ذلك في نادي زِد، شارع لي أونغلي، في باريس، في الدائرة الخامسة. حصل

ذلك منذ عشر سنوات. كانت ألين ماليتراس في الثانية والعشرين، في تلك الفترة. لم تكن تصد مغازليها، وكان مورفال غنياً، كل شيء كان على ما يرام إلى أن...

- تحدث بقوة أكبر، تباً...

- إلى أن حبلت ألين ماليتراس!

- ماذا؟

- كما أقول لك.

- و... احتفظت به، طفل مورفال؟

- لا.

- كيف هذا، «لا»؟

- لا. لقد أجهضت.

- هل هذا أكيد، أم أن هذا ما أخبرتك به؟

- هذا ما أخبرتني به. لكن في الثانية والعشرين لا بدَّ أنها بلا شك لم تكن من النساء اللواتي يحلمن بأن يكن فتيات-أمهات...

- علم مورفال بذلك؟

- أجل. استعمل علاقاته في الوسط الطبي وتحمّل التكاليف، بحسب قولها.

- عودة إلى نقطة البداية، إذاً... نحن لم نتقدم، مسألة الدافع للجريمة.

سمع ضجيج أقدام في رواق المستشفى. رنَّ جرس سيارة إسعاف بعيداً. انتظر بينافيدس قليلاً قبل أن يواصل:

- غير أنه كان سيكون في العاشرة، ذلك الطفل.

- لا وجود لطفل، لقد أجهضت...

- أجل، لكن إن...

- لا يوجد طفل، سيلفيو.

- قد تكون كذبت.

- لماذا تخبرك أنها حبلت إذاً؟

صمت طويل. ارتفع صوت بينافيدس درجة:

- ربما لم تكن الوحيدة؟

- الوحيدة ماذا؟

- الوحيدة التي حبلت من جيروم مورفال!

صمت طويل آخر. واصل بينافيدس. تحدث بلهجة مرتفعة.

- أفكر مثلاً في العشيقة الخامسة، حضرة الرئيس، الصورة في صالون مورفال، الفتاة ذات البلوزة الزرقاء التي لم نستطع تحديدها. ربما لو استطعنا أن نفهم الرمز، تلك الأرقام اللعينة على ظهر الصور...

عبر الهاتف، سمع سيريناك خطوات تقترب، كأن الممرضة الرئيسة تسرع عبر الرواق كي تعلن للمفتش بينافيدس أن سيركه قد استغرق ما يكفي من الوقت.

- حسناً، أنت تشوشني، سيلفيو، بفرضياتك الملتوية، وأعمدتك الثلاث...

تنهد.

- سنحاول أن ننام قليلاً. سننهض باكراً غداً كي نغوص في نهر جيفرني. لا تنسَ الشبكة المقصودة.

- اليوم العاشر -

22 مايو 2010
(طاحونة شونوفيير)

رواسب

- 46 -

في السابق، الشخص الذي شيَّد الطاحونة، خاصة البرج في الوسط، لا بدَّ أن فكرة مراقبة القرية من نافذة الطابق الرابع كانت في ذهنه بالفعل، لا يمكن أن يكون الأمر قد تمَّ بشكل آخر. سموها ما شئتم، تلك القلعة المشيَّدة بالضبط فوق قمم الأشجار: مرقب، أو برج مراقبة، أو مقر بواب، لكن يوجد شيء واحد أكيد: مع برج جرس الكنيسة، ربما كانت أفضل نقطة مراقبة في جيفرني.

رؤية أخّاذة، صدقوني، تطل على كل القرية، على المرج تقريباً إلى حدود جزيرة القراص، على الجدول إلى حدود حدائق مونيه، وتشكّون في ذلك، هي قبل كل شيء من الأماكن الأكثر خفاء والأفضل إطلالاً على مكان الجريمة. جريمة قتل جيروم مورفال، أود أن أقول.

انظروا، فقط في هذه اللحظة، في ماء الغدير، بسراويلهم المرفوعة، لا يبدو رجال الشرطة أذكياء. حفاة، من دون أحذية... لا بدَّ أنهم صدموا. حتى المساعد، سيلفيو بينافيدس، يغوص في الماء. المفتش سيريناك هو الشرطي الوحيد الذي بقي على الضفة، يتحدث

مع شخص غريب، يحمل نظارة، شخص يغرس أجهزة غريبة في النهر ويمرر الرمل في أقماع مختلفة متداخلة في بعضها.

نبتون هناك أيضاً، بطبيعة الحال، لا يفوت واحدة. يمر من سرخس إلى آخر، يتشمم لا أعرف ماذا. هذا الكلب، بمجرد وجود حركة، هو سعيد. بالإضافة إلى أنه فهم الآن أن المفتش سيريناك يلاطفه ولم يعد تواقاً للمداعبات.

لاحظوا، أنا أسخر قليلاً، لكنها ليست فكرة خرقاء من طرف الشرطة، أن يجرفوا الوحل في النهر... كان عليهم فقط أن يفكروا في ذلك من قبل. ستستنتجون من ذلك أنهم لا يشتغلون بسرعة، شرطة الضواحي، هذا النوع من الانتقادات السهلة... لكن لا تنسوا أن المفتش الوسيم الذي يترأس العملية كان في الأيام الأخيرة مشوش الذهن بسبب شيء آخر. إذا تجرأت، سأقول إن ليس النهر الذي فكر أن يجرفه في الأول. لكن طيب، تفهمون، عندما لا أكون سوى ساحرة عجوز لا تتحدث مع أحد، التلاعب بالألفاظ مع النفس ليس له معنى. إذاً أنا أكتفي بالتجسس بصمت خلف الستارة.

- 47 -

ثلاثة عملاء من مفوضية فيرنون يمشطون مجرى الجدول. سنتمتر مربع وراء سنتمتر مربع. هم لا يظهرون قناعة كبيرة بذلك. أكَّد لهم عمدة جيفرني أن عملاء البيئة في الجماعة ينظفون النهر مرة كل شهر. حتى أنه أضاف: «إنه أقل شيء، هذا الجدول الصغير يطالب بلقب أول نهر انطباعي في فرنسا! هذا يستحق بعض الاهتمام...».

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

العمدة لم يكذب. لم يجد العملاء في العمق الموحل سوى قليل من البقايا. بعض أوراق دهنية، سدادات قنينات الصودا، عظام دجاج...

وكل تلك الأشياء يجب أن تفحص من طرف الشرطة العلمية...

وجد سيلفيو بينافيدس صعوبة في أن يحافظ على عينيه مفتوحتين. قال في نفسه إنه إذا استمرت العملية فهو سينام هناك، في الماء. فكر أن تلك الأشياء تحدث بسرعة. يغفو المرء. مع حظ سيئ، يسقط ويصطدم رأسه بحجر، يصاب بجرح غير خطير، لكنه كاف ليقتلك في الحال، كاف ليجعل رأسك ينزلق في الماء، تحت الماء، ويغرقك، في نهاية الأمر.

تجتاح سيلفيو بينافيدس أفكار سوداء هذا الصباح. بعد أن أنهى مكالمته أمس مع لورنس سيريناك، لم يستطع النوم. طلبت منه الممرضات أن ينصرف إلى بيته، لكنه رفض! أن يكون المرء شرطياً، فذلك يمثّل بعض الامتيازات. أمضى الليل يراقب بياتريس نائمة ويغفو على كرسيين في قاعة الانتظار، قبالة الإعلانات التي تدين أضرار السجائر والكحول بالنسبة إلى المرأة الحامل. توفّر له الوقت الكافي ليفكر في تلك الأعمدة الثلاث، المفصولة عن بعضها دوماً.

عشيقات، «نيلوفر»، أطفال.

ليدقق في الأشياء الغامضة التي أخذت تتراكم منذ بضعة أيام. ماذا عن «النيلوفر الأسود»؟ لا بدَّ أن أمادو كاندي على علم بذلك، بطبيعة الحال. مورفال أيضاً. وما علاقة ذلك بحكاية حادثة الطفل، ألبرت روزالبا، سنة 1937، في هذا المكان المحدد، تلك البطاقة البريدية لطفل في الحادية عشر، يزينها تقليد لـ«النيلوفر» وقول لأراغون؟

ولماذا أراغون؟ لماذا تلك القولة «جريمة أن نحلم أقبل أن نُقرّها»، ماذا يمكن أن يعني ذلك؟ لماذا تلك الأعداد على ظهر صور عشيقات مورفال؟ خمَّن مع ذلك، أحس بذلك، أن كل تلك الأشياء تتداخل، وأنه لا يجب إهمال أي منها، وأن لكل واحد أهميته.

راقب سيريناك. ليس من السهل تحديد ما إن كان مركِّزاً على طرق تأريخ خبير الرواسب، أو إن كان غير مهتم بالعملية برمتها. المشكل هو أن تقنية الأحجية ليست طريقة الرئيس. جهة كيس العقد، كان سيريناك سيميل إلى سحب خيط واحد من اللفيفة، بقوة، بقوة كبيرة. سيلفيو يحس أن ذلك ليس هو الحل، وأن ذلك سيشبك كل شيء بشكل أكبر، وأن كل ما يجازف به سيريناك هو أن ينقطع الخيط بين يديه. سيكون قد تقدم بحق.

لاحظ سيلفيو أن لوفيل قد أخرج من الرمل قنينته البلاستيكية الثالثة. هذه الطريق النهرية الملكية الانطباعية ليست نظيفة تماماً كما يُدّعى، إن تمَّ التنقيب فيها بعمق. حلل خبير الترسبات كل القطع التي تمَّ إخراجها بمنهجية احترافية، حكاية أن يثبت أنها إن لم تكن قد عرفت كلود مونيه حياً، فهي لم تلتقي بشكل عكسي جثة جيروم مورفال.

فكر سيلفيو مرة أخرى في سيريناك. لم يتوانَ عن محاولة تفسير كل شيء لرئيسه. هو متفق، سيريناك، متفق على كل شيء، الأعمدة، الأشياء الغامضة، غموض كلي. لكن ذلك لا يمنعه من أن ينغلق في حدسه: بالنسبة إليه، كل شيء يدور حول ستيفاني دوبان. المدرّسة في خطر. ذلك الخطر له اسم: جاك دوبان. هو لا يخرج من ذلك. موضوعياً، لو تفحّص الوقائع، سيلفيو يجد أن المدرسة تتوفر على وجه مشتبه بها بنفس كونها ضحية محتملة. قال ذلك لسيريناك، لكن

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

صاحب الرأس العنيد يفضِّل اتّباع حدسه بدل الوقائع الموضوعية. ماذا يستطيع أن يفعل حيال ذلك؟

فكر في ذلك كثيراً هذه الليلة، سيلفيو مثل بياتريس، يحب سيريناك كثيراً في الواقع. المفارقة هي أنهما رغم كونهما مختلفان، إلا أنه يحب العمل معه. مسألة تكامل ربما. لكنه يحس أن سيريناك لن يطول كثيراً في مفوضية فيرنون. تفوح رائحة النقل السريع! الحدس، في الشمال، ليس من الطرق المفضلة، خاصة عندما يكون ذلك الحدس متأثراً بما يعتمل في عقل شرطي أقل منه مما يحدث في سرو...

- أعتقد أني وجدت شيئاً!

العميل لوفيل هو الذي صاح. تجمَّع رجال الشرطة في الحال.

أدخل لوفيل يديه في الرمل وأخرج علبة مستطيلة، مسطحة. قدم خبير الترسبات كيساً من البلاستيك كي يسقط فيه الرمل. تدريجياً، بدأ يتضح ما يمسكه الشرطي في يده. ثم لم يعد هناك شكّ.

اكتشف العميل لوفيل علبة صباغة من الخشب.

تنهّد سيلفيو. ضربة أخرى من أجل لا شيء، فكّر. هي بلا شكّ علبة تركها أحد الرسامين، عندما أراد أن يرسم بالقرب من النهر. أي أحد. في جميع الأحوال، ليس مورفال، هذا الأخير كان يجمع اللوحات لكنه لم يكن يرسم.

وضع لوفيل اكتشافه على الشط بينما مرر خبير الترسبات الرمل الذي كان يغطي علبة الرسام في مجموعته من المناخل والأقماع. مرّ الرمل.

- منذ كم من الوقت هي هنا؟ سأل العميل موري الذي كان يهتم بمثل هذه الأشياء.

فحص خبير الترسبات ميناء مدرجاً في أصغر قمع.

- أقل من عشرة أيام، على الأكثر. هذه العلبة سقطت في الجدول بين يوم أمس كأقل تقدير ويوم مقتل مورفال كأعلى تقدير... أعتمد على الأمطار التي سقطت يوم 17 مايو. الطَّمي الذي يُحمل خلال هطول الأمطار له سمة مميزة. يأتي عكس التيار، ولم تمطر منذ ذلك الوقت. سأعطي هامشاً من خمسة أيام قبل وخمسة أيام بعد.

اقترب سيلفيو من الشاطئ. ذلك الاكتشاف أثار فضوله. علبة الرسم توجد في رمل الغدير منذ عشرة أيام، على الأكثر... التاريخ يمكن أن يوافق يوم الجريمة. تقدم سيريناك هو أيضاً. هما الاثنان يوجدان على أقل من متر من العلبة الخشبية.

- تفضل، سيلفيو، قال سيريناك. الشرف لك... تستحق أن تكون أول من يفتح هذا الكنز، قال وهو يغمز لمساعده. لكننا سنقتسم الغنيمة خمسة أجزاء متساوية.

- مثل القراصنة؟

- لقد فهمت كل شيء...

كان لودوفيك موري يضحك خلفهما. لم يحتج المفتش بينافيدس إلى أن يتوسل إليه وقرّب العلبة من عينيه. الخشب قديم، مصبوغ، الغريب أنه لم يفسد رغم بقائه في الماء. وحدها المفصلات الحديدية بدت صدئة. قرأ سيلفيو عبارة ممسوحة تقريباً بدت له ماركة، **وينسر آند نيوتن**، مكتوبة بحروف كبيرة تحت شعار يمثّل تنيناً بأجنحة. بحروف أصغر، عنوان ثانوي يحدد **ذي وورلدز فاينست أرتيستس ماتيريلز**. لم يفهم شيئاً، لكن بينافيدس يعرف أنها قطعة جميلة، وراقية، وأميركية، وقديمة؛

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

يجب أن يتحقق.

- إذاً، قال سيريناك بنفاد صبر، هل تفتحها، علبتك؟ نريد أن نعرف ماذا وجدنا. قطع ذهبية، حلي، بطاقة الإلدورادو...

انفجر لودوفيك موري من الضحك أيضاً. ليس من السهل معرفة إن كان العميل يحبذ مزاح رئيسه أو إن كان يبالغ. حرك سيلفيو، دون عجالة، المفصلات الصدئة. انفتحت العلبة، كأنها جديدة، كأنها استعملت أمس. توقع سيلفيو أن يجد فرشات وأنابيب صباغة مبتلة، ولوحة، وممسحة. لا شيء خاص...

يا إلهي!

كان المفتش بينافيدس على وشك أن يفلت العلبة في الجدول. إلهي... اختلط كل شيء في رأسه. ماذا لو كان مخطئاً منذ البداية، وأن سيريناك هو الذي كان على حق؟

تشنجت أصابعه على الخشب وصاح:

- بحق الرب، حضرة الرئيس، تعال لترى! بسرعة، تعال لترى!

اقترب سيريناك خطوة. وكذلك موري ولوفيل. استقبلها ذهول المفتش فجأة. أمسك بينافيدس العلبة مفتوحة أمام عينيهما. حدق رجال الشرطة في طرفي العلبة بخشوع أرثوذكس أمام أيقونة بيزنطية.

قرؤوا جميعهم العبارة نفسها، منقوشة بالسكين، على خشب العلبة الواضح: **هي لي هنا، الآن، وإلى الأبد.**

النص المنقوش يتبعه خطان متعامدان. صليب. تهديد بالموت...

- تباً! صرخ المفتش سيريناك. رمى أحد العلبة في الغدير منذ أقل من عشرة أيام! ربما في نفس يوم مقتل مورفال!

مسح بكمه العرق الذي لمع على جبينه، وتابع:

- سيلفيو، ستجد فوراً خبيراً في علم الخطوط وتقارن هذه

العبارة المنقوشة على الخشب مع خط كل الرجال الذين خانتهم زوجاتهم في القرية. وستضع جاك دوبان الأول على القائمة!

نظر سيريناك في ساعته. الحادية عشرة وثلاثون دقيقة.

- وأريد ذلك قبل هذا المساء!

نظر مطولاً إلى المغسل، قبالته مباشرة. ترك الإثارة تخف ووجّه ابتسامة صادقة إلى الرجال الأربعة الذين يحيطون به.

- عمل جيد، أيها الفتيان! سننهي التنقيب في النهر وسنحرر المكان. أعتقد أننا اصطدنا أكثر سمكة كانت تختبئ فيه.

رفع إصبعاً نحو العميل موري.

- إنها فكرة عجيبة مستنيرة تلك التي خطرت عليك، لودو. جرف النهر. نحن نمسك دليلاً، شباب. أخيراً!

لم يستطع موري أن يقاوم. ابتسم مثل طفل حصل على نقطة جيدة. من جهته، سيلفيو بينافيدس يحذر الحماس المتسرع. بالنسبة إلى رئيسه، «هي» في الرسالة «هي لي هنا، الآن وإلى الأبد» لا يمكن أن تعني سوى امرأة، والتهديد لا بدَّ صدر عن زوج غيور... من الأفضل أن يكون جاك دوبان. لكن سيلفيو يفكر أن «هي» في الرسالة يمكن على العكس أن تعني أي شيء. ليس امرأة بالضرورة. «هي لي» يمكن أيضاً أن تخص طفلة في الحادية عشر، أو أي شيء مؤنث. لوحة، مثلاً.

واصل رجال الشرطة التنقيب في النهر بمنهجية، لكن برغبة متضائلة. لم يكشفوا سوى بقايا نادرة. دارت الشمس بلطف وغطى ظل قلعة مولان دو شونوفيير مسرح الجريمة التي بدأ رجال الشرطة يغادرونها. قبل أن ينصرف، رفع سيلفيو بينافيدس عينيه عدة مرات

نحو قلعة الطاحونة: يستطيع أن يقسم أنه رأى ستارة تتحرك فوق، في الطابق الرابع. في اللحظة الموالية، كان قد نسي ذلك. لديه أشياء عديدة ليفكر فيها.

- 48 -

- هل ترك كلود مونيه ورثة؟ أحياء، أريد أن أقول؟

فاجأ سؤال المفوض لورانتان أخيل غيوتان. لم يذهب المفوض المتقاعد عبر طرق ملتوية، بحسب ما قاله له سكرتير متحف الفنون الجميلة في روان. اتصل بالمتحف بالهاتف وطلب أن يتحدث مع أفضل خبير في كلود مونيه. باختصار، فلنقل معه، أخيل غيوتان! وافاه السكرتير بسرعة على هاتفه النقال. كان في اجتماع مع القسم الثقافي للمجلس العام من أجل العملية «نورماندي انطباعية». اجتماع لا ينتهي. خرج تقريباً سعيداً في الممر.

- كلود مونيه، ورثة... طيب، حضرة المفوض، صعب أن...

- كيف هذا، «صعب»؟

- حسناً... سأحاول أن أكون واضحاً ما أمكن: كان لكلود مونيه ولدين مع زوجته الأولى، كاميل دونسيو: جان وميشيل. تزوج جان بلانش، ابنة زوجته الثانية، أليس هوشيديه. توفي جان سنة 1914، بلانش سنة 1947؛ لم يكن للزوجين أطفال. ميشيل مونيه توفي سنة 1966، كان آخر ورثة كلود مونيه. سنوات من قبل، في وصيته، عيَّن ميشيل مونيه متحف المارموتان، يعني أكاديمية الفنون الجميلة، وريثه الوحيد. متحف المارموتان، في باريس، يضم اليوم مجموعة

«مونيه وأصدقائه»، أكثر من مئة وعشرين لوحة. أهم مجموعة من...

- لا ورثة إذاً، قاطعه لورانتان. انطفأت ذرية كلود مونيه في جيل واحد.

- ليس تماماً، حدد غيوتان بابتهاج واضح.

سعل لورانتان في السماعة.

- عفواً؟

تعمّد غيوتان أن يدع لحظة تشويق، ثم:

- كان لميشيل مونيه ابنة طبيعية من عشيقته، غابرييل بونافنتور، امرأة رائعة كانت تشتغل عارضة أزياء. انتهى الأمر بميشيل مونيه إلى أن أضفى الطابع الرسمي على علاقتهما وتزوج غابرييل بونافنتور، في باريس، سنة 1931، بعد وفاة والده.

انفجر المفوض لورانتان في الهاتف:

- في هذه الحالة، هذه الفتاة الطبيعية هي الوريثة الأخيرة! هي حفيدة كلود مونيه...

- لا، أجاب غيوتان بهدوء. لا. الغريب هو أن ميشيل مونيه لم يعترف أبداً بابنته الطبيعية، حتى بعد زواجه. هي لم تلمس ولا سنتاً من الإرث الضخم لجدها.

أصبح صوت المفوض لورانتان من دون نغمة:

- وماذا كان اسم تلك الفتاة الطبيعية؟

تنهد غيوتان.

- نجد اسمها في جميع الكتب عن مونيه. كان اسمها هنرييت. هنرييت بونافنتور. لا أدري لماذا أستعمل الماضي. يجب أن تكون لا تزال على قيد الحياة، على الأقل هذا ما أعتقده.

الرابعة وواحد وثلاثون دقيقة عصراً. بالضبط.

وهي خارجة من المدرسة، لم تضيع فانيت ثانية واحدة. اجتازت شارع بلانش-هوشيدي-مونيه وجرت مباشرة نحو فندق بودي! هي تعرف ذلك، هناك كان ينام الرسامون الأميركيون في وقت مونيه، روبنسون، بتلر، ستانتون يونغ. تعرف القصة، حكتها لهم المدرّسة. هناك بالضرورة، يجب أن ينام فنان أميركي. ألقت لمحة خاطفة على الموائد والكراسي الخضراء في الشرفة المقابلة، في الجهة الأخرى من الشارع، ثم دخلت كالإعصار إلى الفندق-المطعم.

الجدران تغطيها الرسوم واللوحات. يخال المرء نفسه في متحف! أدركت فانيت أنها أول مرة تدخل إلى فندق بودي. ودت لو تستطيع تأمل التوقيعات المرموقة في زاوية الإعلانات، لكن نادلاً نظر إليها من وراء طاولته. اقتربت فانيت. إنها طاولة مرتفعة من خشب البلوط، وقفت فانيت على أطراف أصابعها كي يظهر رأسها. ارتفعت أمام الرجل وهي تستعمل يديها. يحمل لحية سوداء، تشبه بورتريهات رينوار التي كان يرسمها مونيه.

لا يبدو ظريفاً!

تحدثت فانيت بسرعة، تعثرت، وتلعثمت، لكن رينوار استطاع أخيراً أن يفهم أن الفتاة الصغيرة تبحث عن فنان أميركي، «جيمس»، لا، هي لا تعرف اسمه العائلي. عجوز، لحية بيضاء. أربع حاملات لقماشات الرسم...

بدا رينوار متأسفاً.

- لا، آنستي. لا نأوي أحداً يشبه جيمس الذي تتحدثين عنه.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

اللحية تغطي فمه، ليس من السهل تخمين ما إن كان يشعر بالتسلية أو بالانزعاج.

- تعرفين، آنستي، الأميركيون، مرَّ وقت طويل منذ لم نعد نراهم بالعدد الذي كنا نراهم عليه في زمن مونيه...

حقير! أنت مجرد حقير، رينوار!

خرجت فانيت إلى شارع كلود مونيه. بول ينتظرها في الخارج، حكت له كل شيء خلال الاستراحة.

- إذاً؟

- لا شيء، لا أحد!

- ماذا ستفعلين؟ هل ستنظرين في باقي الفنادق؟

- لا أعرف؛ أنا لا أعرف حتى اسمه العائلي. بالإضافة إلى أني أحس أن جيمس كان ينام في الخارج، غالب الوقت.

- يمكن أن نحدّث الآخرين. فينسنت. كاميل. ماري. إن فتشنا كلنا...

- لا!

صرخت فانيت. استدار بعض زبائن فندق بودي الجالسون في الشرفة المقابلة.

- لا، بول. فينسنت، مع خداعه، لم أعد أطيقه، منذ بضعة أيام... كاميل، إذا أخبرناه، سيسرد علينا كل أسماء الرسامين الأميركيين الذين جاؤوا إلى جيفرني منذ ما قبل التاريخ. هذا سيجعلنا فعلاً نحرز تقدماً.

ضحك بول.

- وماري أسوأ، في البداية ستبكي، وبعد ذلك مباشرة ستذهب

لتقص كل شيء على الشرطة. هل تريد أن تقلع والدتي عينَي؟

- إذاً، ماذا سنفعل؟

تأملت فانيت المنتزه أمام فندق بودي، إلى حدود طريق روي: أكوام التبن الملفوفة تحدث بعض الظل على الساحة المعشوشبة، المرج الذي يمتد خلفها إلى مصب الأوب والسين، جزيرة القراص الشهيرة.

هذه هي المناظر التي كانت تجعل جيمس يحلم... المناظر التي هجر من أجلها كل شيء. كونيتيكت، زوجته، أبناءه. أخبرني هو بذلك.

- لا أعرف، بول. هل تعتقد أني مجنونة، هيه؟

- لا

- كان ميتاً، أقسم...

- أين بالضبط؟

- في حقل القمح، بعد المغسل، بعد طاحونة الساحرة.

- سنذهب إلى هناك...

هبطا شارع غراند جاردان. ارتفاع الأسوار الحجرية لواجهات البيوت يبدو كأنه حُسِبَ بالضبط كي يغطي الظل الزقاق. جعلت البرودة فانيت ترتعش.

حاول بول أن يطمئن صديقته:

- قلت لي إن جيمس كان يضع أربع حاملات قماش كي يرسم! بالإضافة إلى كل الأدوات، الألواح، السكاكين، علبة الصباغة. يوجد بالضرورة أثر، بقي بالضرورة أثر هناك...

أمضى فانيت وبول أكثر من ساعة في حقل القمح. اكتشفا فقط سنابل قمح مضطجع، كأن أحداً قد مات، هناك...

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

على الأقل، تابوت القش لم أحلم به...

أو، حدد بول، كأن أحداً اضطجع هنا بضع دقائق. كيف يمكن أن نحدد الفرق؟

انتهى الأمر ببول وفانيت إلى العثور على سنابل مبقعة بالصباغة. البعض منها ملون بالأحمر، ربما كان دماً، لا يعرفان. كيف يمكن تفرقة نقطة دم عن نقطة صباغة حمراء؟ يوجد أيضاً قطع من أنابيب الصباغة، مهشمة. لكن ذلك لا يبرهن على أي شيء، لا شيء. عدا أن أحداً كان يصبغ هناك، غالباً... فانيت كانت تعرفه بالفعل.

أنا لست مجنونة.

- من غيره يمكن أن يكون قد رآه، رسامك؟ سألها بول.

- لا أعرف، فينسنت؟

- عدا فينسنت؟ من؟ شخص راشد؟

نظرت فانيت نحو الطاحونة.

- لا أعرف، أحد الجيران... ربما ساحرة الطاحونة... من فوق برجها، لا بدَّ أنها رأت كل شيء!

- هيا بنا!

اعطيني يدك، بول. اعطيني يدك!

- 50 -

لا يمكن أن أفوتهما. أراهما يقتربان، الطفلان! مرا على الجسر فوق الغدير وألقيا فقط نظرة على الضفتين. المكان نفسه الذي وجد فيه رجال الشرطة علبة الصباغة الغارقة في الرمل.

الآن، لا يوجد ولا شرطي واحد، لا وجود للشريط الأصفر، لا

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وجود للشخص صاحب النظارة مع أقماعه. لا يوجد سوى جدول الأوب، وأشجار الحور، وحقل القمح. كأن شيئاً لم يحدث، كأن الطبيعة لا تهتم لذلك.

وهذان الصبيان اللذان لا يشكان بشيء، اللذان يقتربان. بريئان. لو عرفا الخطر الذي يداهمهما، الأحمقان. اقترِبا، أبنائي، اقترِبا، لا تخافا، تجرآ على الدخول عند الساحرة... كما في حكايات الأطفال، كما في قصة بياض الثلج. لا تخافا من الساحرة. اقترِبا، أيها الطفلان... احذرا، ليست تفاحتي هي المسمومة. إنه الكرز.

مسألة ذوق...

ابتعدتُ ببطء من نافذتي. رأيت ما يكفي.

من الخارج، لا يستطيع أحد أن يلمحني، لا أحد يمكنه أن يعرف إن كنت موجودة أم لا. إن كانت طاحونتي مهجورة أو مسكونة. لا ضوء يخونني. الظلام لا يزعجني، على العكس.

استدرت نحو «النيلوفر» الأسود. حالياً، أحب أكثر فأكثر مراقبتها على هذا النحو، في الظلام. مع عتمة الغرفة، يبدو الماء المرسوم على اللوحة كأنه يختفي تقريباً، تتلاشى الانعكاسات النادرة على سطح البركة، لا نتبيَّن سوى زهور النيلوفر الصفراء في الليل، مثل نجوم ضائعة في مجرة بعيدة.

- لا يوجد أحد، قلت لك، أصرت فانيت.

نظرت الفتاة إلى فناء الطاحونة باهتمام. صفائح خشبية متسوسة

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تُنقع في ماء الغدير. على حجر البئر دلو صدئ، أفسده الطحلب. ظل شجرة الكرز الكبيرة يغطي كل الساحة تقريباً.

ألحَّ بول.

- سنرى بحق...

دقّ على الباب الخشبي الثقيل. بدوره، تأمل الظلال الراقصة في الساحة الترابية، كأن الأشياء، والأسوار، والأحجار قد تركت هناك، تحت الشمس، كي تجف، إلى الأبد.

- أنتِ على حق، هذه الطاحونة تثير الخوف، قال بول.

- في الواقع، لا، أجابت فانيت. في الحقيقة، أعتقد أني سأحب أن أعيش في مكان مشابه. سيكون شيئاً رائعاً جداً أن يسكن المرء بيتاً مختلفاً عن الآخرين.

أحياناً، لا بدَّ أن يجدني بول غريبة.

دار بول حول الطاحونة وحاول أن ينظر عبر نافذة الطابق الأول. رفع عينيه نحو البرج ثم استدار نحو فانيت. لوَّى فمه و أصابعه.

- أنا متأكككد من وجود ساحرة تسكن هنا، فاااانيت... هي تكككره الرسم، ستـ...

- لا تقل ذلك!

لا بدَّ أنه خائف، بول. أرى ذلك جيداً. هو يتباهى، لكنه خائف!

فجأة، نبح كلب من الجهة الأخرى من الطاحونة.

- تباً، فلنرحل.

أمسك بول الفتاة من يدها لكن الفتاة انفجرت من الضحك.

- مغفل! إنه نبتون، هو ينام دوماً هنا، في ظل شجرة الكرز.

فانيت على حق. في الثواني التالية اقترب نبتون، نبح مرة أخرى وجاء يتمسح بساقي الفتاة. مالت نحو الراعي الألماني.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

- نبتون، أنت كنت تعرف جيمس جيداً، لقد رأيته أمس، في الحقل. لقد وجدته. شممته. أين هو الآن؟

أنت على الأقل تعرف أني لست مجنونة!

جلس نبتون. تأمل فانيت لحظة طويلة. تبعت نظرته لحظة فراشة تمر، ثم شبيهاً بسحلية متعبة على جدار حجري، انجر إلى ظل شجرة الكرز. تبعته فانيت بعينيها. أدركت فجأة أن بول قد تسلق الشجرة.

- هل جننت، بول! ماذا تفعل؟

لا جواب. ألحّت فانيت.

- ثمار الكرز ليست ناضجة. أنت مجنون!

- لكن لا، ليس هذا! قال بول.

في اللحظة الموالية، كان الطفل قد نزل. في يده اليمنى يلمع شريطان من الفضة.

أحياناً يكون بول مغفلاً. إن كان يعتقد أنه في حاجة إلى لعب دور طرزان كي أحبه...

- إنه... شرح بول وهو يستعيد أنفاسه. إنه من أجل إبعاد الطيور التي تحوم حول الثمار الجميلة!

قفز على رجليه، رافعاً سحابة خفيفة من الغبار، ثم تقدم، وضع إحدى ركبتيه على الأرض ومدَّ ذراعه في وضعية فارس قرن أوسطي.

- من أجلك، أميرتي، فضة كي تجعل شعرك يلمع، كي تحميك دوماً من النسور الشريرة، عندما ستكونين بعيدة، مشهورة، في الطرف الآخر من العالم.

حاولت فانيت أن تمسك دموعها. مستحيل! هذا كثير، كثير جداً على فتاة صغيرة مثلها: اختفاء جيمس، الخناقات مع والدتها بخصوص الرسم، بخصوص والدها، بخصوص كل شيء، مباراة

مؤسسة روبنسون، «النيلوفر» خاصتها، وبالأخص هذا الأحمق بول، وأفكاره الرومانسية الغريبة.

إنه غبي، بول! غبي جداً!

أطلقت فانيت شريطي الفضة في راحة يدها وبالأخرى داعبت وجنة بول.

- انهض أيها الأحمق.

لكنها هي التي انحنت، إلى مستوى فمه، وطبعت عليه قبلة.

طويلة، طويلة، طويلة. كأنها إلى الأبد.

بكت دون أن تمسك نفسها، الآن.

- أحمق. أحمق. ستتحملها طوال حياتك في شعري، هذه الشرائط الفضية. لقد قلت لك إننا سنتزوج!

نهض بول بهدوء وأخذ فانيت بين ذراعيه.

- هيا، سنذهب. نحن أحمقان. كان هنا ميت، أمس. ثم أيضاً آخر، الرجل المقتول، منذ أيام. يجب أن نترك الشرطة تهتم بذلك. يوجد خطر، لا يجب أن نبقى هنا...

- وجيمس؟ يجب أن...

- ليس هنا، هو ليس هنا... لا يوجد هنا أحد. فانيت، إن كنت متأكدة، أظن أن عليك أن تخبري الشرطة! نحن لا نعرف أبداً، ربما كان لموت جيمس علاقة مع الشخص الآخر الذي وجد ميتاً، هل ترين ما أود قوله، الجريمة التي يتحدث عنها كل الناس في القرية.

- لا!

لا! لا! لا تزرع الشك في رأسي، بول، لا!

- من إذاً سيصدقك، فانيت؟ لا أحد! كان جيمس يعيش مثل متشرد. لا أحد كان يلقي له بالاً.

توقفا لحظة أمام طريق روي، انتظرا أن تكون الطريق الإقليمية خالية، ثم اجتازها. بعض السحب الخفيفة بدأت تتمسك بقمم تلال السين. صعدت دون تسرع نحو جيفرني. فجأة توقف بول.

- والمدرّسة؟ لماذا لا تتحدثين مع المدرّسة؟ هي تحب الرسم. لقد أعلنت عن مباراة الرسامين المبتدئين، لمؤسسة روبنسون. ربما تكون قد التقت جيمس... في جميع الأحوال، ستفهمك... ستعرف كيف تتصرف...

- تظن ذلك؟

تخطى العديد من المارة الولدين في الشارع. دار بول حول نفسه.

- أنا متأكد! إنها الفكرة السديدة.

مال نحو فانيت كأنه سيسر لها بسر.

- سأخبرك سراً، فانيت، لقد لاحظت أن المدرّسة تربط هي أيضاً في شعرها شرائط فضية... كي أقول لك، أظن أن الأميرات يُعرفن بهذا الشكل في جيفرني.

أمسكت فانيت يده.

أود لو يتوقف الوقت. أن نقف أنا وبول ولا نتحرك، أن يكون الديكور حولنا هو فقط من يتحرك، من دون توقف، كما يحدث في السينما.

- يجب أن تَعِديني بشيء، فانيت.

التفّت يداهما مثل أغصان.

- يجب أن تنهي لوحتك، فانيت. يجب أن تفوزي بمباراة روبنسون، مهما حصل! هذا هو الأهم.

- لا أعر...

- هذا ما كان جيمس سيقوله، أنت تعرفين ذلك جيداً. هذا ما كان جيمس سيرغب به...

- 52 -

سينعطف الولدان نحو شارع شاتو-دو، سيغيبان عن بصري. عبر الستارة المسحوبة، أصبح خيالاهما ضبابييَن تقريباً.. نبتون، هو، لا يهتم بكل هذا. هو سينام تحت شجرة الكرز.

تلك الفتاة المسكينة تعتقد أنها ستفلت. تريدون أن تضحكوا! تعتقد أنها ترسم عملاً عظيماً، ذلك الذي أخفته تحت المغسل، تعتقد أن بإمكانها أن تطير فوق بركة مونيه. فوق جيفرني. أن تتحدى الجاذبية فقط بفنِّها، بعبقريتها الفذة التي تعزف على أذنيها.

«نيلوفر» على شكل قوس قزح! مسكينة فانيت الصغيرة.

يا لها من سخرية!

استدرت نحو «النيلوفر» الأسود خاصتي. التويجات الصفراء تلمع بين ألوان الحداد التي رمتها فرشاة فنان يائس.

يا له من غرور!

سقوط حر في البركة، هذا ما ينتظر الصغيرة فانيت. غارقة، عالقة تحت سطح النيلوفر كأنها تحت طبقة ثلج في مياه بحيرة في الشتاء.

قريباً، قريباً جداً.

لكل واحد دوره.

- اليوم الحادي عشر -

23 مايو 2010
(طاحونة شونوفيير)

ضراوة

- 53 -

لمرة، أنا لست في نافذتي أتجسس. مفاده، كما ترون، رغم المظاهر، أنا لا أقضي أيامي فقط أتجسس حوالي. أخيراً، ليس ذلك فقط.

هذا الصباح، على أي حال، في الخارج، صوت المناشير جهنمي. لقد علمت بذلك منذ وقت قصير. لقد قرروا، على ما يبدو، قطع أربعة عشر هكتاراً من أشجار الحور. أجل، قطع أشجار الحور! هنا في جيفرني! بحسب ما فهمته، غرست هذه الأشجار في بداية السنوات 1980، شجيرات صغيرة في تلك الفترة، بلا شك كي يصبح المشهد أكثر انطباعية. إلا أنه منذ ذلك الحين، شرح بعض الخبراء، آخرون بلا شك، أن هذه الأشجار لم تكن موجودة في زمن مونيه، وأن مشهد المرج الذي كان يتمتع به الرسام من نافذة بيته كان مفتوحاً، وأنه كلما نمت أشجار الحور كلما غطى ظلها الحديقة والبركة والنيلوفر... كلما قلّ تعرُّف السياح إلى خلفية لوحات مونيه. إذاً، لقد تقرر بالفعل، بعد أن غرسوا أشجار الحور،

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أن يقطعوها! لماذا بعد كل شيء، إذا كان ذلك يعجبهم. يوجد من سكان جيفرني من يصرخ، ويوجد من يصفق. أنا، سأقول لكم، اليوم، أنا لا أبالي.

عندي اهتمامات أخرى. هذا الصباح أرتِّب ذكريات قديمة، أشياء يعود تاريخها لما قبل الحرب، صور بالأبيض والأسود، ذلك النوع من الأشياء الذي لا يهم سوى العجزة مثلي. لقد فهمتم، لقد انتهى الأمر بأن قررت إفراغ المرأب كي أجد الصندوق القديم المعوج الذي كان يربطه خيط من الكتان. كان مختبئاً تحت ثلاث طبقات من شرائط الفيديو، وطبقة من أقراص الفينيل، وعشرة سنتمترات من كشوف الحساب الخاصة بالقرض الفلاحي. طويت شرشف الطاولة على أربع ونشرت الصور.

بعد محركات المناشير منذ ساعة، هذه المرة، الصفارات هي التي أعادتني إلى أرض الواقع، مثلما يشتت رنين منبّه أحلامكم الصباحية، هل تفهمون ما أود قوله؟

صفارة الشرطة التي تصفر على طول طريق روي.

في اللحظة التي سبقت بالضبط، كنت أبلل بدموعي الصورة المهمة الوحيدة، في الواقع، صورة فصل. جيفرني. 1936-1937. نعم أقركم على ذلك، إنها قديمة! كنت أدقق في صور حوالي عشرين تلميذاً كانوا كلهم يجلسون عاقلين على ثلاثة مقاعد خشبية. أسماء التلاميذ مكتوبة على الظهر، لكني لم أحتج إلى قلب الصورة.

على المقعد، ألبرت روزالبا يجلس بالقرب مني. بطبيعة الحال. نظرت مطولاً إلى وجه ألبرت. أخذتُ الصورة بعد الدخول بوقت قصير، في عيد جميع القديسين، أو في تلك الأسابيع.

قبل الفاجعة...

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

في تلك اللحظة صمَّت صفارة الشرطة أذني.

نهضتُ، تشكّون في ذلك. حارس سجن، حتى لو كان لاهياً، لا يسرع إلى مرصد المراقبة عندما يدق الإنذار! جريت إلى نافذتي. في الواقع، جريت هي طريقة كلام. أمسكت عصاي وبمشقة توجهت نحو النافذة، وأنا أدفع الستارة خفية بواسطة عصاي.

لم أفلت شيئاً. يستحيل إفلاتهم، رجال الشرطة! خرج جميع الفرسان. ثلاث سيارات. صفارات وأضواء ساطعة.

لا شيء يقال. إنه يبالغ، ذلك المفتش سيريناك!

- 54 -

رفع سيلفيو بينافيدس عينيه نحو قلعة الطاحونة التي مرت بأقصى سرعة على يمينه.

- عجباً، قال سيلفيو بين تثاؤبين. لقد مررت على الطاحونة، قلت لي حضرة الرئيس إن علي ألا أغفل أي شاهد، خاصة الجيران...

- وإذاً؟

- غريب. الطاحونة كأنها خالية. مهجورة، إن شئت.

- هل أنت متأكد؟ تبدو الحديقة في حال جيد، الواجهة أيضاً. عدة مرات، عندما كنا في مسرح الجريمة، قرب الغدير، ظننت أني أرى حركة في الطاحونة، خاصة فوق، في الطابق الأخير من القلعة... ستارة تتحرك في النافذة، شيء من هذا القبيل.

- أنا أيضاً، حضرة الرئيس، انتابني الإحساس نفسه. أنا أيضاً. مع ذلك لم يجبني أحد، والجيران يؤكدون أن لا أحد يسكن في المكان منذ أشهر.

- غريب... لن تعيد علي مسألة صمت القرية، كذبة متواطئة من كل السكان، كما بالنسبة إلى حكاية طفل الحادية عشر؟

- لا...

تردد سيلفيو لحظة.

- كي أخبرك كل شيء، السكان يطلقون على ذلك المكان طاحونة الساحرة.

ابتسم سيريناك وهو ينظر إلى انعكاس القلعة يختفي في مرآة السيارة.

- في هذه الحالة، ستكون بالأحرى طاحونة الشبح، لا؟ هيا، انسَ الأمر، سيلفيو. في الوقت الراهن، لدينا حالات طارئة أخرى.

أسرع سيريناك أكثر. مرت حدائق مونيه على شماله في نصف ثانية. لن يحصل راكب على رؤية أكثر انطباعية للحديقة.

- حسناً، أضاف لورنس. بحديثنا عن صمت القرية... هل تعرف ماذا أخبرتني ستيفاني دوبان أمس، بخصوص بيت مونيه ومراسمه؟

- لا

- أننا بقليل من البحث سنجد، بالكاد مخفية، عشرات من لوحات الأساتذة. رينوار، وسيسلي، وبيسارو... وبطبيعة الحال، لوحات «نيلوفر» لم تنشر لمونيه.

- هل رأيتها؟

- باستيل لرينوار. ربما...

- لقد كانت تسخر منك، حضرة الرئيس!

- بطبيعة الحال... لكن لماذا تقص علي تلك القصة؟ حتى أنها أضافت أنه نوع من الأسرار المحفوظة، في جيفرني...

فكّر سيلفيو خفية في الحديث الذي أجراه مع أخيل غيوتان

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بخصوص لوحات مونيه المفقودة. لوحة مفقودة يمكن أن تسقط بين يدي رجل مجهول، لم لا؟ مثل «النيلوفر» الأسود الشهير. لكن عشرات!

- إنها تلاعبك، حضرة الرئيس. إنها تخدعك. أخبرتك ذلك منذ البداية... وعندي إحساس أنها ليست الوحيدة في هذه القرية.

لم يعقّب سيريناك وركز انتباهه على الطريق، دون أن يخفف من السرعة. أمال سيلفيو وجهه الشاحب نحو النافذة المفتوحة. حاول أنفه امتصاص نفحات من الهواء النقي.

- هل كل شيء على ما يرام، سيلفيو؟ قال سيريناك بقلق.

- أقصى حدّ... اضطررت إلى شرب عشرات الفناجين من القهوة كي أصمد هذه الليلة. هذا الصباح قرر الأطباء أن يحتفظوا بها إلى النهاية.

- كنت أعتقد أنك لا تشرب سوى الشاي، من دون سكر؟

- أنا أيضاً، كنت أظن...

- ماذا تفعل هنا، إذاً، إذا كانت زوجتك في جناح الولادة؟

- سيتصلون بي إن استجد شيء... سيمر طبيب النساء... الجنين في الدفء في شرنقته، هادئ، يمكن أن يستمر الوضع أياماً بحسب رأيهم...

- وبالمرة، أمضيت الليل تشتغل على القضية؟

- ربحت... يجب أن أشغل نفسي، لا؟ بياتريس نامت نوماً عميقاً في غرفتها طوال الليل.

حوَّل سيريناك اتجاهه نحو مرتفعات جيفرني، شارع بلانش-هوشيدي-مونيه. ألقى سيلفيو نظرة نحو المرآة. تتبعه سيارتا الشرطة الأخريين من الخلف. تمسّك موري ولوفيل. أحس سيلفيو بالغثيان.

- لا تقلق، واصل سيريناك. القضية مورفال ستطوى في أقل من ثلاثين دقيقة من الآن. يمكنك أن تضع سرير مخيم في المستشفى! ليلاً ونهاراً. خبراء الخطوط كانوا واضحين: تلك الرسالة المنقوشة على علبة الصباغة، «هي لي هنا، الآن، وإلى الأبد»، توافق خط جاك دوبان... اعترف بأني كنت على حق، سيلفيو. كانت موقعة!

تجرَّع سيلفيو الهواء الخارجي بشهيق طويل. يصعد الطريق هوشيدي-مونيه بشكل ملتوٍ على طول التل وسيريناك يقود دائماً مثل مجنون. تساءل بينافيدس إن كان يستطيع أن يتحمل كل فترة الصعود. استنشق جرعة كبيرة من الهواء ثم أدخل رأسه في السيارة.

- خبيران من ثلاثة فقط، حضرة الرئيس... واستنتاجاتهما ليست دقيقة... بحسب قولهما، يوجد تشابه بين الكلمات المنقوشة على الخشب وخط دوبان، لكن أيضاً العديد من المعايير المتنافرة. أنا أميل إلى الإحساس بأن الخبراء لا يفهمون شيئاً...

طبطبت أصابع سيريناك على المقود بعصبية.

- اسمع، سيلفيو، أنا أعرف أن أقرأ التقارير مثلك. يوجد تشابه مع خط دوبان، إنه تحليل الخبراء، لا؟ بالنسبة إلى باقي الاختلافات، أعتقد ببساطة أن النقش على الخشب بشفرة، ليس تماماً مثل التوقيع على شيك. كل شيء يترابط، سيلفيو، لن نعقّد الحياة حولك. دوبان غيور أحمق مجنون. أولاً، هو يهدد مورفال بواسطة الرسالة على البطاقة البريدية، نص أراغون المقتطف من قصيدة «نامفي»، «جريمة أن نحلم أقبل أن نُقرّها»؛ ثانياً، يكرر تهديداته من خلال الرسالة على علبة الصباغة؛ ثالثاً يصدم الغريم...

تضيق الطريق هوشيدي-مونيه الآن حتى تصبح شريطاً من مترين من القار، تواصل الدوران حتى توافي هضبة فيكسا. تردد سيلفيو

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

مرة أخرى في معارضة سيريناك، وإخباره أنه أمام تناقضات الخبرة الخطية بيليسيي، فإن خبير قصر عدالة روان يذكر إمكانية محاولة تقليد خرقاء...

منعطف قصير جهة اليسار.

تفادى سيريناك، الذي كان يسير وسط الطريق، جراراً قادماً من الناحية المقابلة. توجه المزارع مرعوباً نحو الفجوة. خيراً فعل. نظر غير مصدق إلى سيارتَين باللون الأزرق تقطعان عليه الأولوية.

- بحق الرب! صاح سيلفيو وهو ينظر في المرآة.

أخذ نفساً طويلاً، ثم استدار نحو لورنس سيريناك.

- لكن حضرة الرئيس، ما دخل علبة الصباغة في هذه القضية؟ بحسب التحاليل، عمر علبة الصباغة هذه هو على الأقل ثمانون سنة. قطعة من مجموعة! وينسر آند نيوتن، الماركة الأكثر شهرة في العالم، بحسب ما يبدو هي التي تموِّل الرسامين منذ أكثر من مئة وخمسين عاماً... من هو صاحب العلبة؟

واصل سيريناك تخطي المنعطفات الضيقة. بالكاد رفعت الأغنام المتراخية في الساحات المعشوشبة على التل رؤوسها عند مرور السيارات المزمجرة.

- كان مورفال هاوي مجموعات، قال سيريناك. كان يحب الأشياء الجميلة...

- لم يرَ أحد عنده أبداً علبة الصباغة هذه! باتريسيا، أرملته، حاسمة. دون أن ننسى أن الرابط مع الجريمة ليس قائماً. هذه العلبة يمكن أن يكون أي أحد قد رماها في النهر عدة أيام بعد مقتل مورفال...

كما لو كي يجيبه، قطع المفتش سيريناك صفارة الإنذار واتجه

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

بالسيارة إلى موقف ترابي صغير.

- اسمع، سيلفيو، عندي دافع، وعندي تهديد للضحية بخط دوبان، الذي لا يتوفر على حجة غياب ويقدم لنا قصة غريبة عن حذاء مسروق... أنا أندفع! عندما تتجمع الأجزاء الخاصة بلغزك بشكل آخر، أعمدتك السخيفة الثلاث، أخبرني. ثم ضدّ دوبان، توجد... حتى لو أني أعرف أنك لست موافقاً... قناعتي الشخصية!

خرج سيريناك من السيارة دون أن ينتظر الإجابة. عندما وضع سيلفيو بدوره قدميه خارج السيارة، أحس بالأرض تدور من حوله. قال لنفسه إن القهوة قطعاً، مثل الإفراط عامة، لا تناسبه وإنه سيذهب ليفرغ كل شيء خلف أشجار التنوب. في طرف الموقف.

غير أن ذلك لن يحدث خفية... ثلاث شاحنات لرجال الدرك ركنت في كل طرف من الموقف وحوالي عشرة من رجال الشرطة يخرجون منها وهم يمدون أطرافهم. في اللحظة التالية، اعتقد لوفيل وموري نفسهما مضطرين لإيقاف عجلاتهما والانزلاق على الحصى.

الحمقى!

لقد استعمل الرئيس الوسائل الكبرى. على أقل تقدير، حوالي خمسة عشر رجلاً، جزء كبير من مفوضية فيرنون، بالإضافة إلى درك باس-سير-أور وإكوس. لقد بذل جهداً كبيراً، فكر سيلفيو وهو يمضغ علكاً بالكلوروفيل أعطاه إياه لوفيل. وأظهر رغبة للتنظيم لا لزوم لها.

كل هذا بسبب رجل واحد.

صحيح، أنه مسلح بلا شك!

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لكننا لسنا حتى متأكدين من أنه مذنب.

هرب الأرنب الأصهب يائساً على الساحة المعشوشبة الجيرية، كأن أحداً قد أخبره أن الأنابيب الفولاذية الطويلة التي تحملها الظلال الثلاثة أمامه كانت قادرة على أن تنزع منه الحياة في ومضة بيضاء.

- إنه لك، جاك.

لم يرفع جاك دوبان بندقيته. راقبه تيتو مندهشاً، ثم صوّب بندقيته. متأخر. اختفى الأرنب البري بين شجرتي عرعر.

لكل سحره.

لا يوجد أمامهما سوى العشب الذي رعت فيه قطعان الأغنام التي تمَّ إدخالها حديثاً. واصلا النزول نحو جيفرني عبر طريق الأستراغال.

- عجباً، جاك، لست في حال جيد، قال باتريك. حتى لو كان كبشاً، أظن أنك كنت ستخطئه.

هز تيتو، القناص الثالث، رأسه كي يؤكد. تيتو هو قناص ماهر. لو لم يكن قد ترك الأرنب البري لجاك، لم يكن ليفلته... الدقة في الضغط على الزناد، كما يقول له الأصدقاء. لأنه بالنسبة إلى الباقي مسألة دقة...

- بسبب التحقيق حول مقتل مورفال، هيه؟ لاحظ وهو يستدير نحو جاك دوبان. أنت خائف أن تضعك الشرطة في القفص فقط كي لا تُسرَق زوجتك؟

انفجر تيتو من الضحك لوحده. حدق فيه جاك دوبان بغضب مكتوم. تنهد باتريك. ألح تيتو:

- يجب أن نقول، إنه ليس لك حظ مع ستيفاني. مباشرة بعد مورفال، ها هو الشرطي يلاحقها... تدافع حصى طريق الأستراغال

تحت خطواتهم. خلفهم، على الساحة المعشوشبة على التل، بدت أذنان بالأبيض والأسود.

تيتو، عندما يبدأ...

- يجب أن أقول إنك لو لم تكن صديقي، أنا، ستي...

دوى صوت باتريك في الصمت:

- اغلق فمك، تيتو!

ترك تيتو نهاية جملته تخبو في فمه. واصلوا النزول على الطريق، وهم ينزلقون أكثر مما كانوا يمشون. بدا تيتو كأنه يجتر في رأسه، ثم انفجر من الضحك قبل أن يتحدث:

- في الواقع، جاك، ألا يسبب لك حذائي ألماً في قدميك...

تيتو لا يتوقف. ضحك ملء فمه، والدموع ملء عينيه. نظر إليه باتريك بعدم تصديق. لم يبدِ جاك دوبان أقل ردَّ فعل. مسح تيتو رموشه بردائه.

- أنا أمزح، يا شباب. تشك في ذلك جاك؟ أنا أمزح. أعرف جيداً أنك لم تضرب مورفال!

- تباً، تيتو، توقف..

هذه المرة، نهاية جملة باتريك هي التي اختفت في حلقه.

أمامهم، الموقف الذي تركوا فيه شاحنتهم تحول إلى قلعة ألامو. أحصوا ست سيارات بالأضواء الساطعة وحوالي عشرين شرطياً... الشرطة والدرك كانوا في مواجهتهم، متمركزين في نصف دائرة، اليد على الورك، والأصابع على القراب الجلدية البيضاء لمسدساتهم.

وقف المفتش سيريناك متقدماً رجاله بمتر. قام باتريك، غريزياً، بخطوة جانبية. انغلقت يده على الأنبوب البارد لبندقية جاك دوبان.

- بلطف، جاك، بلطف.

تقدم المفتش سيريناك.

- جاك دوبان. أنت موقوف بسبب مقتل جيروم مورفال. تفضل معنا من دون مقاومة... عض تيتو على شفتيه، رمى بندقيته أرضاً ورفع يديه المرتعشتين... كما رآهم يفعلون في الأفلام.

- بلطف، جاك، واصل باتريك. لا تكن أحمقاً...

باتريك يعرف صديقه جيداً. منذ سنوات وهما يخرجان، ويتمشيان، ويصيدان سوية. هو لا يحب، لا يحب إطلاقاً، هذا الوجه المنحوت من الرخام، غياب التعبير، كأنه لا يتنفس.

واصل سيريناك التقدم. وحده. من دون سلاح.

مترين...

- لا! صاح سيلفيو بينافيدس.

قطع المفتش نصف دائرة الشرطة ووقف تقريباً قرب سيريناك. ربما كان ذلك رمزياً، لكن بينافيدس أحس أنه بتلك الطريقة يكسر نوعاً من التماثل؛ كأنه يأمل أن يعكر ميكانيكية مبارزة على طريقة رعاة البقر باجتيازه الشارع في الوقت الخطأ. وضع جاك دوبان يده على معصم باتريك. من دون كلمة. فهم باتريك، ليس أمامه من خيار سوى أن يفلت البندقية.

تمنى ألا يندم على ذلك. طوال حياته.

رأى بهلع يد جاك تتشنج على الزناد، وماسورة البندقية ترتفع ببطء.

في الأوقات العادية، جاك يصوب أفضل من تيتو.

- توقفْ، لورنس، تمتم سيلفيو شاحباً.

- جاك، لا تكن أحمقاً، همس باتريك.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

تقدم سيريناك خطوة أخرى. أقل من عشرة أمتار تفصله عن جاك دوبان. رفع المفتش يده ببطء، نظر في عيني المتهم مباشرة. رأى سيلفيو بينافيدس بهلع ابتسامة تحدٍّ ترتسم على شفتي رئيسه.

- جاك دوبان، أنت...

ماسورة بندقية جاك دوبان مصوَّبة الآن نحو سيريناك. صمت مثير رانَ على طريق الأستراغال.

تيتو، وباتريك، والعميلان لوفيل وموري، والمفتش سيلفيو بينافيدس، ورجال الشرطة الخمسة عشر، حتى الأقل ذكاء، حتى الأقل قدرة على تخمين ما يمكن أن يختبئ في عقل رجل... جميعهم قرؤوا الشيء نفسه في نظرة جاك دوبان الباردة.

الكره.

- 55 -

كانت الفتاة خلف شبّاك أرشيف المدينة الإدارية لإيفرو تبدأ جملها بأربع كلمات، «تحققت جيداً من أن...». اتخذت هيئة الموظفة الغارقة في العمل خلف الإطار المزدوج لحاسوبها ونظارتها المذهّبة، ثم نظرت إلى الرجل العجوز الذي يطلب منها أعداداً من الصحيفة المنقرضة **لو ريبوبليكان دو فيرنون**، أسبوعية المنطقة التي أصبحت بعد الحرب العالمية الثانية **لو ديموكرات**. كل الأعداد بين يناير وسبتمبر 1937.

- هل تحققت من أنهم لا يتوفرون على أرشيف، في فيرنون، في مقر **لو ديموكرات**؟

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

حافظ المفوض لورانتان على هدوئه. منذ ساعتين وهو يزور الأرشيفات الجهوية، يحاول أن يقلد بتواضع هيئة العجوز الساحر الذي يراعي النساء الأكثر منه شباباً. عادة ذلك ينجح.

ليس هنا!

الفتاة خلف شباكها لا تهتم لسجعه. يجب أن نقول إنه حول الطاولات الخشبية في قاعة استشارات الأرشيف، الأشخاص العشرة الحاضرون كلهم رجال تخطوا الستين، مؤرخين مبتدئين في السبعين أو علماء آثار يبحثون عن أصولهم... وكلهم يتبنون استراتيجية المفوض لورانتان نفسها: الرجولة التي عفا عنها الزمن.

تنهد لورانتان. كل شيء كان بسيطاً عندما كان يستطيع أن يلصق بطاقته ثلاثية اللون تحت أنف موظف محبط. بالطبع، الآنسة خلف شباكها لا يمكن أن تشك أنها أمام مفوض شرطة.

- لقد سبق أن تحققت، آنستي، أوضح المفوض لورانتان بابتسامة مصطنعة.

في مقر لو ديموكرات ليس لديهم أي أرشيف قبل سنة 1960...

سردت الفتاة كلامها المعتاد:

- هل راجعت أرشيف البلدية في فيرنون؟ ملحقة المجلات، في فرساي، في الأرشيف الوطني؟ هل راجعت...

هل تتقاضى من طرف المنافسين، هذه الفتاة؟

لجأ المفوض لورانتان إلى الانقياد الصبور لمتقاعد أمامه كل الوقت.

- أجل، راجعت! أجل! أجل!

لم تعطِ أبحاثه عن هنرييت بونافونتور، آخر وريثة محتملة لكلود مونيه، شيئاً إلى حدّ اللحظة. ليس مهماً. إنه مسار آخر سيتعبه، مسار

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

من دون رابط. من أجل ذلك، هو يعرف أن عليه أن يصبر إلى اللحظة التي ستفهم فيها الآنسة في الشبّاك أنها تستغرق من الوقت في محاولة صرفه أكثر مما ستستغرق لو حاولت تلبية طلبه.

جنت مثابرته ثمارها أخيراً. بعد أكثر من ثلاثين دقيقة، كان المفوض لورانتان يمسك بين يديه عدداً من الأسبوعية.

لو ريبوبليكان دو فيرنون...

عدد قديم مصفرّ لا شك أنه أول من أظهره: عدد السبت 5 يونيو 1937. تأخّر لحظة على الصفحة الأولى التي تضم الأحداث الوطنية والحوادث المحلية. مر المفوض على افتتاحية مؤثرة حول أوروبا المحترقة: موسوليني يحتفل باتفاقه مع هتلر، الممتلكات اليهودية تصادر في ألمانيا، فرانكو يسحق الجمهوريين في كاتالونيا... تحت الافتتاحية الدراماتيكية تظهر على صورة مضببة الشعر البلاتيني الأشقر والشفاه السوداء لجان هارلاو، الأيقونة الأميركية الذي مات قبل بضعة أيام، في السادسة عشر. الجزء السفلي من الصفحة الأولى مخصص للناقشات الإقليمية: التدشين المقبل على بعد أقل من مئة كيلومتر من فيرنون، محطة بورجيه، وفاة عامل زراعي إسباني وجد في الصباح، عنقه مقطّع في مركب من حجم فريسيني كان يرسو في بور-فيليز، تقريباً قبالة جيفرني...

فتح المفوض لورانتان الصفحة الثانية أخيراً. المقال الذي يبحث عنه يمتد على نصف صفحة: «حادث مميت في جيفرني».

الصحافي الذي لم يذكر اسمه يفصِّل في حوالي عشرة أسطر، على عمودين، الظروف المأساوية لموت طفل في الحادية عشر، غرقاً، ألبرت روزالبا، في المكان الذي يدعى المرج، بالقرب من المغسل الذي منحه كلود مونيه ومولان دو شونوفيير، في القناة

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

المحولة التي حفرت انطلاقاً من الأوب. كان الطفل وحيداً. خلص الدرك إلى حادث: تزحلق الطفل، صدم رأسه حجراً على الشاطئ. بعد أن فقد الوعي، غرق ألبرت روزالبا الذي كان مع ذلك سباحاً ماهراً في عشرين سنتمتراً من الماء. يذكر المقال بعد ذلك ألم العائلة روزالبا ورفاق ألبرت في المدرسة. حتى إنه أدرج بعض الأسطر عن الجدل الذي اتسع. كلود مونيه مات منذ عشر سنوات الآن: ألا يجب الآن قطع هذا الذراع الصناعي للنهر وتجفيف بركة النيلوفر الفاسد الذي ترك مهجوراً؟

صورة مضببة ترافق القصاصة. ألبرت روزالبا، بلوزة سوداء مزررة إلى العنق، شعر قصير، يبتسم خلف مكتب المدرسة. صورة مؤثرة لطفل عاقل.

إنه هو، فكّر المفوض لورانتان.

أخرج صورة فصل من حقيبته الموضوعة عند قدميه. التاريخ والمكان محددين على سبورة سوداء، معلقة في شجرة في ساحة المدرسة: «المدرسة البلدية في جيفرني - (1936-1937)».

ليليان هي التي عثرت، بثلاث نقرات، على صورة الأرشيف في موقع رفاق الأمس، بالضبط كما وضّحت له باتريسيا مورفال عبر الهاتف. بحسب ما قالته ليليان، يتعلق الأمر بموقع حيث يمكن للمرء أن يتنقل في الفصول التي مرَّ منها منذ الحضانة، حيث يمكن أن يجد وجوه أناس التقى بهم خلال حياة بأكملها، وليس فقط على مقاعد مدرسة: كل الذين ترددنا رفقتهم على مصنع، فيلق، مخيم، نادٍ رياضي، مدرسة موسيقى... أو رسم...

الأمر سريالي! فكر المفوض لورانتان. كما لو أن المرء لم يعد محتاجاً إلى أن يتذكر بنفسه... وداعاً الزهايمر. كما لو أن كل حياتك

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

وضعت في أرشيف، صنفت، كشفت، وحتى وضعت للمشاركة... أخيراً. أغلب الصور في الموقع تعود لعشر سنوات؛ عشرون أو ثلاثون، على الأكثر. شيء غريب، هذه الصورة للفصل لسنة 1936-1937 من بعيد هي الأقدم.

غريب...

كأن باتريسيا وضعتها على الإنترنت فقط ليكتشفها. ركز المفوض لورانتان على الصور من جديد.

أجل، إنه هو...

صورة صحيفة **لو ريبوبليكان دو فيرنون** توافق تماماً صورة الصبي على صورة الفصل، الجالس وسط الصف الثاني.

ألبرت روزالبا.

لا يوجد أي اسم لطفل آخر على صورة الفصل التي أخذت من موقع رفاق الأمس. لا بدَّ أن الأسماء مكتوبة على الظهر، على الصورة الأصلية... لا يهم. أغلق لورانتان صحيفة **لو ريبوبليكان دو فيرنون** للخامس من يونيو 1937 وفتح العدد الموالي. قرأ الصفحات المحلية، وتفحص التفاصيل. في عدد 12 يونيو 1937، تمّت الإشارة إلى دفن ألبرت روزالبا، في كنيسة سانت-رادوغوند في جيفرني. حزن وألم ذويه.

ثلاثة أسطر.

واصل لورانتان فتح وإغلاق الصحف التي تراكمت تحت نظرة فتاة الشباك القلقة.

15 آب 1937...

وجد المفوض لورانتان مبتغاه أخيراً. مقال صغير، بضعة أسطر، لا توجد صور، لكن العنوان صريح:

تغادر العائلة روزالبا جيفرني.

هي لم تصدق أبداً فرضية الحادث.

هوغ ولويز روزالبا، يعملان منذ أكثر من خمس عشرة سنة في مسابك جيفرني. نذكر أنهما تعرّضا منذ شهرين لحادث أليم: غرق ابنهما الوحيد، ألبرت، بعد سقوط غير مفهوم في جدول الأوب الذي يجري بمحاذاة طريق روي. كانت حادثة الغرق قد أشعلت جدالاً في المجلس البلدي بخصوص تجفيف ذراع الأوب وحدائق مونيه. لشرح مغادرتهما، ذكر الزوجان روزالبا استحالة مواصلة العيش في المكان الذي لقي فيه ابنهما حتفه. هناك مع ذلك تفصيل آخر محرج، تدّعي لويز روزالبا أن ما يدفعها إلى مغادرة القرية هو قبل كل شيء صمت السكان المثير. بحسب قولها، لم يكن ابنها ألبرت يتنزه أبداً في القرية لوحده. كما أعلنت ذلك أمام رجال الدرك عدة مرات، أعادت تأكيد ذلك أمامي: بحسب قولها، «لم يكن ألبرت وحده على ضفة الغدير. يوجد بالضرورة شهود. يوجد بالضرورة أناس يعرفون». دائماً بحسب لويز روزالبا، «هذا الحادث يناسب الجميع. لا أحد يرغب بفضيحة في جيفرني. لا أحد يرغب في مواجهة الحقيقة».

قناعة مؤثرة من جانب أم مكلومة...

فلنتمنَّ حظاً سعيداً للزوجين روزالبا من أجل إعادة بناء حياتهما بعيداً عن هذه الذكريات المروعة.

أعاد المفوض لورانتان قراءة المقال عدة مرات، أغلق الصحيفة، ثم تفحّص مطولاً كل أعداد لو ريبوبليكان دو فيرنون لسنة 1937، لكنه لم يجد أي مقال آخر مرتبط بـ«القضية روزالبا». بقي فترة طويلة لا يتحرك. ثم لحظة تساءل عمَّ يفعله هنا. هل أصبحت حياته فارغة كي

يقضي أيامه متتبعاً أول وهم؟ أجال بصره في القاعة وعشرات هواة الأرشيفات، الغارقين في تصفح أكوام من الوثائق المصفرة. لكل واحد مبتغاه... سجل قلم المفوض على مذكرة. 2010 ننقص منها 1937 الباقي 73...

يحسب بسرعة. كان عمر الصغير ألبرت إحدى عشرة سنة في 1937، ولد إذاً سنة 1925 أو 1926... لا بدَّ أن عمر الزوجين روزالبا قد تجاوز الآن مئة عام. مرَّ وميض أمام عيني المفوض لورانتان.

ربما لا يزالان على قيد الحياة...

نظرت الفتاة خلف شباكها إلى المفوض يقترب بالطريقة التي ينظر بها موظف يرى زبوناً يدخل في ساعة الانصراف. غير أن الساعة كانت فقط الحادية عشر صباحاً وكان الأرشيف يظل مفتوحاً طوال النهار... حاول المفوض لورانتان أن يجرب سحر ممثلي هوليوود القدامى، أولئك الذين لا يمكن أن نعرف إن كانوا لا يزالون على قيد الحياة أم لا مزيج من توني كورتيس وهنري فوندا.

- آنسة، هل تتوفرون على دليل إلكتروني على الإنترنت؟ أبحث عن عنوان، الأمر مستعجل...

استغرقت الفتاة دهراً كي ترفع رأسها، ثم تطلق:

- هل تحققت من أن...

انفجر المفوض، وألصق بطاقة هويته تحت أنفها:

- المفوض لورانتان! من مفوضية فيرنون! صحيح أني متقاعد، لكن ذلك لا يمنعني من مواصلة تأدية عملي. إذاً، صغيرتي، ستسرعين في حركتك...

تنهدت الفتاة. دون هلع، أو غضب بادٍ. كأنها كانت متعودة على

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

غرابة أطوار القدامى الذين يبحثون في الأرشيف والذين تنتابهم أزماتهم. مع ذلك تسارعت ظاهرياً وتيرة حركة أصابعها على لوحة المفاتيح.

- عن أي اسم تبحث؟

- هوغو ولويز روزالبا.

كتبت الفتاة. بشكل أسرع.

- هل تريدين عنواناً؟ سألها لورانتان.

- بالنسبة إلى هوغو روزالبا، ليس هناك داعٍ، قالت الفتاة بوعي. أنا أتحقق دوماً قبل أن أثير الأنتربول. مسألة عادة! هوغو روزالبا توفي سنة 1981، في فاسكوي...

سكت لورانتان. لا شيء يُقال. الفتاة خلف الشباك منظمة...

- وزوجته، لويز؟

كتبت الفتاة.

- لا يوجد إعلان وفاة... ولا يوجد عنوان.

الطريق المسدود!

تأمَّل لورانتان الغرفة البيضاء حوله، بحثاً عن فكرة. جرب تجاه الفتاة نظرة ذليلة على طريقة شون كونري.

أجابته بتنهيدة منزعجة من الناحية الأخرى للشباك.

- عموماً، قالت الفتاة بصوت ضجر، للبحث عن الناس ابتداء من سنٍّ معيّن، بدل الدليل، من الأفضل البحث بين نزلاء دور المسنين... يوجد العديد منها في الأور، لكن لويز هذه التي تعنيك كان تسكن في فاسكوي، يمكن أن نبدأ بالأقرب...

استعاد شون كونري ابتسامته. شيء قليل، وستعتبر الأخرى نفسها أورسولا أندريس. نقرت الفتاة الآن بأقصى سرعة. مرت الدقائق.

- لقد بحثت عن الدور في خريطة غوغل، قالت الفتاة أخيراً.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

الأقرب من فاسكوي، من دون شك، هو إقامة «البساتين» في ليون-لافوري. يمكن أن نجد معلومات عن النزلاء. ماذا قلت؟

- لويز روزالبا...

تصدر صوتاً.

- لا بدَّ أنهم يتوفرون على موقع... آه، ها هو.

مدَّ لورانتان عنقه محاولاً أن يلمح جزءاً من شاشة الحاسوب.

مرت عدة دقائق أخرى. رفعت الفتاة رأسها منتصرة:

- ربحنا! لقد اكتشفت القائمة التامة. طيب، كما ترى، الأمر ليس معقداً. امسكها، نزيلتك. لويز روزالبا. دخلت منذ خمس عشرة سنة إلى إقامة لون-لافوري وكما يبدو هي لا تزال هناك... مئة وسنتين! من الأفضل أن أعلمك، لا أضمن لك الخدمة بعد البيع، حضرة المفوض...

أحس لورانتان بقلبه يضرب بعنف. هدوء، هدوء، يكرر له طبيب القلب...يا إلهي! هل ذلك ممكن؟ هل بقي شاهد؟

شاهد أخير؟

حي!

- 56 -

هبطت شاحنات الدرك الثلاث شارع بلانش-هوشيدي-مونيه بصفارات مدوية. لم تأخذ عناء الالتفاف على القرية، قطعت عبر أقصر طريق، شارع بلانش-هوشيدي-مونيه، شارع كلود-مونيه... طريق روي.

تمر جيفرني...

البلدية...

المدرسة...

عندما سمعوا صفارات الإنذار، أدار كل الأطفال رؤوسهم وهم يحسون برغبة واحدة: الإسراع إلى النافذة. أمسكتهم ستيفاني دوبان بحركة هادئة. لا أحد من الأطفال لاحظ توترها. كي تحافظ على توازنها، وضعت المدرّسة يدها على مكتبها.

- أيها... أيها الأطفال... هدوء! فلنعد إلى مقررنا...

جَلت صوتها. صفارات الشرطة تدوي في رأسها.

- أيها الأطفال، كنت أحدثكم إذاً عن مباراة «رسامون مبتدئون» التي تنظمها مؤسسة روبنسون. أذكركم بأنه لم يبقَ سوى يومين كي تقدموا لوحاتكم... أتمنى أن تكونوا عديدين هذه السنة لتجربوا حظكم...

ستيفاني غير قادرة على طرد صورة زوجها وهو يبتسم لها هذا الصباح، بينما كانت لا تزال في السرير، وهو يقبّلها ويضع يداً على كتفها «نهار سعيد، حبيبتي».

واصلت سرد درس كررته كثيراً:

- أعرف جيداً أن أي طفل من جيفرني لم يفز بالمباراة أبداً، لكني متأكدة أيضاً أن لجنة التحكيم عندما ستجد أن أحد المتبارين ينحدر من مدرسة جيفرني، فهذا امتياز كبير بالنسبة إليكم!

تراءى لستيفاني جاك وهو يضع حاملة الخرطوش... جاء يأخذ بندقية الصيد المعلقة على الجدار...

- أيها الأطفال، جيفرني اسم يجعل كل رسامي العالم يحلمون...

اجتازت سيارتان زرقاوان القرية. قفزت ستيفاني رغماً عنها،

مذعورة. هي عاجزة. لم تبطئ السيارات في القرية.

لورنس؟

حاولت ستيفاني أن تركز من جديد. نظرت إلى فصلها، استعرضت الوجوه أمامها واحداً تلو الآخر. هي تعرف أن من ضمن التلاميذ يوجد بعض الموهوبين.

- لقد لاحظت أن من بينكم من له أو لها موهبة كبيرة.

أحنت فانيت عينيها. هي لا تحب عندما تنظر إليهم المدرّسة بذاك الشكل. ذلك يزعجها.

أحس أن ذلك من أجلي...

- إني أفكر فيك فانيت. أفكر فيك بشكل خاص. أعتمد عليك!

ماذا كنت أقول...

احمرّت الفتاة حتى أذنَيها. في اللحظة الموالية، استدارت المدرّسة نحو السبورة. في طرف الفصل، غمز بول بعينه لفانيت. تمدد الصبي على الطاولة، أمام فينسنت الجالس بالقرب منه، ومدّ عنقه كي يقترب أكثر من الفتاة:

- فانيت، المدرّسة محقة! أنت من سيفوز بالمباراة. أنت ولا أحد غيرك!

ماري تجلس بالضبط أمامهما، هي تشارك كاميل طاولته. استدارت نحوهما.

- ششت...

تجمّدت الرؤوس فجأة.

طُرِقَ على الباب.

فتحت ستيفاني، قلقة. اكتشفت وجه باتريسيا مورفال المتأثر.

- ستيفاني... يجب أن أحدثك... الأمر... الأمر مهم.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

- ا... انتظروني، أيها الأطفال.

مرة أخرى، تحاول المدرّسة أن تتصرف بحيث لا تظهر أي من حركاتها الهلع العنيف الذي تشعر به.

- لن أستغرق سوى لحظة...

خرجت ستيفاني. أغلقت الباب خلفها وتقدمت في ساحة البلدية تحت أشجار الزيزفون. باتريسيا مورفال لا تخفي حالة توترها. ارتدت سترة مجعدة لا تناسب تنورتها الخضراء. لاحظت ستيفاني أن عقصة شعرها، عادة تامة، قد سرّحت على عجالة. هي بالكاد لم تسرع إلى الشارع بلباس البيت...

- تيتو وباتريك هما اللذان جاءا لإخباري، قالت باتريسيا دفعة واحدة. لقد اعتقلوا جاك أسفل طريق الأستراغال، عند عودته من القنص.

وضعت ستيفاني يدها على جذع أقرب شجرة زيزفون. هي لا تفهم.

- ماذا؟ ماذا تقولين؟...

- المفتش سيريناك... لقد اعتقل جاك. إنه يتهمه بقتل مورفال!

- لو... لورنس...

حدقت باتريسيا مورفال بشكل غريب في ستيفاني.

- أجل، لورنس سيريناك... ذلك الشرطي...

- يا إلهي... وجاك لم...

- لا، لا، اطمئني، لم يصب زوجك بشيء. بحسب ما قيل لي، من حسن الحظ أن باتريك كان هناك. مساعد سيريناك أيضاً، المفتش بينافيدس. لقد منعا حدوث مجزرة. هل تدركين، ستيفاني، ذلك الأحمق سيريناك يعتقد أن جاك هو الذي قتل جيروم...

أحست ستيفاني أن ساقيها لا تقويان على حملها، تركت جسدها يتهاوى على جذع الشجرة. إنها محتاجة إلى أن تتنفس. محتاجة إلى أن تفكر بهدوء. يجب أن تعود إلى الفصل، تلاميذها ينتظرونها. يجب أن تجري إلى المفوضية. يجب...

عصرت كفّا باتريسيا مورفال ياقة سترتها المجعدة.

- إنه حادث، ستيفاني، منذ البداية، أردت أن أعتقد أنه حادث. لكن ماذا لو أخطأت، ستيفاني؟ لو أخطأت، لو أن أحداً قد قتل فعلاً جيروم؟ قولي لي، ستيفاني: لا يمكن أن يكون جاك؟ قولي إنه لا يمكن أن يكون جاك...

حطّت ستيفاني نظرتها النيلوفر على باتريسيا مورفال. تلك العينان لا يمكن أن تكذبا.

- أكيد لا، باتريسيا. أكيد لا...

- 57 -

تجسست على المرأتين. أخيراً، تجسست كلمة كبيرة... أنا فقط جلست قبالتهما، من الجهة الأخرى من الشارع، على بعد بضعة أمتار من آرت غاليري أكاديمي، ليس قريباً جداً من المدرسة على أي حال. لست غير مرئية تماماً، فقط خفية. بالضبط في المكان المناسب بحيث لا أفلتُ شيئاً من المشهد. أنا جد موهوبة بالنسبة إلى هذه الأشياء، لقد أدركتم ذلك على ما أظن. الأمر ليس صعباً في الواقع. باتريسيا وستيفاني تتحدثان بصوت مرتفع. نبتون مضطجع عند قدمي. مثل جميع الأيام، هو ينتظر خروج التلاميذ. له عاداته، هذا الكلب... وأنا، مثل امرأة مدللة، أسايره، آتي إلى هنا تقريباً كل يوم، أترقب

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

مثله نهاية الفصل.

في انتظار ذلك، على نبتون أن يكتفي بخروج من الفصل يعطيه رغبة أقل في تحريك ذيله: خروج الرسامين من الآرت غاليري أكاديمي: حوالي خمسة عشر فناناً واعدين بطبيعة الحال يجرّون عربات الرسم ويضعون شاراتهم الحمراء في حالة اختفوا. الخروج من الفصول الخاصة بالمرحلة العمرية الثالثة! القسم الدولي: كنديين، وأميركيين، ويابانيين.

أحاول أن أركِّز على الحديث بين ستيفاني دوبان وباتريسيا مورفال. النهاية وشيكة، قريباً سنرى آخر فصل من التراجيدية القديمة. التضحية السامية...

لم يعد لك خيار، ستيفاني.

سيتوجب عليك أن...

لا أصدق ذلك!

توقف رسام بالضبط أمامي: ثمانيني أميركي صرف، القبعة «يِيل» على الرأس، الجوارب محشوة في صندل جلدي.

ماذا يريد مني؟

- كل اعتذاري، آنستي...

هو ينطق كل كلمة بلهجة تكساس. يترك ثلاث ثوانٍ بين كل مقطع، من النوع الذي ينطق أقل من جملة في الدقيقة...

- أنت بلا شك من هنا، آنسة؟ لا بدَّ أنك تعرفين مكاناً مميزاً من أجل الرسم...

أنا بالكاد مؤدبة!

- فوق، على بُعد خمسين متراً، توجد لوحة عليها خريطة بجميع المسارات، كل المشاهد المتنوعة.

الجملة في عشر ثوانٍ، حطّمت الرقم القياسي! تخلصت من الأميركي بسرعة لكنه ظلَّ يبتسم.

- شكراً جزيلاً، آنسة.. نهارك سعيد.

ابتعد. أشتم وحدي ضدّ هذا الاجتياح المقرف! التكساسي جعلني أفقد خيط الحكاية. الآن باتريسيا مورفال تقف لوحدها في ساحة البلدية بينما دخلت ستيفاني إلى فصلها. حتماً منهارة. بالتأكيد هي تنازعها الورطة الكبيرة.

زوجها الوفي محبوس من طرف المفتش الوسيم.

عزيزتي المسكينة، لو كنت تعرفين... لو كنت تعرفين أنك تتزحلقين على لوحة وضع عليها الصابون من أجلك. بلا رحمة.

مرة أخرى، أتردد. لن أخفي عنكم، أنا أيضاً تنازعني الورطة. أصمت أو أستقل الحافلة وأذهب لأقول كل شيء في مفوضية فرنون؟ إن لم أقرر الآن، لن أمتلك الشجاعة بعدها بلا شك. أنا واعية بذلك. الشرطة تتخبط... لم يستجوبوا الشهود المناسبين، لم يخرجوا الجثث المناسبة. وحدهم، لن يكتشفوا الحقيقة أبداً. ولن يشكوا بها أبداً. لا تتوهموا، لا شرطي، مهما كان ذكياً، يستطيع أن يوقف هذه الآلية اللعينة.

تفرَّق الأميركيون في القرية مثل مندوبين تجاريين في تجزئة سكنية. القبعة بيل، ليست حقودة، هي تشير لي بيدها. بقيت باتريسيا مورفال لوحدها في ساحة البلدية لحظة طويلة تفكر، ثم هبطت نحو بيتها.

تمر أمامي، بالضرورة.

ثقيلة الظل!

وجهها منغلق مثل امرأة مستسلمة لوضعها بألا تعرف الحب أبداً بعد الذي أُخِذَ منها. لا بدَّ أن تفكر في حديثنا، ذلك الذي أجريناه منذ بضعة أيام. اعترافاتي... اسم قاتل زوجها. ماذا فعلت بذلك؟ هل صدقتني على الأقل؟ الشيء الأكيد هو أنها لم تخبر الشرطة. وإلا لكنت عرفت!

أجهد نفسي كي أقول لها شيئاً، لم أعد أتكلم كثيراً، لاحظتم ذلك، حتى عندما يغازلني الأميركيون.

- بخير، باتريسيا؟

- أجل، بخير... بخير...

هي أيضاً ليست ثرثارة، أرملة مورفال.

- 58 -

- أين زوجي؟

- محجوز في سجن إيفرو، أجاب بينافيدس. لا تقلقي سيدة دوبان. الأمر مجرد اتهام. سيعيد قاضي التحقيق كل شيء...

حدقت ستيفاني دوبان في الرجُلَين قبالتها، المفتشان سيلفيو بينافيدس ولورنس سيريناك. صاحت أكثر منها تحدثت:

- ليس من حقكما!

رفع سيريناك عينيه إلى جدران المكتب وتأخر على اللوحات المعلقة: اختفت نظرته في تعرجات الألوان على ظهر المرأة العارية الصهباء التي رسمها تولوز لوتريك. ترك سيلفيو يجيب. سيقوم مساعده بذلك بشكل جيد لأنه سيحاول بذلك إقناع نفسه أولاً

- سيدة دوبان. يجب أن تواجهي الحقيقة. تراكم أشياء تتهم

زوجك. في البداية الحذاء الذي اختفى...

- لقد تمّت سرقته!

- علبة الرسم التي وجدت في ساحة الجريمة، واصل بينافيدس، غير متأثر. تهديد نُقِشَ في الداخل، محرر بيد زوجك، أغلب الخبراء يؤكدون...

الدليل أثار ستيفاني دوبان. اكتشفت حكاية العلبة وبدت كأنها تبحث في ذاكرتها. هي أيضاً أدارت رأسها وحدقت في الصور المعلقة على الجدران. توقفت ثوان عديدة على صورة **المهرِّج** لسيزان المعتمر قبعته القمرية، كأنما لتبحث في وجهه المفتقد للشفاه عن القوة لترفض الاستسلام.

- لقد تنزهت مع جيروم مرتين. ربما ثلاث. نحن فقط تحدثنا. الحركة الأكثر جرأة التي قام بها هي أنه حاول أن يمسك يدي. لقد أوضحت المسألة، أنا لم أرَه بعدها أبداً لوحدي. على أي حال، باتريسيا التي هي صديقتي منذ الطفولة ستؤكد ذلك. حضرة المفتشان، كل هذا مضحك، لا تتوفران على الدافع...

لورنس سيريناك هو الذي أجاب هذه المرة. العين بالعين، مستبقاً إيضاحات سيلفيو المطولة.

ترددت ستيفاني لحظة طويلة. منذ بداية اللقاء وسيريناك يتفادى أن تلتقي نظرته بنظرتها. سعلت، تشنجت يداها على طول تنورتها، ثم قالت، بصوت من دون نغمة:

- زوجي لم يقتل جيروم مورفال. ذلك الصباح، كان ينام معي.

تجمد المفتشان بينافيدس وسيريناك في الهيئة المتعجبة نفسها. بقيت يد بينافيدس معلقة في الهواء، اليد التي كانت تمسك القلم. احتفظ سيريناك بمرفقه على المكتب وراحة كفّه مفتوحة، تتحمل ثقل

ذقن غير حليق ورأس أصبح فجأة أكثر ثقلاً. رانَ صمت متاحف على المكتب 33. قررت ستيفاني أن تستغل الامتياز أكثر:

- إذا رغبتما في تفاصيل أكثر، مارسنا الحب ذلك الصباح أنا وجاك. بمبادرة مني. أنا أريد طفلاً. كنا ننام معاً، صبيحة مقتل جيروم مورفال. من المستحيل أن يكون زوجي هو المذنب.

نهض سيريناك. دوى الجواب مثل الصفعة:

- لقد أخبرتني العكس، ستيفاني، منذ بضعة أيام. لقد أكدت لي أن زوجك كان قد ذهب للقنص، مثل كل صباحات الثلاثاء...

- لقد فكرت بعد ذلك. كنت متأثرة حينئذٍ. لا بدَّ أني أخطأت بالنسبة إلى اليوم...

نهض سيلفيو وأخذ مبادرة مساندة رئيسه:

- تراجعك لا يغيّر شيئاً، سيدة مورفال. شهادة زوجة لفائدة زوجها لا يساوي شيئاً...

رفعت ستيفاني دوبان نبرتها:

- تفاهات! بإمكان أي محام...

على العكس، هدأت نبرة صوت سيريناك.

- سيلفيو، دعنا.

أبدى بينافيدس امتعاضه، لكنه لا يملك الخيار. أخذ رزمة من الأوراق، وضعها تحت ذراعه وخرج من المكتب 33، وهو يغلق الباب وراءه.

- أنت... أنت تفسد كل شيء! انفجر صوت ستيفاني دوبان في الحال.

حافظ لورنس سيريناك على هدوئه. جلس على الكرسي المدولب

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وزحلقه بقدميه.

- لماذا تفعلين هذا؟

- ماذا تعني، بهذا؟

- شهادتك المزيفة.

ستيفاني لا تجيب، انزلقت عيناها المرفوعتان من سيزان إلى ظهر المرأة الصهباء العاري.

- أنا أكره تولوز لوتريك... أكره هذا النوع من العري...

أحنت عينيها. لأول مرة، في المكتب، تلتقي نظرتها بنظرة لورنس سيريناك.

- وأنت، لماذا تفعل هذا؟

- ماذا تعنين، بهذا؟

- تركيزك فقط على المسار... ملاحقة زوجي كأنه قاتل. هو ليس مذنباً، أعرف ذلك. اطلق سراحه!

- والأدلة؟

- لم يكن لجاك أي دافع. هذا مضحك! كم مرة يجب أن أكرر ذلك، أنا لم أعاشر مورفال أبداً. لا يوجد دافع، وعلى العكس، هو لديه حجة غياب... أنا...

- أنا لا أصدقك ستيفاني...

توقف الوقت في المكتب 33.

- ماذا سنفعل إذاً؟

مشت ستيفاني في المكتب بخطوات عصبية. لورنس يراقبها وهو يحافظ على هيأة مسترخية، رأس مائل، وذقن متكئ على راحة الكف. أخذت ستيفاني نفساً عميقاً، كأنها تضيع في لولبية عقصة الشعر الأحمر على ظهر الموديل العاري الذي رسمه تولوز لوتريك،

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ثم استدارت فجأة.

- حضرة المفتش، ماذا يتبقى كخيار لامرأة مسكينة حزينة؟ إلى أي مدى يمكن أن تذهب كي تنقذ زوجها؟ كم من الوقت يلزمها كي تفهم الرسالة؟ أنت تعرف، حضرة المفتش، تلك القصص الأميركية السوداء، ذلك النوع من رجال الشرطة القادر على اتهام رجل مسكين فقط بغرض خطف زوجته...

- لا، ستيفاني...

تقدمت ستيفاني نحو المكتب. ببطء، أزالت الشريطين الفضيين اللذين يمسكان شعرها الكستنائي الطويل. فكّت تسريحتها برفق وهي تجلس على مكتب المفتش. هي تتجاوزه بأقل من متر، لكنه مضطر لأن يرفع عينيه نحوها لو بقي جالساً.

- هذا ما كنت تنتظره، أليس كذلك، حضرة المفتش؟ أنت ترى، أنا لست غبية. إذا استسلمت لك، سينتهي كل شيء، هذا هو؟

- توقفي، ستيفاني.

- ماذا دهاك، حضرة المفتش؟ تتردد في تخطي الخطوة الأخيرة؟ لا تطرح الكثير من الأسئلة... لقد أمسكتها في شباكك، المرأة اللعوب. أنت تمسكها، الزوج خلف القضبان، وهي محاصرة. هي لك...

رفعت ستيفاني بلطف ساقيها كي تنزل تنورتها على طول جلدها العاري. اختفى زر من الصدرية البيضاء بين أصابعها. ظهرت آثار نمش على مقدمة صدرها، إلى حدود قطن حمالة ثدييها الذي ظهر.

- ستيف...

- إن لم تكن هي، المرأة اللعوب، هي التي تجذب الخطوط منذ البداية. لم لا، بعد كل شيء؟

اتخذت عينا ستيفاني شكل لوزتين. تفاجأ لورنس سيريناك بأن

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

يكتشف فيهما السحر الشرقي لشروق شمس بنفسجي. يجب أن يتماسك. لا يملك الكثير من الوقت كي يحلل أكثر، واصلت المدرّسة:

- أو هما، الزوج والزوجة، متواطئان. شيطانان. الثنائي الجهنمي. لن تكون سوى لعبتهما، حضرة المفتش...

ستيفاني جالسة دوماً، وضعت قدميها على المكتب، التنورة من القماش الكريمي تنزلق حول خصرها. يزول زر آخر من الصدرية. حبات من العرق تسيل على صدرها.

حبات خوف؟ إثارة؟

- توقفي، ستيفاني. أوقفي هذه المهزلة. سأسجل إفادتك.

نهض وأمسك ورقة. أعادت ستيفاني تزرير صدارها ببطء، مسدت تنورتها التي سقطت على طول ساقيها، وشبكتهما.

- أنا أعلمك، حضرة المفتش، لن أغيّر رأيي. لن أغيّر سطراً مما أخبرتك به للتو. ذلك الصباح، صباح اليوم الذي قتل فيه جيروم مورفال، بقي جاك معي في السرير...

كتب المفتش ببطء.

- سأسجل ذلك، ستيفاني. حتى لو لم أكن أصدقك...

- تريد تفاصيل إضافية، حضرة المفتش؟ تريد أن تجرب صدق تصريحاتي؟ إن كنا قد مارسنا الحب؟ هل استمتعت؟

- سيطلب منك قاضي التحقيق ذلك بالتأكيد...

- سجّل إذاً. سجّل لورنس. لا، لم أستمتع. فعلنا ذلك بعجالة. أنا أريد طفلاً... على الركبتين فوق الرجل، إنها الوضعية المناسبة، كما يبدو، للحصول على طفل...

واصل المفتش إحناء عينيه، وسجّل في صمت.

- هل تلزمك تفاصيل أخرى، حضرة المفتش؟ أنا متأسفة، لا

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أتوفر على صورة، لا حجة، لكن يمكن أن أصف...

نهض لورنس سيريناك ببطء.

- أنت تغشين، ستيفاني.

دار المفتش حول المكتب، فتح أول درج وأخرج كتاباً مغلفاً. أوريليان.

- أنا متأكد أنك تغشين.

فتح الكتاب على صفحة معلّمة.

- تذكري أنك أنت من قدم لي الكتاب، وطلبت أن أقرأ كتاب أراغون هذا بسبب الجملة التي تمَّ العثور عليها في جيب جيروم مورفال. «جريمة أن نحلم» والباقي... هل أنعش ذاكرتك، ستيفاني؟ الفصل 64. يلتقي أوريليان ببيرينيس في حدائق مونيه، فرّت في طريق منعرج في جيفرني، كأنها تهرب من قدرها. جرى أوريليان خلفها، لحق بها، كانت تلهث، متكئة على المنحدر... اعذريني، أخشى أني لا أتذكر النص الأصلي، سأقرأ لك الحادثة...

هذه المرة، تقريباً لأول مرة، تحمّل لورنس سيريناك نظرة ستيفاني.

- «تقدم أوريليان نحوها، رأى صدرها مرتفعاً، ورأسها منقلباً إلى الوراء مع الشعر الأشقر الذي سقط على الجانب. الرموش المنسدلة، الهالة التي جعلت العينين أكثر إثارة، وذلك الفم المرتعش، والأسنان المتراصة، ناصعة البياض...».

تقدّم المفتش. هو الآن يقف أمام ستيفاني. لا يمكنها أن تتراجع، هي عالقة على المكتب. واصل لورنس التقدم، لمست ركبة المدرّسة قماش الجينز. أحست بحوض المفتش، بالضبط في مستوى أسفل بطنها. يكفي أن تزيل تشبيك ساقيها...

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

واصل سيريناك القراءة:

- «توقف أوريليان. كان أمامها، جد قريب، كان مهيمناً عليها. لم يرَها أبداً من قبل على ذلك الحال...».

ترك الكتاب لحظة.

- أنت من يفسد كل شيء، ستيفاني.

وضع كفه على ركبتها العارية. ارتعش جسدها، لا تستطيع ستيفاني أن تفعل شيئاً. فشلت في منع ارتجاف ساقيها الملتحمتين. لم يعد صوتها واثقاً:

- أنت رجل غريب، حضرة المفتش. شرطي. هاوٍ للرسم... هاوٍ للشعر...

سيريناك لا يجيب. مرّت بعض الصفحات بين يديه.

- دائماً الفصل 64 الشهير، بضعة أسطر من بعد، هل تتذكرين؟ «سآخذك إلى مكان لا يعرفك فيه أحد، ولا حتى أصحاب الدراجات النارية... حيث ستكون لك حرية الاختيار... حيث سنقرر بشأن حياتنا...».

سقط الكتاب مع ذراعه، على طول جسده، كأنه يزن طناً. ترك يده الأخرى على الجلد الأملس أسفل الفخذ الذي واصل الارتعاش مطولاً، كأنه يريد تهدئة قلب رضيع مرعوب.

بقيا هناك، صامتين.

سيريناك هو الذي تحدث أولاً. تراجع. انغلقت كفه على الورقة التي سجّل فيها إفادة المدرّسة.

- أنا متأسف، ستيفاني. أنت من طلب مني قراءة هذه الرواية...

مررت ستيفاني دوبان يدها أمام عينيها، بين الدموع، والتأثر، والتعب.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

- لا تخلط كل شيء... قرأت أراغون أنا أيضاً. فهمت، أنا حرة في أن أختار.

اطمئن، سأقرر بالنسبة إلى حياتي... إن أردت أن تعرف، لورنس، سبق أن أخبرتك بذلك. لا، أنا لا أحب زوجي. أنا حتى سأخبرك شيئاً حصرياً: أظن أني سأهجره. شقّ ذلك طريقه في داخلي مثل نهر طويل، كأن الدوامات التي مرت في الأيام الأخيرة لا يمكن سوى أن تعلن عن شلال. هل ترى ما أود قوله؟ لكن هذا لا يغير واقع كونه بريئاً... لا تهجر امرأة زوجاً في السجن. لا تهجر المرأة سوى زوجاً طليقاً. هل تفهم، لورنس؟ لن أسحب شيئاً من إفادتي. ذلك الصباح مارست الحب مع زوجي. زوجي لم يقتل جيروم مورفال...

من دون كلمة، مدَّ لورنس الورقة للمدرّسة مع قلم. وقّعت دون أن تقرأ. غادرت المكتب. أدار سيريناك عينيه نحو السطور الأخيرة في الفصل 64 من أوريليان.

«نظر إليها تهرب، أحنت كتفيها... تظاهرت بأنها لا تسرع... كان لا يقوى على الحركة بسبب ذلك الاعتراف المذهل. كانت تكذب، هيا! لا. لم تكن تكذب».

كم مرَّ من الوقت قبل أن يدق سيلفيو على الباب؟ دقائق عديدة؟ ساعة؟

- ادخل سيلفيو.

- إذاً؟

- تصرُّ على إفادتها. هي تغطي زوجها...

عض سيلفيو بينافيدس على شفتيه.

- ربما كان ذلك أفضل، بعد كل شيء...

وضع رزمة من الأوراق على المكتب.

- وصل الخبر للتو، بيليسيي، خبير الخطوط في روان، غيّر أقواله. بعد أن تعمّق، استنتج أن الرسالة المنقوشة على علبة الصباغة التي عثرنا عليها في الغدير لا يمكن أن تكون بخط دوبان.

لحظات تشويق مزعج، ثمّ...

- تمسك جيداً، حضرة الرئيس، بحسب أقواله، الرسالة نقشها طفل! طفل في حوالي الثانية عشر! هو حاسم...

- يا للعجب، تمتم سيريناك. ماذا يعني هذا؟

بدا أن عقله يرفض أن يفكر. مع أن بينافيدس لم يكن قد أنهى كلامه:

- ليس فقط هذا، حضرة الرئيس، تلقينا أيضاً أولى تحاليل الدم التي وجدناها على علبة الرسم. بحسب النتائج، هناك شيء أكيد، لا يتعلق الأمر لا بدم جيروم مورفال ولا بدم جاك دوبان. هم يواصلون البحث...

نهض سيريناك، ترنّح.

- جريمة أخرى، هل هذا ما تحاول إخباري به؟

- لا نعرف شيئاً، حضرة الرئيس. في الحقيقة، نحن لم نعد نفهم شيئاً.

بقي سيريناك يدور على نفسه في الغرفة.

- طيب، طيب. فهمت الرسالة، سيلفيو. ليس أمامي من خيار سوى أن أطلق جاك دوبان. سيزعق قاضي التحقيق، حجز لأقل من خمس ساعات...

- سيفضله على خطأ قضائي...

- لا، سيلفيو. لا. أرى جيداً ما تفكر فيه، أني قد وقعت في مأزق،

كل هذه المسرحية المتسرعة أسفل مسلك الأستراغال كي أمسك شخصاً، وفي النهاية تتسرب جميع الأدلة من بين أصابعنا بعد عدة ساعات... يجب أن نطلقه. لكن ذلك لا يغير شيئاً في اعتقادي. لا شيء! جاك دوبان مذنب!

سيلفيو بينافيدس لا يجيب. لقد فهم الآن أنه في نطاق حدس رئيسه الملغّم لا يمكن إجراء نقاش عاقل. فكر بينافيدس مع ذلك في مجموع العناصر المتناقضة التي تتراكم في أعمدة الورقة المطوية التي يحتفظ بها في جيبه. لا يوجد جواب بسيط لكل هذه الإشارات الغريبة والمتناقضة، مستحيل. كلما تقدم التحقيق كلما أحس سيلفيو أن أحداً يلعب بهم، يجر الخيوط، ويستمتع بوضع الاتجاهات الخاطئة أمامهم، من أجل أن يتابع خطته المحددة من دون عقاب.

- ادخل.

رفع لورنس سيريناك عينيه، مندهشاً أن يدق أحد على مكتبه في تلك الساعة المتأخرة. كان يظن نفسه وحيداً في المفوضية، أو تقريباً. لم يكن باب مكتبه مغلقاً. وقف سيلفيو في إطار الباب، وفي عينيه نظرة غريبة. ليس فقط تعب، يوجد شيء آخر.

- أما زلت هنا، سيلفيو...

نظر إلى الساعة على مكتبه.

- تجاوزت الساعة السادسة مساء! عجباً، يجب أن تكون في جناح الولادة، تمسك يد بياتريس، وتنام...

- لقد وجدته، حضرة الرئيس!

- ماذا؟

أحس سيريناك أن شخصيات اللوحات على الجدران قد استدارت هي الأخرى، مهرِّج سيزان، المرأة الصهباء لتولوز لوتريك...

- لقد وجدته، حضرة الرئيس. بحق الرب، لقد وجدته.

- 59 -

اختفت الشمس خلف ستارة أشجار الحور. الظلام الذي حلَّ يعني بالنسبة إلى أي رسام أنها قد حلت الساعة ليجمع حاملة قماشة الرسم، ويأخذها تحت ذراعه، ويدخل إلى بيته. تقدَّم بول على الجسر ونظر إلى فانيت ترسم بحماس شديد، كأن كل حياتها تتوقف على هذه الدقائق الأخيرة من الضوء.

- كنت أعرف أني سأجدك هنا...

حيته فانيت بيدها، دون أن تتوقف عن الرسم.

- هل يمكن أن أنظر؟

- هيا، أنا أُسرِع. بين الخروج من المدرسة، ووالدتي التي تحبطني، والليل الذي يحل بسرعة، لن أنهي لوحتي أبداً. يجب أن أقدمها بعد غد...

حاول بول ألا يحدث أي إزعاج، كأن الهواء الذي يتنفسه يمكن أن يشوش على توازن العمل. كان عنده طن من الأسئلة ليطرحها على فانيت.

دون أن تستدير نحو الصبي، استبقت فانيت تساؤلاته.

- أعرف ذلك جيداً، بول، لا يوجد نيلوفر في الغدير... لكني لا أهتم بالحقيقة، رسمت «نيلوفر» ذلك اليوم في حدائق كلود مونيه. بالنسبة إلى الباقي، مستحيل، لم أتوصل إلى شيء مع تلك المياه

الراكدة. كان يجب أن أضع النينوفر خاصتي على نهر، مياه حية، شيء يتراقص. خط هروب حقيقي. شيء يتحرك.

بول مفتون.

- كيف تصنعين، فانيت؟ أن تنجحي بهذا الشكل في إعطاء الانطباع بأن لوحتك حية، أن الماء يجري، وأن حتى الريح تحرِّك الأوراق؟ هكذا، فقط بواسطة صباغة على لوحة...

أحب عندما يهنئني بول...

- لا أملك شيئاً حيال الأمر، أنت تعرف. كما كان مونيه يقول، لست أنا، هي فقط عيني. أنا أكتفي بأن أضع على اللوحة ما تراه...

- أنت مدهشة...

- اصمت، أيها الأحمق! سأقول لك، في مثل عمري، كان كلود مونيه رساماً مشهوراً في مدينة الهافر، بفضل رسوم الكاريكاتير التي يرسمها للمارة... ثم أنا لست... انظر إلى الشجرة، قبالتها، شجرة الحور. هل تعرف ماذا طلب مونيه ذات يوم من أحد القرويين؟

- لا...

- كان قد بدأ رسم شجرة في الشتاء، شجرة سنديان قديمة. لكنه عندما عاد بعد ثلاثة أشهر، كانت الشجرة مغطاة بالأوراق. حينئذٍ، دفع مالاً لمالك الشجرة، رجل قروي، كي ينزع كل الأوراق عن الشجرة، واحدة تلو واحدة...

- أنت تقولين أي شيء...

- لا! لقد تطلَّب الأمر رجلين، اشتغلا طوال اليوم من أجل تعرية الموديل! وكتب مونيه لزوجته بأنه فخور لأنه استطاع أن يرسم مشهد شتاء في شهر مايو!

اكتفى بول بالتحديق في الأوراق التي ترقص في الريح.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

- سأفعل ذلك من أجلك، فانيت. أن أغيّر لون الأشجار. لو طلبت مني ذلك، سأفعله من أجلك.

أعرف ذلك بول، أعرف.

واصلت فانيت الرسم خلال دقائق عديدة. بقي بول وراءها، صامتاً. عندما لم تعد الرؤية ممكنة. انتهت الفتاة بالاستسلام.

- لم يعد الأمر ممكناً... سأتم الرسم غداً. أتمنى...

تقدم بول نحو الضفة وراقب الغدير الذي يجري عند قدميه.

- لا أخبار عن جيمس؟

بدا صوت فانيت كأنه يتصدع. أحس بول أن الرسم كان قد أتاح لفانيت أن تنسى وأن الواقع يمسك بها الآن. قال لنفسه إنه غبي، وأنه لم يكن عليه أن يطرح السؤال.

- لا، تمتمت فانيت. لا خبر. كأن جيمس لم يوجد أبداً! أظن أني أصبحت حمقاء، بول. حتى فينسنت قال لي إنه لا يتذكره. مع أنه رآه حتماً، لقد كان يتجسس علينا، كل مساء. أنا لم أحلم بذلك!

- فينسنت غريب...

بحث بول في مخزونه عن أفضل ابتسامة مطمئنة.

- أطمئنك، من بينكما أنتما الاثنان، إن كان هناك أحد غير عادي، فلست أنت! هل حاولت التحدث مع المدرّسة عن جيمس؟

اقتربت فانيت من لوحتها كي تتحقق من أنها جافة.

- لا، ليس بعد. الأمر ليس سهلاً، أنت تفهم... سأحاول غداً...

- ولماذا لا تتحدثين مع رسامين آخرين في القرية؟

- لا أعرف، أنا لا أجرؤ. جيمس كان دوماً لوحده. أحس أنه عداي أنا لم يكن يحب الناس كثيراً...

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

هل تعرف، بول، أنا أشعر بالحرج. حرج كبير حتى. أحياناً، أقول لنفسي إن علي أن أنسى جيمس، وأن أتصرف كأنه لم يوجد أبداً.

- أمسكت فانيت لوحتها بحزم، تقريباً أكبر منها، ووضعتها على ورقة بنّية تستعملها من أجل حمايتها. استدارت عيناها نحو مولان دو شونوفيير. برج الطاحونة يرتفع في السماء التي تحوَّل لونها إلى أحمر برتقالي. المنظر جميل بقدر ما هو مخيف. ندمت فانيت في تلك اللحظة أنها جمعت أدواتها.

- بول، هل تعرف ما أعتقده أحياناً؟

الفتاة منحنية على ورقتها البنية وتطويها بعناية.

- لا؟

- أعتقد أني اخترعت جيمس. أنه لم يوجد حقيقة. إنه، كيف أقول، شخصية لوحة. إني تخيَّلته. جيمس في الحقيقة هو الأب ترونيون في لوحة تيودور روبنسون. نزل من فوق حصانه كي يلتقي بي، يحدّثني عن مونيه، ويزرع في الرغبة في الرسم، أن يقول لي إني موهوبة، ثم عاد من حيث أتى، إلى لوحته، على حصانه، في الغدير، بالقرب من الطاحونة...

تعتبرني مجنونة، هاه؟

انحنى بول وساعد فانيت على حمل اللوحة.

- لا يجب أن تضعي مثل هذه الأفكار في رأسك، فانيت. لا يجب. إلى أين نحملها، لوحتك العظيمة؟

- انتظر، سأريك مخبئي السري. أنا لا آخذها إلى البيت، ماما تعتبرني مجنونة بسبب جيمس ولا ترغب سماع الحديث عن الرسم؛ وبشكل أقل عن تلك المباراة... ذلك يُحِدثُ مأساة في كل مرة!

- تسلقت فانيت الجسر وقفزت خلف المغسل.

- يجب أن ننتبه ألا نتزحلق على الدرجات ونسقط في الماء... مرر لي اللوحة.

مرت اللوحة من يد إلى يد.

- انظر، إنه مخبئي، هنا، تحت المغسل. يوجد فراغ، المكان الكافي، كأنما اكتشف لتخبّأ فيه لوحة!

تفحصت فانيت المناطق المحيطة بهيئة متآمرة: المرج الذي يمتد أمامها، خيال الطاحونة في السماء المنطفئة.

- أنت الوحيد الذي يعرف، بول. وحدك معي.

ابتسم بول، هو يحب ذلك التواطؤ، الثقة التي تضعها فيه فانيت. فجأة، انتفض الولدان. هناك من يمشي، من يجري بالقرب منهم. في قفزة، مرت فانيت على الجسر. تقدم ظل غير واضح.

للحظة، ظننته جيمس...

- مغفل، صاحت فانيت، لقد أخفتنا!

جاء نبتون يحتك بساقيها. الراعي الألماني يخرخر مثل قط كبير.

- أصحح، بول. أنتما فقط تعرفان مخبئي. أنت ونبتون.

ألقى سيريناك نظرة مندهشة نحو مساعده. عينا سيلفيو تلمعان من التعب، مثل كلب اجتاز البلد كي يجد أصحابه.

- ماذا وجدت بحق الجحيم؟

تقدم سيلفيو، جرَّ كرسياً مدولباً وسقط عليه. وضع ورقة تحت أنف رئيسه.

- انظر، إنها الأرقام على ظهر صور عشيقات مورفال.

أحنى سيريناك رأسه وقرأ.

23-02. فابيان كونكلافيس في عيادة طبيب الأسنان مورفال.
15-03. ألين مالتراس في نادي زِد، شارع أونغليه.
21-02. أليسون موريز على شاطئ سيرك.
17-03. المجهولة بالوزرة في مطبخ مورفال.
03-01. ستيفاني دوبان على طريق الأستراغال فوق جيفرني.

- لقد خطرت علي الفكرة فجأة، وأنا أصحح ملاحظاتي. هل تتذكر ما قالته ستيفاني دوبان قبل قليل بخصوص مورفال؟

- قالت العديد من الأشياء.

عضّ سيريناك على لسانه، لوَّح مساعده بورقة كتب عليها من دون شك كل كلمة قالتها ستيفاني.

- سأقرأ عليك كلامها بالضبط: «لقد تنزهت مع جيروم مرتين. ربما ثلاث. نحن فقط تحدثنا. الحركة الأكثر جرأة التي قام بها هي أنه حاول أن يمسك يدي. لقد أوضحت المسألة، أنا لم أرَه بعدها أبداً لوحدي»...

- وماذا إذاً؟

- طيب، الآن، حضرة الرئيس، هل تتذكر ما قلته لك مساء قبل أمس، عندما اتصلتُ بك من المستشفى؟ ألين ماليتراس، فتاة بوسطن؟

- بشأن ماذا؟

- بشأن مورفال!

- كانت حاملاً.

- وقبل ذلك؟

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- خرجت مع مورفال، كانت في الثانية والعشرين، كان مورفال يكبرها بعشر سنوات ويملك مالاً...

وجّه سيلفيو بينافيدس نحو سيريناك عيني من يمشي نائماً واستيقظ هلِعاً:

- أجل، بالضبط، لكنها حددت أيضاً أنها خرجت مع مورفال حوالي خمس عشرة مرة!

حدق سيريناك في السطور التي تتراقص على مكتبه.

15-03. ألين مالتراس في نادي زيد، شارع أونغليه.

03-01. ستيفاني دوبان على طريق الأستراغال فوق جيفرني.

لم يمنحه مساعده الوقت كي يتنفس.

- هل فهمت، الآن. ستيفاني دوبان، 03؛ ألين ماليتراس، 15. كان الرمز الأكثر غباءً: عدد المرات التي التقى فيها الثنائي الخائن مكتوب على ظهر كل من الصور. التحري الخاص، أو المصور اختار الصور الأكثر تعبيراً عن العلاقة ضمن جميع الصور التي يتوفر عليها.

نظر لورنس سيريناك إلى مساعده بإعجاب صادق.

- وأتوقع أنك إن جئت لتراني، فلأنك قد تحققت بالنسبة إلى باقي الفتيات...

- صحيح، أجاب بينافيدس. بدأت تعرفني. اتصلت بفابيان كونكلافيس على الهاتف، هي غير قادرة على إعطائي عدد المرات التي خرجت فيها مع رئيسها، لكن عندما ضيقت عليها الخناق أعطتني نطاقاً، بين عشرين وثلاثين مرة.

صفر سيريناك.

- وأليسون مورير؟

- الإنجليزية الشجاعة تسجل كل شيء في مذكرة صغيرة، وهي تحتفظ بكل مذكراتها للسنوات الماضية في أحد الأدراج. عدّت معي على الهاتف لأنها لم تسأل نفسها أبداً.

- نتيجة السباق؟

- الجائزة الكبرى، لقد أحصت بالضبط واحداً وعشرين موعداً!

- رائع! أعشق الناس شديدي الدقة الذين يسجلون كل شيء.

غمز سيريناك لمساعده بطريقة متواطئة.

لم يستوعب سيلفيو الحركة وواصل:

- نحن أمام تحرٍّ خاص شديد الدقة. ليكون قادراً على إحصاء كل موعد...

- إلى حدٍّ ما. باستثناء أليسون مورير، لا شيء يقول إنه العدد الصحيح. إنه نظام مقاسي. أتوقع أن هذا ما سيطلب من تحرٍّ خاص يتحرى عن خيانات زوج: نطاقاً تقريبياً لعدد الهفوات خارج فراش الزوجية. كي أختصر، سيلفيو، الخبر الجيد هو أننا لن نضيع مزيداً من الوقت مع هذا الرمز. السيئ، هو أنه لا يخبرنا بشيء.

- غير أنه تبقى الأرقام الأخرى: 01. 02. 03.

استهجن سيريناك.

- هل عندك فكرة حول هذا الأمر؟

اختار بينافيدس التواضع.

- عندما نجذب خيطاً، الباقي يأتي معه. نحن نعرف أن الرقم الأول ليس تاريخاً، لكنه يخص طبيعة العلاقة بين مورفال وعشيقاته. معلومة يعطيها المصور للكفيل. عدا عدد اللقاءات بين العاشقين، أي دليل آخر يمكن أن يكون مفيداً لتقديمه؟

- عجباً! انفجر سيريناك. بطبيعة الحال! طبيعة تلك العلاقة... هل كان مورفال يعاشر الفتيات! سيلفيو، أنت...

قاطع سيلفيو بينافيدس رئيسه كي يمتلك الامتياز لإنهاء برهنته:

- ألين ماليتراس حملت من مورفال. سجل الرسام 15-03. يمكن أن نفترض أن 03 يعني أن الفتاة المعنية كانت تعاشر جيروم مورفال.

اعتلت شفتا لورنس سيريناك ابتسامة كبيرة:

- وماذا أجابتك قبل قليل فابيان غونفاليس وأليسون مورير؟ أنت سألتهما بطبيعة الحال. تحملان العدد 02 على ظهر الصورة، هما الاثنتان...

احمرّ سيلفيو بينافيدس احمراراً خفيفاً.

- فعلت كل ما بوسعي، ليس من شيمي الإلحاح على الفتيات بخصوص هذه المسائل. أخيراً، الفتاة الإنجليزية، أليسون مورير، أقسمت على رأس ملكة إنجلترا أنها لم تعاشر صديقها طبيب العيون أبداً. المسكينة تؤمن بالزواج على طريقة نوتردام أو كونتربوري... أما بالنسبة إلى فابيان كونكالفيس، كانت على وشك أن تغلق في وجهي، خاصة أني كنت أسمع أولادها يصرخون خلف ظهرها، لكن كي أدعها وشأنها أكدت لي أنها رفضت دوماً المعاشرة. فقط كانت تكتفي بمداعبات مع رئيسها بحسب قولها، قال سيلفيو وهو يحرك الورقة أمام أنفه كأنها مروحة. إذاً اختصرت الرقم الثاني من الرمز بأنه نوعاً ما سُلَّم ريختر لعلاقات مورفال الجنسية. 03، الحد الأقصى، يعاشر؛ 02، يغازل؛ 01... يمكن أن نستنتج أنه لا يحدث شيء... هو يغازل، لكن التحري الخاص رغم حرصه على التجسس، لا يحصل على شيء! لا خيانة زوجية.

- طيب، سيلفيو، نحن متفقان. نحن أمام شخص كان مكلَّفاً

بالتجسس على مورفال وتقديم تقارير حول مغامراته خارج إطار الزواج. تواتر العلاقات، نوعية العلاقات، والصور كدليل. يمكن أن نفكر أن الأرقام على ظهر الصور ليست في الواقع رمزاً وضع كفخٍّ بالنسبة إلينا، إنها فقط نوع من الإيجاز استعمله أحد المحترفين. لكنني أطرح عليك السؤال مرة أخرى، في ماذا يقدمنا؟

اِلتَوَتْ الورقة بين أصابع سيلفيو.

- لقد فكرت في كل هذا، حضرة الرئيس. بالنسبة إلي، هذا الرمز، شرط أن نثق به، يعطينا معلومتين مهمتين. الأولى هي أن ستيفاني دوبان لم تكذب علينا، هي لم تكن عشيقة مورفال... والشخص الذي طلب هذه الصور من التحري الخاص يعرف ذلك!

- باتريسيا مورفال؟

- ربما. أو جاك دوبان، لم لا؟

- لقد فهمت، سيلفيو، لقد فهمت، بدأت أعرف المقطع. عدم وجود دافع! وإن لم يكن عند جاك دوبان دافع، فهو لا يحتاج إلى حجة غياب...

- غير أنه بالنسبة إلى الحجة، قاطعه سيلفيو، هو يمتلك واحدة.

تنهد سيريناك.

- قُم بإزعاجي، في النهاية. لقد فهمت. لقد اتصلت بقاضي التحقيق منذ ساعتين كي يتم إطلاق سراحه من سجن إيفرو. سينام جاك دوبان في بيته في جيفرني هذا المساء.

قبل أن يدخل سيريناك حقل قناعاته الخاصة، سارع سيلفيو بينافيدس بالمواصلة:

- لكن الرمز يعطينا معلومة ثانية مهمة، حضرة الرئيس. بحسب الرمز، من خمسة فتيات في الصور، فقط اثنتان عاشرتا مورفال: ألين

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ماليتراس والفتاة غير المعروفة، تلك التي تحمل وزرة زرقاء في الصالون. 17-03.

- نحن متفقان، أكّد سيريناك. سبعة عشر لقاءً، ومورفال كان يحصل على تلك الفتاة التي تركع أمامه. أين تريد أن تصل؟

- إذا انطلقنا من فرضية أن جيروم مورفال كان عنده طفل، فلنقل، في حوالي العاشرة، فستكون هذه الفتاة هي الوحيدة من بين عشيقاته التي يمكن أن تكون الأم.

- 61 -

تمنحُ شرفةُ مطعم ليسكيس نورماند، في علبة من زهور الفاوانيا والناردين، رؤيةً جميلةً على قرية جيفرني. عندما يحل الليل، تعزز المصابيح الكهربائية التي وضعت بتناسق بين النباتات المزهرة وقع الواحة الانطباعية.

لم يلمس جاك طبقه من المقبلات. طبق من الكبد. طلبت ستيفاني الشيء نفسه وذاقت باقتصاد، وطّدت شهيتها على شهية زوجها. عاد جاك منذ ساعة تقريباً، كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة ليلاً بقليل، كان يحيط به دركيان، تركاه هناك، في شارع بلانش-هوشيدي-مونيه، بين المدرسة والبيت.

لم يقل جاك شيئاً، ولا كلمة. وقّع على ورقتهما دون أن ينظر إليهما، أمسك يد ستيفاني وشدّ عليها بقوة. لم يطلِقها منذ ذلك الحين، أو تقريباً. فقط من أجل العشاء. وحدها على غطاء المائدة، تبدو يده يتيمة، مشغولة في اللعب بالفتات.

«سيتحسن الوضع»، طمأنته ستيفاني.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كانت قد حجزت طاولة في ليسكيس نورماند، لم تترك خياراً لزوجها. هل كانت فكرة سديدة؟ تساءلت. هل ما زالت توجد أفكار سديدة أو سيئة؟ لا، لا شيء سوى الإحساس بأن الأمور يجب أن تتم بهذا الشكل، بهذا الشكل وفي ذلك الوقت. الإحساس بأنه في ليسكيس نورماند سيتم الأمر بشكل أفضل من أن يتم في البيت. أن الإطار سيساعد. أنه يلزم نوع من البروتوكول. الأمل بأنه على الشرفة، في العلن، لن يتسبب جاك بفضيحة، لن ينهار، سيبقى أبياً، سيفهم...

- هل انتهيتما، سيدي؟

أخذ النادل الطبق. لم ينبس جاك بشفة. ستيفاني تنوب بالحديث عنهما الاثنان، تحدّثت عن أطفال المدرسة، عن فصلها، عن مباراة تيودور روبنسون، عن اللوحات التي يجب تقديمها بعد يومين. استمع جاك بتلك النظرة الوديعة، كما فعل دوماً. أحست ستيفاني أنه يفهمها. أحست دوماً أن جاك يفهمها. هو يفهمها تماماً. تماماً هي الكلمة. أحب دوماً أن تتحدث عن أطفال المدرسة. كأنها كانت هروباً يتحمله... لا بدَّ أن السجانين يسعدون عندما يحدّثهم السجناء عن الطيور في السماء.

وضع النادل أمامهما طبقين من مفروم البط بخمسة توابل. ابتسم جاك وذاق. طرح بعض الأسئلة غير المحددة عن المدرسة. اهتم بالتلاميذ، بشخصياتهم، بأذواقهم. عدا ذلك التوقيف السخيف، ستيفاني مضطرة إلى أن تعترف بأن الحياة مع جاك بسيطة. جد هادئة. جد مطمئنة.

ذلك لا يغيّر شيئاً.

لقد أخذت قرارها.

حتى لو كان جاك يفهمها أكثر من أي أحد، حتى لو كان جاك يحميها، حتى لو كان جاك غير قادر على الإساءة إليها، حتى لو أن

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ستيفاني لم تشك ولو لثانية في حياتها في ذلك الحب...

لقد أخذت قرارها.

يجب أن ترحل.

قدم جاك نبيذاً لزوجته ثم صبّ لنفسه نصف كأس. نبيذ بورغون، فكّرت ستيفاني. قرأت الاسم على الملصق، مورسول. هي لا تعرف الكثير عن الخمور؛ جاك أيضاً لم يشرب أبداً، أو تقريباً. هو تقريباً الوحيد بين أصدقائه القناصة. هو الآن يأكل. ذلك يطمئن ستيفاني بشكل غريب. هي تحس أنها تقلق على زوجها كما نقلق على أحد الأقارب. عن مودة. انبسط جاك قليلاً، تحدث عن بيت رصده في الناحية، صفقة جيدة بحسب قوله. هي تعرف ذلك، جاك يشتغل كثيراً، كثيراً جداً، يمسك بزمام وكالته، لم يحالفه الحظ إلى حدِّ الآن، لم ينجز صفقة كبيرة، لكن الحظ يمكن أن يحالفه، قد يحالفه الحظ بالضرورة يوماً، جاك عنيد. جاك يستحق ذلك. في الواقع، هي غير مبالية حيال ذلك. تغيير البيت. العيش مع رجل أكثر غنى.

زحفت يد جاك على القطن الأبيض المطرز، بحثت من جديد عن أصابع ستيفاني.

ترددت المدرّسة. سيكون من الأسهل أن تجعله يفهم دون أن تقول شيئاً، بمراكمة حركات تافهة، يد تتفادى إمساكها، مداعبة لا تستجيب لها. نظرة تتجنبها. لكن جاك لن يفهم. أو بالأحرى، هو سيفهم، لكن ذلك لن يغير شيئاً. سيحبها رغم ذلك. حتى أكثر.

هربت أصابع ستيفاني، اختفت في شعرها، أزّت عند ملمس الشريط الفضي. ارتعش كل جسد ستيفاني. أحست أنها سخيفة.

لماذا؟

لماذا تحس بهذه الحاجة غير المحتملة لهجر كل شيء؟

أفرغت ستيفاني كأسها وابتسمت لنفسها. واصل جاك التحدث عن ذلك البيت على ضفاف الأور، عن تجّار الأثاث المستعمل الذين عليهما أن يزورانهم من أجل تأثيثه... استمعت ستيفاني وهي شاردة. لماذا الهروب... الجواب عن أسئلتها بسيط. قديم قدم العالم. مرض الشابات اللواتي يحلمن بشيء آخر: ذلك التعطش للحب على منوال بيرينيس لأراغون. الملل الذي لا يطاق عند المرأة التي ليس لديها ما تؤاخذ عليه الرجل الذي تنام بجانبه... لا عذر، لا حجة. فقط الملل، تلك القناعة أن الحياة توجد في مكان آخر. أن انسجاماً تاماً يوجد في مكان آخر. وأنه أجل، هذه البدع ليست مجرد تفاصيل بل هي الأساسي... وأن لا شيء يهم أكثر من أن يستطيع المرء أن يتقاسم نفس التأثر أمام لوحة لمونيه، أو أبيات لأراغون.

أخذ النادل أطباقهما بخفية مهنية.

– لا، قال جاك، نحن لا نريد أن نطلب نبيذاً. فقط تحلية.

انتهت يد ستيفاني بأن حطت على المائدة، غطتها في الحال يد جاك. الفتيات الشابات، فكّرت المدرّسة، يستسلمن دوماً، بيقين، يعشن رغم كل شيء، سعيدات بلا شك، أو لا؛ يصبحن تدريجياً غير قادرات على أن يميزن. في النهاية، الأمر أبسط على هذا المنوال، بكل تأكيد. التراجع.

ومع ذلك... مع ذلك... هذا الإحساس عند ستيفاني ينغرز، قوياً، ملحّاً: ما تحس به فريد. غير مسبوق. مختلف.

كأسان من المثلجات، مزيّنان بورقة نعناع، وضِعا أمامهما. جاك

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

من جديد لا يقول شيئاً. قررت ستيفاني أن تتحدث بعد التحلية. بعد تفكير، لم تكن فكرة جيدة، العشاء في ليسكيس نورماند. هذا الانتظار المشؤوم يبدو كأنه يطول بشكل لا منتهٍ، كأنه صوِّر بالبطيء. لا بدَّ أن جاك يفكر في شيء آخر، في التوقيف، في السجن، في المفتش سيريناك. يجتر عاره. الأمر يستحق.

هل يشك؟ أجل، من دون شك. جاك يعرفها جيداً.

التهمت ستيفاني مثلجات تفاح راوند. هي تحتاج إلى قوة. الكثير من القوة. هي من الوحشية بحيث لا تستطيع انتظار مساء آخر؟

جاك خارج من السجن، متألم، مهان كما لم يحدث من قبل.

لماذا تعلن له الأمر هذا المساء؟

لماذا تخطو من خلال الخلل؛ تتسلل خجلى إلى ساحة المعركة، بين الجثث؛ تستغل البيت الذي يحترق كي تفر بجلدها. هل هي المرأة الأكثر سادية من بين النساء؟

هي تحتاج إلى قوة.

نحّت أفكارها نحو لورنس، بطبيعة الحال. الانسجام التام الذي طالما تمنته. هل هو وهم، تلك القناعة الأكيدة أن الشخص الذي يقف أمامك كان عليك أن تلتقي به، وأنك لن تكوني سعيدة إلا معه وليس مع أحد آخر غيره، وأنهما وحدهما ذراعاه يمكن أن تحميانك، وأنه وحده صوته يمكن أن يجعلك ترتعشين، وأنها وحدها ضحكته يمكن أن تجعلك تنسين؟

تلك القناعة هي أيضاً أحد شراك الحياة؟

لا

هي تعرف أنه لا.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

قفزت.

القفز في الفراغ.

المجهول.

السقوط بلا نهاية، كما في أليس للويس كارول. تغمض عينيها وتفكر في بلاد العجائب.

- جاك، سأهجرك.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

- اليوم الثاني عشر -

24 مايو 2010
(متحف فيرنون)
تيه

- 62 -

ثروات متحف فيرنون غير مقدَّرة، من دون شك بسبب ظل ثروات جيفرني الخانق. افتتاح متحف الانطباعيين، سنة 2009، لم يغيّر في الأمر شيئاً. من جهتي، أنا أفضِّل من بعيد هدوء هذه البناية النورماندية الفاخرة على أرصفة السين في فيرنون على ضجيج متاحف شارع كلود مونيه. مسألة سنّ ستقولون لي. ألهث في الردهة، اجتزت الساحة المبلطة بمشقة، وصلت إلى المدخل وأنا أنحني على عصاي.

رفعت عيني. لوحة كلود مونيه الشهيرة تتربع في ردهة الاستقبال، وضعوها في مكان جيد، بمناسبة العملية «نورماندي انطباعية»: «نيلوفر»، لوحة دائرية يصل قطرها متراً تقريباً. في إطارها الدائري المذهّب القديم، تشبه مرآة الجدات. هي، كما يبدو، واحدة من لوحات مونيه الدائرية الثلاث المعروضة في العالم! قدّمها مونيه لمتحف فيرنون بنفسه، سنة 1925، سنة قبل موته...

الصنف العظيم، لا؟

هل تتخيلون! إنه مفخرة في فيرنون. إنه المتحف الوحيد في مقاطعة الأور الذي يملك لوحات لمونيه، وليس أي لوحات. حتى لو كان الإطار المذهّب قديماً شيئاً ما، فأنا أتحدى أي أحد ألا ينجذب إلى ألوانها الواضحة، مثل نافذة على جنة باستيل. عندما أفكر في السياح الذين ينبهرون مثل الخرفان في القرية المجاورة وينبهرون أمام لوحات مقلدة... أخيراً، أنا لن أشتكي. إذا تحول الانتجاع إلى هذا المكان أيضاً، إلى فرنون، فسأكون أول من يتذمر. تقدمتُ بضع خطوات على بلاط الردهة. مرَّ أمامي باسكال بوسان كالإعصار: تعرفت في الحال إلى مدير المتحف، يقال إنه أحد أكبر المتخصصين في مونيه و«النيلوفر» في فرنسا، بجانب أخيل غيوتان الموجود في متحف روان. قرأت في مكان ما أنه أحد أعمدة عملية «نورماندي انطباعية». رجل مهم... إنه الحال لقول ذلك. أخيراً، لستم ملزمين بالابتسام.

حيّاني بوسان دون أن يبطئ من سيره، لا بدَّ أنه يتذكر وجهي بشكل غامض؛ لو ركّز، سيقوم بالربط بين العجوز التي يراها والمرأة التي كانت تأتي في الماضي لتتحدث معه عن «النيلوفر»...

كان ذلك منذ زمن بعيد.

لا أريد إزعاجاً! أعلن باسكال بوسان للسكرتيرة في المدخل. عندي موعد مع شرطيين من مفوضية فيرنون... لن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً.

توقف المدير وتفقّد ردهة المتحف بشكل آلي. على الأرضية، خنافس مرسومة تبيّن الطريق بين الغرف. أسفل الدرج، تتكوم منحوتات مشوّهة لعدم وجود مكان آخر يسعها. عقد باسكال بوسان حاجبه الأيسر منزعجاً، ثم أغلق خلفه باب مكتبه. عبر زجاج باب

الدخول، راقبتُ أمام المتحف دراجة المفتش سيريناك التايجر تريومف تي 100. الدراجة مركونة على أرضية الباحة الداخلية... قطعاً، عالم «النيلوفر» صغير، صغير بحجم بِركة.

تنهدتُ. سأفعل مثل الآخرين، سأتبع الخنافس على الأرض. الآثار المحلية، التي خصص لها الطابق الأرضي، تزعجني. نظرت إلى الدرج الذي يؤدي إلى الطوابق، هناك حيث تعرض مجموعات رسامي المناظر الطبيعية والفنانين المعاصرين. الدرج الضخم هو أيضاً مفخرة للمتحف، يجب أن نقول إن لا شيء ينقص. تماثيل رخامية من نوع الأحصنة التي تجري والرماة الذين يصوبون موضوعة من دون تنظيم، على درجة من بين كل أربع درجات، تحت لوحات كبيرة لدوقات ومجندين وأمراء منسيين، لوحات لم يعد أحد يرغب بها في بيته. أقلق. هم فخورون جداً بدرجهم، حتى أننا لسنا متأكدين ما إن كان مصعدهم يعمل، في متحف النسيان هذا...

- 63 -

بينما كان باسكال بوسان يفحص باهتمام كل ركن من أركان علبة الصباغة وينسر آند نيوتن، كان سيريناك وبينافيدس يترقبان أقل حركة من حركاته. في المرحلة التي وصلا إليها من التحقيق أصبحا يعبّئان كل الخبراء الممكنين. قُدّم لهما باسكال بوسان على أنه الخبير الآخر الذي لا يمكن تجاوزه، خاصة في النورماندي. أظهر لهما مدير المتحف أنه جدّ مشغول، لكن مع ذلك قَبِلَ أن يخصص للشرطة بعض الدقائق. الشخص الذي كان أمامهما يتطابق مع ما تخيله بينافيدس عبر الهاتف: طويل، ونحيف، بذلة رمادية وربطة

عنق باستيل؛ من نوع البائع المتنقل (VRP) للأعمال الفنية الذي ينتهي مديراً للّوفر... أو لا شيء!

- إنها تحفة رائعة أيها السيدان. إنها قطعة محفوظة لكنها تعود لعدة سنوات خلت. هي لا تساوي ثروة كبيرة، أبعد من ذلك، لكنها يمكن أن تهم هواة المجموعات. تمثل النموذج الذي كان يستعمله الرسامون الأميركيون في بداية القرن، لكن منذ ذلك الحين أصبحت وينسر آند نيوتن، ماركة التنين، مرجعاً عالمياً. أي رسام يقلد الموضة أو حنيني سيحلم بأن يضع فيها فرشاته.

كان بينافيدس وسيريناك جالسين في كرسيين من حقبة القطيفة الحمراء، أقل راحة مما يمكن أن يوحي بذلك مظهرهما. الأرجل من الخشب المطلي بالأسود يهدد بالسقوط عند أقل حركة خاطئة.

- سيد بوسان، سأله لورنس سيريناك، هل تظن أنه لا تزال تتداول لوحات لمونيه في الأسواق؟ «نيلوفر» من الأفضل...

وضع مدير المتحف العلبة.

- ماذا تقصد بالضبط، حضرة المفتش؟

- طيب، مثلاً، هل يمكن أن نتصور أن أحد سكان المنطقة قد حصل على لوحة من مونيه؟ لمَ لا إحدى لوحات «النيلوفر» المئتين والاثنان وسبعون؟

جاء الجواب مصمّاً:

- عندما استقر كلود مونيه في جيفرني كان فناناً مشهوراً. كل واحد من أعماله كان من ضمن الموروث الوطني بالفعل. كان مونيه نادراً ما يمنح لوحاته التي تساوي ثروة مهمة.

حدد بكل أسنانه البيضاء:

- لقد قبل خرقاً نادراً لهذا المبدأ من أجل متحف فيرنون. هذا

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ما يعطي قيمة استثنائية للوحتنا الدائرية.

بدا الجواب مرضياً لسيريناك لكن ليس لسيلفيو الذي تذكر التعليقات المتحمسة لمحافظ متحف الفنون الجميلة في روان.

- المعذرة، لكن مونيه اضطر على الدوام إلى التفاوض مع جيرانه من سكان جيفرني كي يجهّز بركته، كي يحافظ على المَشاهد كما كان يريد أن يرسمها... ألا يمكن توقع أن يكون قد اشترى موافقة الجيران... مقابل وعد بلوحة؟

لم يخفِ بوسان انزعاجه. نظر جلياً في ساعته.

- اسمع، حضرة المفتش. فترة الانطباعيين ليست هي قبل التاريخ! في بداية القرن، كانت توجد جرائد، أفعال موثقة، تقارير مجالس محلية... كل تلك الوثائق تفحّصها عشرات مؤرخي الفن. قطعاً لا تبادل من هذا النوع تمَّ الإعلان عنه... بعد هذا، يمكن أن نحكي دوماً ما نشاء!

تظاهر المدير بأنه يريد أن ينهض. هذا الحرص على جعل حديثهم قصيراً سيثير فضول بينافيدس. انتظر بلا جدوى نجدة من طرف لورنس سيريناك.

- والسرقة؟ أطلق سيلفيو.

تنهّد باسكال بوسان.

- لا أرى إلى أين تريد أن تصل. كان كلود مونيه رجلاً منظَّماً وواعياً إلى آخر حياته. كانت لوحاته محصية، ومرتبة، ومصنفة. عند موته، لم يشر ابنه ميشيل إلى أقل لوحة ناقصة...

رقصت أصابع المدير رقصة عصبية على علبة الصباغة.

- حضرة المفتش، إن لم تكن قادراً على حل لغز جريمة وقعت منذ أسبوع، أشك أنك تستطيع أن تجد مفتاح سرقة مفترضة وقعت

قبل سنة 1926...

تسديد مصيب... تحمّل بينافيدس. صعد سيريناك بدوره إلى الحلبة:

- سيد بوسان... أتوقع أنك سمعت بمؤسسة تيودور روبنسون؟

بدا مدير المتحف لحظة مذهولاً من وصول المدد. هزّ عقدة ربطة عنقه.

- طبعاً... هي واحدة من ثلاث أو أربع مؤسسات تروِّج للفن عبر العالم.

- وما رأيك فيها؟

- كيف هذا، ما رأيي؟

- هل سبق أن تعاملت مع هذه المؤسسة؟

- بالتأكيد! يا له من سؤال! مؤسسة روبنسون لا يمكن تجاوزها بخصوص ما يتعلق بالانطباعية.

الشعار الثلاثي، كما هو محدد عندهم: التنقيب، الحماية، الترويج...

أومأ بينافيدس برأسه، تابع بوسان:

- ثلث اللوحات التي ستعرض يوماً في العالم يجب أن تمر عبرها. مؤسسة كتلك لا تهتم بمتحف فيرنون، تشكّون في ذلك؟ لكن من أجل عمليات من الحجم الكبير... طيب، منذ خمسة عشر يوماً، كنت في طوكيو من أجل المعرض الدولي «الجبال والمسالك المقدسة»، ومن كان الراعي الأساسي؟

- مؤسسة روبنسون! قال سيريناك كأنه يجيب عن سؤال مسابقة على التلفاز. إنها شبيهة بالأخطبوط هذه المؤسسة، لا؟

اختنق مدير المتحف في ربطة عنقه.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

- كيف هذا، «الأخطبوط»؟

بينافيدس هو الذي تابع:

- طيب، بالنسبة إلى شخص لا يعرف الكثير بشأن الرسم، يمكن أن نحس أن هذه المؤسسة، التي تتصرف في الملايين، تهتم بالعروض المثيرة أكثر منها تدافع عن الفن بنبل وتجرد...

سوّى بينافيدس من هيأته وهو يبتسم بسذاجة مصطنعة. لاحظ بارتياح أن الثنائي الذي يكوّنه مع سيريناك قد بدأ يتطور، مثل ثنائي في كرة المضرب يزداد خبرة. هما يراوغان. بدأ باسكال بوسان يفقد أعصابه. ألقى نظرة إلى ساعته وأجاب بانزعاج:

- طيب، بالنسبة إلى شخص مثلي يفهم في الرسم، مؤسسة روبنسون هي مؤسسة محترمة وعريقة، وهي لم تعرف فقط كيف تتأقلم مع سوق الفن الدولي، لكنها أيضاً حافظت على طموحها الأصلي، يعني التنقيب عن مواهب جديدة، وذلك منذ حداثة سنهم...

- تريد الحديث عن مباراة «رسامون مبتدئون»؟ قاطعه سيريناك.

- من بين أشياء أخرى... لا تتصورا عدد المواهب المعترف بها في العالم التي اكتشفتها المؤسسة!

- هكذا، أغلقت الدائرة، استنتج سيريناك، باختصار، مؤسسة روبنسون تتحكم في الآن نفسه بتوظيفاتها واستثماراتها...

- بالضبط، حضرة المفتش، وأين السوء في ذلك؟

هزّ سيريناك وبينافيدس رأسيهما في الآن نفسه كثنائي متماثل. نظر بوسان إلى ساعته من جديد ونهض.

- طيب، قال وهو يمد علبة الصباغة. مثلما قلت لكما، لم أستطع أن أخبركما بأكثر مما لم تكونا تعرفانه.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

حان الوقت! حاول سيلفيو بينافيدس أن يطلق سهمه الأخير:

- سؤال أخير. سيد بوسان، هل يمكن أن تحدثنا عن «النيلوفر الأسود»؟ تلك اللوحة الأخيرة التي يكون مونيه قد رسمها بضعة أيام قبل أن يموت. بحسب انعكاس ألوان موته هو...

حدّق فيه باسكال بوسان بازدراء وبهيئة بائسة، كمن سمع طفلاً يحكي أنه التقى جاناً في الحديقة.

- حضرة المفتش، الفن ليس مسألة أحاجي وأساطير. الفن أصبح قضية، بكل بساطة. تلك الإشاعة عن لوحة المأتم الذاتي ليس لها أي أساس، لا يوجد أقل مؤشر يثبت حقيقتها، إن لم يكن خيال المتنورين الذين يعتقدون أيضاً أن شبحاً يسكن ممرات اللوفر أو أن الموناليزا الحقيقية تختبئ في جوف الإتروتا!

صفعة! صرع بينافيدس. تردد سيريناك لحظة في أن يبقى عاقلاً خلف الحبال. لا يهم، ارتمى في الحلبة:

- أفترض، سيد بوسان، أن وجود العشرات من لوحات مونيه في مراسمه وبيته تقبع في غبار المخازن أو الخزانات، هو أيضاً أسطورة قروية...

لمعت عينا باسكال بوسان بشكل غريب، كأن سيريناك قد دنس سراً خطيراً.

- من أخبرك ذلك؟

- لم تجب عن سؤالي، سيد بوسان.

- لا، صحيح. بيت ومراسم مونيه هي أماكن خاصة. حتى لو زرتها بصفتي خبيراً، ستفهمان بسهولة أن الجواب عن سؤالكما يندرج تحت غطاء السر المهني. بالعكس، اسمحا لي أيضاً بأن ألح. من أخبرك ذلك؟

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ضحك سيريناك ملء فمه.

- سيد بوسان، ستفهم بسهولة أن هذا أيضاً يندرج تحت غطاء السر المهني!

خلال بضع ثوان، رانَ صمت ثقيل على الغرفة. انتهى المفتشان بأن نهضا وأزّت كراسي الحقبة بارتياح. رافقهما مدير المتحف باهتمام متعجل ثم أغلق الباب خلفهما.

- ليس ثرثاراً، المدير، علق بينافيدس في الرواق، وهو يرفع عينيه نحو لوحة «النيلوفر» المستديرة.

- هو بالأحرى مستعجل، سأضيف. قل لي، سيلفيو، يبدو لي أنك أحرزت تقدماً في موضوع المعارف الفنية... يمكن أن نقول إن مجال اهتمامك لم يعد ينحصر في المواقد فقط...

اختار بينافيدس أن يعتبر الملاحظة مديحاً.

- أنا أبحث، حضرة الرئيس... أحاول أن أقارن معلوماتي، التي أستقيها من أفضل المنابع، ببعضها. لكن ليس هذا ما يجعلني أرى بوضوح. بالعكس!

خرجا وسارا في الباحة المبلطة للمتحف. أمامهما، بعض القوارب تصعد السين. على الضفة اليمنى، بيت الجسر القديم الغريب، المتوازن منذ قرون فوق النهر بين رصيفين، يبدو على وشك أن ينهار في الماء الرمادي.

- آه، حضرة الرئيس، مساء أمس، حاولت شيئاً آخر، طريقة أخرى لترتيب كل المؤشرات. هي فقط مسودة، لكن...

- أرني ذلك! قال سيريناك.

بالكاد ترك المفتش لمساعده الوقت كي يطلق الورقة قبل أن

ينزعها من بين يديه. أحنى عينيه، اكتشف مثلثاً مرسوماً كتبت فيه مختلف الأسماء. مرر يده في شعره محتاراً.

- ما هذا أيضاً، سيلفيو، ما هذا الهرم اللعين؟

- لا... لا أعرف شيئاً، تمتم بينافيدس، فقط طريقة أخرى للتفكير في هذه الحكاية ربما. نحن منذ بداية هذه الحكاية أمام ثلاثة مجموعات من المؤشرات تنطلق في ثلاث اتجاهات مختلفة، «النيلوفر»، وعشيقات مورفال، والأطفال. هي، فلنقل، طريقة مختلفة لتصور أنه كلما اقتربنا من مركز المثلث، كلما كان مؤشر الاتهام قوياً...

اتكأ سيريناك على قاعدة التمثال الذي يُشرِف على مدخل المتحف. حصان من البرونز.

- إضفاء الطابع الرسمي على كل شيء. هذا جنون. هل تعتقد حقاً أنك تحل هذا التحقيق بهذه الطريقة الديكارتية السخيفة؟

وضع يداً رطبة على الردف البرونزي.

- إن تبعتك، إذاً، في المركز، ستضع مؤسسة روبنسون وتلك الفتاة من بوسطن، ألين ماليتراس... أجل... المشكل الوحيد هو أن مدير المتحف أخرس مسار القضية في عالم الفن حول «النيلوفر» أو أي لوحة من لوحات مونيه، حتى لو رُسمت قبل الوفاة.

- أعرف... رغم كل شيء، أجدها مريبة حكايته عن السر المهني...

- أنا أيضاً. لكني لا أستطيع تصديق تلك الحكاية السريالية عن عشرات اللوحات الانطباعية المنسية منذ وفاة مونيه في مخازن البيت الوردي.

- أنا أتبعك. في جميع الأحوال، الزوجان دوبان لا شيء

يربطهما بالأطفال والإتجار في الفن، خاصة الزوج. أضعهما في زاوية ميتة. تماماً مثل أمادو كاندي...

واصل سيريناك مراقبة الرسوم باندهاش. تنفس سيلفيو بينافيدس الصعداء بتكتم. في نسخة سابقة من المثلث، كان قد كُتِبَ اسم لورنس سيريناك، في منتصف الطريق بين القمتين «عاشقات» و«نيلوفر». رفع سيريناك رأسه وتفحصه بغرابة. وضع سيلفيو إصبعاً على مثلثه.

- بقيت الفتاة ذات الوزرة الزرقاء، تلك التي لم نتعرف إليها، في مثلثي، أضعها في مكان ما بين العشيقات والأطفال...

- أصبح ذلك هوساً، حكايتك عن الطفل. لديك تسلسل أفكار، سيلفيو. لا نستطيع أن نقول...

- ماذا تريد أكثر، حضرة الرئيس! بطاقة معايدة موجهة لطفل في الحادية عشر مع قولة مشهورة لأراغون... والآن، خطّ طفل على علبة الرسم... طفل في الحادية عشر قُتِلَ بنفس الطقس الذي قُتِلَ به مورفال، سنة 1937... عشيقات مورفال، واحدة غير معروفة، يمكن أن يكون لها معه طفل في حوالي العاشرة، طفل لم يعترف به مورفال...

- أجل... في جميع الأحوال، ليس طفل في الحادية عشر هو من يستطيع إمساك حجر بوزن عشرين كيلو وتهشيم رأس مورفال. ومع كل تلك السلطة من المؤشرات، ماذا ستفعل؟

- لا أعرف. لا أستطيع أن أبعد عن ذهني فكرة أن أحد أطفال جيفرني في خطر. أنا أعي أن الأمر سخيف، لن نضع كل أطفال جيفرني تحت الحماية. لكن...

طبطب لورنس سيريناك بولع على ظهره.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

- لقد سبق أن تحدثنا عن ذلك، إنه عارض الرجل «الأب»، أو تقريباً. في الواقع، دائماً لا شيء من جهة الأمومة؟

- الهدوء التام. لقد وصلنا إلى نهاية الأجل. أحاول أن أقضي هناك أطول وقت ممكن مع كومة من المجلات ترميها بياتريس في وجهي بشكل ثابت. «كل شيء على ما يرام، يجب أن ننتظر، لم ينفتح العنق بعد، لا يزال الوقت مبكراً لإجراء قيصرية، الجنين هو الذي يقرر، ماذا تريدني أن أضيف...»، هذا ما تكرره الممرضات المولدات طوال النهار.

- هل ستعود، إلى هناك؟

- أجل...

- أشك في ذلك، سيلفيو... كل الرجال الآخرين سيقضون آخر ليالي العزوبية في الكحول، أو الحشيش، أو البوكر! لكن ليس أنت! بلّغ تحياتي لبياتريس، إنها فتاة طيبة، أنت تستحقها!

- مرر يده على كتفه.

- أطمئنك، أنت آخر العقلاء على هذا الكوكب! أنا سأعود إلى الجحيم...

نظر لورنس سيريناك إلى ساعته. الساعة الرابعة وخمس وعشرون دقيقة بعد الزوال.

وضع قبعته وامتطى دراجته تريومف.

- لكل واحد خطّ هروبه...

نظر سيلفيو بينافيدس إلى رئيسه يبتعد. في اللحظة التي اختفت فيها الدراجة تريومف في زاوية بيوت أرصفة السين، تساءل إن كان على حق في التشطيب على اسم سيريناك في قائمة المشبوهين.

في الطابق الأول من متحف فيرنون، نافذة القاعة 6 تشبه لوحة إضافية. منحدر الضفة اليمنى للسين الذي نخمن وجوده عبر النافذة، يطيل بشكل رائع مشاهد بورفيل المؤطرة، غروب الشمس على فول-لي-روز، قلعة جيلارد، ساحة لو بوتي-أونديلي، السين في رولبواز...

عندما مرت دراجة المفتش التايجر تريومف عبر اللوحة، أوافقكم الرأي، أحدثت شرخاً في المشهد الانطباعي. رأيت الدراجة تمرُّ من ضفة إلى أخرى عبر جسر فرنون، تنعطف يميناً، تسير بمحاذاة السين نحو جيفرني، بالضبط في المكان الذي يغيب فيه المنعطف عن الرؤية.

بطبيعة الحال، هذا الغبي يطير نحو جميلته.

متهور. غير واعٍ.

مررت إلى الغرفة الأخرى، قاعة التخشيب، مكتب الرسوم. أعترف لكم بذلك، إنها المفضلة لدي! مع الوقت، انتهى بي الأمر تقريباً إلى أن أفضِّل رسومات شتاينلين على لوحات الفنانين العظام. أعشق تلك الرسوم الكاريكاتورية، رسوم العمال أو المتسولين، تلك المشاهد من الحياة العادية لأشخاص غير معروفين تمَّ اصطيادها بالباستيل في لحظات. أتمهّل، أتوقف مطولاً أمام كل رسم، أتذوق كل خط قلم رصاص مثل قطعة سكاكر نتركها تذوب في الفم. بما أنها المرة الأخيرة، زيارتي الأخيرة، وداعي لشتاينلين، الأحرى أن أتذوق كل تفصيل.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بعد أن توقفت نظرتي بتأثر على رسم معروض، وِفْق طقس لعجوز معتوهة، اتبعته منذ أكثر من خمسين سنة في كل مرة ذهبت فيها إلى طابق متحف فيرنون، أتوقف أمام **القُبلة**.

لا أحدثكم عن الحضن بالرقائق لكليمت، ذلك الإعلان من أجل عطر مسكر. لا أنا أحدثكم عن **قُبلة** شتاينلين.

إنه رسم بسيط بالقلم الفحمي، فقط بعض الخطوط: رجل يظهر ظهره فقط، لباسه ملتصق بالجسم، عضلاته بارزة، يضم إلى صدره امرأة مستسلمة تنتصب على أطراف أصابعها، سقط وجهها على كتف الرجل، وذراعها الخجولة لا تجرؤ على أن تحيط بخصر الرجل العريض.

هو يريدها. هي تغرق، غير قادرة على مقاومته.

العاشقان لا مباليان بالظلال المتعددة في الخلفية، كأنها تهديدات.

إنه أجمل رسم لشتاينلين. صدقوني. إنه أعظم عمل في متحف فيرنون.

- 65 -

في شارع كلود مونيه، عند الخروج من المدرسة، شكّلت التايجر تريومف حدثاً بين الأطفال. أبطأ الصبيان الذين كانوا يجرون عند التقائهم بالدراجة وأداروا رؤوسهم منبهرين. تتراوح أعمارهم بين خمس سنوات واثنتي عشرة سنة. هذا ما سيقوله لورنس سيريناك. لا يستطيع أن يمنع نفسه من التفكير في افتراضات سيلفيو بينافيدس، حكاية طفل في خطر. تمر الوجوه

أمامه. حوالي عشرة، عشرين ربما. فرحين. غافلين. من منهم يجب أن يُستجوَب؟ يسألهم عن ماذا؟ ليكشف سراً عائلياً محفوظاً بشكل جيد؟ يتتبع تشابهاً، نقطة مشتركة مع جيروم مورفال؟ من أين سيبدأ؟

ركن المفتش سيريناك دراجته التايجر تريومف تي 100 في ظل أقرب شجرة زيزفون. نبتون ينام قرب جذع الشجرة كأنه يحرسها. نهض بتكاسُل كي يطالب ببعض المداعبات التي لم يمنعها عنه المفتش.

عندما دخل سيريناك إلى الفصل، كانت ستيفاني تدير له بظهرها. مستغرقة في ترتيب أوراق في أكياس خشبية، كانت منحنية تقريباً. لم يقل سيريناك شيئاً. تردد. تسارعت أنفاسه. هل سمعته؟ هل تتصنع اللامبالاة؟ تقدم أكثر ووضع يديه على وركَي المدرّسة.

ارتعشت ستيفاني. لزمت الصمت. لم يستدر عنقها ولا وجهها. لم تحتج إلى ذلك، لقد تعرفت إليه.

صوت محرك؟

رائحة بسيطة؟

اكتفت ببسط كفيها على الطاولة الخشبية أمامها. شدت يدا المفتش بحزم على خصر المدرّسة النحيف. اقترب جسده أكثر، أحس بنفس المرأة الشابة. لا يستطيع بصره أن يبتعد عن قطرات العرق الرقيقة التي تلمع بين أذنها وعنقها.

مالت ستيفاني برأسها قليلاً فقط:

- أنا حرة، لورنس. أنا حرة. خذني من هنا. تمتم صوت ستيفاني المرتعش. أنا طليقة. خذني من هنا.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سأل بول فانيت:

- إذاً؟ ماذا قالت لك؟

أغلقت فانيت وراءها باب الفصل. كان وجهها شاحباً. شك بول أن ذلك لا ينبئ بخير.

- اخبريني، لم يطل الأمر. ماذا قالت لك المدرّسة؟ هل صدقتك، بالنسبة إلى جيمس؟ لم تتشاجر معك، على الأقل؟

لا جواب.

لم يرَ بول من قبل أبداً ذلك الضيق على وجه فانيت. فجأة، حتى دون أن تحدّثه، جرت فانيت هاربة. نهض نبتون فجأة من تحت شجرة الزيزفون وجرى إلى جانبها.

تردد بول في فعل الشيء نفسه. صاح، قبل أن تختفي فانيت:

- هل تحدثت معها؟

- لاااااااا...

الكلمة الوحيدة التي نطقتها الفتاة، في سيل من الدموع يكفي لإغراق منحدر شارع بلانش-هوشيدي-مونيه.

- 66 -

وضعت حافلة المجلس العام المفوض لورانتان في الساحة المركزية لليون-لا-فوري. خلال الطريق، منح الزجاج الأمامي للسيارة للمفوض رؤية بانورامية لغابة الزان الفاتنة التي تحيط بالبلدة، ثم صفّ المنازل النورماندية الخشبية التي تعطِّر المكان بحنين للقرن الماضي، كأن القرية لم تحفظ على حالها سوى من أجل أن تصور فيها اقتباسات قصص موباسان أو روايات فلوبير.

توقفت نظرة المفوض لورانتان لحظة على نافورة الساحة المركزية، بالضبط بالقرب من القاعات الضخمة. النافورة الحجرية الجميلة لا تبدو في عمرها... والسبب: تمَّ بناؤها منذ حوالي عشرين سنة، من أجل احتياجات فيلم شابرول حول إيما بوفاري.

مغشوش! مزيف!

مع ذلك لا يستطيع المفتش أن يمنع نفسه من المقاربة بين مصير إيما بوفاري المأساوي، ذلك الشعور بالملل العادي، ذلك الإحساس بحياة أخرى ممكنة حرمت منها، وكل المعلومات التي جمعها منذ بضعة أيام عن ستيفاني دوبان. وهو يغادر الساحة المركزية للقرية، تعقّل المفوض لورانتان. التفكير في توازٍ مُشابه شيء مضحك، لقد تخطّى سن الخلط الرومانسي. تقدم المفوض لورانتان بخطّة جيدة. مأوى العجزة «البساتين» يقع شيئاً ما فوق ليون، نصل إليه عبر منحدر شديد متاخم للغابة.

المشمع الأزرق الباستيل في الردهة يلمع كأنه يُنظَّف كل ساعة. أغلب النزيلات يمضين نهاية الظهيرة، ومن دون شك باقي الوقت، في قاعة كبيرة على اليسار. شاشة بلازما ضخمة تبدو مشتغلة على الدوام أمام حوالي ثلاثين من المقيمين الهامدين. نائمين. مستغرقين في أفكارهم. الأكثر حركة يمضغون برخاوة بسكويت وجبة خفيفة، في انتظار وجبة المساء.

مديح البطء.

اجتازت ممرضة قوية الغرفة بمرونة مدير متجر خزف صيني وتقدمت نحوه.

- سيدي؟

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

- المفوض لورانتان. لقد اتصلت هذا الصباح. أود رؤية لويز روزالبا.

ابتسمت الممرضة. دبوس ذهبي صغير يشير إلى اسمها: صوفي.

- أجل، أتذكر. لقد أعلمنا لويز روزالبا. هي تنتظرك. لديها صعوبة كبيرة في الكلام منذ بضع سنوات، لكن لا تهتم، هي لا تزال في كامل قواها العقلية، هي تفهم تماماً ما يطلب منها. الغرفة 117. لكن لا تكن فظاً حضرة المفوض... لويز عمرها مئة وستين، ومنذ زمن بعيد لم تتلقَّ أية زيارة.

دفع المفوض باب الغرفة 117. لويز روزالبا جالسة بشكل مائل تتأمل الموقف، بالضبط تحت نافذتها. بثبات. ركنت سيارة أودي 80، خرج زوجان من السيارة. المرأة تحمل باقة زهور، اثنان من الأطفال يمزحان وهما يغلقان الباب. أحس لورانتان أن تدفق الزيارات على باقي النزلاء يشكل الإيقاع اليومي للمرأة.

- لويز روزالبا؟

أدارت المرأة وجهها المجعد. ابتسم لورانتان.

- أنا المفوض لورانتان. لا بدَّ أن صوفي، الممرضة، قد حدثتك عن زيارتي هذا الصباح. أنا... أنا متأسف، لقد جئت كي أستعين بذكرياتك. ذكريات قديمة، ذكريات بلا شك غير سعيدة. لقد جئت لأحدثك عن موت ابنك، ابنك الوحيد، ألبرت... سنة 1937...

ارتعشت كفّا الدانتيل بين طيات الغطاء الموضوع على الركبتين. ابتلت العينان الصافيتان. فتحت لويز فمها لكن صوتاً لم يخرج منه.

على الجدران لا يوجد صليب معلق، لا توجد صور أطفال،

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

ولا أحفاد، ولا أبناء أحفاد في ثوب تعميد أو قربان؛ لا موكب زواج. الجدران العارية يزيّنها فقط تقليد لإحدى لوحات مونيه، **المرأة صاحبة المظلة**: أم أنيقة تتنزه رفقة ابنها في حقل حيث يظهر الخشخاش، في مكان ما في ضاحية أرغنتويل.

- أنا... واصل المفوض لورانتان. أنا عندي أسئلة محددة كي أطرحها عليك. لا تتحركي، أنا... أنا سأنعش ذاكرتك.

مال المفوض وأخرج من حقيبته صورة فصل بالأبيض والأسود: «مدرسة جيفرني 1936-1937».

وضعَ الصورة على ركبتي لويز. بدت عينا المرأة معجبتين بالصورة.

- هذا ألبرت؟ سأل المفوض وهو يشير إلى الولد الجالس في الصف الثاني. هل هو فعلاً؟

هزت لويز رأسها موافقة. سالت بعض الدمعات على الصورة، كأن المطر قد أخذ يهطل على ساحة المدرسة، وأن التلاميذ، منصاعين، لم يجرؤوا على تحريك رمش، صبورين أمام عدسة مصوِّر دقيق.

- لم تصدقي أبداً أنه كان حادثاً؟

- لـ... لا، تهجّت لويز.

ابتلعت ريقها مطولاً.

- لم يكن... وحده. ليس وحده... قرب النـ... النه... النهر...

حاول المفوض أن يتحكم بتوترها الداخلي. فكّر في نصائح الممرضة. لا يجب أن يكون فظاً معها.

- هل تعرفين من كان مع ابنك؟

أومأت لويز بلطف. أصبح صوت المفوض أكثر تردداً. توتر

شديد بدا كأنه يملأ هواء الغرفة الصغيرة، كأنه فتح صندوق تلك الذكريات القديمة. حرّر غازاً قابلاً للاشتعال، قادراً على تفجير الغرفة عند أول حركة خرقاء.

- هذا... هذا الشخص، هذا الذي كان مع ألبرت قرب الغدير، هو الذي قتل ابنك؟

- ركزت لويز على الكلمات التي نطقها المفوض وأومأت مرة أخرى. حركة بطيئة من العنق، لا لبس فيها.

- لماذا لم تقولي شيئاً؟ لماذا، في ذلك الوقت، لم تتهميه؟

تسقط الآن أمطار غزيرة على ساحة مدرسة جيفرني. الورقة تتجعد. أطفال الفصل دائماً عاقلون كأنهم صور، لا يتحركون.

- لـ... لا لا أحد... صدقني... ولا حتى... زوجي...

بدا أن المرأة ذات المئة سنة قد بذلت مجهوداً هائلاً كي تنطق تلك الكلمات. الجلد المترهل الذي يتدلى من رقبتها يرتعش مثل غَبَب طائر في خُمّ. فهم المفوض لورانتان أن عليه ألا يرهقها، وأن عليه أن يطرح أسئلة ويقترح الأجوبة، كي لا تحتاج لويز سوى إلى أن تؤكد أو تفنّد الافتراضات التي يقدمها بحركة أو مقطع لفظي.

- بعد ذلك، انتقلتما؟ لم يكن ممكناً أن تظلا هناك... ثم توفي زوجك... بقيت وحدك؟

حرّكت لويز عنقها ببطء دليلاً على الموافقة. انحنى المفوض نحو المرأة، أخرج منديلاً من جيبه ومسح صورة الفصل بلطف.

- وبعد ذلك؟ واصل لورانتان بصوت لم يستطع إخفاء مشاعره. هذا الشخص، الذي كان مع ابنك على ضفة النهر... بعد ذلك، هذا الشخص اقترف جريمة أخرى، هذا هو؟ عدة جرائم، ربما؟ ذلك

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

الشخص أعاد الكرّة؟ هذا الشخص سيعيد الكرّة من جديد؟

تنفست لويز روزالبا فجأة بشكل أفضل، كأن المفوض قد أزال من فوق صدرها ثقلاً كان يجثم عليه من أمد بعيد.

أومأت برأسها.

- يا إلهي...

سرت قشعريرة في ذراع المفوض لورانتان. بالنسبة إليه أيضاً، هذا التسارع المفاجئ في نبض القلب ليس مسموحاً به، لكن في ذلك الوقت هو لا يهتم بنصائح طبيب القلب، وحدها تهم تلك التصريحات المذهلة، المخبأة في ذاكرة امرأة منذ أكثر من ستين سنة. قدّم الصورة إلى أصابع لويز بشكل أقرب.

- هذا... هذا الشخص الذي نتحدث عنه، هو أيضاً يجلس على مقاعد المدرسة، أليس كذلك؟ هل... هل تستطيعين أن تريه لي؟

ارتعشت أصابع لويز أيضاً. وضع لورانتان بلطف راحة كفّه على معصم المرأة، وهو يحرص على ألا يبالغ في الضغط، وألا يوجهه في منحى أو آخر. تحرّكت الأصابع المتجعدة فوق صورة الفصل، ثم، ببطء، استقرت السبابة على الوجه.

أحس المفوض بقلبه يسرع.

يا إلهي، يا إلهي...

اجتاحته نفحة حرارة. ضغط بقوة على يد لويز. انشطر قلبه، يجب أن يهدأ.

- شكراً. شكراً...

تنفس ببطء، خفّ التوتر قليلاً. استسلم المفوض لورانتان لشعور غريب: التناقض بين لا معقولية ذلك الاعتراف، تلك الشهادة،

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ذلك الاتهام، ومنطقيته القاسية. من الآن، هو يعرف من قتل الصغير ألبرت روزالبا. وبالتالي، فهو يعرف أيضاً من قتل جيروم مورفال. من ولماذا.

استعادت دقات قلبه شيئاً فشيئاً إيقاعها الطبيعي، لكنه لم يستطع دفع ذلك الارتياح التافه، ذلك الكبرياء غير المجدي بأنه يمتلك الدليل على أنه لم يخطئ، على أنه لم ينخدع. على كونه كان على حق، قبل الآخرين.

غابت نظرته عبر النافذة إلى أبعد من موقف السيارات، نحو غابة الزان المظلمة التي نخمن حافتها.

ماذا عليه أن يفعل الآن؟

أن يعود إلى جيفرني؟

أن يعود إلى جيفرني ويجد ستيفاني دوبان؟ قبل أن يصبح الوقت متأخراً؟

مجرد التفكير في الاحتمال الأخير، جعل قلبه يضرب بسرعة كأنه سينفجر. طبيب القلب سيكون غاضباً.

- 67 -

العاشرة ليلاً وثلاث وخمسون دقيقة. انظر إلى القمر.

بالنظر إليه من برج مولان دو شونوفيير يبدو كبيراً، تقريباً في متناول اليد.

اطمئنوا، أنا لست حمقاء. ليس خداعاً بصرياً. تحدثوا عن ذلك في «فرانس بلو أوت نورماندي» وحتى في التلفزيون الجهوي، فسّروا أن القمر البدر التمام هو الأكبر لهذه السنة. الحضيض القمري كما

قالوا، ما يعني أنه هذه الليلة، بحسب ما فهمته، يقترب القمر أكثر من الأرض... أتذكر أنهم أوضحوا أن القمر لا يتبع دائرة حول الأرض، لكن إهليلجياً... يوجد إذاً يوم حيث يكون البدر هو الأبعد عن الأرض ويوم حيث يكون الأقرب...

إنه هذا المساء! بحسب قولهم، بالعين المجردة، بالنظر إليه من الأرض، يصبح القمر أكبر. هذا ما أكّدوه بعد النشرة الجوية، في وقت التقويم الفلكي. الحضيض. مرة في السنة...

ضوء ليلي يغرق أسقف جيفرني في جو غريب. بإمكان فنان متحمس أن يخرِج حاملة القماشة ويرسم طوال الليل، من دون ضوء صناعي. كم نحن، في هذه اللحظة، نتأمل ضوء القمر نفسه؟ استمعنا إلى المذياع، شاهدنا التلفاز، واستجبنا. مشهد لا يجب تفويته بحسب ما قالوا! آلاف، عشرات الآلاف، بكل تأكيد.

حقاً، أنا أشعر بالحنين اليوم... بعد زيارتي للمتحف، ها أنا أمضي ليلتي تحت النافذة. لن أستمر كثيراً بحسب هذا الإيقاع.

بعد أن قيل، ليست لدي أية نية. صدقوني، إنه امتياز حقيقي أن يستطيع المرء معرفة تاريخ النهاية ويستطيع بتلك الطريقة أن يستمتع بالساعات الأخيرة، الليلة الأخيرة، القمر الأخير.

غداً، سيكون كل شيء قد انتهى!

لقد تقرر الأمر. بقي فقط أن أختار الوسيلة.

سم؟ سلاح أبيض؟ سلاح ناري؟ غرق؟ اختناق؟

لا تنقص الوسائل.

ولا الشجاعة. ولا التصميم. ولا الحافز.

أواصل تأمل القرية النائمة. المصابيح والنوافذ المضاءة في القرية، في الليل الشاحب، تذكّرني بالزهور الصفراء لـ«النيلوفر»

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الأسود خاصتي، مثل أضواء خافتة ضائعة في بحر من الظلام.

لقد فشل رجال الشرطة، هم لم يفهموا شيئاً. فليكن.

غداً مساء، سينتهي كل شيء بجثة أخيرة، مثل قوس سيغلق نهائياً.

نقطة نهاية.

إنها أول مرة تتأمل فيها فانيت قمراً بهذا الحجم. كأنه كوكب أو طبق طائر سيحط هناك، بين الأشجار، على التل. كانت المدرّسة محقة عندما طلبت منهم أن يسهروا. كانت قد فسرت لهم الإهليلج، الحضيض، رسمت أنماطاً معقدة على السبورة، بأسهم وأرقام.

لا تعرف فانيت كم الساعة، لكن يبدو أنها قد تكون على الأقل الحادية عشر ليلاً. دخل فينسنت إلى بيته، فلنقل، منذ ساعة.

ظننت أنه سيقضي الليلة تحت نافذتي، يستمع إلي، ولا يطلق يدي.

أخيراً، ذهب.

أوف!

كانت فانيت تريد أن تكون لوحدها، وحدها مع هذا القمر العملاق، كأنه أخ كبير. أخ كبير يسكن بعيداً، وسيدعوها إلى بيته.

ذلك المساء أنهت فانيت لوحتها. عادة، هي لا تحب لعب دور المعجب بنفسه، هي لا تصدق ذلك كثيراً عندما يخبرها الجميع أن ما ترسمه رائع، لكن هنا... أجل، أجل، يمكن أن تخبر القمر بذلك، هي فخورة بالألوان التي وضعتها على اللوحة، بحركة ماء الغدير الذي يعبر لوحتها، بالخطوط الهاربة التي تنطلق في كل اتجاه. كانت تملك كل شيء في رأسها، منذ وقت طويل، لكنها لم تعتقد أبداً أنها

ستضع ذلك في الرسم... أخفت اللوحة تحت المغسل، سيذهب بول غداً ليأخذها، ويسلمها للمدرّسة.

بول، يمكن أن أثق به. فقط ببول. ليس الآخرين، كاميل المدّعي المتحذلق، ماري ناقلة الأخبار، فينسنت... فينسنت... الكلب الصغير اللاصق.

خصوصاً ليس بوالدتي، ماما تراقبني هذه الأيام، تصحبني إلى المدرسة وتتركني أمام البوابة قبل أن تذهب إلى فيلا الباريسيين. الشيء نفسه عند الظهر. كأنها تتجسس علي! أحياناً، أجد ذلك غريباً. كأن ماما تخشى أن أقصَّ حكايتي على الجميع.

جيمس. مفقود. ميت.

مقتول، في الحقل.

كأنها تخشى أن تعتبر ابنتها مجنونة.

جيمس...

مدت فانيت يدها. أحست وهي تميل قليلاً إلى حافة النافذة أن بإمكانها أن تلمس فوهات القمر، وتمرر أصابعها على شقوقه.

جيمس...

هل اخترعته؟

ألم أجد فقط في الحقل بعض الفراشي التي نسيها أحد الرسامين، بعض قطرات الصباغة على الضفة... وقام خيالي بالباقي. ماما تقول ذلك دوماً، أنا أعيش في عالم خيالي، أخترع أشياء، أشوِّه الواقع. كما أود أن يكون.

الآن، كلما فكرت في ذلك، كلما بدا لي أن جيمس لم يوجد. لقد اخترعته لأني كنت محتاجة إليه. كنت محتاجة إلى أحد يخبرني أني موهوبة في الرسم، وأن علي أن أواصل، وأنني موهوبة، وأن علي

أن أفكر في نفسي وأشتغل، أشتغل، أشتغل أكثر لوحاتي.

أن أكون أنانية.

ماما لا تقول لي ذلك أبداً. جيمس كان يقول لي ما كان ليقوله لي بابا، كل ما كنت أرغب أن يقوله لي بابا...

أب فنان. أب رسام. أب فخور بي. أب سيقرأ ذات يوم، في طرف العالم، اسمي في زاوية لوحة معروضة في أروع المعارض، وسيقول لنفسه، بكل بساطة: أنا أعرفها، إنها ابنتي. ابنتي الصغيرة. الأكثر موهبة من الجميع.

تأمَّلت فانيت واجهات البيوت المظلمة.

لا! لا! لا! بابا ليس شخص من القرية تشتغل أمي بيته. سمين، وبشع، وعجوز، كريه الرائحة وكثير التعرق. مستحيل.

ثم أنا لا أهتم.

ليس لي أب. لقد اخترعت جيمس مكانه... بفضله، رسمت لوحتي، «النيلوفر» خاصتي. غداً ستنطلق إلى المباراة. إنها زجاجتي التي رميتها في البحر...

غداً.

ابتسمت فانيت.

مع هذا القمر الكبير، ربما كان فألاً حسنا.

غداً، عيد ميلادي!

تحت القمر، تأخذ ساحة مدرسة جيفرني لوناً فضياً. قمر مفرط في الكبر. حاولت ستيفاني تفسير ظاهرة حضيض إهليلج القمر لأطفال فصلها بواسطة بعض الرسوم البسيطة. نصحتهم بالسهر أكثر

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

من المعتاد، وباستغلال المشهد: كتبت كل شيء على السبورة، قمر أربعة عشر في المئة أكبر وثلاثون في المئة أكثر ضوءاً.

للقمر نفس الشكل الدائري لنافذة بيتهما ذي السقف المائل، كأن جزءاً من النافذة قد اقتلع وطار في السماء. شارع بلانش-هوشيدي-مونيه مقفر. أوراق أشجار زيزفون ساحة البلدية ترقص بلطف في الريح. مطر فضي يبدو كأنه سقط على القرية.

جاك متمدد بالقرب، على السرير. دون أن تحتاج إلى أن تستدير، تخمّن ستيفاني أنه لا ينام، أنه يحترم صمتها. الحميمية بينها وبين جاك أصبحت لا تطاق.

لم يغير جاك أي من عاداته. واصلا النوم معاً، عاريَين، تقريباً متلامسين، حتى لو لم يسع لجاك أن يلمسها، لم يسع أن يستعيدها. جسدياً، على الأقل.

تناقشا خلال ساعات أمس.

بهدوء.

قال جاك إنه قد فهم، إنه سيحاول أن يتغير.

يغير ماذا؟

ستيفاني لا تلومه على شيء. أو فقط على أنه ليس شخصاً آخر.

قال جاك إنه سيصبح شخصاً آخر.

لا يصبح المرء شخصاً آخر. هذه النقاشات لا تفضي إلى شيء، ستيفاني تعرف ذلك جيداً. لقد أخذت قرارها. ستهجره. سترحل.

جاك شخص متّزن. هو يعتقد أن الصبر هو الوسيلة الأفضل كي يجعل ستيفاني تتراجع. أن يترك العاصفة تمر. أن ينتظر، أن يبقى هنا، حاملاً مطرية في اليد. مستعداً لبسط المطرية الكبيرة، من أجلهما هما الاثنان، بمجرد أن تعود ستيفاني.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

هو مخطئ.

تأملت ستيفاني مطولاً ساحة المدرسة حيث تدرِّس منذ سنوات، رسوم لعبة الحجلة على الزفت، قفص السنجاب... في رأسها تأزُّ صرخات الأطفال في الاستراحة.

أعطت ستيفاني موعداً للورنس غداً بعد الظهر. ليس في القرية بطبيعة الحال، ليس أمام المدرسة، ليس في الغدير... أبعد، في مكان خفي. هي صاحبة الفكرة: جزيرة القراص، الحقل الشهير عند التقاء الأوب والسين الذي اشتراه كلود مونيه، حيث كان يضع لوحاته، حيث كان يرسو مرسمه الزورق... هو مكان جميل منعزل، أبعد من جيفرني بحوالي كيلومتر. كلما فكرت في ذلك كلما تأكدت أنها الفكرة الجيدة، جزيرة القراص. ستعجب لورنس. لورنس له حس مدهش حول كل ما يتعلق بالفن. ألم يحس في الحال، في بيت مونيه، بأن لوحة رينوار، **الفتاة ذات القبعة البيضاء**، لم تكن تقليداً؟ حتى لو كان المنطق يدفعه لعدم تصديق ذلك، أحس لورنس بأن الأمر يتعلق بلوحة حقيقية... مثل العشرات الأخريات المنسية في بيت مونيه. رينوار، بيسارو، سيسلي، بودان... لوحات «نيلوفر» مجهولة أيضاً. إلهي، لو كان عندهما وقت، لو كانا حرين، ودّت ستيفاني لو تريها للورنس. أن تشاركه ذلك التأثر...

أطفأ جاك الضوء واستلقى على جانبه كأنه نائم. شعاع القمر يضفي على الغرفة هيأة كهف خرافي. حطت عينا ستيفاني على الطاولة جانب السرير، على الكتاب الموضوع فوقها.

لم يتحرك.

أوريليان.

لويس أراغون.

بشكل ثابت، تعود تلك الجملة لتطاردها. **جريمة أن نحلم أقبل أن نُقرّها.** تلك الرسالة التي تمَّ اكتشافها على البطاقة، التي تمَّ العثور عليها في جيب جيروم مورفال.

جريمة أن نحب...

كأن تلك الجملة كُتبت من أجلها...

جريمة أن نحلم...

كل الذين لم يقرؤوا الأبيات الموالية، كل الذين لا يعرفون تتمة تلك القصيدة الطويلة لأراغون، «نامفي»، مخطئون. لا، بطبيعة الحال، أراغون لا يدين الأحلام.

يا له من هراء!

بل العكس، إنها بالتأكيد الفكرة المعاكسة هي التي يعبِّر عنها الشاعر.

كرّرت بطرف شفتيها الأبيات التي تدرّسها كل سنة لأطفال القرية:

جريمة أن نحلم أقبل أن نُقرّها
إن كنت حلمت بما يحظر علي
سأقر بالذنب. يعجبني أن أكون مخطئاً
في نظر العقل الحلم شخص سيئ

كرّرت ستيفاني بصمت الأبيات الأربعة من المقطع، بحماس من يتلو صلاة دنيوية بذيئة:

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

إن حلمت بما يحظر علي...
أجل، الحلم خارج عن القانون.
أجل، يعجب ستيفاني أن تكون امرأة قاسية.
لا، هي لا تشعر بأي ندم.
أجل، في نظر العقل، حلمها جرم.

فليأخذها لورنس سيريناك غداً بين ذراعيه، فليمارسا الحب على جزيرة القراص، وليأخذها بعيداً، وليأخذها...
غداً...

- اليوم الثالث عشر -

25 مايو 2010
(طريق جزيرة القراص)
حلّ العقدة

- 68 -

أسير ببطء على الطريق الترابي الذي، بالضبط خلف مولان دو شونوفيير، ينطلق في خط مستقيم عبر حقول المرج: طريق تحفر به عجلات الجرارات الأخاديد سنة بعد سنة.

بدرّاجته التايجر تريومف، لا بدَّ أن المفتش لم يستمتع منذ وقت قليل. لن أقدم لكم رسماً، لست متأكدة إن قطعته الأثرية مناسبة لهذا النوع من السباق. رأيته يمر قبل قليل، ينعطف خلف الطاحونة ثم يدخل في الحقول وسط سحابة من تراب الأرض الجافة.

توجد العديد من المسالك للخروج من جيفرني والدخول إلى المرج، لكنها تلتقي كلها في طريق مسدود: جزيرة القراص... إلى الأمام، مباشرة إلى الأمام، لا يوجد سوى الأوب والسين. الطريق يقود إليها مباشرة، يتوقف بضعة أمتار قبل الملتقى، على ضفة الأوب، عند منبت أجمة من الحور عرفها مونيه؛ هذه أيضاً يحميها خمير[1] الانطباعية، بنفس درجة حماية أهرامات مصر...

---

(1) نسبة إلى الخمير الحمر.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

إن أردنا أن نوافي السين، يجب أن نواصل سيراً على القدمين.

نبتون يركض أمامي. هو يعرف الطريق عن ظهر قلب، لا ينتظرني. فهمَ أن الكيلومتر الذي يفصل مولان دو شونوفيير عن جزيرة القراص، أصبحتُ أجتازه بسرعة أقل فأقل. هذه الأخاديد كالجحيم. حتى بمساعدة عصاي، أكاد أسقط على الأقل مرة كل ثلاثة أمتار.

من حسن الحظ أنها المرة الأخيرة التي أذهب فيها إلى تلك الجزيرة اللعينة. لم يعد سني يناسب هذا النوع من النزهات على مسالك الضيعات. ولتتويج ذلك، حرارة خانقة في تلك الظهيرة. إنه أجمل يوم في مايو ولا توجد نقطة ظل من طاحونتي إلى الأوب، عدا، عند الاقتضاء، في منتصف الطريق، قرب جدران صفيحة جمع المياه. على الأقل منديل رأسي يحميني من الشمس. مكشوفة في السهل المصفرّ، أحس أني أسير مثل امرأة عربية في الصحراء.

إلهي، لا يمكن أن تتخيلوا، سأستغرق دهراً لأصل إلى ملتقى الأوب والسين، هذه الجزيرة اللعينة.

أفكر أن نبتون لا بدَّ أن يكون قد وصل!

- 69 -

الرابعة عصراً وسبع عشرة دقيقة. دراجة لورنس سيريناك التايجر تريومف متكئة عند سفح شجرة حور. وصل المفتش في وقت مبكر إلى جزيرة القراص، هو يعرف أن ستيفاني لا تنهي فصلها قبل الرابعة والنصف. أمامها كيلومتر لتقطعه بعد ذلك سيراً على الأقدام لتوافيه.

تقدّمَ لورنس تحت الأشجار. المشهد غريب: الأوب تحيط به الأشجار المستقيمة المصطفة مثل فيلق في وضعية تأهب، يشبه قناة أكثر منه نهراً طبيعياً. ملتقى الأوب والسين يعزز أكثر هذا الانطباع: مجرى النهر الكبير يتدفق بهدوء، غير مبالٍ البتة بالصبيب التافه الذي يقدمه ذلك الذراع المائي. في حين أن ضفاف الأوب تبدو مجمدة في وضعية أبدية لا تتغير، على العكس نخمّن نحو السين الحياة المزدحمة، والمدينة، والمعامل، والمراكب، وسكة الحديد، والتجارة... كما لو أن السين كان طريقاً سريعاً صاخباً يجتاز الريف... والأوب طريق بديل عبر جهوية منسية تتيه فيه.

يسير أحد خلفه.

ستيفاني هل وصلت بالفعل؟

استدار وابتسم.

إنه نبتون! تعرّف الراعي الألماني إلى المفتش وجاء يحتك به.

- نبتون! لطف منك أن تأتي لتؤنسني... لكن هل تعرف، عزيزي، يتعلق الأمر بموعد غرامي، لقاء سري، ترى ذلك... يجب أن تتركنا...

تكسر غصن خلفه. تهشمت أوراق.

نبتون ليس وحده!

أحس لورنس سيريناك بالخطر على الفور، حتى دون أن يفكر.

غريزة الشرطي.

رفع عينيه.

فوهة البندقية مصوبة نحوه.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

للحظة، فكر أن كل شيء سينتهي على ذلك الشكل، دون تفسير آخر. أنه سيموت، مقتولاً مثل طريدة تافهة؛ أن رصاصة ستفجّر قلبه وأن جثته ستطفو فوق الأوب، ثم في السين، كي ينتهي بها المطاف بعيداً نحو المصب.

لم تضغط الأصابع على الزناد.

مهلة؟ اندفع سيريناك في الفجوة بثقة ظاهرة:

- ماذا تفعل هنا؟

أحنى جاك دوبان سلاحه بشكل ظاهر.

- ربما أنا من عليه أن يطرح السؤال... ألا تجد ذلك؟

أعطى الغضب المتصاعد سيريناك قدرة جديدة.

- كيف عرفت؟

جلس نبتون على بعد بضعة أمتار منهما، في شعاع شمس يجتاز أشجار الحور، وبدا لا مبالياً بحديثهما. بندقية جاك دوبان مصوَّبة الآن نحو الأرض. قطب دوبان بسخرية مزدرية.

- أنت حقاً غبي، سيريناك. بمجرد أن رأيتك تصل إلى القرية، بسترتك الجلدية ودراجتك النارية، عرفت. أنت شخص يمكن التكهن بتصرفاته.

- لا أحد كان بإمكانه أن يعرف. لا أحد، عدا ستيفاني. لا يمكن أن تكون قد قالت لك شيئاً. لقد تبعتني، هو ذا؟

استدار دوبان نحو المرج. نخمّن وجود قرية جيفرني بعيداً، في ضباب من الحر يشوه الأفق. ضحك دوبان قبل أن يجيب:

- لا يمكن أن تفهم. هناك أشياء تتجاوزك. أنا ولدت هنا سيريناك.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

تماماً مثل ستيفاني. في هذه القرية. في نفس اليوم، أو تقريباً. أحدنا على بعد شارع من الآخر. لا أحد يعرف ستيفاني أفضل مني. بمجرد أن بدأت تدير رأسها، أحسست بذلك. أدق تفصيل، كتاب ناقص في مكتبة، نظرة من ستيفاني نحو السماء، صمت... لقد تعلمت أن أفسر كل العلامات. طية على صدار، تنورة مجعدة، لباس داخلي لا ترتديه عادة، تغيير طفيف في طريقة استعمالها مواد الزينة، تعبير بسيط يتغير على وجهها. إن أعطتك ستيفاني موعداً، فأنني أعرف ذلك، سيريناك. أعرف متى تحدده، كنت أعرف أين تحدده...

أظهر لورنس سيريناك تعباً منزعجاً واستدار نحو الأوب. مونولوج دوبان المطول طمأنه في النهاية. هو أمام زوج غيور. بعد كل شيء، كان يجب أن يتوقع ذلك. إنه الثمن الذي يجب أن يدفعه. ثمن حرية ستيفاني. ثمن حبهما.

- طيب، قال المفتش. ما هي تتمة البرنامج؟ ننتظر نحن الاثنان وصول ستيفاني كي نتحدث ثلاثتنا؟

شوهت تكشيرة مزدرية جديدة وجه جاك دوبان. كأن حقيقة تسكنه.

- لا أعتقد ذلك، لا... لقد أحسنت بوصولك مبكراً، سيريناك. هذا ما ستفعله. ستكتب رسالة قصيرة، كلمة وداع، تعرف كيف تشكل ذلك، لا بدَّ أنك موهوب في هذه الأشياء. وإلا، سأدمرك. ستضع هذه الرسالة في سفح شجرة، ظاهرة، ستعتلي دراجتك وتختفي...

- أنت تمزح؟

- حضرة المفتش... لقد وصلت على مبتغاك. لقد استسلمت لك ستيفاني أمس، في فصل جيفرني. لقد حققت هدفك. تحية.

الكثير حَلِمَ بذلك، أنت الأول. سنبقى عند هذا الحدّ! ستختفي من حياتنا. لن أحدث فضيحة، لن أذهب عند محام وأحكي أن المفتش المكلف بالقضية مورفال يعاشر زوجة مشتبه به، مشتبه به حرص على الزجّ به إلى السجن في اليوم السابق. بالواضح، أنا لا أدمر مسارك المهني. نحن متعادلان. أنا ألعب بشكل جيد، ألا ترى ذلك، بالنسبة إلى شخص يُعرَف في جيفرني بأنه مجنون بالغيرة؟

انفجر سيريناك ضاحكاً. حرّكت الريح أوراق الحور والجوز والكستناء بشكل رتيب.

- أعتقد أنك لم تفهم شيئاً، دوبان. الأمر لا يتعلق بي ولا بوظيفتي. ولا يتعلق أيضاً بكبريائك كزوج تعرّض للخيانة، بل يتعلق بستيفاني. هي حرة. هل فهمت هذا؟ لا أنا ولا أنت لنا ما نناقشه... ليس لنا ما نقرره عنها. هل تفهم. هي حرة... هي ستقرر.

تشنّجت أصابع دوبان على البندقية.

- أنا لم آتِ لأتحدث، سيريناك. أنت تضيّع وقتاً ثميناً. كلمات الوداع التي ستختارها يمكن أن تكون مهمة بالنسبة إلى ستيفاني، يجب أن تعيش معها بعد ذلك...

أحس لورنس بالتهيُّج يجتاحه. لم يعجبه الوضع. هذا الشخص يقززه. خلفه، حقول القراص تمتد إلى ملتقى النهرين. المكان مقفر. لا أحد سيأتي، لا أحد سوى ستيفاني. يجب إنهاء الأمر.

- اسمع، دوبان، لا تدفعني لأن أكون قاسياً معك.

- أنت تضيّع وقتك، أنا...

- أنت وضيع، دوبان، قطع لورنس سيريناك. افتح عينيك! أنت لا تستحق ستيفاني. هي تستحق أفضل من حياة يومية تتقاسمها معك.

ستغادر، دوبان، في يوم أو في آخر. معي أو مع شخص آخر..

اكتفى جاك دوبان بأن رفع كتفيه. بدا أن انفجار سيريناك انزلق عليه مثل قطرات على سقف من الأردواز.

- حضرة المفتش، هل أدرت رأس ستيفاني بهذا النوع من الصور البشعة؟

تقدم سيريناك خطوة. هو أطول من جاك دوبان، عشرون سنتمتراً على الأقل. رفع صوته فجأة:

- سنوقف هذا اللعب، دوبان. في الحال. سأكون واضحاً، لن أكتب كلمتك. أنا لا أهتم بابتزازك الوضيع، ما يمكن أن تقول لمحاميك بخصوص مهنتي المزعومة...

تردد جاك دوبان لأول مرة، نظر إلى سيريناك باهتمام جديد. أشاح المفتش بعينيه ولمح في البعيد برج جرس كنيسة سانت رادوغوند، أسقف بيوت جيفرني حوله، مثل تصميم مصغّر لقرية مثالية في لعبة قطار صغير.

- إقرار بالذنب، حضرة المفتش، واصل دوبان. هكذا، أكون قد قللت من شأنك؟ على طريقتك، ربما كنت صادقاً.

تشنج وجهه في تقطيبة.

- أنت لا تترك لي الخيار، سيكون علي الاستعانة بحجج أكثر إقناعاً...

ببطء، رفع دوبان فوهة البندقية نحو جبين المفتش. بقي لورنس سيريناك جامداً، نظرته مثبتة. تقطّر العرق على طول شعره. صفر المفتش بصوت كأنف فحيح أفعى:

- ها نحن ذا، دوبان. سقط القناع. انكشف الوجه الحقيقي.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وجه قاتل مورفال...

هبطت فوهة البندقية إلى مستوى العينين. يستحيل ألا يرمش أمام الفوهة الداكنة للأنبوب المعدني.

- خارج الموضوع، حضرة المفتش! صاح دوبان. لا تخلط كل شيء ولو لمرة واحدة! نحن هنا كي نحل مسألة بيننا نحن الثلاثة، أنا وأنت وستيفاني. مورفال ليس له دخل في كل هذا...

بسبب الإثارة، تحرّكت الفوهة نحو أذن الشرطي. عرف سيريناك أن عليه أن يفاوض، أن يربح الوقت، ويجد الخلل.

- ماذا ستفعل إذاً؟ تقتلني، هذا هو؟ تقتلني هنا، تحت أشجار الحور؟ لن يكون صعباً أن يجدوا القاتل... بندقية صيد... موعد في جزيرة القراص... كل الناس رأوني أجتاز القرية على التايجر تريومف... أن تنهي حياتك في السجن، حتى لو قمت بتصفيتي، لن تكون تلك هي الطريقة المثلى كي تحافظ على ستيفاني بجانبك...

اقتربت البندقية أكثر، نزلت الفوهة بمحاذاة الفم. تردد سيريناك في أن يحاول شيئاً ما. سيكون من الأسهل أن يتدخّل الآن، أن ينتزع منه السلاح، أن ينهي الأمر. هو أقوى، أكثر حيوية من دوبان. إنها اللحظة المناسبة. مع ذلك، المفتش ينتظر.

- أنت ذكي، أجاب دوبان مكشراً. أنت محق بالنسبة إلى هذه النقطة، سيريناك. هذه النقطة لوحدها. لن يكون ذكاء مني أن أقتلك ببرود هنا. ستكون الجريمة موقعة. لكن الوقت يزاحمنا، إذاً فلنسرع الآن، اكتب رسالة الوداع.

نزلت البندقية إلى عنق المفتش. رفع سيريناك يده اليمنى ببطء

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

شديد على طول جسده، ثم فجأة أحناها.

انغلقت يده في الهواء.

جاك دوبان يترقب كل شيء، تراجع متراً إلى الخلف، وبندقيته مصوبة بحزم.

- لا تقلِّد رعاة البقر، حضرة المفتش... أنت تضيّع وقتك. كم مرة علي أن أكرر ذلك؟ حرّر لي رسالة هجر جميلة.

رفع سيريناك كتفيه في حركة محتقرة.

- لا تعول على ذلك، دوبان. هذه المسرحية السخيفة قد استمرت أكثر مما ينبغي...

- ماذا قلت للتو؟

- هذه المسرحية السخيفة استمرت أكثر مما ينبغي!

- هذه المسرحية السخيفة؟

تفحّص دوبان سيريناك بعينين جاحظتين. اختفى كل استخفاف وكل احتقار من تعبير وجهه.

- هذه المسرحية السخيفة؟ هذا ما قلته؟ مسرحية سخيفة... ألم تفهم شيئاً، سيريناك؟ ألا ترى الواقع؟ يوجد تفصيل... تفصيل لا فكرة لديك عنه، سيريناك...

حطت فوهة السلاح الباردة على قلب المفتش. لأول مرة، لم يتوصل لورانس سيريناك إلى النطق بجواب.

- سيريناك، لا يمكن أن تتصور إلى أي درجة أنا متعلق بستيفاني. إلى أي درجة أنا مستعد لكل شيء من أجلها. ربما أنت تحب ستيفاني؛ ربما تحبها بصدق... لكني أعتقد أنك لا تدرك إلى أي درجة ليس لعواطفك تجاهها وزن أمام...

ابتلع سيريناك ريقه بازدراء. واصل دوبان:

- جنـ... سميه كما تشاء، سيريناك... جنون... هوس... حب مطلق...

- انطوى الإصبع على الزناد.

- لكنك ستحرر كلمة الفراق، حضرة المفتش، وستختفي إلى الأبد!

- 70 -

لم تستطع ستيفاني أن تمنع نفسها من إلقاء نظرة على الساعة المعلقة فوق السبورة.

الرابعة عصراً وعشرون دقيقة.

عشر دقائق إضافية! بعد عشر دقائق، ستطلق الأطفال في جيفرني وتستطيع أن تسرع إلى موافاة لورنس. جزيرة القراص. تحس أنها متوترة مثل مراهقة ينتظرها حبيبها المليء بالبثور عند الخروج من الإعدادية عند موقف الحافلات.

شيء ما سخيف أيضاً. أجل، بطبيعة الحال. لكن منذ متى لم تمتلك الشجاعة لتستمع إلى هذا القلب الذي يدق بسرعة جنونية، لترفع عينيها نحو السماء الزرقاء التي لا تجعلها تفكر في شيء آخر سوى سعادة من دون سُحب، أن تدع الرغبة في إيقاف الأطفال هنا، حالاً، وأن تطبع على خدي كل منهم قبلتين كبيرتين وتقول لهم إنها تغادر، لتقوم بجولة حول العالم، وأنهم سيكونون قد كبروا عندما ستراهم ثانية.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أن تضحك بصخب أمام سحنة آبائهم الخائفة.

سخيف، أجل. سخيف ولذيذ. علاوة على أنها ليست في مزاج يسمح لها بإعطاء الدرس، تضحك مثل حمقاء لكل حماقة تصدر من طفل... لم تصرعهم بدروس وعض، عندما لم يقدم لها أحد لوحة من أجل مباراة مؤسسة روبنسون. حتى الأكثر موهبة... في يوم آخر، كانت لتخرج لهم الخطبة الكبيرة، الفرصة التي ليس عليهم أن يفوتوها، البراعم الشابة للمواهب التي يجب رعايتها، الرغبات التي لا يجب تركها لتموت، الرماد الذي لا يجب تركه لينطفئ، كل تلك النصائح التي تعيدها عليهم طوال السنة والتي في الواقع موجهة إليها.

استمعت إليها، تلك النصائح!

بعد تسع دقائق، ستغادر!

من المفترض أن الأطفال يحلّون تمرين رياضيات. ذلك يبعدهم شيئاً قليلاً عن أراغون والرسم. بعض الآباء يدّعون أنها لا تدرِّس لأطفالهم ما يكفي من المسائل، والرياضيات، والعلوم...

جريمة أن نحلم...

نظرة ستيفاني النيلوفر تطير عبر نافذة الفصل، بعيداً فوق حور مونيه.

- لم تقدمي لوحتك؟ همس بول وهو يستدير نحو فانيت.

لم تسمع فانيت شيئاً. المدرّسة تنظر إلى مكان آخر.

سأذهب إليه!

تسللت إلى مكتب بول.

- ماذا؟

- لوحتك، من أجل المباراة؟

نظر إليها فينسنت بشكل غريب. بدت ماري كأن يدها تحكها، كأنها تريد أن ترفعها كي تنادي على المدرّسة بمجرد أن تدير رأسها.

- لم أتمكن من ذلك، هذا الصباح، ماما هي التي تأتي بي المدرسة هذه الأيام. كانت لتعتريها نوبة! ستأتي لتأخذني عند الخروج.

تحققت فانيت من طرف عينها بأن المدرّسة لا تنظر ناحيتها. راقبت ماري بالأخرى. في تلك اللحظة بالضبط، تظاهرت ماري بأنها ستنهض. في نفس اللحظة، كأنه استبقها، مال كاميل ناحية كرّاسة ماري كي يفسر لها تمرينها.

كاميل السمين ظريف معي هذه المرة، كأنه فهم. ماري، هي فعلاً غير موهوبة في الرياضيات. غير موهوبة في أي شيء كان. كاميل عكسها، التباهي هي طريقته. مع ماري، على المدى البعيد، يمكن أن ينجح الأمر...

وقفت فانيت القرفصاء أمام مكتب بول.

- بول، همست الفتاة، هل تستطيع أن تذهب لتأخذ لوحتي؟ تعرف أين، في مخبئنا. وتقدمها للمدرّسة، مباشرة بعد الفصل؟

- اعتمدي علي... فقط الوقت اللازم للذهاب والإياب، سأستغرق فقط خمس دقائق ركضاً.

تسللت فانيت من جديد بين المكاتب كي تعود لتجلس في

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مكانها خفية. إلا أن ذلك الأبله بيير ترك محفظته على الأرض. تعثرت فانيت في الحقيبة وضربتها برجل الكرسي. رنَّ شيء حديدي غريب في داخلها، مثل جرس، في الفصل.

يا لها من بلهاء!

استدارت ستيفاني دوبان نحو التلاميذ.

- فانيت، قالت المدرّسة. ماذا تفعلين واقفة؟ عودي في الحال إلى مكانك!

- 71 -

فوهة البندقية التي يصوّبها جاك دوبان لا تزال تضغط على سترة المفتش لورنس سيريناك. على مكان القلب بالضبط. فرجة الغابة تشبه معبداً قديماً تشكِّل أشجار الحور أعمدته. صامتة ومقدسة. نتخيل، خلف ستارة الأشجار، صخب ممر السين، مثل صدى بعيد.

حاول سيريناك أن يفكر بسرعة، بمنهجية. من هو الشخص الذي يقف قبالته؟ هذا الشخص الذي يصوب نحوه. هل قتل جاك دوبان جيروم مورفال؟ إن كان الأمر كذلك، فالأمر إذاً يتعلق بمجرم دقيق ومرتب، هذا النوع من الأشخاص لن يطلق النار على شرطي، بهذا الشكل، في وضح النهار. هو فقط يتبجح.

وجهُ جاك دوبان لا يوحي بأي شيء. هو يحمل نفس التعبير كما لو كان يصوب نحو أرنب أو حجلة على تل الأستراغال: مركِّز،

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

مقطب، الكفان رطبتان ومرتعشتان بشكل خفيف. وضعية قناص يمسك في طرف بندقيته طريدة أكبر من المعتاد. أرغم سيريناك نفسه على أن يحلل عكسياً. ربما، في الواقع، جاك دوبان ليس سوى زوج غيور، تعرّض للخيانة والإهانة؟ في هذه الحالة هو ليس سوى شخص مسكين لا يقتل رجلاً بدم بارد...

هذا واضح. مجرم أم لا، دوبان يتبجح!

تعمّد سيريناك أن يتحدث بصوت واثق:

- أنت تتبجح، دوبان. أحمق أو غير أحمق، أنت لن تطلق النار.

ابيضَّ جاك دوبان أكثر، كأن دقات قلبه أصبحت بطيئة وأنها لم تعد تروي الشرايين فوق عنقه. تشنّجت يد على فوهة الصلب، والأخرى على الزناد.

- لا تلعب هذه اللعبة، سيريناك، لا تلعب دور البطل. أوقف حساباتك. ألم تفهم بعد؟ تريد أن تحمل وزر مذبحة على عاتقك، هذا هو؟ مذبحة على أن تستسلم...

بدأ كل شيء يختلط في رأس سيريناك. المفتش واعٍ بأن عليه أن يقيّم الوضع خلال ثوان. أن يتصرف بحسب غريزته. كان يود لو يتوفر على مزيد من الوقت كي يفكر، كي يستطيع مناقشة كل التفاصيل مع سيلفيو بينافيدس، أعمدته الثلاث، ويبحث عن العلاقة بين جيروم مورفال وكل الأشياء المجهولة في هذه القضية، «النيلوفر»، الرسم، الأطفال، الطقس، سنة 1937... عند كل شهيق، كان يشعر بالأنبوب البارد يضغط على لحمه.

نصف متر يفصلهما. طول بندقية.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

- أنت مجنون، تمتم سيريناك. مجنون خطير. سوف أوجه لك تهمة، أنا أو شخص آخر.

نبتون يتذمر تحت شجرة الحور، كأن صخب أصوات الرجلين أيقظه. رفع عينيه حالماً، غير مبال بجنونهما. أصاخ السمع لصرخة جاك دوبان:

- سيريناك، هل ستسمعني، بحق الرب! أنت لا تستطيع شيئاً حيال الأمر. أنا لن أدع ستيفاني تغادر. إذا اقترب رجال الشرطة، إذا حاصرتني، أقسم لك، سأقتلها وسأقتل نفسي بعد ذلك. أنت تدّعي أنك تحبها، أثبت ذلك. دعها وشأنها... ستعيش سعيدة، أنت أيضاً، كل شيء سيكون بحال جيد.

- ابتزازك يضحكني، دوبان.

صرخ الآخر، بصوت أقوى:

- ليس ابتزازاً، سيريناك. أنا لا أفاوض على شيء! أنا فقط أخبرك ما سيحدث إن لم تغادر. أنا قادر على تدمير كل شيء، بما في ذلك أنا نفسي، إن لم يكن عندي ما أخسره. هل فهمت؟ بإمكانك أن تستدعي كل شرطة العالم، لا يمكنك أن تمنع حماماً من الدماء.

فوهة البندقية تضغط بشكل أقوى على قلبه. سيريناك واعٍ بأن الوقت قد أصبح متأخِّراً ليقوم بأية حركة. دوبان يراقب وإصبعه على الزناد، سيكون أسرع. لم يبقَ أمام المفتش سوى الكلمات كي يقنع المعتدي عليه:

- لو أطلقت النار علي، ستخسر ستيفاني. على كل حال...

حدق إليه جاك دوبان مطولاً أخذ يتراجع بخطوات بطيئة، دون

أن يتوقف عن التصويب نحو المفتش.

- هيا. لقد استغرقنا ما يكفي من الوقت. سأطلب منك ذلك لآخر مرة، حضرة المفتش، اكتب ثلاث كلمات على ورقة واغرُب. الأمر ليس صعباً. انسَ كل شيء. لا تعد أبداً. أنت وحدك يمكن أن تمنع مذبحة.

اِلتَوَتْ شفتا جاك دوبان فجأة وأطلقتا صفيراً. أسرع نبتون تحت قدميه سعيداً.

- فكر، سيريناك. بسرعة.

لم يقل سيريناك كلمة واحدة. حطت يده غريزياً في زغب الكلب الذي احتك به.

- أنت تعرف نبتون، على ما أظن حضرة المفتش؟ الجميع يعرف نبتون في جيفرني. هذا الكلب المرح الذي يجري خلف الصبيان. من لا يحب نبتون؟ من لن يحب هذا الكلب البريء؟ أنا أيضاً أحبه، أنا الأول، لقد رافقني مئات المرات إلى القنص...

في لمحة، انحنت فوهة البندقية إلى مستوى ركبتي المفتش سيريناك، عشرون سنتمتراً من فم نبتون. مرة أخيرة، راقب الكلب الرجُلين الراشدين بثقة عمياء. رضيع يضحك لأبويه.

مزقت طلقة النار الصمت تحت أشجار الحور.

عن كثب.

انفجر فم نبتون، تمزق.

هوى الكلب مثل كتلة مصعوقة. انغلقت يد سيريناك على كرة من الزغب اللزج. على كمه وعلى أسفل سرواله تنزلق قطع من الجلد، أحشاء، بقايا عين وأذن.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أحس بالهلع يعتريه، مبطلاً كل محاولة تفكير سليم. ارتفعت فوهة البندقية التي يمسكها دوبان جزءاً من الثانية والتصقت من جديد بصدر المفتش.

هشمت قلباً لم يدق من قبل بتلك السرعة.

- فكر، سيريناك. بسرعة.

- 72 -

المدرسة سجن في يوم مشمس من أيام مايو.

الرابعة عصراً وتسع وعشرون دقيقة.

خرج الأطفال من الفصل وهم يصرخون. مثلما يحدث في لعبة الصقر، البعض يمسك بهم آباؤهم المجتمعون في ساحة البلدية، بينما يتسلل الأغلبية بين الأيدي الممتدة والزيزفون، ويجرون في ساحة بلانش-هوشيدي-مونيه.

تخطّت ستيفاني باب الفصل، بالكاد بضع ثوان بعد أن خرج آخر طفل. شريطة ألا يكون عند أي طفل سؤال يود أن يطرحه... شريطة ألا يمسكها، هذا المساء بالضبط، أحد الآباء.

فقط بعض الدقائق وستستسلم بين ذراعي لورنس. يجب أن تكون قد وصلت بالفعل إلى جزيرة القراص. وحدها بعض المئات من الأمتار تفصلها. في الرواق، ترددت لحظة في أن تأخذ سترتها المعلقة في المشجب. أخيراً، خرجت دون أن تأخذها. ارتدت هذا الصباح الفستان القطني الخفيف الذي كانت ترتديه عندما التقت لورنس لأول مرة، منذ عشرة أيام.

في ساحة البلدية، التهمت شمس خبيثة ذراعيها وساقيها العاريتان.

كأنها تلمع فقط من أجلي...

اندهشت ستيفاني لكونها تنتشي من أفكارها الصبيانية، الرومانسية التافهة.

عكست لها نافذة البلدية صورتها. اندهشت، أيضاً، لأنها وجدت نفسها جميلة، مثيرة، في ذلك الفستان التافه الذي سيرميه لورنس في قراص الجزيرة. قاومت الرغبة في أن تجتاز شارع بلانش-هوشيدي-مونيه جرياً مثل الأطفال. على العكس، تقدمت بثلاث خطوات نحو النافذة كي تنظر إلى وجهها، كي تشعّث شعرها وتجعله غير مرتب، تمدد أشرطة الفضة كي تستفز الشمس. قالت إنها ستضيّع ثوان إضافية، تدخل إلى الفصل أو إلى بيتها، تزيل ثوبها، تخلع الملابس الداخلية، وتلبس فستانها من جديد على جسدها العاري. تجتاز جيفرني على ذلك النحو. لم تتصور ذلك أبداً من قبل... لمَ لا؟ ترددت.

الرغبة في موافاة لورنس بأسرع ما يمكن كانت هي الأقوى. رمشت بعينيها البنفسجيتين في انعكاس النافذة المضبب. لقد استعملت قليلاً من مسحوق التجميل على جفنيها هذا الصباح. فقط الكمية اللازمة. أجل، لو طلبت ذلك من لورنس بعينين متألقتين، والتي في نفس الوقت تتوسل، وتضحك، وتعرّي... أجل، ستتحرر.

سيريناك سيأخذها.

لا، لن تكون حياتها هي نفسها أبداً.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

أسرعت ستيفاني، كانت تقريباً تعدو وهي تهبط شارع بلانش-هوشيدي-مونيه. عندما وصلت إلى طريق روي، قررت ألا تتبع طريق مولان دو شونوفيير، فضّلت أن تقطع مباشرة عبر حقل الذرة أمامها، مثلما يفعل الأطفال.

بالنسبة إلى الأطفال، حقل ذرة، بكل الممرات بين السنابل، هو مثل متاهة ضخمة. هي لا تهتم بذلك، هي لا تخشى أن تضيع. ستقطع بأقصر ما يمكن. سارت مباشرة. دائماً بشكل مستقيم.

- 73 -

تخطّى بول الجسر على جدول الأوب بحذر. كان محترساً دون أن يعرف السبب. ربما بسبب الأسرار التي توحي بها فانيت، تلك الطريقة التي تقول بها إنه هو وحده من يعرف مخبأ اللوحة «النيلوفر» الرائعة التي رسمتها. فانيت تحب ذلك جداً، الأسرار، الوعود، الأشياء الغريبة. هي حذرة ربما بسبب حكاية الرسام المقتول، جيمس، ذلك الأميركي.

هل رأت فانيت جثته فعلاً في الحقل؟ هل اخترعت كل شيء؟ ثم هناك رجال الشرطة بطبيعة الحال، رجال الشرطة الذين يستجوبون كل الناس في القرية بسبب مقتل الشخص الآخر.

كل ذلك يخيفه. هو لا يقول شيئاً أمام فانيت، يتباهى قليلاً أمامها، يلعب دور الفرسان، لكن في الحقيقة كل ذلك يجعله خائفاً، مثل تلك الطاحونة التي بالقرب، بعجلتها في الماء وذلك البرج كأنها قصر مسكون.

سمع صوتاً خلفه.

استدار فجأة. لم يرَ شيئاً.

يجب أن يحذر. عهدت إليه فانيت بمهمة. إليه وحده. هو وحده من تثق به. طيب، هي مهمة بسيطة، أن يأخذ اللوحة، تحت المغسل، أن يحملها إلى المدرسة، أن يقول إنها من أجل مباراة مؤسسة روبنسون. هي مهمة سهلة، حتى لو سار مشياً، يبعد المغسل خمس دقائق عن المدرسة. الذهاب والإياب في عشر دقائق.

تفحّص بول النواحي مرة أخرى، تحقق من عدم وجود شخص على الجسر، في فناء الطاحونة، في حقل القمح خلفها، ثم انحنى على درجات المغسل، مرّر يده في الفضاء.

أحسَّ فجأة بالخوف.

تحسست يده في الظلام. أحس بالذعر، لم يجد شيئاً. لا شيء سوى الفراغ. تكاثرت الأفكار في عقله. جاء أحد ما. سرق أحد ما اللوحة. أراد أحد أن ينتقم، أن يؤذي فانيت... أو أن أحداً قد خمّن القيمة الحقيقية لأول لوحة لفانيت، لأنه أكيد أنه في يوم ما ستُباع لوحات فانيت غالياً، غالياً جداً، بنفس غلاء لوحات مونيه...

أكيد، لهذا السبب. لمست يده بيوت عنكبوت، انغلقت على الهواء. ليس ممكناً! أين يمكن أن تكون تلك اللوحة؟ لقد رأى فانيت تدخلها، أمس...

تحرّك أحد خلفه!

هو متأكد الآن، يمشي أحد على الطريق. أخذ بول يعقل نفسه. لا بدَّ أن أحداً يمر، يوجد العديد من الناس الذين يمرون

على الجسر، طوال الوقت، ليس مهماً. لا يستطيع بول أن يستدير، ليس في الحال. ما هو مهم هو أن يجد تلك لوحة. تلوى على بطنه. أدخل ذراعه الثانية في الحفرة الضيقة تحت المغسل. حرك يديه، فتش.

اجتاحته حرارة شديدة. لن يفشل بهذه الطريقة، بغباء. لن يعود لرؤية فانيت ويقول لها، هكذا، كمغفل، إن اللوحة لم تكن موجودة. أدرك بول أنه لم يعد يسمع أي صوت في الطريق.

كأن أحداً قد توقف.

الحرارة شديدة، بول يحس بالحرارة.

تكهربت ذراعاه، فجأة، كأنه لمس أسلاكاً عارية. تماماً في القاع، في الظلام، لمست يداه ورقاً كرتونياً. جرَّ بول الورق. واصلت يداه الاستكشاف، تتبع الطرد المنبسط، الزوايا المستقيمة..

لا شك. إنها اللوحة!

أحس بول بأنه يطير من الفرح. اللوحة موجودة، كانت فقط بعيدة. كم هو مغفل! أخافَ نفسه بنفسه. من كان سيسرق اللوحة؟ جلس الولد على ركبتيه، جرّ اللوحة. أخيراً، خرج الكرتون إلى النور.

إنها فعلاً اللوحة، تعرف إليها بول. نفس الشكل من حوالي أربعين سنتمتراً على ستين، نفس اللون البني للورقة التي تغلفها. سيفتحها ليتحقق، سيفتحها ليراها مرة أخرى، كي تنفجر الألوان المتدرجة في وجهه...

- ماذا تفعل؟

جمد الصوت الدم في عروقه.

أحد يقف خلفه! أحد يحدثه. صوت يعرفه بول جيداً، جيداً جداً.

صوت بارد كأنه التقى ميتاً للتو.

- 74 -

ظلال صفائح خزان الماء تمنحني قليلاً من الظل. يتعلق الأمر بخزان كبير. ألعن نفسي، ألعن ساقَي المسكينتين. اجتياز المرج من الطاحونة إلى الأوب أصبح بنفس صعوبة اجتياز الدائرة القطبية بالنسبة إلي. رحلة حقيقية. كيلومتر من الطريق، بالكاد. يا للشفقة! عندما أفكر أن نبتون ينتظرني هناك بالفعل، في جزيرة القراص، في ظل شجرة حور، منذ نصف ساعة...

هيا، يجب أن أنتفض.

أطرح بعض الأسئلة الأخرى وأنطلق.

لا تقدموا لي نصائحكم، أعرف أني مجرد عجوز عنيدة. لكن يجب أن أذهب إلى جزيرة القراص، مرة أخيرة. من أجل زيارة أخيرة. هناك، وليس في مكان آخر، سأختار السلاح.

بطبيعة الحال، بالضبط في اللحظة التي كنت سأستأنف فيها السير ظهرَ ريتشارد، من خلف صفائح خزان الماء. كان من المفروض أن أتعرف إلى سيارته 4 إل الزرقاء المركونة خلف الحاجز. ريتشارد بتيرنوستور، آخر مزارع في جيفرني، الرجل الذي يملك ثلاثة أرباع المرج، مزارع يحمل رأس واسم كاهن، والذي خلال ثلاثين سنة لم ينسَ أبداً أن يحييني بيده، حتى عندما يخنقني من فوق جراره وينفخ

في رئتي ورئتي نبتون كل أنواع مبيدات الحشرات وهو يقود معدات التعذيب خاصته، وهو يطلق الموت خلفي في كل مرة اجتزت فيها المرج.

حتماً، ها هو يمسكني كي يقص علي حياته المسكينة ويشاركني بؤس العالم. كما لو كنت لأرثى لحاله، مع الخمسين هكتاراً التي في حوزته والتي تمَّ تصنيفها معلماً تاريخياً!

يستحيل أن أتفاداه. يدعوني بذراعه لأدخل إلى الباحة وأستفيد قليلاً من ظل الصفائح.

ليس أمامي خيار آخر، أتقدم نحوه. أمامي فقط ما يكفي من الوقت كي ألمح في البعيد سحب الدخان الذي يقترب على الطريق، مثل سحابة القطارات القديمة في سهول الغرب البعيد. مرت الدراجة دون أن تخفف من سرعتها أمام الضيعة. ليس بسرعة لا تمكّنني من التعرف إليها.

التايجر تريومف تي 100.

- 75 -

وصلت ستيفاني منهكة إلى جزيرة القراص. جرت في حقل الذرة، على نحو مستقيم، مثل مراهقة نافدة الصبر. كما لو أن كل ثانية تفصلها عن موعدها الغرامي كانت محسوبة.

لورنس ينتظرها، هي تعرف ذلك.

دفعت آخر الأعشاب التي تصل إلى طولها وتسللت إلى الفرجة.

يسود تحت أشجار حور جزيرة القراص صمت كنائس.

لورنس ليس هنا.

هو ليس مختبئاً، هو لا يلاعبها. هو بكل بساطة غير موجود. كانت دراجته التريومف لتكون مركونة في مكان ما.

لم تشأ أن تسمع، عندما كانت تجتاز الحقل، لم تشأ أن تنظر، لكنها سمعت بوضوح صوت المحرك الذي تعلمت أن تتعرف إليه، محرِّك دراجة لورنس التريومف. رأت الدخان يرتفع بعيداً. أرادت أن تعتقد أنها مخطئة. أرادت أن تعتقد أن لورنس آتٍ، حتى لو بدا الصوت كأنه يبتعد، وأن الريح، فقط الريح هي التي كانت مسؤولة عن تلك المغالطة. كان من المستحيل أن تفكر أن التريومف تغادر، أن لورنس يهرب.

لماذا كان سيهرب، حتى قبل أن تصل؟

لورنس ليس هنا.

لا يمكن لعينيها أن تخطئا الورقة المسمرة أمامها على جذع أول شجرة حور. ورقة بسيطة بيضاء كتبت عليها بعض الكلمات.

اقتربت. هي تعرف مسبقاً أنها لن تحب ما سوف تقرؤه، وأنه سيكون في تلك الكلمات مثل إعلان حداد.

تقدمت، كأنها تسير في نومها.

الكتابة متقلبة، عصبية.

أربعة أسطر:

لا يوجد حب سعيد...

عدا الذي تُعنى به ذاكرتنا.

وداعاً، إلى الأبد.

لورنس

أحست ستيفاني أن ساقيها لا تقويان على حملها. تمسكت يداها بيأس في لحاء شجرة الحور الذي تمزق بين أصابعها. سقطت. الجذوع العمودية تتراقص حولها مثل عمالقة مجموعة شيطانية.

لا يوجد حب سعيد...

وحده لورنس يمكن أن يكون كتب هذه الكلمات، هي واعية بذلك. ذكرى، ذكرى جميلة، هذا كل ما كان يبحث عنه إذاً المفتش.

ثوبها القطني الصافي يعلق بمزيج من الأرض الرطبة والأحجار. ذراعاها، ساقاها متسخة. ستيفاني تبكي، ترفض الحقيقة.

يا لها من مغفلة!

ذكرى.

وداعاً، إلى الأبد.

يجب أن تكتفي بذكرى. طوال حياتها. أن تعود إلى جيفرني، إلى الفصل، إلى بيتها. تستعيد مسار الحياة، مثل قبل. تغلق القفص بنفسها

يا لها من مغفلة!

ماذا صدقت؟

هي ترتعش الآن، ترتعش برداً في ظل الأشجار. فستانها مبتل. لماذا مبتل؟ تشوشت أفكارها. هي لا تفهم، عشب المرج يبدو

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

محروقاً بالشمس. لا يهم. تحس بالتعب. مررت يديها أمام عينيها، حاولت عبثاً أن تمسح دموعها التي تسيل.

يا إلهي!

لم تستطع حدقتا ستيفاني الجاحظتان الابتعاد عن راحة كفيها: هما حمراوان. أحمر قانٍ!

أحست ستيفاني بالانهيار، لم تعد تفهم شيئاً. رفعت ذراعيها: هي أيضاً مغطاة بالدم. أحنت عينيها. فستانها مبقع ببقع أرجوانية نقعت القطن الصافي.

هي تسبح في بركة دم!

دم أحمر. لزج. طري.

فجأة، اهتزت أوراق الأشجار خلفها.

جاء أحد ما.

- 76 -

- ماذا تخفي؟ ماذا تخفي في هذه الحزمة؟

استدار بول وأطلق شهقة ارتياح. إنه فينسنت! كان عليه أن يتوقعه، هو دائماً موجود يتجسس عليهما. لكن طيب، إنه فقط فينسنت. حتى لو كان صوت صديقه مضحكاً ونظرته غريبة.

- لا شيء...

- ماذا، لا شيء؟

فانيت محقة. فينسنت طاعون!

انحنى بول على اللوحة المغلفة وفتح الورق البني. اقترب فينسنت

توقع صدمة، أيها الفضولي الكبير!

أزاح بول الغلاف. تفجرت ألوان «النيلوفر» التي رسمتها فانيت في ضوء الشمس. على اللوحة، اهتزت زهور النينوفر بحسب حركة الماء، طافت مثل جزر استوائية من دون مراسي.

لم يقل فينسنت شيئاً. بدا كأنه غير قادر على أن يزيح عينيه عن اللوحة.

- هيا، تحرك، واصل بول بصوت قوي. ساعدني على إعادة التغليف. يجب أن آخذها إلى المدرسة. إنها من أجل مباراة «رسامون مبتدئون»، تشك في ذلك.

حدق في فينسنت، عيناه مليئتان فخراً.

- ما رأيك إذاً؟ إنها عبقرية، هيه، فانيت! الأكثر موهبة من الجميع... لن يكون أمامها سوى أن تختار: طوكيو، نيويورك، مدريد، كل مدارس الفن في العالم ستتصارع عليها...

نهض فينسنت. ترنّح كأنه سكران.

شعر بول بالقلق:

- هل أنت بخير فينسنت؟

- لن... لن تفعل هذا؟ تمتم الصبي.

- ما هذا؟

بدأ بول يطوي الورقة البنية على اللوحة.

- أن... أن تقدم اللوحة للمدرسة. كي يرسلوها إلى طرف العالم... كي يأخذوا منا فانيت...

- ماذا تقول؟ هيا ساعدني.

تقدم فينسنت خطوة. غطى ظله بول الذي كان لا يزال راكعاً. أصبح صوته، فجأة، آمراً، كما لم يسمعه بول أبداً من قبل:

- ارمِ اللوحة في النهر!

رفع بول رأسه وتساءل، للحظة، إن كان فينسنت جاداً أم لا، ثم انفجر ضاحكاً.

- لا تقل أي شيء. ساعدني بدل ذلك.

لم يجب فينسنت. تجمّد بضع لحظات ثم فجأة، تقدم بخطوة على الزفت، رفع رجله اليمنى، دفع اللوحة الموضوعة على الدرجات.

تزحلقت اللوحة. الغدير ليس سوى على بعد سنتمترات.

تصدت يد بول للحزمة. في آخر لحظة. أمسكها بيده بصلابة ونهض غاضباً.

- أنت مجنون! كان بإمكانك أن تسقطها في الماء...

بول يعرف أن فينسنت ليس له وزن. هو أقوى منه. لو استمر سيفهم.

- تحرك. ابتعد. سأحملها إلى المدرسة، هذه اللوحة. بعد ذلك، سنصفي حساباتنا، نحن الاثنين.

تراجع فينسنت مترين تحت الصفصاف المتدلي الذي انغمست أغصانه في الغدير. فتش في جيب سرواله.

- لن أدعك تفعل، بول. لن أدعك تخطف فانيت.

- أنت أحمق! ابتعد!

تقدم بول. فينسنت، بقفزة، وقف أمامه.

كان يمسك بكفه سكيناً.

- ماذا...

شلّت المفاجأة بول.

- ستعطيني هذه اللوحة، بول. فقط سأتلفها قليلاً. فقط بالقدر الذي يكفي...

لم يعد بول يستمع إلى هذيان فينسنت. هو مركز على سكين بول المسلول. سكين مسطح وعريض. نفس السكين الذي تستعمله فانيت عندما ترسم. نفسه الذي يستعمله الرسامون لتنظيف لوحاتهم.

أين يمكن أن يكون فينسنت قد وجد تلك الأداة؟

من أي رسام يمكن أن يكون قد سرقها؟

- اعطني اللوحة، بول، ألحَّ فينسنت. أنا لا أمزح.

غريزياً، أخذ بول يبحث عن المساعدة، أحد يمر، جار، أي أحد.

دارت عيناه نحو نافذة برج مولان دو شونوفيير.

لا أحد يتحرك. لا قط، ولا كلب، ولا حتى نبتون.

بدا النهر كأنه يتمايل حوله.

دار اسم في رأسه، غير واقعي، سريالي.

جيمس.

حدق بول في السكين الذي يمسكه فينسنت. سكين متسخ.

الرسامون ينظفون سكاكينهم.

ليس فينسنت.

نصل السكين أحمر.

أحمر قانٍ.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

انزلقت ساقا ستيفاني العاريتان على الأرض المختلطة بالدم، باحثتين عن متكئ في الوحل الأرجواني.

أحد يأتي.

حاولت يداها التّمسك بجذع شجرة الحور أمامها، تعانقها مثل جسد رجل كانت لتنام عند قدميه. نهضت بصعوبة. أحست أنها مغطاة بالفضلات، بأشلاء بشرية، بأنها ألقيت في قبر جماعي وأنها تزحف بين الجثث كي تفلت.

أحد يأتي.

تمسكت ستيفاني بشجرة الحور، احتكت بها، تلوّت كأنها تتمسح باللحاء، تشوّهت كي تأخذ شكله.

أحد يأتي.

أحد يتبع ضفاف الأوب. سمعت بوضوح صوت خطوات، تدوس على السرخس، تسير على طول ملتقى السين، تقترب. في الضوء المنعكس، انفصل جسد عن ستار أشجار الحور.

لورنس؟

لحظة وجيزة، فكرت ستيفاني في عشيقها. لا توجد بركة دم. لا توجد قذارة. ستمزِّق هذا الفستان المتسخ وترتمي بين ذراعي لورنس.

لقد عاد. سيصطحبها.

لم يخفق قلبها بنفس تلك السرعة.

- لقد... لقد وجدته على هذا الحال.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

جاك. إنه صوت جاك.

بارد.

خدشت يدا ستيفاني الخشب. تكسرت أظافر أصابعها على الجذع، واحداً بعد الآخر، في ألم شديد، كأنما لتفجر شظايا المعاناة غير المحتملة.

تقدم الظل في الشمس.

جاك.

زوجها.

لم تمتلك ستيفاني القوة لتفكر، لتتساءل عمَّ يفعله هناك، في جزيرة القراص، لتحاول ترتيب الأحداث التي تتابع. اكتفت بتلقيها، بالسير كأنها نائمة وترتطم بتتابع العراقيل التي تتسارع عليها.

لا تستطيع عينا ستيفاني أن تنفصلا عن ذلك الشكل الداكن الذي يحمله جاك بين ذراعيه. كلب، كلب ميت نصف فمه مهشم، يواصل الدم الجريان على طول فخذي جاك.

نبتون.

- وجدته على هذا النحو، تمتم جاك دوبان بصوت من دون نغمة. هو بالتأكيد حادث صيد في السهل. ضربه أحد ما. ضربة طائشة. أو أحد الأوغاد. هو... هو لم يتألم ستيفاني. لقد مات في الحال...

تركت ستيفاني نفسها تنزلق على طول الجذع. مزّق اللحاء ذراعيها وساقيها. لم تعد تحس بالألم. لا مزيد من الألم.

ابتسم لها جاك. جاك قوي. جاك هادئ.

وضع جسد نبتون بلطف على فراش من العشب.

- لا بأس، ستيفاني.

أحست ستيفاني بكل مقاومتها تنهار. من حسن الحظ أن جاك موجود. ماذا كانت ستصبح من دونه؟ ماذا كانت ستفعل من دونه؟ كان دائماً موجوداً. دون أن يشكو، دون أن يحكم عليها، دون أن يطلب شيئاً. هو فقط موجود. مثل شجرة الحور هذه التي تتمسك بها. جاك شجرة غُرست بالقرب منها، لا تتحرك عندما تبتعد، شجرة تعرف أنها ستعود دوماً لتحتمي في ظلها.

مد إليها جاك يده. أمسكتها ستيفاني.

هي تثق به. به وحده. هو الرجل الوحيد الذي لم يخنها أبداً. انهارت بكاء على كتفيه.

- تعالي، ستيفاني. تعالي. لقد ركنت بعيداً شيئاً ما. سنضع نبتون في صندوق السيارة. تعالي، ستيفاني، سندخل إلى بيتنا.

- 78 -

أسند المفتش لورانس سيريناك دراجته إلى جدار المفوضية من دون احتراس. بالكاد استغرق بضع دقائق كي يقطع الخمس كيلومترات التي تفصل جيفرني عن فيرنون. دخل بصخب. كان موري في الاستقبال، يتباحث مع ثلاث فتيات، واحدة، تقريباً في حالة هستيرية، تصر على أن حقيبة يدها قد اختفت على شرفة ساحة محطة القطار. الصديقتان تهزان رأسيهما.

- هل رأيت سيلفيو؟

رفع موري رأسه.

- تحت. في الأرشيف...

لم يبطئ سيريناك. صعد الدرج ودفع الباب الأحمر. سيلفيو بينافيدس مُنحنٍ على كتلة من الأوراق، يخربش بعض الملاحظات. كان قد نشر محتوى علبة الأرشيف على المائدة: صور عشيقات مورفال ومشاهد الجريمة، لائحة أطفال مدرسة جيفرني، التشريح، الخبرة الخطية، نسخ «النيلوفر»، الملاحظات المكتوبة باليد...

- حضرة الرئيس! جئت في وقتك. لقد أحرزت تقدماً، أظن...

لم يترك سيريناك الوقت لمساعده ليقول أكثر:

- انسَ الأمر، سيلفيو. سننسحب...

نظر إليه بينافيدس باندهاش وواصل:

- كنت أقول لك، عندي جديد. في البداية، أخيراً وجدت العشيقة الخامسة، الفتاة ذات الوزرة الزرقاء، من خلال كشوف العائلة مورفال. أجريت العديد من المكالمات. اسمها جين تيبو. بالفعل كانت تعاشر مورفال كي تحافظ على وظيفتها، كما قالت لي. تقدير سيئ، صرفتها باتريسيا في غضون شهرين. منذ ذلك الحين، انتقلت إلى الضاحية الباريسية. هي حالياً تعيش رفقة ساعي بريد. لهما طفلان، ثلاث وخمس سنوات. باختصار، كما ترى حضرة المفتش، لا شيء مشبوه، من هذه الناحية الطريق المسدود من جديد!

- الطريق المسدود. نحن متفقان إذاً، إنه...

قاطعه بينافيدس، وهو متحمس أكثر فأكثر:

- إلا أني ذهبت إلى الأرشيف الجهوي، أمضيت هناك وقتاً

مهماً... وانتهى بي الأمر إلى العثور على نسخ من **لو ريبوبليكان دو فيرنون** تعود لسنة 1937. تلك الصحف تذكر موت الطفل، ألبرت روزالبا. وجدت فيها أيضاً نوعاً من الحوار مع والدة الطفل الغريق. لويز روزالبا. لم تكن تعتقد في حادث. هي...

رفع سيريناك صوته:

- أنت لم تفهمني، سيلفيو. سنتخلى عن القضية! هذا لا يفضي إلى شيء، تحقيقنا، كل هذا الهذيان حول «النيلوفر» المنسي في مخازن جيفرني، حول حادث غرق طفل قبل الحرب! حول الأزواج الذين خانتهم زوجاتهم... نحن نغرق في السخرية!

رفع بينافيدس قلمه أخيراً عن ورقة الملاحظات.

- اعذرني، لكن أنا من لا يفهم شيئاً هنا، حضرة المفتش. ماذا تعني بالضبط «سننسحب»؟

بضربة من يده، جعل سيريناك الأوراق المنشورة على الطاولة تطير وجلس مكانها.

- سأقول لك ذلك بصيغة أخرى، سيلفيو... لقد كنت محقاً. على طول الخط. الخلط بين التحقيق الجنائي والعواطف الخاصة في هذه القصة كان حمقاً... فهمت ذلك متأخراً، لكني فهمته...

- هل تتحدث عن ستيفاني دوبان؟

- إن شئت...

وجّه سيلفيو بينافيدس ابتسامة متواطئة وجمع أوراقه المبعثرة بصبر.

- جاك دوبان ليس العدو رقم واحد، إذاً؟

- يجب أن نعتقد أن لا...

- لكن... الـ...

رفع سيريناك صوته وضرب بقبضته:

- اسمعني، سيلفيو. سأتصل بقاضي التحقيق وسأفسر له أننا نتخبط في هذه الحكاية، وأني غير كفؤ، وأنه لو شاء يمكنه أن يعهد بالقضية لأحد آخر...

- لكن...

ألقى سيلفيو بينافيدس نظرة شاملة على قطع الإدانة على الطاولة، وألقى نظرة على ملاحظاته.

- أنا... أنا أفهمك، حضرة المفتش. ربما كان قراراً حكيماً، لكن...

حطت عيناه على لورنس.

- بحق الرب، ماذا حدث لك؟

- ماذا؟

- أكمامك، سترتك؟ هل نقلت جثة أم ماذا؟

- تنهّد لورنس.

- سأشرح لك... في وقت آخر. ماذا كنت تعني بـ«لكن»؟

تردد سيلفيو في أن يلح. أخيراً، حوّل عينيه عن الثياب الملطخة بالدم.

-لكن... لكن كلما حاولت إعادة ترتيب قطع الأحجية، كلما عدت إلى حكاية الطفل في خطر، طفل الحادية عشر... إن تخلينا الآن، نحن نجازف...

لم ينهِ سيلفيو بينافيدس جملته. ظهر العميل موري، الذي نزل الدرجات بسرعة، في قاعة الأرشيف.

- سيلفيو! لقد تلقينا مكالمة من جناح الولادة. إنها زوجتك!

لقد انطلقت، عزيزي... أظن أني فهمت أنها فقدت الماء، لكن الممرضة المولدة لم تعطني أي تفصيلات أخرى، فقط أن على الأب أن يجيب بأسرع ما يمكن...

قفز بينافيدس من مقعده. ربت سيريناك على ظهره بينما كان يأخذ سترته.

- أسرع، سيلفيو... انسَ الباقي...

- طيب... طيب...

- أسرع، يا غبي!

- شكراً، لور... إيه، حضرة المفتش... إيه... لورنس، أنا...

تردد لحظة، الوقت اللازم ليدخل ذراعيه في كمي سترته. حثّه سيريناك:

-ماذا؟ ماذا تنتظر؟ هيا انطلق!

-إيه، حضرة المفتش، فقط قبل أن أنصرف... بالنسبة إلى هذه المرة هل أستطيع أن أزيل الكلفة؟

- لقد حان الوقت، أيها الأحمق.

ابتسما هما الاثنان. ألقى المفتش بينافيدس نظرة نحو الأوراق على المائدة، وبالأخص نحو صورة ستيفاني دوبان، مختلطة بباقي الصور ثم قال وهو يخرج:

- بعد كل شيء، أظن أنك فعلت خيراً بتخليك عن هذا التحقيق!

استمع لورنس سيريناك إلى مساعده يجري في الدرج. ابتعدت الخطوات الثقيلة، صفق الباب، ثم لا شيء. جمع سيريناك ببطء كل قطع الملف في علبة الأرشيف الحمراء. الصور، التقارير،

الملاحظات. تفحّصت عيناه الترتيب الأبجدي لحروف الرفّ، ثم وضع العلبة الحمراء.

ميم... مثل مورفال.

تراجع. القضية مورفال ليست سوى ملف ضمن مئات أخرى لم تُحل. رغماً عنه، لا يستطيع أن يمنع نفسه من التفكير مرة أخرى في ملاحظة سيلفيو الأخيرة.

طفل في خطر.

يموت طفل. يولد طفل...

سينسى سيلفيو...

لمح لورنس سيريناك في ركن من الغرفة، بعض الأحذية التي لم يأتِ أصحابها من سكان جيفرني لاستردادها أبداً، بلا شك لأنها كانت قديمة أو مستعملة. فوق، على طاولة، أثر نعل بالجبس معروض دوماً. بلا شك، هذا التحقيق ليس له معنى، أجبر نفسه على التهكم. أفكاره التالية طارت نحو ستيفاني، نحو جثة نبتون.

أجل، لقد أخذ القرار الحكيم. لقد كان هناك ما يكفي من الأموات...

بالنسبة إلى الباقي، نظرة ستيفاني النيلوفر البنفسجي، بشرتها الخزفية، شفتاها، أشرطة الفضة في شعرها...

سينسى.

على الأقل، هو يأمل ذلك.

- اعطني اللوحة، كرر فينسنت.

وفّر سكين الرسام في اليد للصبي تماسكاً جديداً. كما لو أنه أضاف سنوات أخرى إلى عمره، وبلغ سن وخبرة مراهق متدرِّب على عراك الشوارع. ضمَّ بول لوحة فانيت أكثر فأكثر إلى جسده.

بغضب.

- فينسنت، من أين أتيت بهذا السكين؟

- وجدته! لا أهمية. اعطني اللوحة... أنت تعرف أني على حق. إن كنت فعلاً متمسكاً بفانيت...

اتسعت حدقتا فينسنت. ظهرت في طرفي عينيه عروق حمراء، عيني رجل مجنون. لم يرَه بول أبداً على هذا النحو.

- لم تجب. أين وجدت السكين؟

- لا تغيّر الموضوع!

- لماذا يوجد على السكين دم؟

أحس بول أن شكل صديقه يتغير تحت عينيه، يتحول إلى طفل أحمق هستيري قادر على فعل أي شيء. وضع يده على طرف المغسل.

- ليس... ليس... ليس أنت، على كل حال.

- اسرع، بول. اعطني اللوحة. نحن في الخندق نفسه! إن كنت متمسكاً بفانيت، نحن في الخندق نفسه.

تحرَّك سكين الرسام في الهواء بحركة غير منظَّمة. تراجع بول.

- تباً... أنت... أنت من طعن الرسام الأميركي... جيمس...

طعنة سكين في القلب، بحسب ما قالت لي فانيت. أنت... إنه أنت؟

- اصمت! ماذا يعنيك رسام أميركي؟ فانيت هي التي تهم، لا؟ اختر معسكرك أقول لك! اعطني اللوحة، أو ارمها في الماء... مرة أخيرة!

تشنّجت ذراع فينسنت، كأنه يمسك سيفاً وسيقوم بهجوم.

- مرة أخيرة...

رسم بول ابتسامة وانحنى ليضع الحزمة على زفت طرف المغسل.

- طيب، فينسنت. فلنهدأ...

ثم فجأ انتصب بول. تفاجأ فينسنت ولم يستطع أن يقوم بحركة. انغلقت يد بول على معصمه. ضغطت، بقوة، وهي تعصر ساعد الصبي. اضطر فينسنت إلى الركوع، أطلق شتائم لكن قبضة بول زادت من ضغطها. لم يعد أمام فينسنت خيار. ابتلت عيناه الحمراوان بالدموع. ألم. إهانة. انفتحت يده. عندما سقط سكين الرسام، بركلة من قدمه، جعله ينزلق في العشب، تحت الصفصاف، على بعد ثلاثة أمتار منهما؛ لم تتخلَّ يده عن العصر: بحركة دوران، أجبر ذراع فينسنت على أن تلتوي ناحية الظهر، ثم رفع قبضته. صرخ الولد:

- كتفي، تباً، ستقتلع كتفي...

رفع بول ذراع فينسنت أكثر. بول هو الأقوى. كان دائماً الأقوى.

- أنت مريض، يا عزيزي. أنت مجنون. سيضعونك في المصحة. ماذا تظن؟ سأذهب لرؤية والديك، رجال الشرطة، كل الناس. كنت أشك أن الأمر غير واضح. لكن إلى هذه الدرجة...

صرخ فينسنت. تعارك بول أحياناً في الساحة عند الاستراحة، لكنه لم يذهب أبداً أبعد من ذلك. كم من الوقت سيسحق المعصم؟

إلى أي ارتفاع يمكن أن يلوي الذراع قبل أن ينخلع كتف فينسنت؟ أحس أنه يسمع بعض الغضاريف تتكسر.

توقف فينسنت عن الصراخ. إنه يبكي الآن وجسمه أخذ يفقد تدريجياً كل مقاومة، كما لو أن مجموع عضلاته تراخت. فتح بول يده أخيراً ودفع الصبي الذي تدحرج متراً مثل خرقة متكورة.

- أنا أراقبك، هدد بول.

تأكد بنظرة من أن السكين بعيدة وأن الولد لا يستطيع الإمساك بها. بقي فينسنت متكوراً في وضعية جنين. دون أن يتوقف عن مراقبته، انحنى بول على طرف المغسل كي يأخذ اللوحة. لمست يده الورق البني.

ربما أدار عينيه نصف ثانية كي يتأكد من قبضته.

بالكاد.

كثيراً.

نهض فينسنت دفعة واحدة وجرى في خط مستقيم أمامه، مرفقاه إلى الأمام. قام بول بحركة جانبية نحو المغسل. مرة أخرى، كان أسرع من فينسنت، أصاب مرفقا فينسنت صدره، لكن تقريباً دون أن يلمسه، دون أن يصيبه. تمدد فينسنت بثقل على القراص، أمامه.

مريض!

ليس أمام بول وقت ليفكر في شيء آخر، في اللحظة التالية اندست طبقة رقيقة من التراب تحت قدمه. أحس أنه يفقد توازنه على الحافة الهشة.

تحركت ساقه في الفراغ، بين الحافة والغدير. بحثت يده عن مسند، أي شيء، سقف المغسل، عارضة، غصن...

تأخرَ كثيراً.

سقط إلى الخلف. تكوم غريزياً. اصطدم ظهره في البداية بسور المغسل ذي الطوب. الألم مفاجئ وكثيف. واصل بول تدحرجه متراً على الجانب.

اصطدم صدغه بحافة العارضة. انفتحت عيناه نحو السماء. شعاع كبير مثل البرق.

انزلق، واصل الانزلاق، رأى كل شيء، هو واعٍ، فقط جسده لا يستجيب، جسده الذي لا يريد أن يستجيب.

لمس الماء البارد شعره.

فهم بول أنه يتدحرج في الغدير، سنتمتر بعد سنتمتر. عيناه لا تريان سوى السماء من دون سحاب، فوقه، وبعض أغصان الصفصاف، مثل خدوش على شاشة زرقاء.

الماء البارد يلتهم أذنه، عنقه، رقبته.

هو يغوص.

ظهر وجه فينسنت في الشاشة الزرقاء.

مد بول يده إليه، على الأقل، ذلك ما يعتقده، ذلك ما يريده. هو لا يعرف إن كانت يده ترتفع، لم يعد يحس بها، هو لا يراها في اللوحة الزرقاء. فينسنت يبتسم له. تساءل بول عمَّ يعنيه ذلك. هل كل ذلك من أجل أن يضحك؟ هل ذلك دعابة؟ سيخرجه فينسنت من هناك وهو يربت على كتفه.

أو أن فينسنت أحمق تماماً؟ اقترب فينسنت.

بول يعرف الجواب، الآن... ليست ابتسامة تلك التي تشكل فم فينسنت، إنها تكشيرة سادية. رأى بول أخيراً يداً، ثم اثنتين تظهران

في الشاشة الزرقاء، تقتربان. تختفيان لكنه يحس أنهما تحطان على كتفيه .

تدفعانهما.

يود بول أن يقاوم، أن يحرك قدميه، أن ينقلب، أن يدفع ذلك المريض، هو أقوى منه. أقوى منه. أقل حركة مستحيلة بالنسبة إليه. هو مشلول. لقد فهم ذلك.

تواصلُ اليدان دفعه.

الماء المجمد يلتهم فمه، إنفه، عينيه.

آخر صورة وعى بها بول هي فقاعات وردية فوقه، على السطح، تحت الماء الحيوي.

ذكّره ذلك بلوحة فانيت.

كانت آخر فكرة له.

- 80 -

واصلتُ التقدم بمشقة على الطريق الذي يؤدي إلى جزيرة القراص. أطلقني ريتشارد باترينوستر، مزارع المرج أخيراً، ليس دون أن يقدم لي سلسلة من النصائح «في عمرك، عزيزتي، ليس من العقل نزهة مثل هذه إلى الأوب. تحت هذه الشمس... ماذا ستفعلين هناك في الملتقى؟ هل أنت واثقة من أنك لا تريدين أن أوصلك؟ كوني حذرة، هيه، حتى على المسلك الترابي يوجد دوماً أشخاص يقودون بسرعة شديدة. سياح تائهون، أو غير تائهين، معجبون بمونيه يبحثون

عن جزيرة القراص الشهيرة... انظري، قبل قليل، تلك الدراجة النارية، السرعة التي اجتازت بها المرج... أنا لا أكذب، انظري، هذه السيارة، هناك، تلك السيارة...».

ارتفعت سحابة من التراب على الطريق.

مرت الفورد بريك الزرقاء أمام الضيعة.

فورد الزوجين دوبان في هالة من الغبار، لدي فقط ما يكفي من الوقت كي ألمح الراكبين.

جاك دوبان خلف المقود، نظرته خاوية.

ستيفاني دوبان إلى جانبه، باكية.

أنت تبكين عزيزتي؟

ابكِ، ابكِ جميلتي. ثقي بي، ليست سوى البداية.

ذلك الطريق اللعين يبدو لي كأنه لا ينتهي. أواصل بحسب إيقاعي، تحاول عصاي استباق الأخاديد؛ لم يتبقَّ أمامي سوى بعض المئات من الأمتار قبل أن أصل إلى جزيرة القراص. أود لو أستطيع أن أسرع. أشتاق لرؤية نبتون، أنا لم أرَه منذ أن غادرت الطاحونة. أعرف أن ذلك الكلب الغبي معتاد على فترات هروب طويلة، رفقة بعض أطفال القرية، أو المارة، أو أرانب المرج.

لكن هنا...

قلق غريب يتصاعد إلى حلقي.

- نبتون؟

أحب أن أبقى هناك طويلاً، أن أنظر من الجهة الأخرى للماء.

أحب هذا المكان. سأشتاق إليه.

- نبتون!

أصرخ بصوت أعلى الآن. هذا الكلب لا يظهر أبداً. بدأ قلقي يتحول إلى خوف حقيقي. أين ذهب ذلك الكلب؟ أصفر هذه المرة. ما زلت أعرف أن أصفر. يجيب نبتون دوماً عندما أصفر.

أنتظر.

وحدي.

لا صوت، لا إشارة. لا أثر لنبتون. أعقل نفسي، أعرف جيداً أن مخاوفي مضحكة. تنتابني أفكار بخصوص هذا المكان. منذ مدة طويلة لم أعد أؤمن باللعنات، بالقصة التي تتكرر وهذا النوع من الهراء. لا يوجد حظ... فقط...

إلهي... هذا الكلب الذي لا يعود...

- نبتون!

صحت حتى تمزق حلقي.

صرخت، مرات ومرات:

- نبتون... نبتون...

تبدو أشجار الحور كأنها خرست إلى الأبد.

- نبتون.

آه...

ها هو كلبي الذي يظهر من لا مكان، مبعداً الأجمة على يميني، جاء يلتصق بفستاني. عيناه الشقيتان تلمعان، كأنه يريد أن يعتذر عن هروب طال كثيراً.

- هيا، نبتون، سنعود.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

اللوحة الثانية

عرض

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

25 مايو 2010
(مرج جيفرني)
تنازل

- 81 -

عدتُ من جزيرة القراص. هذه المرة، بعد ضيعة ريتشارد باترينوستر، بدل أن أعود إلى مولان دو شونوفيير، انعطفت ناحية اليمين، نحو المواقف الثلاثة المليئة بالبتلات. نبتون يحوم حولي. بدأت السيارات والحافلات تفسح أماكنها. عدة مرات، كاد يدوسني بعض الأوغاد الذين يتراجعون دون النظر في المرآة. ألوح بعصاي على سياراتهم. لا يجرؤون على قول شيء لعجوز مثلي. هم حتى يعتذرون.

اعذروني، نحن نستمتع بقدر ما نستطيع.

- تعال، نبتون...

هؤلاء الحمقى قادرون على دهس كلبي.

وصلت أخيراً إلى طريق روي. واصلت السير بضعة أمتار إلى حدائق مونيه. الكل يسرع بين الورود والنيلوفر. يجب أن أقول إنه يوم ربيعي جميل، ساعة واحدة قبل أن تغلق الحديقة. السياح يرغبون في مقابل للكيلومترات التي قطعوها، لذا هم يقفون في طوابير في الممرات، عربات أطفال جنب بعضها. إنها جيفرني عند الساعة

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الخامسة عصراً. النزعة الشبكية الإقليمية إكسبريس.

تاهت نظرتي في الجموع. من غير إبطاء، لم أعد أرى سواها.

فانيت.

تدير لي بظهرها. هي جالسة على حافة بركة النيلوفر، أمام لوحتها الموضوعة على الوستارية. أخمّن أنها تبكي.

- ماذا تريد منها؟

وقف كاميل السمين على طرف بركة النيلوفر الآخر، على الجسر الأخضر الصغير الذي تسقط فوقه أغصان أشجار الصفصاف المتدلية. يبدو مثل أبله. يلوي ورقة كرتون بين يديه.

- ماذا تريد منها، من فانيت؟ كرر فينسنت.

تمتم كاميل، محرجاً:

- إنه... إنه... من أجل مواساتها... فكرت في بطاقة بريدية من أجل عيد ميلادها، من أجل بلوغها الحادية عشر.

نزع فينسنت البطاقة من بين يدي كاميل، تفحّصها بشكل موجز. بطاقة بريدية بسيطة، تقليد «النيلوفر»، بالبنفسجي، بطاقة عادية. فقط كتب على ظهر البطاقة: **عيد ميلاد سعيد. إحدى عشرة سنة.**

- طيب. سأعطيها لها. دعها لوحدها الآن. فانيت تحتاج إلى أن تبقى لوحدها.

نظر الولدان عكس البركة إلى الفتاة المنحنية على لوحتها، مستغرقة في تحريك فرشاتها بغضب غير منضبط.

- هي... كيف هي الآن؟ تهجى كاميل.

- ماذا تعتقد؟ أجابه فينسنت. هي مثلنا جميعاً. هي مصدومة.

غرق بول. مراسم الدفن تحت المطر. لكننا سنتعافى، هيه... هذا يحدث، الحوادث... هذا يحدث. الأمر هكذا.

أجهش كاميل السمين بالبكاء. لم يكلف فينسنت نفسه عناء مواساته، سار بمحاذاة البركة، فقط أضاف وهو يبتعد:

- لا تقلق، سأعطيها لها، بطاقتك.

الطريق الذي يحيط بالبركة ينعطف نحو اليسار ويختفي في غابة من الوستارية. بمجرد أن غاب عن بصره، وضع فينسنت البطاقة في جيبه. تقدم نحو الجسر الياباني وهو يبعد بيده السوسن الذي يضيّق الطريق أمامه.

فانيت هناك، تدير له بظهرها، تشهق. تبلل فرشاتها، الفرشاة الأعرض، تقريباً أداة رسام في البناء، في لوحة ألوان حيث مزجت الفتاة جميع الألوان الداكنة.

بني غامق. رمادي فحمي. أرجواني عميق.

أسود.

غطت فانيت اللوحة قوس قزح بضربات فوضوية من فرشاتها، دون أن تحاول رسم أي شيء سوى عذابات نفسها. كما لو أنه في بضع دقائق ستسقط الظلمات على البركة، على الماء الحي، على ضوء اللوحة. فقط عزلت بعض النيلوفر، أضاءتها بنقطة صفراء فاقعة بواسطة فرشاتها الرقيقة.

نجوم متفرقة في الليل.

تحدث فينسنت بهدوء:

- أراد كاميل أن يأتي، لكني أخبرته أنك تريدين أن تبقي لوحدك.

هو... هو يتمنى لك عيد ميلاد سعيد.

وضع الولد يده على جيبه لكنه لم يخرج البطاقة المخبأة بعناية. فانيت لا تجيب. تُفرِغُ أنبوب صباغة بلون الأبنوس على لوحتها.

- لماذا تفعلين هذا، فانيت؟ هو...

أخيراً، استدارت فانيت. عيناها محمرتان بسبب البكاء، من دون شك مسحت وجنتيها بسرعة بنفس المنديل الذي تستعمله في الرسم. مسودتان.

- انتهى كل هذا، فينسنت. انتهت الألوان. انتهى الرسم.

بقي فينسنت صامتاً. انفجرت فانيت:

- انتهى، فينسنت... ألا تفهم؟ مات بول بسببي، انزلق على درج المغسل عندما ذهب ليبحث عن هذه اللوحة اللعينة. أنا التي أرسلته، أنا التي طلبت منه أن يسرع... أنا من... من... من قتله...

وضع فينسنت يده بهدوء على كتف الفتاة.

- لكن لا، فانيت، كان حادثاً، أنت تعرفين ذلك جيداً. انزلق بول، غرق في الغدير، لا يستطيع أحد شيئاً...

شهقت فانيت.

- أنت لطيف، فينسنت.

وضعت فرشاتها على اللوحة وأمالت رأسها على كتف الولد. انفجرت في البكاء.

- كلهم قالوا لي إني موهوبة. إني يجب أن أكون أنانية. إن الرسم سيمنحني كل شيء... كذبوا علي، فينسنت، كلهم كذبوا علي. كلهم ماتوا. جيمس. بول...

- ليس كلهم، فانيت. ليس أنا. ثم، بول...

- ششت.

فهم فينسنت أن فانيت تحتاج إلى الصمت. لم يجرؤ الولد على قول شيء. انتظر. وحدها شهقات الفتاة تقطع الهدوء المرعب على ضفاف البركة، بالإضافة، من وقت إلى آخر، إلى التلاطم الخفيف الذي تحدثه أوراق الصفصاف أو الوستارية التي تسقط في البركة. أخيراً اقترب صوت فانيت المرتعش من أذن فينسنت.

- انتهى... انتهى أيضاً كل هذا اللعب. انتهت هذه الألقاب الخاصة بالرسامين الانطباعيين التي كنت أطلقها عليكم جميعاً كي أشعر أني مهمة. تلك الأسماء المزيفة. لم يعد لها معنى...

- إن شئت، فانيت...

ذراع فينسنت يحيط بالفتاة الآن، يضمها إليه. يمكنها أن تنام.

- أنا هنا، تمتم فينسنت. سأكون دوماً هنا، فانيت...

- هذا أيضاً انتهى. فانيت ليس اسمي. لا أحد سيناديني فانيت. لا أنت ولا أحد. الفتاة الصغيرة التي كان الجميع يسميها فانيت، الفتاة الصغيرة الموهوبة في الرسم، العبقرية الناشئة، ماتت هي الأخرى، قرب المغسل، قرب حقل القمح. لم يعد من وجود لفانيت.

تردد الولد. صعدت يده نحو كتف الفتاة، داعبت ذراعها.

- أنا أفهم... أنا الوحيد الذي يفهمك، تعرفين ذلك جيداً، سأكون دوماً موجوداً... فانيت...

سعل فينسنت. صعدت يده على طول ذراع الفتاة.

- سأكون دوماً هنا، ستيفاني.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

انزلقت السلسلة في معصم الولد على طول ذراعه. لم يستطع أن يمنع نفسه من إحناء عينيه نحو الحلية. لقد فهم أنه بدءاً من تلك اللحظة لن تطلق عليه ستيفاني أبداً اسم الفنان الذي اختارته من أجله. **فينسنت.**

ستستعمل اسمه الحقيقي.

اسم مولده، وتعميده، الاسم المنقوش بالفضة على سلسلته.

جاك.

يسيل الماء على جسد ستيفاني العاري. فركت جسدها بهستيرية تحت انبجاس الماء المغلي. فستانها المبقع بالأحمر مكور بالقرب، على الأرضية. يسيل الماء عليها منذ دقائق طويلة، لكنها لا تزال تحس على جسدها بركة دم نبتون التي غرقت فيها. الرائحة الفظيعة. النجاسة.

لا يوجد حب سعيد.

لا يمكنها ألا تفكر في لحظات الجنون التي عاشتها للتو على جزيرة القراص.

كلبها، نبتون، مقتول.

كلمة الوداع التي كتبها لورنس.

لا يوجد حب سعيد.

جاك جالس في الغرفة المجاورة، على السرير. على الطاولة المجاورة للسرير، تصدر من المذياع أغنية عنيدة تمر بشكل متكرِّر، **زمن الحب** لفرانسواز هاردي. تحدث جاك بصوت مرتفع كي تسمعه ستيفاني تحت رشاش الماء.

- لا أحد سيؤذيك بعد الآن، ستيفاني. لا أحد. سنظل هنا نحن

الاثنان. لا أحد سيدخل بيننا.

لا يوجد حب سعيد...
عدا الذي تُعنى به ذاكرتنا.

ستيفاني تبكي، بعض الدمعات الإضافية تحت الماء المغلي.
تابع جاك حواره الداخلي على طرف السرير.
سترين، ستيفاني. سيتغير كل شيء. سأجد بيتاً، بيتاً آخر، بيتاً حقيقياً، بيتاً ستحبينه.
ابكِ عزيزتي. ابكِ، ابكِ، أنت على حق. غداً سنذهب إلى ضيعة أوتوي لنتبنى جرواً جديداً. مصرع نبتون كان حادثة، حادثة غبية، هذا يحدث في الريف. لكنه لم يتألم. سنذهب غداً، ستيفاني. غداً، سيكون أفضل...

توقف انبجاس الماء. التحفت ستيفاني بفوطة بنفسجية. تقدمت في الغرفة ذات السقف المائل، حافية القدمين، وشعرها يقطر ماء. جميلة، جميلة جداً. جميلة جداً في عيني جاك.
هل يمكن أن نحب امرأة بذلك القدر؟

نهض جاك، ضمّ امرأته إليه، ابتلَّ بقربها.
- أنا هنا، ستيفاني. أنت تعرفين ذلك، سأكون دوماً هنا، معك، في الأوقات العصيبة...
تصلّب جسد ستيفاني لحظة، لحظة وجيزة، قبل أن يستسلم

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

بالكامل. قبّل جاك زوجته في عنقها ثم همس:

- سيبدأ كل شيء من جديد، جميلتي. غداً، سنذهب لنتبنى جرواً جديداً. سيساعدك ذلك على النسيان... أنا أعرفك. جرو جديد سنختار له اسماً!

انزلقت الفوطة المبتلة على الأرضية. مدد جاك بحركة خفيفة امرأته على السرير.. عارية. تركته ستيفاني يفعل ما يشاء.

لقد فهمت. لم تعد تقاوم. قرر القدر مكانها. هي تعرف أن السنوات التي ستمر بعد ذلك لا تهم بالنسبة إليها، ستهرم على هذا النحو، في مصيدة، قرب رجل مُراعٍ لا تحبه. ذكرى محاولتها الهرب ستنمحي، شيئاً فشيئاً، مع الوقت.مكتبة الرمحي أحمد

اكتفت ستيفاني بإغلاق عينيها، المقاومة الوحيدة التي أصبحت قادرة عليها. في المذياع، آخر نغمات الغيتار من أغنية زمن الحب تذوب في آهات جاك المبحوحة.

تود ستيفاني أيضاً لو تغلق أذنيها.

بعد مؤشر قصير في الراديو، صوت منشط بشوش يقدم نشرة الغد. سيكون الجو صحواً، حرارة استثنائية بالنسبة إلى الموسم. عيد سعيد بالنسبة إلى كل من كان اسمها ديانا. ستشرق الشمس على الساعة الخامسة والتاسعة وأربعين دقيقة، أيضاً بعض الدقائق المكتسبة. غداً، سيكون التاسع يونيو سنة 1963.

لا يوجد حب سعيد...

عدا الذي تُعنى به ذاكرتنا.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وداعاً، إلى الأبد.

لورنس

انتفضت. سينتهي بي الأمر إلى أن أحترق تحت الشمس إن بقيت جامدة، على جانب طريق روي، غارقة في أفكاري، أفكار عجوز معتوهة.

يجب أن أتحرك. يجب أن أغلق الدائرة. لم يعد ينقص سوى كلمة «نهاية» التي يجب إبرازها في إطار هذه القصة.

إنها قصة رومانسية، لا؟ هل أعجبتكم النهاية السعيدة، أتمنى.

تزوجا، على الأقل، بقيا متزوجين، لم يكن عندهما أطفال.

عاش سعيداً.

ظننت أنها كذلك. نحن نتعود.

كان عندها الوقت... قرابة خمسين عاماً. من سنة 1963 إلى 2010، بالتحديد. زمن حياة، بكل بساطة...

قررت أن أمشي قليلاً، سرت بمحاذاة طريق روي إلى الطاحونة. اجتزت الجدول عبر الجسر وتوقفت أمام البوابة. لمحت على الحال أن المطبوعات الإعلانية الغبية الخاصة بتخفيضات السوق الكبير الأقرب، الذي لم أضع فيه قدمي أبداً، تطفح من العلبة. أرغدت. رميت الأوراق في القمامة في مدخل الفناء، حيث وضعتها عمداً. هي غير لا تفيض... أطلقت شتيمة فجأة.

وسط المطبوعات الإعلانية اندسَّ مظروف كاد يلقى المصير نفسه. مظروف باسمي، حجم صغير ورقي. قلبته وقرأت عنوان

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

المرسل: «الدكتور بيرجيه. 13 شارع بوربون بينتييفر. فيرنون».
الدكتور بيرجيه...

ذلك المستغل سيكون قادراً على أن يبعث لي فاتورة كي ينتزع مني بعض المصاريف الإضافية. أقيّم حجم المظروف. ما لم يكن يقدم لي تعازيه مع بعض التأخير.

بعد كل شيء، هو تقريباً آخر من رأى زوجي على قيد الحياة. كان ذلك... بالضبط منذ ثلاثة عشر يوماً.

مزقت أصابعي الخرقاء الغلاف. اكتشفت قطعة صغيرة من ورق مقوى رمادي فاتح يزينه صليب أسود في الزاوية الشمالية.

خربش بيرجيه بعض الكلمات، بالكاد مقروءة.

صديقتي العزيزة،

لقد علمت بكامل الأسى بخبر وفاة زوجك يوم الخامس عشر من شهر مايو سنة 2010. كما أعلنت لك قبل بضعة أيام، خلال زيارتي الأخيرة، هذه النهاية كانت للأسف حتمية. كان واضحاً أنكما تكوِّنان ثنائياً متيناً ومتّحداً. منذ الأبد. شيء نادر وثمين.

تعازي الحارة،

هيرفي بيرجيه

عصرت الورقة بعصبية بين أصابعي. رغماً عني، عدت بذاكرتي إلى آخر فحص. منذ ثلاثة عشر يوماً. دهر. حياة أخرى. من جديد، طفت حياتي الماضية.

كان ذلك في الثالث عشر مايو 2010، اليوم الذي انقلب فيه كل

شيء، اليوم الذي اعترف فيه رجل مسن على فراش الموت. فقط بعض الاعترافات قبل أن يموت...

استمر ذلك ساعة، بالكاد. ساعة لأستمع، ثم ثلاثة عشر يوماً لأتذكر.

قاومت الرغبة في تمزيق الورقة. قبل أن أتوه في متاهات ذاكرتي، حطت عيناي على الظرف.

قرأت العنوان. عنواني.

ستيفاني دوبان

مولان دو شونوفيير

طريق روي

27620 جيفرني

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

- اليوم الأول -

13 مايو 2010
(طاحونة شونوفيير)

وصية

- 82 -

أنتظر في صالون مولان دو شونوفيير. الطبيب في الغرفة المجاورة مع جاك. اتصلت به مذعورة، في حوالي الرابعة صباحاً، كان جاك يتلوى من الألم في الفراش، كأن قلبه قد أخذ يتباطأ مثل محرك من دون بنزين يسعل قبل أن يتوقف، كأن دمه سيتوقف عن الدوران. عندما أضأت مصباح الغرفة، كان ذراعاه أبيضان، تخططهما عروق بالأزرق الواضح. وصل الدكتور بيرجيه بضع لحظات من بعد. هو قادر، أنشأ عيادته في فيرنون، شارع بوربون بنتييفر، لكنه اشترى إحدى أجمل الفيلات على ضفاف السين، بالقرب من جيفرني تقريباً.

خرج الدكتور بيرجيه من الغرفة بعد نصف ساعة. أنا جالسة على أحد الكراسي. لا أفعل شيئاً، فقط أنتظر. الدكتور بيرجيه ليس من النوع الذي يختار كلماته. هو وغد قذر بنى شرفته وأنشأ مسبحه على ظهر كل عجزة الإقليم، لكن صراحته، على الأقل، ميزة لا يمكن أن نسحبها منه. لهذا أخذناه طبيب العائلة منذ سنوات. هو

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أو أحد آخر...

- إنها النهاية. لقد فهم جاك. هو يعرف أنه لم يتبقَّ له سوى بضعة أيام، على الأكثر. لقد أعطيته حقنة. ستتحسن حالته بعد بضع ساعات. لقد اتصلت بمستشفى فيرنون، لقد حجزوا غرفة، سيرسلون سيارة إسعاف.

أخذ حقيبته الجلدية، بدا متردداً:

- طلب أن يراك. أردت أن أعطيه شيئاً لينام، لكنه ألحَّ كي يتحدث معكِ...

لا بدَّ أني بدوت مندهشة. مندهشة أكثر مني مصدومة. اعتقد برجيه نفسه مضطراً إلى إضافة:

- وأنت، بخير؟ ستتحملين الصدمة؟ هل تودين أن أصف لك شيئاً؟

- لا بأس، شكراً.

لا أستعجل شيئاً الآن سوى أن يخرج. ألقى نظرة أخرى عبر الغرفة المظلمة، ثم وضع رجلاً في الخارج. استدار مرة أخيرة بهيئة متأثرة. بدا صادقاً تقريباً. ربما كان فقدان زبون شيء لا يضحكه.

- أنا متأسف. تشجعي ستيفاني.

مشيت ببطء نحو غرفة جاك، دون أن أتخيل لحظة ما ينتظرني: اعتراف زوجي. الحقيقة، بعد كل هذه السنوات.

الحكاية كانت بسيطة جداً في الواقع.

قاتل واحد، دافع واحد، مكان واحد، حفنة صغيرة من الشهود.

ضرب القاتل مرتين، سنة 1937 وسنة 1963. هدفه الوحيد كان

هو الحفاظ على ملكه، كنزه: حياة امرأة، من ولادتها إلى وفاتها.

حياتي.

مجرم واحد. جاك.

قدّم لي جاك كل الإيضاحات. لم يُنقص شيء. هذه الأيام الأخيرة، قفزت ذكرياتي من مرحلة إلى أخرى من حياتي، مثل مِشكال غير مفهوم... مع ذلك، كل تفصيل من تلك التفاصيل لم يكن سوى جزء في شرك محدد، قدر قام وحش بتوجيهه بعناية.

حدث ذلك منذ ثلاثة عشر يوماً.

ذلك الصباح، دفعت باب غرفة جاك دون أن أعرف أني سأغلقها على ظلال قدري.

نهائياً.

- اقتربي، ستيفاني، اقتربي من السرير.

دسَّ الدكتور برجيه وسادتين كبيرتين تحت ظهر جاك. هو جالس أكثر منه راقد. الدم الذي صعد إلى وجنتيه يتناقض مع شحوب ذراعيه.

- اقتربي، ستيفاني. أفترض أن برجيه قال لك إننا سنضطر إلى أن نفترق... قريباً. يجب... يجب أن أخبرك... يجب أن أحدّثك، طالما عندي القوة. طلبت من برجيه أن يعطيني شيئاً يمكّنني من تحمل الأمر إلى حين وصول سيارة الإسعاف...

جلستُ على طرف السرير. مدّ يداً مجعدة على طول طيات الفراش. حلّق زغب ذراعه على حوالي عشرة سنتمترات حول ضمادة غليظة بنية. أمسكت يده.

- ستيفاني، يوجد في المرأب، في السرداب، مجموعة من

الأشياء لم نلمسها منذ سنوات. أغراض الصيد مثلاً، سترات قديمة، كيس، خرطوش مبلل، حذائي طويل الرقبة أيضاً. أشياء قديمة مهترئة. سترفعينها. ستجرّينها. بعد ذلك، ستبعدين بواسطة قدمك الحصى التي على الأرض. بالضبط تحته، سترين، يوجد باب أرضي، فراغ من أجل المواسير، شيء من هذا القبيل. لا يمكن أن نراه إن لم نزح كل ما يوجد فوقه. سترفعين الباب، لا يمكن أن تخطئيه. في الداخل، ستجدين صندوقاً صغيراً، صندوقاً من الألمنيوم بحجم علبة أحذية. ستأتين لي به، ستيفاني.

ضغط جاك على يدي بقوة، ثم أطلقها. لم أفهم كل شيء لكنني نهضت. وجدت ذلك غريباً، لم تكن الأسرار والألغاز من طبع جاك. تساءلت إن لم يكن الدكتور برجيه قد ذهب بعيداً بأدويته.

عدت، بعد بضع دقائق. كل تعليمات زوجي كانت صحيحة. وجدت صندوق الألمنيوم الصغير. المفاصل صدئة.

وضعت الصندوق على السرير.

- إنه... إنه مغلق بقفل. قلت له.

- أعرف... أعرف. شكراً. ستيفاني، يجب أن أطرح عليك سؤالاً. سؤالاً مهماً. أنا لست موهوباً في الحديث، أنت تعرفينني، لكن يجب أن تخبريني. ستيفاني، كل هذه السنوات، هل كنت سعيدة بجانبي؟

بماذا تريدون أن تجيبوا عن هذا؟ بماذا تريدون أن تجيبوا رجلاً ليس أمامه سوى بضعة أيام ليعيشها؟ رجل شاركتموه الحياة أكثر من خمسين سنة، ستين ربما؟ بماذا تريدون أن تجيبوا إن لم يكن

«أجل... أجل جاك، بطبيعة الحال، جاك، كنت سعيدة طوال تلك السنوات... بجانبك»؟

لم يبدُ أن ذلك يكفيه.

- الآن، ستيفاني، نحن في نهاية الطريق. يمكن أن نقول لبعضنا كل شيء. هل... كيف سأقول ذلك... تحسين بندم؟ هل تعتقدين أن حياتك كانت لتكون أفضل لو مرّت بشكل آخر... في مكان آخر... مع...

تردد، جلى حلقه.

- مع شخص آخر؟

عندي انطباع أن جاك قد صاغ وأعاد صياغة هذه الأسئلة في رأسه مئات المرات، طوال سنوات، وأنه فقط انتظر اللحظة المناسبة، اليوم المناسب، كي يطرحها. ليس أنا... ليس لأني لم أطرح على نفسي هذه الأسئلة، إلهي، آه لا لكنني امرأة عجوز، الآن. لم أهيئ نفسي لهذا، وأنا أستيقظ، هذا الصباح. الضباب ينجلي ببطء، الآن، في عقلي المتعب. أنا أيضاً خبّأت بصبر هذا النوع من الأسئلة في صندوق وأرغمت نفسي على ألا أفتحه أبداً. أضعت المفتاح. يجب أن أبحث... ذلك جد بعيد.

أجبت:

- لا أعرف، لا أعرف، جاك. أنا لا أفهم ما تريد قوله...

- بلى، ستيفاني. بطبيعة الحال أنت تفهمين... ستيفاني، يجب أن تجيبي، هذا مهم، هل كنت لتفضلي حياة أخرى؟

ابتسم لي جاك. دم وردي يلوِّن الآن وجهه، إلى الجزء العلوي من ذراعيه. فعّالة، حبوب برجيه... وليس فقط بالنسبة إلى سريان

الدم... خلال خمسين عاماً، لم يطرح جاك علي أبداً هذا النوع من الأسئلة. هذا لا يشبه شيئاً. لا يشبهه هو ولا أي أحد. هل هي طريقة ينهي بها المرء حياته؟ في عمر يتجاوز الثمانين، سؤال الطرف الآخر، الطرف الباقي، إن كانت حياتها صالحة لترمى في القمامة؟ من يستطيع أن يرد «أجل» على شريكه الذي يحتضر، حتى لو كان يعتقد ذلك، خاصة إن كان يعتقد ذلك. أحسست بالفخ، دون أن أعرف بعد لماذا. أحسست بأن كل ذلك الإخراج المسرحي تفوح منه رائحة الفخ.

- أية حياة أخرى، جاك؟ عن أي حياة أخرى تتحدث؟

- أنت لم تجيبي، ستيفاني... هل كنت لتفضلي...

بدا تقاطر السم واضحاً، مثل عطر بعيد أتذكره، رائحة مزعجة مألوفة تبخّرت من زمن بعيد، لكنها لم تُنسَ أبداً. ليس أمامي من خيار سوى أن أجيب، بحنان ممرضة:

- لقد حصلت علي الحياة التي اخترتها، جاك، إن كان هذا ما تود سماعه. تلك التي أستحقها. بفضلك أنت، جاك. بفضلك أنت.

تنهّد جاك كما لو أن القديس بطرس بنفسه أعلن له أن اسمه يوجد على قائمة من سيدخل الجنة. كما لو أنه الآن يمكن أن يذهب مرتاحاً. هو يقلقني. تحركت يده وأخذت تبحث فوق الطاولة قرب السرير عن شيء لا أعرفه. اصطدمت بالكأس، سقط الكأس على الأرض وانكسر. سال خيط رفيع من الماء على الأرضية.

انتصبت كي أمسح، أن أجمع قطع الكأس المتناثرة، عندما ارتفعت يده مرة أخرى.

- انتظري، ستيفاني. كأس مكسور، ليس شيئاً خطيراً. ساعديني،

انظري في حافظة نقودي على الطاولة...

تقدمتُ. كزّ الزجاج تحت نعلي.

- افتحيه، واصل جاك. قرب بطاقة الضمان الاجتماعي، توجد صورتك، ستيفاني هل ترينها؟ مرري أصبعك فوق الصورة...

مرَّ دهر منذ لم أفتح حافظة جاك. انفجرت صورتي في وجهي. لا بدَّ أن الصورة قد التقطت على الأقل منذ أربعين سنة. هل هي فعلاً أنا؟ هل فعلاً هاتان العينان البنفسجيتان تنتميان إلي؟ هذه الابتسامة على شكل قلب؟ هذه البشرة اللؤلؤية تحت شمس يوم جميل في جيفرني؟ هل نسيت إلى أي حدٍّ كنت جميلة؟ هل يجب أن أنتظر حتى أصبح عجوزاً في الثمانين كي أجرؤ على الاعتراف بذلك؟

أدخلتُ سبابتي تحت الصورة. أخرجت مفتاحاً صغيراً مسطحاً.

- أنا مطمئن الآن، ستيفاني. أستطيع أن أموت بسلام. أستطيع أن أخبرك بذلك الآن، لقد شككت، لقد شككت. فعلت ما استطعته، ستيفاني. يمكن أن تفتحي قفل الصندوق بالمفتاح، هذا المفتاح الذي لم يفارقني طوال هذه السنوات. ستفهمين، على ما أظن. لكني أتمنى أن أصمد حتى أخبرك ذلك بنفسي.

أخذت أصابعي ترتعش أكثر من أصابع جاك. انتابني إحساس فظيع. صعب علي إدخال المفتاح في القفل وإدارته. استغرقت عدة ثوانٍ قبل أن يسقط القفل والمفتاح على غطاء السرير. أعاد جاك وضع يده بلطف على ذراعي، كأنه يعني لي أن علي أن أنتظر قليلاً.

- كنت تستحقين ملاكاً حارساً، ستيفاني. تصادف أنه أنا، حاولت أن أقوم بعملي على أحسن وجه. لم يكن الأمر دوماً سهلاً،

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

صدقيني. أحياناً خشيت ألا أتمكن من ذلك... لكنك ترين، في نهاية المطاف... لقد طمأنتني. لم أفشل. تتذكرين، ستيفـ...

انغلقت عينا جاك لحظة طويلة...

- فانيت... بعد كل هذه السنوات، تقبلين أن أناديك فانيت؟ لم أجرؤ أبداً، منذ أكثر من سبعين سنة... منذ سنة 1937. أترين، أتذكر كل شيء، كنت ملاكاً حارساً مطيعاً، وفياً، منظَّماً.

لم أجب بشيء. شعرت بصعوبة في التنفس. لا أشعر سوى برغبة واحدة، أن أفتح صندوق الألمنيوم، أتحقق من أنه خاوٍ، أن كل مونولوج جاك ليس سوى هذياناً سببته مخدرات برجيه.

- لقد ولدنا نحن الاثنان في السنة نفسها، واصل جاك بالنبرة نفسها، سنة 1926. أنت، فانيت، في الرابع من يونيو، ستة أشهر قبل وفاة كلود مونيه. كأن ذلك صدفة. أنا في السابع، ثلاثة أيام بعد ذلك. أنت في شارع شاتو-دو، أنا في شارع لوكومبييه، بفارق بعض البيوت. لقد عرفت دوماً أن قدرينا مرتبطان. أني كنت هنا، على الأرض، كي أسهر على حمايتك. من أجل، كيف سأعبِّر عن ذلك، من أجل أن أبعد الأغصان من حولك، عن طريقك...

إبعاد الأغصان؟ يا إلهي، هذه الصور لا تشبه جاك. أنا التي سأجن. لم أعد أحتمل، فتحت الصندوق. سقط من بين يدي في الحال، كأن الألمنيوم كان ساخناً حتى ابيضّ. تناثر محتواه على السرير. انفجر الماضي في وجهي.

نظرت مذهولة إلى ثلاثة سكاكين من سكاكين الرسم، وينسر آند نيوتن، تعرفت إلى التنين ذي الأجنحة على المقبض، بين بقعتين

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

حمراوين جففهما الزمن. انزلقت عيناي، حطتا على ديوان شعر. بالفرنسية في النص، للويس أراغون. نسختي لم تغادر مكتبة غرفتي. كيف كنت لأتصور أن جاك يملك نسخة أخرى؟ نسخة أخرى من الكتاب الذي غالباً ما تلوته على أطفال مدرسة جيفرني، في الصفحة 146، قصيدة «نامفي». تمسكت بالكتاب كأنه توراة، تراقصت الصفحات، توقفت عند الصفحة 146. الصفحة معلّمة. هبطت عيناي إلى أسفل الورقة. تمَّ تقطيعها. بعناية، قطعَ أحد ما الورقة بعناية، فقط سنتمتر واحد، سطر واحد ناقص، البيت الأول من المقطع الثاني عشر، بيت تمَّ ترديده كثيراً...

جريمة أن نحب أقبل أن نُقرّها.

لم أفهم، لا أفهم شيئاً. لا أريد أن أفهم. أرفض محاولة ترتيب كل هذه العناصر.

جمّدني صوت جاك الخالي من أية نبرة:

- هل تتذكرين ألبرت روزالبا؟ أجل، بطبيعة الحال، تتذكرينه. كنا دائماً معاً نحن الثلاثة عندما كنا صغاراً. كنت تطلقين علينا أسماء فنانين، الفنانين الانطباعيين المفضلين لديك. هو كان بول وأنا فينسنت

تشبّثت يد جاك بالغطاء. حدقت عيناي الممغنطتان في سكاكين الرسم.

- لقد... لقد كان حادثاً. كان يريد حمل لوحتك إلى المدرسة، لوحتك «النيلوفر»، فانيت، اللوحة في المخزن، اللوحة التي رفضت

رميها أبداً. أما زلت تتذكرينها؟ لكن هذا ليس هو الأهم، بول، ألبرت انزلق. تعاركنا قبلها، فعلاً، لكنه كان حادثا، لقد انزلق قرب المغسل، ارتطم رأسه بالحجر. لم أكن لأقتله، فانيت، لم أكن لأقتل بول، حتى لو كان له تأثير سيئ عليك، حتى لو لم يكن يحبّك بحق. لقد انزلق... كل هذا بسبب الرسم. لقد فهمت ذلك جيداً، لقد فهمت ذلك جيداً من بعد.

انغلقت أصابعي على مقبض سكين رسم. نصله عريض، يُستَعمل في تقشير لوحة الألوان. لم ألمس أبداً فرشاة، ولا مرة منذ سنة 1937. هذا جزء من الذكريات المخبأة التي تظهر في الحفرة الكبيرة التي تنفتح في رأسي. أضغط على المقبض. عندي انطباع أن لا صوت يمكن أن يخرج من فمي:

- و... وجيمس...

صوتي ضعيف، كأنه صوت فتاة في الحادية عشر.

- ذلك العجوز الأحمق؟ الرسام الأميركي؟ تتحدثين عنه، فانيت؟

إن كنت قد أجبت بكلمة فهي غير مسموعة.

- جيمس... واصل جاك. جيمس، هذا هو. حاولت خلال سنوات أن أتذكر هذا الاسم، لكن مستحيل، كان يفلت مني. حتى أني فكرت أن أسألك...

هزت ضحكة جاك. انزلق قليلاً تحت الوسائد.

- كنت أمزح، فانيت. أعرف جيداً أنه كان علي أن أدعك بعيدة عن هذه الأمور. ألا تعلمي بها. ملاك حارس، يجب أن يبقى خفياً، أليس صحيحاً؟ إلى النهاية. إنه أول مبدأ يجب احترامه... بالنسبة

إلى جيمس، ليس عليك أن تتأسفي عليه. ربما تتذكرين، كان يقول لك إن عليك أن تكوني أنانية، أن تغادري أسرتك. كل الناس. أن تسافري. كان يجعلك حمقاء، في تلك المرحلة، كنت لا تزالين قابلة للتأثر، لم تكوني قد بلغت الحادية عشر، كان سيصل إلى مبتغاه... في البداية هددته، نقشت رسالة في علبة الصباغة، بينما كان نائماً، كان ينام تقريباً طوال اليوم، مثل شرنقة كبيرة، لكنه لم يرتدع. كان يواصل تعذيبك. طوكيو، لندن، نيويورك. لم يكن أمامي خيار، فانيت، كنت ستذهبين، في تلك الفترة لم تكوني تستمعين إلى أحد، ولا حتى إلى والدتك. لم يكن عندي خيار، كان علي أن أنقذك...

انفتحت أصابعي. لم تتوقف ذكرياتي عن القفز عبر الصدع المرعب. ذلك السكين. ذلك السكين على السرير. ذلك السكين الأحمر. إنه سكين جيمس.

غرزه جاك في قلب جيمس. كان عمره إحدى عشرة سنة...

واصل اعترافه الفظيع:

- لم أكن قد تكهنت أن يجد نبتون جسد ذلك الرسام الضائع في حقل القمح. نقلت الجثة قبل أن تعودي رفقة والدتك. فقط بضعة أمتار على ما أظن، كان ذلك منذ زمن بعيد. تعرفين، لقد اعتقدت أني لن أتمكن من ذلك، لم أتصور أبداً أن ذلك العجوز النحيف سيكون بذلك الثقل. لن تصدقيني، لكنك رفقة والدتك مررتما قريباً جداً مني. كان يكفي أن تديري رأسك. لكنك لم تفعلي ذلك. أظن أنك في الحقيقة لم تكوني ترغبين في أن تعلمي. لم تريني، ولا والدتك. كانت معجزة، تفهمين. إشارة! بدءاً من ذلك اليوم، فهمت أن لا شيء يمكن أن يحدث لي، وأن مهمتي يجب أن تتم. في الليلة الموالية،

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

دفنتُ الجثة وسط المرج. عمل مجنون بالنسبة إلى طفل، يجب أن تصدقيني. بعد ذلك، أحرقت كل ما تبقى شيئاً فشيئاً، أحرقت حاملات القماشات واللوحات. لم أحتفظ سوى بعلبة الصباغة، كدليل، كدليل على ما كنت قادراً على فعله من أجلك. هل تدركين ذلك، فانيت، لم أكن قد أكملت الحادية عشر! لقد كان في المستوى، ملاكك الحارس، هيه، تدركين ذلك؟

لم يترك لي جاك الوقت لأجيب. حاول بيأس أن يسند ظهره إلى الوسائد، لكنه واصل الانزلاق، مليمتراً بعد مليمتر.

- أنا أمزح، فانيت. لم يكن الأمر صعباً، في الواقع، حتى بالنسبة إلى طفل.

كان جيمس عجوزاً عاجزاً. أجنبياً. أميركياً أفلت مونيه بعشر سنوات. متشرداً لا يهتم لأمره أحد. سنة 1937، كان للناس هموم أخرى. بالإضافة إلى أنه قبل بضعة أيام، كان قد تمَّ العثور على عامل إسباني مقتول على أحد القوارب، بالضبط قبالة جيفرني. كان رجال الدرك جميعهم مهتمين بالقضية، لم يلقوا القبض على القاتل، بحري في كونفلان. سوى بعد بضعة أسابيع.

بحثت يد جاك المجعدة على يدي. انغلقت في الفراغ.

- هذا يريحني أن أتحدث عن كل هذه الأشياء، فانيت، تعرفين. بعد ذلك عشنا بخير نحن الاثنان. لسنوات... تتذكرين. لقد كبرنا معاً، افترقنا فقط عندما كنتِ في مدرسة تكوين المعلمين في إيفرو، ثم عدت مدرِّسة في جيفرني. مدرستنا! تزوجنا في كنيسة سانت-رادوغوند، سنة 1953. كل شيء كان مثالياً. بقي ملاكك الحارس من دون شيء ليفعله.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

انفجر جاك مرة أخرى بالضحك. ذلك الضحك الذي أسمعه يرن في بيتنا تقريباً كل يوم، أمام برنامج تلفزيوني أو خلف صحيفة. ضحك من القلب. كيف لم أدرك أنه ضحك وحش؟

- لكن الشيطان لا ينام... هيه، ستيفاني؟ كان يجب أن يعود جيروم مورفال كي يحوم حولك. هل تتذكرين؟ جيروم مورفال، صديقنا في الفصل في المدرسة الابتدائية، الولد الذي كنت تطلقين عليه كاميل، كاميل السمين... الأول في الفصل! المدّعي. هذا واحد لم تكوني تحبينه في الفصل، فانيت، لكنه كان قد تغيّر. مع الوقت، استطاع أن يجر إلى سريره باتريسيا، ناقلة الأخبار. الفتاة التي كنت تطلقين عليها ماري، مثل ماري كاسات... لكن بعد وقت قليل، باتريسيا لم تعد تكفيه، كاميل السمين. كان قد تغيّر، هذا أكيد. المال يغيّر الرجال. كان قد اشترى أجمل بيت في جيفرني، أصبح متعجرفاً، جذاباً، حتى في أعين بعض الفتيات... على كل، هو كان يخون زوجته دون أن يخفي ذلك. الكل كان يعلم في جيفرني، بما في ذلك باتريسيا التي وصل بها الأمر إلى أن وكّلت تحرياً خاصاً كي يتجسس عليه. مسكينة باتريسيا! ومع كل ذلك، كان مورفال يتقن الحديث عن الرسم وعن أمواله وعن مجموعاته للفنانين المعاصرين. لكن بالأخص، ستيفاني، اسمعيني، جيروم مورفال، أفضل جراح عيون في باريس بحسب ما يُقال، عاد إلى جيفرني من أجل شيء، شيء واحد. ليس من أجل مونيه أو «النيلوفر»، لا كان قد عاد من أجل فانيت الجميلة، تلك التي لم ترفع عينيها نحوه طوال سنوات المدرسة الابتدائية. الآن بعد أن دارت العجلة، كان كاميل السمين يريد أن ينتقم...

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

انحبست الكلمات في حلقه.

- أنت... أنت...

- أعرف جيداً، ستيفاني أنك لم تكوني منجذبة نحو جيروم مورفال... ليس بعد على الأقل. كان يجب أن أتصرف قبل أن يحصل ذلك. كان جيروم مورفال يسكن في القرية، كان أمامه كل الوقت، كان ماكراً، كان يعرف كيف يجذبك، منذ المدرسة، بـ«النيلوفر»، ذكريات مونيه، المشاهد...

مرة أخرى، بحث ذلك الوحش عن يدي. زحفت مثل بق على الأغطية. قاومت الرغبة في أن أمسك سكين الرسم وأطعنه، مثل حشرة ضارة.

- أنا لا ألومك على شيء، ستيفاني. أعرف أنه لم يحدث شيء بينك وبين مورفال. أنت بالكاد قبلت القيام بنزهة معه. لكنه كان سيفتنك، ستيفاني، مع الوقت، كان سيتوصل إلى ذلك. أنا لست شريراً، ستيفاني. لم تكن عندي أدنى رغبة في قتل جيروم مورفال، ذلك السمين كاميل. كنت صبوراً، أكثر من صبور. حاولت أن أفهمه، بأوضح ما يمكن، عمّا كنت قادراً على فعله، عن المجازفة التي يقوم بها لو استمر يحوم حولك. في البداية أرسلت إليه تلك البطاقة البريدية، بطاقة «النيلوفر». لم يكن مورفال غبياً، كان يتذكر أنها البطاقة التي عهد بها لي من أجلك قبل سنوات، في 1937، في حدائق مونيه، في يوم عيد ميلادك الحادي عشر، بالضبط بعد وفاة ألبرت. وألصقت على البطاقة تلك الجملة لأراغون التي قطعتها من الكتاب، ذلك الشعر الذي كنت تدرّسينه لأطفال الفصل، تلك الجملة التي كنت أحبها كثيراً، التي تقول شيئاً مثل «الحلم جريمة يجب معاقبتها

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مثل باقي الجرائم». لم يكن مورفال غبياً. كانت الرسالة واضحة: كل من حاول الاقتراب منك، إيذاءك، يعرِّض نفسه للخطر...

بحثت يد جاك بطرف الأصابع عن ديوان أراغون الموضوع على السرير. لمست الكتاب لكنها لا تملك القوة لترفعه. لم أقم بأية حركة. سعل جاك من جديد كي يجلي صوته وواصل:

- خمني، ستيفاني، ماذا كان جواب جيروم مورفال؟ ضحك في وجهي! كان بوسعي أن أقتله حينئذٍ، لو أردت. لكني كنت أحبه فعلاً، في الواقع. منحته فرصة أخرى. أرسلت إلى عيادته الباريسية علبة الرسم، علبة جيمس، العلبة التي كنت قد نقشت عليها التهديد: **هي لي هنا، الآن، وإلى الأبد**. متبوعة بصليب! إذا كان مورفال لم يفهم هذه المرة... ضرب لي موعداً، ذلك الصباح، أمام المغسل، قرب مولان دو شونوفيير. كنت أعتقد أنه يريد أن يخبرني عن تخليه عن الأمر. حدث العكس. رمى أمام عيني علبة الصباغة وسط الغدير، في الوحل. كان يحتقرك، ستيفاني، لم يكن يحبك، لم تكوني بالنسبة إليه سوى جائزة إضافية. كان سيجعلك تعانين، ستيفاني، كان سيقودك إلى الضياع... ماذا كنت أستطيع أن أفعل؟ كان علي أن أحميك... لم يكن يأخذني على محمل الجد، قال إنه لم يكن لي وزن، في حذائي عالي الرقبة الخاص بالقنص، وأني لم أكن قادراً على إسعادك، وأنك لم تحبيني أبداً. دائماً الكلام المعسول نفسه.

زحفت يده من جديد وتشنّجت على السكين:

- لم يكن لي خيار، ستيفاني، لقد قتلته هناك، بسكين الرسم الخاص بجيمس الذي كنت قد حرصت على حمله. مات هناك على حافة الغدير، في نفس المكان الذي مات فيه ألبرت عدة سنوات من

قبل. الإخراج المسرحي بعد ذلك، الحجر على جمجمته، الرأس في ماء الغدير، أعرف أن ذلك كان سخيفاً. حتى أني اعتقدت أنه بسبب ذلك يمكن أن تشكّي في شيء، خاصة عندما أخرَجَ رجال الشرطة علبة جيمس من الغدير. من حسن الحظ أنك لم تري تلك العلبة أبداً... كان من المهم أن أحرص على حمايتك دون أن تعرفي شيئاً. أن أخاطر بكل شيء من أجلك... كنت تثقين بي، وكنت على حق. يمكن أن تعترفي بذلك الآن، فانيت، أنك لم تشكي أبداً إلى أي درجة أحبك، وأنك لم تقدري أبداً إلى أي مدى يمكن أن أذهب من أجلك. تذكري بضعة أيام بعد مقتل مورفال، ذهبت إلى الشرطة وأخبرتِهم أننا كنا معاً في السرير، ذلك الصباح... بلا شكّ أن في مكان ما في داخلك، كنت تعرفين الحقيقة، لكنك لا تريدين الاعتراف بها. جميعاً نشك بوجود ملاك حارس يسهر علينا، هيه؟ لا حاجة إلى تقديم الشكر له...

راقبتُ، مرعوبة، أصابع جاك المجعدة وهي تداعب مقبض السكين. هوس شيطاني، كأن جسده العجوز ما زال يرتعش من متعة طعن شخصين بالسلاح نفسه. لم أستطع أن أقاوم، لم أعد أستطيع أن أتحمل. انفجرت الكلمات في حلقي:

- كنت... كنت أريد أن أهجرك جاك. لذا أدليت بشهادة مزورة. كنتَ في السجن. كنتُ... كنتُ أحس بالذنب...

التوت الأصابع على السكين. أصابع قاتل. مجنون. ببطء لا يحتمل، انفتحت الأصابع. انزلق جاك مرة أخرى، هو تقريباً مضطجع. هزّته ضحكة من القلب... تلك الضحكة الشيطانية.

- بطبيعة الحال، ستيفاني. كنت تحسين بالذنب... بطبيعة الحال، كل شيء كان مختلطاً في رأسك. ليس في رأسي. لا أحد يعرفك أفضل

مني. بعد أن مات مورفال، كنت أظن أننا سنكون بخير. لا أحد ليفرِّق بيننا، ستيفاني، لا أحد كي يبعدك عني. ثم، الأمر الذي ما بعده أمر. أجده تقريباً هزلياً، عندما أفكر فيه اليوم. ها هي الجثة تجر إليك ذلك الشرطي، لورنس سيريناك، الأسوأ من بين كل الأخطار! كنت عالقاً. كيف يمكنني أن أتخلص منه؟ كيف يمكن أن أقتله دون أن أتهم، دون أن أعتقل، دون أن أفترق عنك، نهائياً؟ وبعد ذلك سيأتي سيريناك آخر أو مورفال آخر، ليجعلك تعانين دون أن أستطيع أن أحميك، وأنا محبوس في زنزانتي؟ منذ البداية، شك في ذلك الشرطي، كأنه يقرأ في... كان يتبع حدسه. كان شرطياً جيداً، لقد خفنا، ستيفاني. من حسن الحظ أنه لم يستطع أبداً أن يكتشف العلاقة بيني وبين حادثة ذلك الطفل في فصلنا، سنة 1937، وأنه لم يسمع باختفاء ذلك الرسام الأميركي... لقد اقتربا من الحقيقة، في تلك الفترة، سنة 1963، هو ومساعده، بينافيدس... لكن لم يكن بإمكانهما أن يتخيلا، بطبيعة الحال. من كان يستطيع أن يفهم؟ في انتظار ذلك، كان الوغد سيريناك يشك بي، كان يدير رأسك. كان هو أو أنا. فكرت في المشكل من جميع النواحي...

خفية، اندست يدي تحت اللحاف. جاك مضطجع الآن، هو لا يستطيع أن ينهض، هو لا يستطيع أن يراني، يتحدث إلى السقف. انغلقت يدي مرة أخرى على السكين. أحس بمتعة سقيمة لملمسه. كأن الدم الجاف على المقبض يدخل في عروقي، يملؤها بدفع قاتل.

انتهت ضحكة جاك في سعال مبحوح. يجد صعوبة في استرجاع نفسه. سيكون أفضل لو كان جالساً، هذا أكيد. جاك لا يطلب شيئاً، مع ذلك. ضعف صوته قليلاً، لكنه واصل:

- لقد انتهيت تقريباً، ستيفاني. كان سيريناك مثل الآخرين،

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

في النهاية. بعض التهديدات كانت كافية لتجعله يهرب... بعض التهديدات مصورة بفعالية.

هو يواصل الضحك، أو السعال، الاثنان. أقرِّبُ السكين ببطء من طيات ثوبي الأسود.

- الرجال ضعاف جداً، ستيفاني... كلهم. فضّل سيريناك وظيفته في الشرطة على شغفه الكبير بك. لن نشتكي، أليس كذلك، ستيفاني؟ ذلك ما كنا نبغيه، لا؟ سيريناك كان على حق في النهاية. من يدري ماذا كان سيقع لو عاند... كان آخر ظل بيننا، ستيفاني، آخر سحابة، آخر غصن لإزاحته... مرت أكثر من أربعين سنة الآن...

أغلقتُ ذراعي المتشابكتين على صدري؛ سكين الرسم ملتصق بقلبي. أود أن أتحدث، أود أن أصرخ: «جاك، قل لي، قل لي، ملاكي، بما أنك تدّعي أنك كذلك، هل من السهل أن نطعن شخص ما؟ أن نغرز السكين في قلب رجل ما؟».

- على ماذا تقوم الحياة؟ لو لم أكن موجوداً في اللحظة المناسبة، لو لم أبعد العراقيل، واحداً تلو الآخر. لو لم أعرف أن أحميك... لو لم أولد، بعد، مثل أخ توأم. لو لم أفهم مهمتي... أغادر هذه الأرض سعيداً، ستيفاني، لقد نجحت، لقد أحببتك كثيراً، لديك الدليل، الآن.

نهضتُ. مرعوبة. أمسكُ السكين بين ذراعي، غير مرئي مضموم إلى صدري. نظر إلي جاك، يبدو منهكاً، كما لو كان يجد مشقة في فتح عينيه. يحاول أن ينهض، يحرك قدميه. صندوق الألمنيوم الذي كان على السرير يسقط على الأرض في ضجيج أصم. بالكاد رمش جاك. على العكس، الضجيج الحاد يرن في رأسي، مثل صدى ينتشر في دوار. أحس أن الغرفة تدور من حولي.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أتقدم بمشقة. ساقاي ترفضان حملي. أرغمهما، أطلق ذراعي. جاك يواصل التحديق في. لم يرَ السكين بعد. ليس بعد. أرفعه ببطء.

ينبح نبتون في الخارج، مباشرة تحت نافذتنا. في اللحظة التالية، تجتاز سيارة إسعاف فناء الطاحونة. تكزُّ عجلات على الحصى. يمرُّ خيالان غير واقعيَين، في شعاع الضوء، يمران أمام النافذة ويطرقان الباب.

أخذوا جاك، وقعّت العديد من الأوراق دون أن أقرأها، دون أن أطلب أي شيء. لم تكن الساعة السادسة بعد. سألوني عمَّ إن كنت أرغب في الصعود إلى سيارة الإسعاف، أجبت لا، وأني سأستقل الحافلة، أو التاكسي، في بضع ساعات. لم يصدر الممرضان أي تعليق.

صندوق الألمنيوم مرمي على الأرض، مفتوح. سكين الرسم موضوع على طاولة الليل. كتاب أراغون تائه بين طيات السرير. لا أدري لماذا، بعد ذهاب سيارة الإسعاف، أول شيء حضر إلى ذهني كان هو أن أصعد إلى المخزن وأبحث في الركام كي أجد هذه اللوحة القديمة التي تراكم عليها الغبار، لوحة «النيلوفر» خاصتي، تلك التي رسمتها عندما كان عمري إحدى عشر سنة.

تلك التي رسمتها مرتين، في البداية في ألوان رائعة، كي أفوز بمباراة مؤسسة روبنسون، بعد ذلك بالأسود، بعد وفاة بول.

أزلت من الحائط بندقية جاك وعلقت لوحتي في مكانها، على المسمار نفسه، في ركن لا يستطيع أحد غيري أن يراها.

خرجت. يجب أن أستنشق الهواء. اصطحبت معي نبتون. الساعة بالكاد السادسة صباحاً. لبضع ساعات، جيفرني لا تزال مقفرة. سأذهب لأسير بمحاذاة الجدول، أمام الطاحونة.

وأتذكر.

- اليوم الثالث عشر -

25 مايو 2010
(طريق روي)

سير

- 83 -

حدث ذلك منذ ثلاثة عشر يوماً، يوم الثالث عشر مايو. منذ ذلك الوقت، أمضيت أيامي أعيش مرة أخرى تلك الساعات التي سرقت فيها حياتي، أعيد تمرير الشريط كي أحاول أن أفهم ما لا يمكن تصوره، مرة أخيرة، قبل أن أنهي كل شيء.

لكثرة ما تجولت وحدي في هذه القرية، لا بدَّ أنكم اعتبرتموني طيفاً. لكنه العكس في الواقع.

أنا حقيقية.

الآخرون هم الأطياف، أطياف ذكرياتي. أسكنت أطيافي هذه الأماكن التي عشت بها دوماً، أمام كل مكان مررت منه، تذكرت: الطاحونة، المرج، المدرسة، شارع كلود مونيه، شرفة فندق بودي، المقبرة، متحف فيرنون، جزيرة القراص...

أسكنتها أيضاً بمحادثات طويلة أجريتها مع سيلفيو بينافيدس، بين سنتي 1963 و1964، بعد أن تمَّ حفظ التحقيق حول مقتل جيروم مورفال. تمسّك المفتش بينافيدس، بعناد، لكنه لم يكتشف أبداً أقل

دليل، أقل إشارة جديدة. تصادقنا. على الأقل، لم يكن جاك غيوراً من علاقتي بهذا المفتش. كان سيلفيو زوجاً وفياً وأباً مهتماً بصغيرته كارينا التي استعصى عليها الخروج من بطن والدتها. أخبرني سيلفيو بكل تفاصيل التحقيق الذي أجراه رفقة لورنس، في مفوضية فيرنون، في كوشريل، في متحفَي روين وفيرنون... ثم نقل، وسط السبعينيات، سيلفيو إلى لا روشيل. منذ حوالي أكثر من عشر سنوات، في سبتمبر 1999 كي أكون دقيقة، أترون إلى أي درجة تشتغل ذاكرتي تماماً، تلقيت رسالة من بياتريس بينافيدس. رسالة خطية قصيرة. كانت تخبرني بحياء أن سيلفيو بينافيدس قد غادرهم، هي وكارينا، ذات صباح، أخذته ذبحة. مثل كل يوم، كان سيلفيو قد امتطى دراجته كي يقوم بدورة في جزيرة أوليرون حيث كان يستأجر مع عائلته كوخاً خلال أواخر السنة. انطلق مبتسماً. كان الوقت رائعاً، قليل من الريح. انهار أمام المحيط، وسط منبسط خادع، بين لا بري لي بان وسان دوني دو ليرون. كان سيلفيو في الواحدة والسبعين.

هذا ما يعنيه أن نهرم: أن نشهد موت الآخرين.

منذ بضعة أيام، كتبت رسالة موجزة لبياتريس، أشرح لها. نوع من الواجب تجاه ذكرى سيلفيو. لم يكن لمؤسسة روبنسون الفاحشة الثراء دخل في هذه الجرائم، ولا إتجار أمادو في الفن، ولا لوحات مونيه المنسية، ولا عشيقات مورفال. لورنس سيريناك كان على حقّ منذ البداية: كان الأمر يتعلق بجريمة عاطفية. وحده تفصيل لا يمكن تصوره منعه من اكتشاف الحقيقة: لم يكتفِ المجرم الغيور بتصفية العشاق المفترضين لزوجته فقط، كان قد قام أيضاً بإقصاء أصدقاء طفلة في العاشرة كان واقعاً في حبها بالفعل. لم أبعث بعد هذه الرسالة. لا أظن أني سأفعل في النهاية.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

هذا لا يهم كثيراً، الآن.

هيا، يجب أن أتحرك!

رميت مظروف الدكتور برجيه بقرف إلى القمامة. التحق بمطبوعات النشرات الدنيئة. رفعت عيني نحو برج الطاحونة.

ترددت.

تجد ساقاي مشقة في حملي. تلك النزهة الأخيرة في جزيرة القراص أنهكتني. أنا موزعة بين أن أعود مرة أخرى إلى القرية أو أن أعود مباشرة إلى بيتي. فكرت طويلاً، قبل قليل، وأنا أسير على ضفاف الأوب. كيف يمكن أن أنهي الأمر، الآن بعد أن انتظم كل شيء؟

لقد حسمت الأمر. تراجعت عن استعمال بندقية جاك، يا إلهي، أظن أنكم فهمتم لماذا، الآن. لن أتناول الدواء كي أحتضر خلال عدة ساعات، أيام، في مستشفى فيرنون مثل جاك، لكن من دون أحد كي يزيل التقطيرات. لا، الوسيلة الأكثر فعالية، كي أنهي بها أيامي، ستكون بأن أنهي هذا اليوم بهدوء، مثل باقي الأيام، أن أعود إلى الطاحونة، أن أصعد إلى غرفتي في أعلى البرج، في الطابق الرابع، أن أرتِّب أغراضي، ثم أفتح النافذة وأقفز.

قررت أن أنعطف نحو القرية. في النهاية، ستتحمل ساقاي كيلومتراً إضافياً، كيلومتراً أخيراً.

- تعال، نبتون!

لو أن أحداً، أحد المارة، أحد السياح، اهتم لأمري، لاعتقد أني أبتسم. لن يكون مخطئاً تماماً. تمضية هذه الأيام العشرة الأخيرة رفقة بول، رفقة لورنس، هدّأ غضبي.

سرت بمحاذاة طريق روي من جديد. بعد لحظات، وجدت

نفسي قرب بركة النيلوفر.

عند وفاة كلود مونيه، سنة 1926، أهملت الحديقة. سكن ميشيل مونيه، ابنه، في البيت الوردي في جيفرني على حدود زواجه، سنة 1931، مع عارضة الأزياء غابرييل بونافنتور، التي أنجب منها فتاة، هنرييت. عندما كنت في العاشرة، سنة 1937، كنت رفقة باقي أطفال القرية معتادين على التسلل إلى الحدائق عبر ثقب في الجدار ناحية المرج. أنا كنت أرسم، الأولاد كانوا يلعبون الاستغماية حول البركة. لم يكن في المكان سوى بستاني واحد ليهتم به، السيد بلين، وبلانش ابنة كلود مونيه. كانوا يسمحون لنا بالدخول، لم نكن نؤذي شيئاً. لم يكن السيد بلين يستطيع أن يرفض أي شيء للصغيرة فانيت، الجميلة جداً بعينيها البنفسجيتين وشرائطها الفضية في الشعر، والموهوبة جداً في الرسم!

توفيت بلانش مونيه سنة 1947. واصل الوريث الأخير، ميشيل مونيه، فتح الحدائق والبيت بشكل استثنائي من أجل رؤساء الدول الأجانب، والفنانين، والمناسبات الخاصة... ومن أجل تلاميذ مدرسة جيفرني! كنت قد نجحت في إقناعه. لم يكن الأمر شديد الصعوبة... كيف يمكن مقاومة الصغيرة فانيت التي أصبحت الجميلة ستيفاني، المدرِّسة ذات النظرة النيلوفر، المثقفة جداً في كل ما يخص الرسم، والتي تحاول، سنة بعد سنة، جعل أطفال القرية يهتمون بالانطباعية، وجعلهم يشتركون في مباراة مؤسسة روبنسون، بنشاط وصدق كأن حياتها مرتبطة بالعاطفة التي تمررها لتلاميذها؟ كان ميشيل مونيه يفتح الحدائق من أجل فصلي، مرة في السنة. عندما يكون المنتزه هو الأجمل.

استدرت. راقبت لحظة الحشود المجتمعة تحت كاتدرائية الزهور، عشرات الوجوه المكدسة في نوافذ بيت الرسام. نحن كنا لوحدنا في ذلك البيت، في يونيو 1963، أنا ولورنس... في الصالون، على السلالم، في الغرفة. أجمل ذكرياتي بلا شكّ. محاولة الهروب الوحيدة...

توفي ميشيل مونيه في حادثة سير، بعد ثلاث سنوات، في فيرنون. بعد قراءة وصيته، في بداية فبراير 1966، اندفعت نحو بيت جيفرني مجموعة مدهشة. دركيون، موثِّقون، صحافيون، فنانون... كنت هناك أنا أيضاً، مثل باقي سكان جيفرني. داخل البيت والمراسم، اكتشف كتّاب المحاضر بدهشة أكثر من مئة وعشرين لوحة، بما فيها ثمانون لكلود مونيه، كانت تضم لوحات «نيلوفر» لم تنشر، وأربعون لوحة لأصدقائه، سيزلي، ومانَي، ورينوار، وبودان... هل تدركون ذلك؟ كان الأمر يتعلق هنا بكنز مدهش، ثروة لا تقدَّر، تقريباً منسية منذ وفاة كلود مونيه. أخيراً، منسية... كان الكثير من سكان جيفرني يعرفون، قبل سنة 1966، قيمة الأعمال العظيمة الموضوعة في البيت الوردي، المهمَلة هناك خلال أربعين سنة من طرف ميشيل مونيه. رآها كل الذين سنحت لهم الفرصة لدخول البيت. أنا أيضاً، بطبيعة الحال... منذ 1966، يمكن الاستمتاع برؤية هذه اللوحات في المارموتان، في باريس. هي أكبر مجموعة لمونيه معروضة في العالم...

من جهتي، بعد سنة 1966، لم أصطحب الأطفال أبداً إلى حديقة مونيه. لم تُفتح للجمهور سوى بعد وقت متأخر، سنة 1980. كان من الطبيعي، بعد كل شيء، أن يُقتسم كنز من هذا الشكل بين أكبر عدد من الناس، أن يُمنح جمال المكان الأخّاذ لكل روح تستطيع أن تستوعبها.

ليس فقط لروح طفلة صغيرة بُهِرت بتألقه حتى أحرقت فيه أحلامها.

انعطفت ناحية اليمين، صعدت نحو البلدة عبر شارع شاتو-دو.
بيت طفولتي لم يعد موجوداً.
بعد وفاة والدتي، سنة 1975، أصبح في حالة مزرية. تمّت إزالته. اشترى بعض الجيران، باريسيون، الأرض وشيَّدوا سوراً من الحجارة البيضاء بارتفاع أكثر من مترين. في مكان بيتي، يوجد بلا شك مشتل زهور، أرجوحة، بركة... في الواقع لا أعرف شيئاً. لن أعرف شيئاً أبداً. يجب أن نتمكن من الرؤية من فوق الجدار.

وصلت أخيراً إلى نهاية شارع شاتو-دو. الأصعب تمَّ فعله! أنا التي كنت أجري أسرع من نبتون في هذا الشارع عندما كان عمري إحدى عشرة سنة! الآن، المسكين، هو الذي يقضي وقته في انتظاري. انعطفت في شارع كلود مونيه. الطريق السريع الخاص بالسياح!
لا أحس حتى برغبة في التذمر من الجموع. جيفرني ستعيش من بعدي، مختلفة، خالدة، عندما ستختفي كل أطياف زمن آخر: أمادو كاندي، معرضه الفني وإتجاره بالفن؛ باتريسيا مورفال، أنا...

أسير. لا أقاوم الرغبة في أن أعرج عشرين متراً كي أمر أمام المدرسة. ساحة البلدية لم تتغير منذ كل تلك السنوات، لا أحجارها البيضاء ولا ظلال أشجار الزيزفون. سوى أن المدرسة قد أعيد تشييدها، في بداية الثمانينيات، ثلاث سنوات قبل تقاعدي! مدرسة حديثة فظيعة، وردية وبيضاء. لون خطمي في جيفرني. عار! لكن

منذ زمن بعيد لم تعد عندي القوة لأناضل ضدّ البشاعة... الحضانة التي تمَّ فتحها بشكل أسوأ من البناء الجاهز، مباشرة قبالتها. أخيراً، كل هذه الأشياء لم تعد تهمني... الآن، كل يوم، يمر الأطفال أمامي دون أن يلقوا إلي نظرة، ويجب أن أنهر نبتون كي يدعهم وشأنهم. لا يوجد سوى الرسامين الأميركيين العجزة كي يسألوني عن شيء.

أهبط شارع بلانش-هوشيدي-مونيه مرة أخرى. منزلي الوظيفي، مباشرة فوق المدرسة، أصبح متجراً للآثار. غرفتي ذات السقف المائل، بنافذتها المستديرة أصبحت متحفاً مبتذلاً من أجل أبناء المدن الباحثين عن الأشياء الريفية المفترض أنها أصلية. مستعملين الشيكات. لا أحد أبداً، من تلك الكوة المستديرة، سيراقب البدر التمام عند الحضيض. يا إلهي، كم سنة، كم ليلة أمضيت أمام تلك النافذة... منذ طفولتي. أمس فقط...

أمام بائع التحف، مجموعة من الشباب تتحدث اليابانية، أو الكورية، أو الجاوية. لم أعد أفهم شيئاً من شيء. أنا ديناصور في حديقة حيوان. واصلت صعود شارع كلود مونيه. وحده فندق بودي لم يتغير. الديكور على نسق لا بيل إبوك (الحقبة الجميلة)، في الشرفة، في الواجهة، في الداخل، تمَّ العناية به بدقة من طرف المالكين المتتالين. بإمكان تيودور روبنسون أن يعود غداً إلى فندق بودي، فقد توقف فيه الزمن منذ قرن.

71 شارع كلود مونيه.

جيروم وباتريسيا مورفال.

مررت بسرعة أمام البيت. دخلته منذ أربعة أيام. كان يجب أن أتحدث مع باتريسيا. معي، هي آخر معمِّرة من جيفرني زمان. لم أحب أبداً ماري بشكل كبير، تفهمون ذلك الآن. أظن أنه بالنسبة إلي

ستبقى دائماً ماري المتباكية. ماري ناقلة الأخبار.

شيء مضحك، أوافقكم. لقد عانت كثيراً. على الأقل بدرجتي نفسها. انتهى بها الأمر إلى الاستسلام لكاميل الغليظ، ثم الزواج به. وعبر لعبة أوان متصلة قاسية، كلما أصبح كاميل الغليظ جيروم مورفال، الطالب اللامع في الطب، كلما حاول جيروم مورفال إغراء نساء أخريات، زادت تعلقاً به. توقفت الحياة في ذلك البيت، في الرقم 71 شارع كلود مونيه، سنة 1963. في الماضي، كان أجمل بيت في القرية. أما اليوم فإنه خرابة. تنتظر البلدية بنفاد صبر وفاة الأرملة مورفال كي تتخلص من هذا الثؤلول.

كان من حق باتريسيا أن تعرف. كان من حق باتريسيا أن تعرف اسم قاتل زوجها. كنت مدينة لها بذلك... ناقلة الأخبار الصغيرة تلك أدهشتني في النهاية. كنت أنتظر أن أرى رجال الشرطة يصلون إلى طاحونتي بدءاً من اليوم الموالي. لم تتردد، سنة 1963، في أن ترسل إلى مفوضية فيرنون صوراً مجهولة لعشيقات مورفال المفترضات. أنا، ضمن أخريات.

بشكل غريب، هذه المرة، لم يجرِ الأمر على ذلك النحو. يجب أن نصدق أن الحياة تغيرُنا... علمت أنها لم تعد تخرج من بيتها، منذ أن جعلها أحد أبناء إخوتها تكتشف الإنترنت. هي التي لم تفتح حاسوباً قبل عمر السبعين! ليس من أجل هذا أشعر برغبة في تناول الشاي معها، كي نتشارك كرهنا لوحش. قبل القفزة الكبيرة.

أُسرع الخطى، أخيراً، بالنسبة إلى ما يخصني، التعبير ليس منتقى بشكل جيد. نبتون يعدو ببطء ثلاثين متراً أمامي. شارع كلود مونيه يرتفع بلطف، مثل طريق طويل يصعد نحو السماء. Stairway to heaven، كان يُعزف الغيتار منذ جيلين...

وصلت أخيراً إلى الكنيسة. تمثال كلود مونيه العملاق يحدق في، من فوق أمتاره الخمسة عشر. يتم إصلاح كنيسة سانت-رادوغوند. الأشغال والرافعات يغطيها إعلان كبير: صورة الفنان، بالأبيض والأسود، بلوحة صباغة في يده. لا أملك الشجاعة كي أصعد إلى المقبرة، مع أن كل الذين التقيت بهم في حياتي، كل الذين كان لهم وزن مدفونون هنا. بشكل غريب، تقريباً في كل عملية دفن كانت السماء تمطر، كما لو أنه لم يكن من غير اللائق أن تشع أضواء جيفرني في يوم دفن. كانت تمطر سنة 1937، اليوم الذي تمَّ فيه دفن بول، ألبرت روزالبا. كنت منهارة. كانت أيضاً تمطر، سنة 1963، عندما تمَّ دفن جيروم مورفال. كل القرية كانت حاضرة، بمن فيهم أسقف إيفرو، وحتى لورنس. عدة مئات من الأشخاص! قدر غريب. منذ أسبوع، كنت وحدي في دفن جاك.

أسكنت ذكرياتي المقبرة. ذكرياتي الممطرة.

- تعال، نبتون!

إلى الطريق من أجل آخر مرحلة. أهبط شارع لا ديم مباشرة نحو طريق روي. ينفتح مباشرة قبالة الطاحونة. أنتظر طويلاً قبل أن أجتاز: تدفُّق السيارات التي تغادر جيفرني عبر الطريق الجهوية تقريباً متواصل. ينتظر نبتون بصبر بالقرب مني. سيارة مكشوفة حمراء بلوحة تسجيل معقدة، مقودها ناحية اليسار، تركتني أمر.

اجتزت الجسر. رغماً عني، توقفت فوق الجدول: تفحّصت لآخر مرة القرميد والطوب الوردي للمغسل، صباغة الجسر في الأخضر المعدني، جدران باحة الطاحونة، على يميني، من حيث يتم تخطي الطابق الأعلى في البرج وقمة شجرة الكرز. المغسل موسوم

منذ أسابيع بوجوه مقطبة سوداء وبيضاء. لا أحد أبداً نظَّف الطوب. ربما عن إهمال، ربما لا... بعد كل شيء، إن كان يوجد مكان لا يهتم بأن يُنظف متشبهاً بمظهر تمرد الفنانين المجهولين، فهو جيفرني. ألا تعتقدون ذلك؟

يسيل خيط الماء الصافي للغدير، كأنه يسخر من حركة الناس على الضفتين. هؤلاء الرهبان الذين حفروا قديماً هذه القناة بالأيدي، ذلك الرسام المستنير الذي غَيّر مجرى النهر كي ينشئ بركة والذي حبس نفسه ثلاثين سنة كي يرسم زهور نينوفر، ذلك الأحمق الذي قتل هنا كل الرجال الذين اقتربوا مني، كل الرجال الذين كنت سأحبهم.

من يمكن أن تهمه هذه الأشياء اليوم؟ لمن أشتكي؟ هل يوجد مكتب للحيوات الضائعة؟

تقدمت بضعة أمتار أخرى. شملت نظرتي المرج، بلا شك لآخر مرة. الموقف فارغ تقريباً.

لا، في النهاية، المرج ليس مشهد سوق كبير في شيء. لا، بطبيعة الحال. هو مشهد حي، يتغير. بحسب الفصول، بحسب الساعات، بحسب الضوء. صاعق، أيضاً. هل كان يجب أن أكون متأكدة من ساعة وفاتي، متأكدة أيضاً من أني أتأملها لآخر مرة، كي أفهم أخيراً؟ كي أتحسر كثيراً في النهاية. كلود مونيه، تيودور روبنسون، جيمس، لم يتوقفوا هنا صدفة... بطبيعة الحال. كونه مكان ذكرى لا ينقص شيئاً من جمال المشهد.

على العكس طبعاً.

- أليس كذلك، نبتون؟

حرَّك نبتون ذيله، كأنه يستمع إلى هذياني الأخير. في الواقع،

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

هو فهم المرحلة المقبلة بالفعل، تعوَّد مع الوقت. هو يعرف أنه نادراً ما دخلتُ إلى باحة الطاحونة دون أن أقوم بجولة في الفرجة الصغيرة في الخلف. شجرة صفصاف، شجرتي تنوب. الفرجة اليوم محمية من السياح بسياج. لا يمكن رؤيتها من الطريق. تقدمت.

سبقني نبتون مرة أخرى. هو ينتظرني، مضطجعاً في العشب، كأنه يعي ما يعنيه هذا المكان. وصلت أخيراً، غرست عصاي في الأرض الهشة وبقيت متكئة عليها. نظرت أمامي إلى أكوام التراب الخمسة التي تعلوها خمسة صلبان.

أتذكر. كيف يمكن أن أنسى؟ كنت في الثانية عشر. كنت أضم نبتون بكل قواي، كان قد مات بين ذراعي. سنة بعد غرق بول. مات بسبب الشيخوخة، قالت لي أمي.

«هو لم يتألم، ستيفاني. هو فقط نام، مثل كلب عجوز...

بقيت رافضة العزاء. يستحيل أن أفترق عن كلبي.

«-سنذهب لنأخذ كلباً آخر، ستيفاني. جرو صغير.. من الغد...

- نفسه! أريد الكلب نفسه...

- طيب، ستيفاني. نفسه. سنذهب إلى الضيعة إلى أوتوي... ماذا... ماذا ستطلقين عليه، هذا الجرو الصغير؟

- نبتون!».

امتلكتُ ستة كلاب في حياتي. كلهم من فصيلة الراعي الألماني. سميتهم كلهم نبتون، وفاءً لنزوة فتاة صغيرة وحيدة وتعيسة، تمنت كثيراً لو أن كلبها كان خالداً، لو كان هو، على الأقل، لا يموت أبداً!

رفعت عيني من جديد. أدرت رأسي ببطء، من اليمين إلى الشمال. تحت كل صليب، على لوحة صغيرة، نقش الاسم نفسه.

نبتون.

وحدها تتغير التواريخ تحت الاسم.

1922-1938
1938-1955
1955-1963
1963-1980
1980-1999

نهض نبتون، جاء يحتك بي، كأنه فهم أنه لأول مرة أنا التي ستغادر، وليس هو. سيعود نبتون إلى الضيعة في أوتوي. هي ضيعة تهتم بتربية الكلاب منذ أجيال، لا بدَّ أن أمه لا تزال تعيش هناك. سيكون بخير هناك. سأترك رسالة بتعليمات محددة من أجل وجباته، كي يتركوا الأطفال يلعبون معه، كي يتم دفنه في هذا المكان عندما ستحين ساعته.

داعبته. لم يلتصق بي أبداً من قبل بهذا القدر. أحس برغبة في البكاء. يجب أن أسرع. إن أبطأت قد تخونني الشجاعة.

تركت عصاي هناك، مغروسة قرب الروابي الخمس. لن أحتاجها بعد اليوم. مشيت إلى الفناء. لا يفارقني نبتون قيد أنملة. هذه الحاسة السادسة عند الحيوان! عادة، كان نبتون سيكون قد ذهب للنوم تحت شجرة الكرز. هذه المرة، لا. هو لا يفارقني. سينتهي به الأمر ليسقطني. لحظة، أندم لأني تركت عصاي.

- بلطف، نبتون، بلطف.

يبتعد نبتون قليلاً. منذ مدة طويلة لم تعد هنا أشرطة فضة في أوراق شجرة الكرز. تلتهمه الطيور بفرح... داعبت نبتون مرة أخرى،

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

مطولاً. رفعت عيني نحو برج مولان دو شونوفيير.

اشترى جاك الطاحونة سنة 1971. وفى بوعده. صدقته، يا إلهي، صدقته حينئذٍ. اشتراها من أجلي، بيت أحلامي، هذه الطاحونة المعوجة التي كانت تجذبني عندما كان عمري إحدى عشرة سنة. مع وصول الباريسيين إلى المنطقة، أصبحت وكالته التجارية مدرّة. كان يترقّب. انتظر اللحظة المناسبة، كانت الطاحونة غير مأهولة منذ مدة طويلة لكن المالكين قرروا مؤخراً فقط بيعها. كان الأول الذي تقدم. جدد كل شيء، خلال سنوات. العجلة، البئر، البرج.

كان يعتقد أنه يسعدني. كان ذلك ساخراً... كأن السجانين يستمتعون بتزيين جدران السجن. لم يكن لمولان دو شونوفيير أية علاقة بالبيت العتيق المتهدم الذي كان يسحرني، «طاحونة الساحرة»، كما كنا نطلق عليه حينئذٍ. أحجار مغسولة. خشب مطلي. أشجار مقلمة. شرفة مزهرة. باحة ممشطة. باب مزيت. سياج مرفوع.

كان جاك مهووساً. جد مهووس.

كيف كان يمكن أن أتخيل؟

رفضت دوماً أن يقطع شجرة الكرز! لم يفعل ذلك. كان يستجيب لكل نزواتي. أجل، أجل، كنت أظن ذلك حقاً.

ثم دارت عجلة الأعمال في الوكالة. أصبح من الصعب أن نسدِّد. بدأنا بتأجير جزء الطاحونة، ثم بعناها لزوجين من القرية. لم نحتفظ سوى بالبرج. منذ عدة سنوات، قاموا بتحويل مولان دو شونوفيير إلى مأوى. هذا يعمل بشكل جيد على ما يبدو. أظن أنهما لا ينتظران سوى شيء واحد، أن أختفي كي يحصلا على بعض الغرف الإضافية. توجد الآن أرجوحات في الباحة، موقد شواء كبير، مظلات وصالونات الحدائق. هما حتى يتحدثان عن تحويل الحقل خلف الطاحونة إلى

منتزه حيواني، بدءاً بوضع حيوانات لاما، وكنغر، ونعامات، أو إيمو، لا أعرف.

تتخيلون؟

حيوانات مجلوبة لإمتاع الأطفال... لا يمكن أن يفوّتها المرء، عندما يصل إلى جيفرني آتياً من فيرنون عبر طريق روي.

عندما نفكر أن هذا المكان كان، خلال عقود، هو طاحونة الساحرة...

لم يتبقَّ سوى الساحرة.

أنا.

ليس لوقت طويل، اطمئنوا. ستستغل الساحرة يوم اكتمال القمر لتختفي... لن يجدوها سوى في الصباح، مهشمة عند جذع شجرة الكرز. الشخص الذي سيجدها سيرفع عينيه ويقول لنفسه إنها بلا شك سقطت من مكنستها. طبيعي. إنها ساحرة عجوز.

ضممت زغب نبتون مرة أخيرة في يدي، بقوة، بقوة، ثم أغلقت باب البرج خلفي. صعدت الدرج بسرعة قبل أن أسمعه يئن.

- اليوم الرابع عشر -

26 مايو 2010
(طاحونة شونوفيير)
شرائط الفضة

- 84 -

فتحت النافذة. تجاوزت الساعة منتصف الليل بقليل. فكرت أنه من الأسهل أن أقفز عندما يحل الليل. رتبت كل شيء في الغرفة مثل عجوز مهووسة، كما لو أن أسوأ هواجس جاك قد أثرت فيّ، في النهاية، مع الوقت. تركت على المائدة رسالة كي يُعتنى بنبتون بشكل جيد. لم أمتلك الشجاعة كي أزيل لوحة «النيلوفر» الأسود خاصتي من مكانها.

أنا لا أتوهم، ستأتي بعض النسور من أصحاب محلات التحف من وادي الأور لتتزود. أثاث، أوانٍ مطبخية، تماثيل. ربما عادت بعض القطع عند بائع التحف في شارع بلانش-هوشديه-مونيه، في بيتي القديم التابع للعمل، فوق المدرسة... لكن ذلك يدهشني، أن يُتعِبوا أنفسهم من أجل الاهتمام بهذه «النيلوفر»، اللوحة البشعة المخضبة بالسواد. من يمكنه أن يتخيل أن حياة أخرى مليئة بالضوء تختفي تحتها؟

إلى القمامة، القشرة!

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إلى الحفرة، بجانب زوجها اللطيف، العجوز التي انحنت انحناءة كبيرة من النافذة.

العجوز الشريرة التي لم تكن تحدِّث أحداً، والتي لم تكن تبتسم أبداً، والتي بالكاد كانت تقول صباح الخير. من يستطيع أن يتخيل أنه تحت هذه البشرة المجعدة تختفي فتاة صغيرة كانت تملك موهبة، بل ربما حتى عبقرية...

لا أحد، أبداً، سيعرف ذلك.

فانيت وستيفاني توفيتا، منذ زمن بعيد... قُتلتا بيد ملاك حارس مفرط الحماس.

تأملت فناء الطاحونة من النافذة. الحصى الرمادي مضاء بالهالوجين أمام الشرفة الأمامية. لم أعد خائفة، أنا فقط أحس ببعض الأسى. كانت تحب الحياة بشكل كبير، الصغيرة فانيت.

لا أعتقد أنها كانت تستحق أن تموت وهي تشعر بكل تلك المرارة.

- 85 -

توقفت البيكاسو سيتروين تقريباً تحت نافذتي. هي سيارة أجرة. أنا معتادة على هذا الأمر، تنزل سيارات الأجرة في الغالب السياح في المأوى، في وقت متأخر من المساء. يصلون عبر آخر قطار من باريس إلى محطة فيرنون، الصندوق مليء جداً بالأمتعة.

يقترب نبتون، بطبيعة الحال. في الغالب، تنفتح الأبواب الخلفية

للسيارة على سحابة من الأطفال المتحمسين بسبب الرحلة. يعشق نبتون استقبالهم!

ليس له حظ هذه المرة، لا يوجد ولا طفل في السيارة.

فقط رجل، رجل مسن.

لا متاع أيضاً...

غريب...

تسمّر نبتون أمامه. انحنى الرجل العجوز. داعب كلبي مطولاً، كأنه يستعيد صديقاً قديماً...

يا إلهي!

هل هذا ممكن؟

انفجر كل شيء، قلبي، عيني، رأسي.

هل هذا ممكن؟

انحنيت أكثر. هذه المرة، ليس لأسقط. آه لا! اعترتني هبّة حرارة مروعة. رأيت نفسي في نافذة منزل آخر، بيت وردي، بيت مونيه. حدث ذلك في حياة أخرى؛ كان رجل يقف بالقرب مني، رجل شديد الجاذبية. قلت له كلمات غريبة في تلك الحقبة، كلمات كما لم أتخيل أبداً أنها ستخرج من فمي.

كلمات مثل قصيدة لأراغون... قطعة حفظت إلى الأبد...

«أنا فقط وقعت في حب دراجتك النارية تايجر تريومف!».

ضحكت وأضفت:

«وربما أيضاً بسبب الطريقة التي تتوقف بها لتداعب نبتون...».

انحنيت أكثر على حافة النافذة. صعد الصوت على طول البرج. لم يتغير، قليلاً جداً، خلال حوالي خمسين عاماً:

- نبتون... عزيزي، لو كنت أظن أني سأجدك هنا، بعد كل هذا الوقت... حيّاً!

دخلت إلى الغرفة، التصقت بالحائط. قلبي يخفق بسرعة. حاولت أن أمنطق، أن أفكر.

وداعاً، إلى الأبد.

لم أرَ لورنس سيريناك مرة ثانية أبداً. كان المفتش لورنس سيريناك شرطياً جيداً. بضعة أشهر بعد القضية مورفال، أواخر سنة 1963، علمت عن طريق سيلفيو بينافيدس أن لورنس قد طلب الالتحاق بالكيبيك. كأنه يهرب إلى الطرف الآخر من العالم. يهرب مني، كنت أظن. يهرب من جنون جاك القاتل، في الواقع. هناك في كندا على مر السنين أخذ الجميع عادة مناداته بكنيته، لورانتان. في الكيبيك، هكذا يطلقون على سكان وادي سانت لوران، من مونتريال إلى أوتاوا. لا بدَّ أن ذلك كان مغرياً جداً لزملائه تحويل الاسم الأول الأوكستان لورنس إلى لورانتان الخاص بالكيبيك. كنت قد علمت من خلال الصحافة أنه استعاد منصبه كمفوض في فيرنون، خلال حادثة سرقة لوحات مونيه في متحف المارموتان، سنة 1985. في تلك الفترة، ظهرت بعض صوره في الصحافة الوطنية. كيف يمكن ألا أعرفه؟ لورنس سيريناك الذي أصبح بالنسبة إلى الجميع المفوض لورانتان. أخبرني أمادو كاندي أنهم لم يزيلوا أبداً اللوحات في مكتبه، في مفوضية فيرنون، عشرين سنة بعد تقاعده، **المهرج** لسيزان، **والمرأة الصهباء** لتولوز لوتريك...

كنت أرتعش مثل ورقة. لم أجرؤ على التقدم مرة أخرى نحو النافذة...

ماذا يفعل لورنس هنا؟

غير معقول...

يجب أن أرتِّب أفكاري. أدور حول نفسي في الغرفة.

ماذا يفعل لورنس هنا؟

هذا لا يمكن أن يكون صدفة... تقدمت نحو المرآة، دون أن تطلب قدماي مني الإذن...

أسمع طرقاً على الباب، في الأسفل!

أصبت بحالة ذعر مثل مراهقة فاجأها حبيبها في بيتها وهي خارجة من الحمَّام... يا إلهي، لا بدَّ أني سخيفة... لمجرد لحظة، فكرت في باتريسيا مورفال، ماري الصغيرة، ناقلة الأخبار، أرملة جيروم مورفال، منهارة بين ذراعي منذ أسبوع... الحياة تغيِّر الناس إلى الأحسن، أحياناً. هل تكون هي التي اتصلت بلورنس؟ هي التي وضعته على طريق الحقيقة، الحقيقة الشنيعة؟ لا وقت لدي لأحاول أن أفهم.

يطرق الباب في الأسفل.

يا إلهي...

أنظر في المرآة إلى الوجه البارد المجعد، شعري الذي يلتهمه منديل أسود لم يعد يغادرني، وجه المرأة السليطة سيئة الطبع.

يستحيل، يستحيل تخيُّل أني سأفتح.

سمعت صوت باب البرج. أحد يدفعه. لم أكن قد أغلقته خلفي.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كي أسهّل عمل من سيجمع جثتي...

يا لي من حمقاء!

الصوت في السلَّم الحلزوني:

- ستبقى هنا، عزيزي نبتون، لا أظن أنك تتوفر على إذن بالصعود.

يا إلهي. يا إلهي.

نزعت المنديل الأسود. سقط شعري مثل الشلال على كتفي. جريت تقريباً، هذه المرة، أنا التي أعطي الأمر لساقَي. ومن مصلحتهما أن يطيعا، هذان العكازان العجوزان!

فتحت الدرج الثاني من البوفيه، شتتت الأزرار القديمة، بكرات الخيط، كشتباناً، إبراً. لا أهتم إن شككت.

أعرف أنها هنا!

انطوت يداي المرتعشتان على شريطين من الفضة. أمام عيني تمر صور مسرعة. أرى بول تحت شجرة الكرز في فناء الطاحونة، ينزع شريطي الفضة، يمنحهما لي وهو يطلق علي أميرتي؛ أرى نفسي أقَبّله، لأول مرة، أعده بأني سأضعها طوال حياتي؛ أرى لورنس، سنوات بعد ذلك، يداعب الشريطين في شعري وأنا امرأة شابة.

يا إلهي، يجب أن أركز.

جريت مرة أخرى إلى المرآة. أجل، أقسم لكم، جريت. بعصبية، ربطت في تسريحة مرتجلة شريطي الفضة في شعري.

ضحكت بعصبية.

تسريحة أميرة، أجل، هذا ما كان يقوله بول، تسريحة أميرة...

يا لي من حمقاء!

اقتربت الخطوات.

أسمع الطرق من جديد على باب غرفتي هذه المرة.

لا يزال الوقت باكراً! لا أستدير، ليس بعد.

طرق جديد. بلطف.

- ستيفاني؟

تعرفت إلى صوت لورنس. هو نفسه تقريباً. شيئاً ما جهوري أكثر مما هو في ذاكرتي، ربما. حدث ذلك أمس، أراد أن يأخذني معه. يا إلهي، جسدي يرتعش. هل هذا ممكن؟ هل هذا لا يزال ممكناً؟

قربت وجهي من المرآة المذهّبة.

هل ما زلت أعرف أن أبتسم؟ كان ذلك منذ زمن بعيد...

أحاول.

أعبر المرآة.

ليست امرأة عجوزاً هي التي أراها في المرآة.

إنها ابتسامة فانيت السعيدة.

إنهما عينا ستيفاني النيلوفر.

متقدتان، تنبضان بالحياة.

مكتبة الرمحي أحمد

ميشيل بوسي

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

نيلوفر أسود

«ثلاث نساء كنّ يعشن في إحدى القُرى.
كانت الأولى شرّيرة، والثانية كذّابة، والثالثة أنانية.
أعمارهن كانت متفاوتة. متفاوتة تماماً. كانت الأولى قد تخطت الثمانين وكانت أرملة. أو تقريباً. الثانية كانت في السادسة والثلاثين ولم تكن قد خانت زوجها أبداً. إلى حدِّ اللحظة. الثالثة كانت ستبلغ الحادية عشرة قريباً وكل فتيان مدرستها يطمعون أن تكون حبيبتهم.
لا بدَّ أنكم فهمتم. هنّ الثلاث كنّ مختلفات. ومع ذلك كنّ يتقاسمن نقطة مشتركة، سراً، نوعاً ما: هنّ الثلاث كنّ يحلمن بالمغادرة. أجل، مغادرة جيفرني، تلك القرية الشهيرة التي يثير اسمها الرغبة لدى كثير من الناس في اجتياز العالم بأكمله فقط من أجل التنزه فيها بضع ساعات.
شيء غريب، الرغبة في مغادرة جيفرني. ألا تعتقدون ذلك؟

ثلاث نساء كنّ يعشن في إحدى القُرى.
الثالثة كانت الأكثر موهبةً، الثانية كانت الأكثر مكراً، الأولى كانت الأكثر تصميماً.
في رأيكم، من منهن استطاعت أن تفلت؟
الثالثة، الأصغر سناً، كان اسمها فانيت موريل؛ الثانية كان اسمها ستيفاني دوبان؛ الأولى، الأكبر سناً، هي أنا».

❖ ❖ ❖

«**نيلوفر أسود** لميشيل بوسي، هي تحفة صغيرة».

قناة LCI الإخبارية

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

ISBN 978-9953-68-859-6
9 789953 688596

© Marion Tigréat :تصميم الغلاف